الطبعة الثانية

رواية

ريم بسيوني

سبيل الغارق

الطريق والبحر

دار نهضة مصر

ريم بسيوني

سبيل الغارق

الطريق والبحر

سبيل الغارق
الطريق والبحر

تأليف:

ريم بسيوني

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

813.0962
ب.س.ر

بسيوني، ريم، 1973 - مؤلف.

سبيل الغارق : الطريق والبحر : رواية / تأليف ريم بسيوني ؛ إشراف داليا محمد إبراهيم. ط. 2.- الجيزة : دار نهضة مصر للنشر، سبتمبر 2020

453 ؛ أ - جـ. ص. ؛ صور ؛ 13.7 × 19.5 سم.

يشتمل الكتاب على صور ص. أ ؛ جـ

يشتمل الكتاب على مجموعة من الحكم والمواعظ في بداية كل قصة.

توجد وسيلة للتواصل مع المؤلفة فى نهاية الكتاب.

تدمك : 3-5888-14-977-978

1. العنوان. 2. إبراهيم، داليا محمد (مشرف). 3. أ. القصص العربية - مصر - قرن 21 . ب. قنصوه الغوري، سلطان مصر وسوريا 1441 - 1516 هجري. جـ- مصر-تاريخ- العصر المملوكي، 1250 - 1517 قصص. د. المماليك - تاريخ. هـ. مصر - سياسة وحكومة - العصر المملوكي، 1250 - 1517 . و. مصر - أحوال اجتماعية - العصر المملوكي، 1250 - 1517 . ز. مصر - آثار إسلامية - العصر المملوكي، 1250 - 1517.ح. المماليك. ط. رأس الرجاء الصالح (جنوب إفريقيا) - تاريخ. ى. قلعة قايتباي (مصر). ك. مصر - تاريخ - الاحتلال البريطاني، 1882 - 1936. ل. قصص تاريخية. م. الحصون والقلاع - مصر - الإسكندرية - العصر المملوكي، 1250 - 1517. ن. تعليم النساء. س. الرحالة البرتغاليون. ع. عبر ومواعظ.

الترقيم الدولي: 3-5888-14-977-978
رقم الإيداع: 13196 / 2020
الطبعة الثانية: سبتمبر 2020

تليفون : 33466434 - 33472864 02
فاكس : 33462576 02
خدمة العملاء : 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

سبيل الغارق

الطريق والبحر

إهـــــداء

« يبعث الله لنا أناسًا في الطريق ليضيئوا المسلك، ويرشدوا الضال».

كنتَ لي دومًا، الطارق، النجم الثاقب.

أفتقـدك، ولكنـك بـاقٍ حولي ومعـي، تضيء الطريـق، حتى ولـو كنت نجمًا بعيـدًا. علمتني أكثر مما تعلمت مني لو تـدرك، ونضجت أنا برفقتك وأنت طفل ثم رجل.

حكيتُ لك عن الرواية لو تتذكر، وأتمنى أن تعجبك.

ولو خشيتَ الغرق فأنت غارق لا محالة

ولو وثقت من قلوعك فأنت غارق لا محالة

ولو سبحت سبع بحور لن تصل..

أَبحر إلى البحر الذي تجهله تصل

فلا عبور إلى النجاة في السُّبل التي نألفها..

بداية الحكاية

يُحكى أن الشاطر حسن لما أحب ابنة السلطان، وعرف بمرضها، حار واحتار، ومكث مهمومًا لا يدري كيف يفوز بها، ولا كيف يساعدها على الشفاء. وفي لحظة يأس وعد السلطان كل الحضور أن مَنْ يشفي ابنته فسيتزوجها. شاء القدر الذي ظن الشاطر حسن حينها أنه قدر جميل، أن يسترق السمع، فيسمع حديث يمامتين. قالت إحداهما للأخرى: لو أكلت الأميرة، ست الحسن والجمال، قونصتي وكبدك لنجت.

لم يفكر حسن، وقد غلب عليه عشقه وطمعه في الفوز، فذبح اليمامتين، وهرول إلى السلطان بكبد إحداهما وقونصة الأخرى. أكلتهما الأميرة وشفيت، وتزوجها الشاطر حسن.

وبعد أعوام عادت اليمامتان تطاردانه في أحلامه، ولم ينفع دواء في تهدئة نفسه. ظهرت له إحداهما، التي سمعها من قبل، وطلبت منه في الحلم أن يقابلها

عند النهر. وعند النهر ذهب حسن مهمومًا، يريد أن يلقي بحزنه ويأسه على عاتق اليمامة.

تجلت له في صورة شيخ حكيم، قال: يمكنني أن أظهر لك على صورتي الحقيقية؛ يمامة صغيرة، ولكنك ستستخف بي، ولن تسمع وتدرك. جئت في الصورة المألوفة التي لن تفزعك.

قال وهو يرتجف: ماذا تبغي؟

- قتلت اليمامتين غدرًا ، بعد أن سمعت حديثهما تلصصًا.

- كنت عاشقًا .

- كنت طامعًا .

- حدث وكان. وانتهى الأمر.

- بل بدأت مأساتك، وتجلت همومك. اخترت الطريق السهل، وظننت أنك فزت. ولو فكرت قليلًا وجازفت أكثر لنجوت بنفسك، ولكن الطمع أعمى قلبك. لو كنت تكلمت معنا كنا سنرشدك إلى طريق الفوز. غرقت؛ لأنك اخترت الطريق الآمن، ولم تجازف، ولم تصبر.

- سأفعل أي شيء لأكفر عن ذنبي.

- لك شرف المحاولة. ولكن الهزيمة مكتوبة عليك.

- ماذا فعلت لأستحقها؟

تجاهلـه الشـيخ، ثم قال: عندما تتذكر ربما تـدرك، وعندما تدرك ربما تتعلم، وعندما تتعلم ربما تجد السبيل. ولو لم تتذكر، فستسعى في دنياك غافلًا سعيدًا ، ثم تدرك بعدها مدى هزيمتك ومصيبتك.

- وهل لو أدركت سأنجو؟

- لو أدركت فسيمتد حزنك إلى بحر الصين.

- أين النجاة؟

- لو أخبرتك بمكانها فأين العقاب؟

- لا يمكن أن تعاقبني بقية عمري..

- وأعطيك عمرًا فوقه لتتعلم..

- ولو لم أتعلم؟

- سـأمحو ذاكرتك ثم أعيدها، فتخترق انتصاراتك رأسك كصاعقة السماء، فتتذكر. وفي ذكرى النصر الفائت بعد الهزيمة الواقعة أكبر انتقام.

- هذا حقد لم أر مثله.

- أعطيك فوق عمرك مائة عمر. ستموت وتحيا عمرًا وعمرين..

- لا قسوة تضاهي قسوتك.

- وأذكرك بانتصارات متتالية...

- لن أستسلم لك..

- ثم أمحو ذاكرتك..وأذكرك من جديد..ستدرك وتعجز..ثم تتعلم..

- أين السبيل إلى النجاة؟

- سأتركك لك البحث عنه.

- ربما لا أمل في وجوده.

- هو موجود، ولكنني لن أشير إليك بمكانه.

- هل ستتركني أغرق؟

- في غرقك نجاتك.

- ما معنى هذا؟

- وفي الشرح هلاكي...

تلاشى الشيخ من أمام الشاطر حسن.

وبمرور الوقت فهم الشاطر حسن حجم مصيبته، ووطأة اللعنة التي أصيب بها. قبل أن يقابل اليمامة، كان ينتصر على مدار سنين تتعدى الألف، ثم تجلت له اليمامة لتنبئه أن أيام الفوز قد ولّت، وأن الهزيمة قد كتبت عليه من اليوم. سيظهر في أيام الهزيمة ليشعر بوطأتها، وأحيانًا سيظهر وهو يحمل كل ماضيه الممتلئ بالفوز، ثم ينهزم أمام اليمامة وأمام ماضيه، وفي أيام أخرى سيفقد الذاكرة تمامًا، ولا يعرف شيئًا عن تاريخه، وعند الهزيمة تعود ذاكرته، فيتضاعف وقع الهزيمة حينها، وتهوي النفس إلى الأعماق. سيموت وتحلق روحه في السماء، وتسكن غيره، سيولد من جديد في زمن الوهن. وكلما حاول أن ينتصر وجاهد واجتهد زادت أيامه عتمة. هناك سبيل للنصر، ولكنه لم يصل إليه. حاول بعدها الشاطر حسن أن يتخلص من نفسه المحملة بالأسى ولم يستطع. فلا سبيل للغرق.

سيموت ويحيا ولكنه أبدًا لن يموت غرقًا؛ لأن روحه غارقة في هم لا قبل لإنسي به. سيموت بكل الطرق الأخرى. ولكن أبدًا ليس غرقًا.

يقول الشاطر حسن إن الذاكرة مؤلمة، ووجعها أسوأ من وجع الذل. فعندما تذكره اليمامة بانتصاراته، يدرك مدى عجزه وقلة حيلته. في البداية توسل إلى اليمامة أن تبقي على الذاكرة. ولو أبقت عليها فسوف يتذكر عمره الطويل والسبل التي غزاها بجيوشه وخرج دومًا سالمًا، ثم تأتي هزيمته فتذله. ولو نسي ماضيه، سيسير في الحياة غافلًا حتى تقع هزيمة فيفيق ويموت آلاف المرات، ثم تسكب عليه ذاكرته وكأنها نار فتحرقه ولا تقتله.

أشفق عليه الشيخ بعد حين، وقال إن هناك طريقًا للنجاة..ولكن لا بد من المجازفة. ألح الشاطر حسن في سؤاله عن طريق النجاة، فقال الشيخ هذه الكلمات:

«عندما تتبدى لك الطرق بوضوح

اعرف أنك ضللت الطريق، وأن نهايتك قادمة لا محالة.

وابحث حولك وبداخلك، ربما تجد مخرجًا أو لا تجد.

وجازف لعل في المجازفة نهاية لثقتك وأمنك وخوفك ولعنتك.

ولو خشيت الغرق، فأنت غارق لا محالة.

أقلع بسفنك إلى المجهول لعلك تصل».

زهد في ابنة السلطان، وأصبح عشقه محملًا بذنب لا يغتفر، ومرارة لا تترك الحلق، تركها بعد حين واتجه إلى الصحراء. يُحكى أن البعض رآه عند شجرة مريم في المطرية يحتمي بظلها، ويفكر في أمر روحه.

بحثت عنه ابنة السلطان بقلب حزين، ولم يظهر لها من جديد، ثم قالت لمن حولها: مسكين الشاطر حسن. لو سألني عن الطريق كنت سأرشده. ولكنه لا يفهم ولا يحاول الإدراك...

وصلت كلماتها إليه بعد عدة أعوام، فهرول إليها باحثًا عن المسلك. وعند وصوله، وجدها قد أسلمت الروح. فازدادت الأيام عتمة، ولم يخرج من صحراء المطرية عند الشجرة مرة أخرى قط.

يُحكى أنه سأل اليمامة بعد مئات الأعوام، متى تتوقف عن تعذيبه، فقالت: هي أيام معدودات، وانتصارات صغيرة..يبقى انتصارك غير مكتمل.

لم يفهم حينها هل يبقى انتصاره غير مكتمل؛ لأن العمر قصير، أم لأن اللعنة تصيبه هو بالذات، وأوجاعه تناثرت، وغمرت كل النفس، وغطت كل ما حوله.

ولكن العذاب يشي بحكمة غير مسبوقة ونضج لا يعرفه البشر.

***

ظهر الشاطر حسن مرتين؛ مرة عام 1509 في عهد السلطان قنصوة الغوري، ومرة أخرى بعدها بما يقرب من أربعة قرون في عام 1882.

في عام 1509 بعد مرور أكثر من ألف عام، وروحه هائمة في أجساد فانية، أسرعت اليمامتان وسكبتا داخل عقله كل ذاكرته ونبأتاه بهزيمة تكسر القلب والنفس. قالت اليمامة إنه سيفقد السيطرة على البحر هذا العام. وإن مجده الفائت لن يتبقى منه سوى كبرياء تنخر الروح بلا توقف. ففقد عقله أو كاد، وخرج إلى شوارع القاهرة هائمًا مجذوبًا. أدرك ما لم يدركوا، وتعذب عدة قرون. وكانت له مقابلة مع سلطان مصر حينها الغوري، وعشق ابنة السلطان، ولم يحصل عليها.

بنى سبيلًا في المطرية، وأطلق عليه الناس سبيل الغارق، نسبة إلى المجذوب، أو الشـاطر حسـن. كان موجودًا في المطرية بموازاة شجرة مريم بالضبط. أراد أن يسكن السبيل حتى يريحه من ظمأ الهزيمة وجفاف اليأس، فمكث فيه بقية عمره، وهو يتمنى معجزة تظلل أيامه، كما ظللت الشجرة أيام مريم في طريق الهرب.

مـات المجـذوب، وولـت أيامـه، ونـسي أهـل المطريـة حكايتـه إلا القليل، ولم يعرف أهل القاهرة شـيئًا عن الغارق الذي كان يقطن السـبيل أعوامًا، ونسوا أمـر السـلطان الغوري، والصراع عـلى الطريق. محيت الذاكـرة وارتاح البشر من همٍّ كبير، ثم مر حوالي أربعة قرون، وفي عام 1882 أصبح يتردد شـيخ على سـبيل الغارق ورافقه بعض الرجال، وبدا أن روح الشـاطر حسن لم تزل تهيم في الأفق، ولم ترتح بموت المجذوب. وتنبأت اليمامة بأن الشاطر حسن سيفقد السيطرة على بحر جديد، أو قناة أهم وأشـد خطورة، هي الممر لكل البحور. وسـتنخر الهزيمة كبريـاءه مـرة أخرى، وربـما يفقد ذاكرته هـذه المرة فلا يعرف شـيئًا عـن هزيمته القديمة ولا انتصاراته الفائتة.

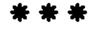
قالت اليمامة للشـاطر حسـن يومًا بعد أن تجلت له كعادتها في صورة شـيخ حكيم: تذكر أن الطرق في هذه الدنيا ثلاثة: طريق للتقرب إلى الله، وطريق للعيش في رضًا بالقضاء، وطريق للسيطرة على البحور. وأنت يا حسن يا مجذوب فقدت الطـرق الثلاثة؛ الواحد تلو الآخر. مرة تلو الأخرى.. فقد تركت ابنة السـلطان، وانهزمت في البحور ولم ترضَ بالمكتوب، ودخل اليأس قلبك فابتعدت عن سبل النجاة.

قال الشاطر حسن: لا بد من يوم للفوز..لم أفقد الأمل. ولكني لا أعرف لو كنتَ أنت عدوًّا أم صديقًا. هل هذه لعنة أم يقظة؟

تلاشى الشيخ وقال: ولكن قبل أن تبحث عن الطريق يا حسن، اشرع في السير في مسالك نفسك، فما أشد وأوعر مسالك النفس، لم تطأها قدم قط، وبدون السعي داخل مسالك النفس ستفقد كل الطرق. في سيرك تذكر أيضًا أنك لا تعرف الصديق من العدو، فأنت لم تُحِط خبرًا بالغيب.

* * *

اختفى الشيخ الحكيم دهرًا أو يزيد، ولكن ترددت كلماته عن مستهل الطريق ونهايته في حناجر المحيطين، فحكوا قصة الغريق...أو المجذوب أو الشاطر حسن..قالوا في زمن مضى سأل رجلٌ صاحبه: أتعرف الطريق؟ أجاب صاحبه: أرى بحرًا مجهولًا، وطريقًا يابسًا مألوفًا هذا هو اليابس وذلك هو البحر، اختار الرجل الطريق الآمن، ولم يختر البحر فغرق.



الدَّين 1882

«فلا تسألني قبل الوقت، وتيقن أنك لا تصل إلا بالسَّير».

أبو حامد الغزالي

الباب الأول

«ينكشف البشر في قصص العابرين».

1

اليوم كانت إصابةُ جليلةَ جسديةً.

مضايقـات الأطفـال بـدأت منذ زمـن، ولم تكـن تعنيها، غافلين ومسـاكين لا يعرفـون أيـن الهدايـة، في زمـن يسـود فيـه الضـلال، ويكبـس عـلى الأنفاس كالضباط الشراكسة والإنجليز معًا. ولكن الحجر الصغير الذي اصطدم بجبهتها كان مختلفًا، جاء على حين غِرَّة كالخيانة. ألقى به طفل من جانب الشـارع واتهمها اتهامًا واضحًا بالفُجر. زحزحت خمارها، وسـمعت صوت الخادم يصيح في وجه الطفـل، ويسـب ويلعن ويهدد. مدَّ الخادم يده بالمظلـة الزرقاء كما يفعل دائمًا وهو يتأكد من تأخر خطواته عن خطوات سـيدته حتى وسـط هـذه الأخطار. قال في صـوت خفيض: اقبلي أسـفي يا هانـم، لم ألاحظ الطفل، جاء مـن طريق مختلف وغير متوقع. أنت بخير يا هانم؟

كانـت تسـير في بـطء، لم تجـب في البداية، فقـال بعد برهـة وعينـاه ملتصقتان بالأرض: جليلة هانم، هل أنت بخير؟

قالت في لهجة آمرة: حسن، ما حدث اليوم لن يعرفه أحد.

ردد في عدم فهم: لن يعرفه أحد؟

قالت في قوة: أعني والدي لا يعرف عنه شيئًا. الأطفال تضايقني منذ زمن، فما حدث اليوم شيء بسيط. لا أريد أن أقلق أبي، وأتمنى أن تنسى ما حدث.

قالت في شيء من التوتر وهي تشعر بنقاط الدماء تبلل خمارها: تسمعني؟

قال في بطء: أسمعك يا هانم.

أحيانًا كانت تشك في قدرته على السمع، وأحيانًا توقن بعدم قدرته على الفهم. يتكلم قليلًا، ولا تشعر بوجوده معظم الوقت، ولكنه يلازمها كقَدَرها منذ سبع سنوات. كانت في الرابعة عشرة حينها، ولم يكن الخادم يكبرها بالكثير، عدة أعوام لا أكثر، ولكنه موجود كالعِقاب على ما لم تفعل، أو ربما على ما تكشَّف لها من أمور الكون.

تجاهلت وجوده الذي كان يخنقها في بعض الأحيان، ويطمئنها قليلًا في أحيان أخرى. انتهى الحديث بينهما، ولم يكن بينهما أحاديث سوى أوامر منها من حين إلى حين، وطلبات في بعض الأحيان. لم تشعر سوى بالمظلة الزرقاء الطاغية التي تحجب حر الشمس، ولا تحجب ضوءها، دائمًا يسير في خطى ثابتة وراءها، وراء المسافة نفسها، والخطى نفسها.

يرتدي الخادم جلبابًا أبيض يغسله بعناية كل يوم فيضيء سمرة وجهه، وطاقية مزركشة يحتفظ بها منذ زمن أعطتها له والدته هدية عندما اصطحبته إلى أحد الموالد وهو صغير. جسده النحيف الطويل وملامحه المستقيمة القوية تشي بصرامة مع النفس ورغباتها. عيناه الواسعتان لا تتزحزحان عن الفرس

ولا تتجولان في الأماكن، تعلمان حدودهما حتى لو جمحت روحه قليلًا. أما حاجباه الأسودان الكثيفان، فلم يرثهما عن أمه بل عن أبيه الذي لا يعرفه أحد. ورث عن أمه لونه الأسود الداكن وعينيه الواسعتين وشعره المجعد فقط.

تسلقت العربة، ولم تنطق سوى عند الوصول إلى البيت، قالت له دون النظر إليه: حسن، ما حدث اليوم كأنه لم يحدث. أبي لا يعرف عنه شيئًا. فاهم؟

طأطأ رأسه، ولم يجب. قالت في شيء من الحدة: تسمعني؟

قال في خضوع: أسمعك يا هانم. دائمًا أسمعك.

ولكن حسن أخبر والدها. وقامت الدنيا ولم تقعد. مأساة جليلة طويلة وملحمية كديون مصر وافتتاح قناة السويس، ومعقدة تعقيد علاقة الحب والكره بين فرنسا وإنجلترا. بدأت مأساة جليلة في عام ألف وثمانمائة وأربعة وسبعين، وكانت مأساة حزينة بكل المقاييس، تنهي حياة أي بنت، وتجعل مستقبلها مظلمًا كالطرق الزراعية ليلًا. وفضيحتها لا تسع مصر المحروسة ولا البلدان التي حولها. ما حدث لجليلة لم يكن باختيارها ولا إرادتها، وكانت مثل كل بنات سنها تنتظر بلوغ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة لتتزوج، وتبدأ حياة قصيرة أوطويلة لا يهم. ولكن القدر أبى أن يجعل حياتها تسير بسلاسة ووضوح. ضاقت أمامها الطرق، ولم يتبق سوى الغوص في أعماق البحر للوصول.

ندمت الأم على جريمتها في حق جليلة، وشعر الأب بخزي لا يوصف، وتهرب من نظرات الاستهزاء من أهله حتى إنه اضطر إلى مقاطعة معظم أهله في المنوفية، واحتمى بمباني القاهرة حتى لا يعود إلى بلاده ويدفع ثمن هوانه. هذا النوع من الطرق مختلف وموحش، لا رجعة فيه، يتنفس كالصبح ولا يمكن خنقه. ليته يستطيع العودة بالأيام والوقوف أمام زوجته وأخيها، فات الميعاد

وانطلقت جليلة إلى طريق المجهول، ونشزت عن أخواتها وبنات عماتها وخالاتها وجيرانها وكل بنات مصر. من سيتزوجها؟ لا أحد. من سيحترم أبويها بعد هذه الفضيحة؟ لا أحد. أين الخديوي الآن؟ وأين زوجته المصون؟ يا ليت تقلبات الزمن تعيد الأيام، وتغير المصير، ولكنها لا تفعل.

أما ما حدث اليوم فهو بالنسبة للأب النهاية. لا رجعة في قراره هذه المرة.

ما حدث منذ سبع سنوات وأدى إلى هذه المأساة هو زيارة من حليمة زوجة شقيق بثينة هانم أم جليلة، وحليمة من عائلة شركسية تركية لها وزنها في مصر، وتعمل كإحدى وصيفات الأميرة جشم آفت هانم، زوجة الخديوي إسماعيل الثالثة، جشم هانم أرق وأجمل زوجات الخديوي إسماعيل، بالنسبة لوصيفاتها، وأحسنهن خلقًا ومعرفة.

زارت زوجةُ الأخ حليمةُ هانم أمَّ جليلة، وكان شقيق بثينة، أم جليلة، حينها بدرجة يوزباشي في الجيش محبوبًا من الضباط المصريين والشراكسة معًا، وهذا في حد ذاته معجزة لم تحدث سوى لخال جليلة محمود العيسوي؛ لأنه دومًا سند أخته وبنات أخته. جاءت حليمة هانم محملة بالحلوى والهدايا، واستحلفت أم جليلة أن تسمعها وتجيب طلبها.

كان لبثينة أم جليلة خمس بنات، ولم تنجب ولدًا، جليلة هي ثالث بناتها. ومنذ الصغر كانت غريبة الأطوار، تتأمل كثيرًا وتتكلم أكثر، وأحيانًا في حضرة رجال العائلة، ولم تفلح صفعات الأم ولا زجر الأب في إسكاتها. جمال جليلة كان جمالًا مختلفًا، فمع أن جسدها رفيع، وملامحها رقيقة أكثر من المفروض، كانت تتمتع بجاذبية جعلت الكثير من الأمهات يتمنينها لأولادهن. وتمنت

بثينة أن تكون الزيارة من أجل هذا. وكانت ستوافق على الفور. تزوجت البنتان الكبيرتان، وجليلة في الرابعة عشرة، فلابد من زوج قبل فوات الأوان.

ولكن هيهات، جاءت حليمة هانم للقضاء على جليلة وليس لإنقاذها. قالت في خجل: ما سأطلبه منك سيبدو مفجعًا وخطيرًا، ولكنني أعدك أنه سيساعد أخاك في ترقياته، وربما يفتح لزوجك طرقًا كانت مغلقة عليه.

قالت في عدم ارتياح وحليمة هانم تدور حول طلبها كالدبور قبل اللدغ: ماذا تبغين عزيزتي؟

- سمو الأميرة زوجة الخديوي..

- أتريد ابنتي كإحدى وصيفاتها؟

- تبحث منذ شهور..

- عن وصيفة؟

- وصيفاتها لسن مصريات كما تعرفين. لولا أصلي التركي لما بقيت في قصرها.

- إذن ماذا تريد مني؟ ومن بناتي؟ لديها عريس لجليلة؟ لو هذا هو الأمر أوافق على الفور بالطبع. أوامر الأميرة تنفذ من كل الشعب.

- يا بثينة سمو الأميرة افتتحت مدرسة مصرية لبنات مصر، بأوامر من الخديوي نفسه. هذه المدرسة غير مدارس التبشيريات الأجنبية. هي مدرسة لمصر أنشئت بأوامر من الخديوي المصري، لبنات مصر.

نظرت إليها وكأنها لا تفهمها، ثم قالت: بنات مصر لا يحتجن مدارس من الخديوي. يتعلمن في بيوت عائلاتهن أفضل تعليم.

لم تكن بثينة هانم تفهم بالضبط ماذا تبغي حليمة، ولا أهمية هذه المدرسة الشؤم، ولا هذا الأمر الغريب من الخديوي. قالت بعد برهة: فُتحت مدارس للبنين منذ أربعين عامًا فكان لا بد أن تُفتح مدارس للبنات.

قالت بثينة في تهكم: يدخلها جواري القصر، وليس بنات عائلات مصر! من هذا الأب الذي سيسمح لابنته بالخروج كل يوم للذهاب إلى مدرسة والاختلاط بأناس غرباء؟! ومن سيتزوج بنتًا تخرج وتتكلم وتجادل؟! يا إلهي! لو تقدم رجل لامرأة وعرف أنها تعرف أكثر منه وستجادله وتعذبه، تُرى أسيتزوجها؟

حليمة، أتمنى ألا يكون ما يدور في بالي صحيحًا.

قالت حليمة في صرامة: أوامر سمو الأميرة لا بد من تنفيذها، وليس لديَّ بنت كما تعرفين وإلا كنت بعثت بها إلى المدرسة.

ساد الصمت المتوتر، ثم قالت بثينة: ألا تجدون بنات في قصر الخديوي؟

- نعم، هناك مائة في المدرسة على الأقل، كلهن من قصر الخديوي على ما أعتقد، جوارٍ وبنات وصيفات شركسيات وتركيات. سمو الأميرة تريد مصرية في المدرسة..واحدة فقط لتفتح الباب لأخريات.

- مستحيل.

- مستقبل أخيك على المحك، ومستقبلي أنا أيضًا. وعدتها أن آتي ببنت واحدة.

- ومستقبل ابنتي الذي سيتحطم؟

- من قال هذا؟ أعدك أنني سأزوجها بنفسي من باشا على الأقل لو وافقت. بل ستزوجها سمو الأميرة. هل تفهمين معنى رضا زوجة الخديوي عن ابنتك؟ العطايا ستتدفق على بيتك والخير سيعم. وزوجك يتمنى البكاوية، تذكري هذا.

- وكيف أمحو ما ستتعلمه ابنتي في المدرسة؟ وما سيشوه عقلها وذاكرتها؟ أفكار مسمومة غربية ستخترق بيتنا، كيف لي أن أمحو هذا؟

قالت في خفوت: اتفقي معها ألا تتعلم. أخبريها أن ما ستسمعه في المدرسة غير عاداتنا وغير معتقداتنا. كوني معها واحرسيها.

أطرقت، ثم قالت في يأس: وعدتني أنك ستزوجينها بنفسك.

- أعدك.

- وأن الأميرة ستهتم بها شخصيًا.

- ستفعل.

- وأن العطايا ستعم علينا، وسيحصل زوجي على تسهيلات في تجارته، ويحصل على البكاوية.

- وسيتدرج أخوك، ويصبح باشا قريبًا.

- لله الأمر من قبل ومن بعد. لا راد لقضائه.

قضاء الله يأتي حقًا بلا مقدمات. جرَّت الأم ابنتها جليلة جرًّا إلى مدرسة السيوفية في حي السيدة زينب، والبنت تبكي وتتذمر، وأوصتها ألا تسمع ولا ترى، وألا تتأثر بأفكار الغرب وبدعهم، وألا تتكلم مع جواري القصر. وعيَّن لها الأب خادمًا يأخذها كل يوم إلى المدرسة وينتظرها حتى تنتهي ليعيدها

إلى البيت. مر شـهر وهي تتذمر، ثم حدث شيء غريب، فتحت جليلة صدرها فامتـص هـواءً جديدًا، وكلـمات مختلفة عن التاريـخ والجغرافيـا والعالم، بدأت تفقد عقلها أو كادت، كانت في غفلة أو أفاقت؟ تنفس الصبح أم عسعس الليل لا تـدري. ارتبطـت بعلاقـات مختلفة بين معلـمات غربيات وشرقيـات، ومواد جديـدة عليها، وأصبحت تنتظر الذهاب إلى المدرسـة كمنتظر الجنة بعد عذاب النـار، تفهم وتعي وتدرك ما لا يدركـون. وكانت وحيدة، لم يصادقها الجواري البيـض ولم تربطهـا علاقات سـوى بمدرسـيها. تفوقـت وكانت تخفـي كتبها، وتخرجهـا من تحـت سريرها ليـلًا بعد نـوم الأم والأخوات. قـرأت، وعرفت، وحزنـت، ويئسـت، وداعبهـا أمل، وأصابها اليـأس، ثم عـاد يداعبها الأمل في خجل. ولم يكن أملًا في زوج.

ولكن لا راد لقضاء الله هكذا قالت بثينة. طارت الوعود كطيور النورس. فـلا الخديـوي بقـي، ولا زوجته اسـتمرت على قدرتهـا. في ليلـة وضحاها نفى الابن أباه، وتوارت زوجة أبيه عن الأنظار وأصبح حلم مدرسة البنات لا شيء أمـام تمرد ضباط الجيش المصريين، وتوغل الإنجليـز، وأمام الدَّين الذي يدفعه المـصري ولا يتحملـه الأجنبي. تـوارى الحلـم، وتقلصت المدرسـة، واختفت الطالبـات، ووجدت جليلة نفسـها تائهة لا تعرف الهدف حتى أمسـكت بيدها مدرسـة بريطانيـة حدباء وقزمـة يتيمة، تدعـى ديزي، جاءت إلى مـصر بعد أن ضاقت عليها السبل في بلدها، وطلبت من جليلة أن تبقى في المدرسة تدرِّس ما تعلمتـه. ولكن تدرِّس لمن؟ لقد اختفت طالبـات القصر.. لم تفتح جليلة الباب للمصريـات، بـل أصبحت أضحوكـة ومدعاة للرثـاء، ولم تصبـح مثلًا يحتذى بـه. تدرِّس لمـن؟ قالت مدرسـتها ديزي: يا جليلـة، العلم لا يفـرق بين البشر، والتدريـس رسـالة وموقـف. علِّمي من يريـد أن يتعلم دون النظـر إلى عرقه أو دينه أوعائلته.

قالت: إن التدريس رسالة وموقف، ولم يتبق في المدرسة سوى اليتيمات ومجهولات النسب، وأحيانًا كانت بائعات الهوى الصغيرات يهربن من بيوت الدعارة، ويلجأن الى المدرسة. ومنذ كانت في التاسعة عشرة وجليلة تدرس في المدرسة بلا أجر لأي بنت تريد أن تعرف.

قالت أمها يومًا إن كل بنت تعرف تصبح خطرًا على المجتمع، وكل من تدرك تصبح كرة مدفع يمكث في القلعة في انتظار من يحركه.

فكرت أمها حينها أن جليلة لم تتزوج، وهربت وعود زوجة الخال مع نفي الخديوي وتوارت الآمال. ولم يبق سوى هذا التشوه البشع في نفس جليلة الذي جعل زواجها مستحيلًا. تعلمت من المدرسة ما لا يتحمله رجل، فأصبحت تجادل وتعترض وتدَّعي المعرفة. ذاع صيتها كمعلمة في مدرسة العاهرات. منعها والدها من الخروج، وقاتلت، واستماتت، وسلطت عليه شيخًا غير كل الشيوخ جاءها يسعى وهي طالبة وقال في ثقة: «من سلكَ طريقًا يلتمسُ فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنةِ» هكذا قال رسولنا يا جليلة، ولم يخاطب الرجال حينها بل كل البشر. أحسنت يا ابنتي.

ولم يستطع الأب تحدي الشيخ محمد عبده. وبما أن زواج جليلة وهي في الحادية والعشرين أمر صعب، فلابد من تحمل البلاء في صبر المجاهدين. ومحمد عبده شيخ له وزنه يقف مع جليلة وكأنها أحد المشاهير أو جندي ثائر مع عرابي. لا بأس. هذه المرة لا بد من وقفة مع جليلة، ولن تشفع شفاعة شيخ ولا كلمات خال ولا أم. ستتوقف جليلة عن الذهاب إلى المدرسة.

حسن الخادم أخبر أحمد بك ثابت بما حدث بالتفصيل. ثار وأمرها أن تتوقف عن التدريس، واعترضت، فصفعها صفعة ضعيفة، وقال إن البنت بلا

رادع تشت وتتوه كالدجاجة بلا خنٍّ. أصر على موقفه، وتوقفت عن الذهاب إلى المدرسة أسبوعًا كاملًا. وكانت تتوعد الخادم الخائن كل ليلة. ماذا تتوقع من خادم أمي لا فهم ولا عرف، يتبع سيده ولا يأبه بمستقبل أحد. مثله مثل رياض باشا بالضبط. نعم لا بد أن حسن الخادم لا يقل خيانة عن رياض باشا، ويريد إعطاء مفتاح مصر إلى الإنجليز. تكره الخادم كرهها لرياض باشا. ولن تستسلم. فلم تكن أولى الضربات.

نظرت إلى الصورة في جريدتها المفضلة التي تهربها إلى حجرتها، جريدة أبونظارة زرقاء ليعقوب صنوع، وكانت صورة رياض باشا وهو يعطي مفتاح مصر للإنجليز. اكفهر وجهها، وتكاثرت الثورة بداخلها، وقالت لنفسها: ولو أعطوني أنا المفتاح كنت سأحافظ عليها.

نعم، ظن الجميع أن جليلة أصبحت عارًا على الأمة والعائلة. ذهبت إلى المدرسة، ثم اختارت أن تدرس فيها كالحبشيات والجواري البيض، وكأن والدها صاحب محلات القطن، يحتاج إلى مليمات المدرسة، وكأن أمها تشحذ أمام مسجد الحسين. وكيف لبِكر أن تحاور العاهرات، وتعرف منهن أسرارًا وأحوالًا لا تعرفها بنت العائلات؟ بدأ الاضطهاد لها منذ اليوم الأول، ومنذ شهر طلب شريف زوج أختها الكبرى عفاف، ألا تدخل جليلة بيته أبدًا، ولا ترى أولاده ولا تخاطبهم، إلا لو تركت هذا السوء، وعادت إلى حضن الحق والعفة. ولم تفعل جليلة. افتقدت أولاد الأخت، وعرفت قرار حظرها من دخول بيت أختها، أثناء زيارتها لأختها. أخبرتها عفاف في خجل ورجتها ألا تثير حفيظة الأب ضد زوجها شريف، وألا تخبر الأم أيضًا، وأن تُبقي ما حدث سرًّا، ووعدتها أنها ستأتي كلما استطاعت لترى جليلة، وأن أولادها المرتبطين بخالتهم لن يحرموا من رؤيتها.

هذه الضربة ليست ككل الضربات، وهذا الحجر أصاب حدقة العين مباشرة. يومها كانت خطاها متثاقلة وهي تتجه إلى العربة، وتسلقتها وهي تائهة، وبقيت في العربة لا تتحرك لعدة ثوانٍ حتى قال الخادم: أنذهب إلى البيت يا هانم؟

قالت في صوت مبحوح: نشتري الحلوى الفرنسية أولًا. تعرف المكان؟

هز رأسه بالإيجاب، واشترى الحلوى، وأعطاها لها، أمرته أن يوقف الحنطور على جانب الشارع، ونزعت خمارها وبدأت في أكل الحلوى والدموع تتساقط بلا حساب.

خرجت بعض الشهقات، ومسحت الدموع بعصبية وهي تتمتم: عصر الظلام ما نعيش فيه. فليذهب شريف إلى الجحيم وكل رجال مصر..ليته يستطيع أن يردع الإنجليز قبل أن يتحكم في النساء. زمن الخزي والعار.

وكان حسن يصوب عينيه على الفرس.

شهقت وتنهدت، بحث في جلبابه، ثم أخرج لها منديلًا، ومد يده به وهو يدير وجهه في اتجاه آخر بلا كلمة. أخذت المنديل، وجففت وجهها، ثم نظرت إلى المنديل في ريبة، فقال وكأنه سبر غورها: أقسم لك يا هانم أنه نظيف.

مسحت أنفها، ووضعت المنديل في حقيبة يدها.

ثم أسندت رأسها على العربة، وأغمضت عينيها، وكأنها نامت. بعد مرور ساعة على الأقل قال بصوته المنخفض: جليلة هانم..هل تحتاجين شيئًا؟

- أحتاج سبيلًا إلى النجاة.

قال بعد برهة: أهذا طريق غير طريقنا إلى البيت؟

رددت: نعم طريق غير طريقنا إلى البيت.

ساد الصمت، وكأنه لا يدري ماذا يقول، وربما لم يفهم ما تريد، أو أدرك صعوبته.

بعد برهة قال: أنعود إلى البيت يا هانم؟

لم تجب. أعاد السؤال، وهو يسلط نظره إلى رأس الحصان كعادته. قالت: نعم، نعود إلى البيت.

تذكرت المنديل الذي يستقر في الحقيبة ولم ترتح لوجود شيء من الخدَم في حقيبتها، أخرجته، ثم مدت يدها لحسن ليأخذه، فأخذه على عجلة، ووضعه في جيب جلبابه.

عند عودة حسن ليلًا إلى حجرته، أخرج المنديل من جيب جلبابه في حرص، قبله في رفق، ووضعه على موضع قلبه.

* * *

بعد كل ما تحملت، وبعد أن ضحت بزيارة أختها وبزواجها، يأتي الخادم، ويخبر والدها فيمنعها والدها من الخروج. تنوي معاقبة الخادم عقابًا رادعًا اليوم أو غدًا، وستلجأ إلى الشيخ مرة أخرى. في هذه المرة طلبت من الجارية «تمرهان» أم حسن توصيل رسالة إلى الشيخ محمد عبده، وهي مطمئنة فلا تمرهان تستطيع قراءة الرسالة ولا حسن.

لم تكتف جليلة بالتدريس، بل قررت أيضًا الكتابة باسم مستعار، وكتبت أولى مقالاتها عن تعليم النساء، وعن تجربتها في المدرسة والمشاكل التي تواجه

الطالبات، ثم كتبت مقالًا آخر عن دور الأم في رعاية أولادها، وانتقدت النساء الأثرياء اللائي يستأجرن مرضعة للأولاد ومربية ولا يقضين وقتًا كافيًا مع أولادهن، وكتبت مقالًا ثالثًا وكان الأجرأ، لفت أنظار الصحفيين، وجعل أكبر الصحفيين يعجبون بها، وكان عن حياة إحدى طالباتها التي تحاول أن تحتمي بالمدرسة من حياة الليل والفسوق مع أنها في الثالثة عشرة فقط، وكيف تجد الفتاة صعوبة في البقاء في المدرسة. نشرت المقالات الثلاثة، وكانت تبعث بها عن طريق وسيط بينها وبين الصحفيين الرجال، وكان الوسيط هو قريبة من بعيد تهتم بالصحافة والثقافة العامة، اسمها رقية متزوجة ولديها ثلاثة أطفال، شجعت جليلة على الكتابة، وقرأت لها.

***

2

سبيل الغارق كان يسكنه مجذوب في زمن السلطان الغوري، ثم جفت مياهه، وطمست نقوشه، وتهدمت بعض جدرانه، وأصبح خلوة للعابدين الزاهدين، أحيانًا يظهر فيه شيخ أو مجذوب، والآن يسكن فيه الشيخ الزمزمي شيخ صوفي التف حوله بعض الناس ومنهم أحمد بك ثابت أبو جليلة، وحسن الخادم.

هذا السبيل غير كل الأسبلة؛ فتحات نوافذه الخشبية يخرج منها الدخان الممتزج بالألوان المختلفة، هو حياة وموت. يسكن الشيخ الزمزمي في الدور السفلي، يجاور البئر، ينام على خشبة قصيرة جدًّا، أسطال المياه مربوطة بجانب البئر، وفي الدور العلوي كان هناك مساكن مهجورة للأيتام وطالبي العلم في عصر المماليك، وعلى مستوى الأرض كان في الماضي يقطن المزملاتي ويأنس بالمياه والأسطال. قيل إن في عصر الغوري كان هناك حدائق لنبات البلسم تحيط بالسبيل وموازية لشجرة مريم، وإن السلطان المملوكي كان يغلقها بمفتاح خاص لندرة

النبات وأهميته لمصر والعالم. ولكن جفت الحدائق مع الزمن، ونمت صحراء واسعة.

نزل حسن الخادم الدرج الطويل إلى منبع الماء، الذي أصبح جافًّا الآن، يقول الناس إن في الماضي كانت البئر متصلة بقناة إلى النيل المبارك. كيف للشيخ الزمزمي أن يقطن تحت الدرج في هذا المكان المظلم؟

قيل إن المجذوب اختار هذا المكان للخلوة؛ لأنه وجد في شجرة مريم الونس والسلوان. لجأت مريم إلى هذه الشجرة وهي تثق في أن الإنقاذ قادم، والمعجزة موجودة فقد أمرها الله ألا تحزن.

الشيخ الزمزمي يتخذه مكانًا لخلوته. يعرف الشيخُ أحمد بك أبا جليلة منذ زمن، ويعرف حسن منذ كان في العاشرة أو أقل. جاءه أحمد بك يطلب السكينة مثله مثل غيره، وأرشده إلى السبيل، إلى المعرفة، وليس السكينة. أما حسن فقد تكشف له الكثير من الأشياء مع أنه أمي وخادم، لا سافر خارج القاهرة ولا عرف سوى بيت أحمد بك. ولكنه كان أحيانًا ينبس بكلمات تقلق الشيخ الزمزمي، فيطلب منه أن يشرح له. عندما كان حسن طفلًا أدهشته أسئلة الشيخ، فهو لا يعرف لِمَ يطلب منه الشيخ أن يشرح له وهو الجاهل، وهو العبد. ولكن بعد وقت بدأت أحلامه تسطع بألوان قوية، فأصابته بحيرةٍ لا شفاء منها، وازداد ولعه وعذابه، فأشفق عليه الشيخ من المعرفة، ومن حمل ثقيل يحمله. نمت العلاقة الغريبة بينهما. الشيخ يلاحظه بحذر، وحسن يلجأ إليه ليهدئ ثورة النفس وتمردها ويطلب من الشيخ أن يرشده إلى طريق الرضا عن حجمه وموقعه على الأرض.

قال له الشيخ منذ سبع سنوات وهو في الثامنة عشرة: تريد أن تخترق الأرض وتصل إلى السماء؟! هذا خطر. ولكنه ليس ذنبًا.

- ما السبيل إلى تقبل نفسي كما هي يا شيخ؟

- أتريد أن تتقبل نفسك أم تتقبل ما وجدت عليه نفسك؟ هناك فرق يا بني.

- هذا الفرق يعذبني.

- بل لا بد من السعي لمعرفة من تكون؛ حتى لا تظلم نفسك، وتزيف حقيقتك.

- أعرف من أكون، عبد أمي..تتذكر.. حاولتَ أن تعلمني القراءة ولم تستطع؟ لا أستطيع حتى أن أجمع الحروف، خلقت للطاعة والخضوع. وكم أكره الطاعة، وأحتقر الخضوع.

- ربما لا ترى الحروف، ولا تستطيع تجميعها لسبب لا نعرفه، ربما قدرتك تفوق قدرة العارفين.

- وهل للجاهل أن يملك أي قدرة؟

- القدرة لمن يريد أن يعرف، وليس لمن يظن أنه عالم ببواطن الأمور.

أطرق حسن قليلًا، ثم قال: والتوق إلى المستحيل يخرب عقلي. ما السبيل؟

- تسألني عن السبيل وأنا لا أعرفه. لو عرفته لزال العذاب، وشفيت النفس، وليس لإنسي أن يعيش بلا عذاب. نمضي في العمر، وكأننا نعرف السبيل، وندعو الله بالصراط المستقيم، وعند انقضاء العمر يبدو السبيل بعيدًا وملتويًا كثعبان موسى.

قال حسن، وهو ليس متأكدًا من فهم كلمات الشيخ: لا أعرف شيئًا عن النجاة.

- أغشـاك النسيان، والغفلة تضل. ولو انكشفت عنك غفلتك فسوف ترى وتبـصر، اخلع عنك غطاءك يصبح بصرك نافذًا. بماذا تدعو ربك؟ هل تذكر كل سنواتك الماضية؟

- بالهداية. ولكنني لست كهلًا يا شيخ أنا لم أتعدَّ الثامنة عشرة. كيف أتذكر سنوات ماضية؟ هل تراني؟

- يغشى من يغشى.. همك يبلغ الجبال طولًا، ويخترق السماء. نحكي عمن ضـل وتاه أربعين عامًـا، ومن ضل وغشي ولم يبصر، البصيرة تعني رؤية الطريق، أمـا البـصر ففقـد أصحابـه كل السـبل، سـاروا بغطاء عـلى القلـب، لا يبصرون ولا يفقهون.

- والطريق هل أعرفه أنا؟

- بل النجاة لا يعرفها سوى من نزعنا ما في صدره من كبر. ألم يطلب منا الله أن نسـجد ونقترب. والكثيرون يسجدون والقليلون يقتربون. طلب منا البصيرة قبل السجود. ساعد نفسك ....

- ليتني أعرف. ليتني أعرف لأبوح، ولو تجلت لي الدلائل هل لي أن أبوح؟

- قال في كتابه «اتبع سبيل من أناب إليَّ».

- وأنا أنسى، لا قِبل لي بمعرفة الغيب.

- لو أدركت غفلتك لوجدت السبيل. رافقني بعض الوقت.

- أرافقها هي طوال الوقت..تحتاجني.

- بل ترافقها لأنك تحتاجها..هي دنيا تجرنا إلى صدرها فلا مفر.

- أقصد جليلة.. أرافقها طوال الوقت. هذا عملي ..

- تحب عملك؟ أم تحبها؟

لم يجب، ولكنه كان يعرف الإجابة حتى وهو في الثامنة عشرة، منذ سبعة أعوام. هذا الأمر أيقنه منذ عمر بلا شك.

* * *

في فيلا أحمد بك جلست جليلة تنتظر شفاعة الشيخ محمد عبده، وتمنت أن يسمح لها أبوها بالعودة إلى المدرسة. عيناها تمتصان الكلمات امتصاصًا قبل أن تسمعها، وقلبها يرفرف، وكأنها في ليلة زفافها إلى حبيب العمر. اجتمع الثلاثة الرجال؛ الشيخ الذي ينقذها دومًا، ووالدها الذي تحبه رغم عصبيته وعدم فهمه أحيانًا، وخالها البطل الذي شجع ذهابها إلى المدرسة. للثورة بريق لا يعرفه سوى العالم ببواطن الأمور، ولثورة خالها اليوم وقع السكر في فمها. يقول كلمات تدخل القلب بلا استئذان. قال خالها محمود وهو يربت على كتف والدها: من يدفع ديون إنجلترا؟ ومن تسبب فيها؟ هل يدفعها أجنبي يا أحمد؟ لو تسبب فيها الخديوي فلِمَ يدفعها المصريون دون غيرهم؟ مع أن إسماعيل تم الغدر به والإطاحة به من قبل الإنجليز لأنه يدعم الجيش، لو كان على أرض مصر يحيا الأجنبي آمنًا على ماله وأهله فلِمَ يدفع الضرائب المصري ولا يدفعها الأجنبي؟ ولِمَ يتحمل الدَّين مَنْ لم يستفد منه؟ اعقِل كلماتي وافهمها. تجارتك كسدت من كثرة الضرائب والحال لم يعد هو الحال، وأنت التاجر الغني فما بالك بالموظف الفقير والفلاح؟ هذه ليست ثورة على الأجانب. زوجتي شركسية وتساندني، وهي ليست ثورة على الضباط الشراكسة من أجل العرق. فعرابي نفسه زوجته تركية شركسية، ومحمود سامي البارودي الذي يتزعم الثورة مع عرابي، من أب

تركي وأم يونانية. هي ثورة لفرز من يحب هذا الوطن، ومن يطمع فيه. سينقسم العالم نصفين، نصف يريد مصر غاية، ونصف يريدها وسيلة. نصف يريد مصر طريقًا ممهدًا للوصول إلى المغانم، ونصف يريد مصر كطريق وملاذ لا وصول بعدها ولا كنوز تضاهيها. سينقسم العالم لمحب لها، وطامع فيها. مع من ستقف؟

تردد الأب قليلًا، ثم قال: الخروج على الحاكم حرام. وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. أخشى انتقام الخديوي وبطش الإنجليز. لو انهزم عرابي فماذا سيفعل بنا الخديوي؟

قال محمود: لو خفنا فلن نتحرك وسنرضخ للظلم. لو قمنا سنفوز. لا تفكر في الهزيمة.

- الخديوي مصري، والسلطان العثماني خليفة المسلمين.

- هذه ليست قضية مسلم ومسيحي، هي قضية مصري يا أخي. يقف فيها الأقباط مع المسلمين ضد الجشع والضعف والظلم. الظلم فانٍ.

- تريدون الانقلاب على الخديوي؟ هذا لا يرضي الله.

- من قال هذا؟ نريد مصر للمصريين.

قال أحمد: مصر للمصريين... منذ قال يعقوب صنوع هذه الجملة القصيرة، والعالم ليس العالم، فكأنها مرض يتفشى، أو خمر لذَّ طعمه، فلم يمتنع عنه أحد. حتى العمال عندي يرددونها بلا فهم. أتعرف يا محمود ما الذي تعنيه هذه الجملة بالنسبة لي؟ فأنا نفسي لست متأكدًا بعد.

- لا بد أن تفهمها. لا بد للمصري ألا يعامَل كالخادم في بلاده. إنه السيد والشريك. لا بد من خفض الضرائب على المصريين والمساواة بينهم وبين الأجانب. لا نريد أن نجور على أحد، نريد قانونًا يحكم بين الناس. دستورًا

مصريًّا وبرلمانًا مصريًّا ممتلئًا بمصريين، وهذا لا يعني أن يكونوا من دم مصري بل من هوى مصري. يخلصون في حبهم، ويوفون بعهدهم إذا عاهدوا.

ظل الشيخ صامتًا حتى التفت إليه أحمد بك ثابت، وقال: كنت تريد الابتعاد عن السياسة يا شيخنا، وترى فيها ضررًا للشيوخ. فما رأيك؟

سكت محمد عبده برهة، ثم قال: أبتعد عنها كشيخ يا أخي، هذا أكيد، وأفضل الإصلاح والتسامح وجهاد النفس، ولكنني لا أستطيع أن أبتعد عنها اليوم كمصري، وكأنه هوى النفس ربما، أريدها بلادًا غير كل البلاد، خيرها لأهلها وثرواتها لأبنائها. لا أحب الظلم. ولا أحب التعصب. التعصب يمحو الحضارات ومصر ضوءها يسطع بالاختلاف واحتضان الأجنبي قبل المصري، وامتصاص الأديان وتقبلها. ما يقلقني هو الظلم. أريد للأجنبي أن يتساوى مع المصري على أرضها، ولا يعيش فوق العباد. أريد العدل الذي لا يفرق بين دين ولا عرق في بلادي. فهي تستحق هذا.

- لا أفهمك يا شيخ. هل أنت مع عرابي أم ضده؟

- أنا مع مصر يا أخي.

ثم التفت الشيخ حوله وقال: أين جليلة؟

قال الأب في امتعاض: منعتها من جلستنا اليوم. ومنعتها من التدريس في السيوفية. أصبحنا سخرية الجار قبل الغريب، ولم أعد أستطيع أن أرفع رأسي أمام الناس.

قال الشيخ في جدية: يقول علي بن أبي طالب «لا تستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه». هي نِعمَ الذرية. وكل حرف تعلِّمه تأخذ به ثوابًا.

- تعلم الغانيات والأيتام ومجهولي النسب.

- وهذا ثواب أكبر.

- يا شيخ..

- عهدتك رجلًا لا يخاف في الحق لومة لائم.

- ولِمَ ابنتي وحدها؟ لِمَ لا يتشجع مصري غيري؟!

- سيحدث، لا بد أن اليوم سيأتي، وستمتلئ المدارس بالمصريات، ولكن جليلة هي شرارة البدء.

- هي شرارة، هذا صحيح، وحرقتنا كلنا.

- أعدها إلى عملها، وثق بها.

- يتعرض لها الأطفال، ويرمونها بالحجارة.

- وكم من الأنبياء تعرَّض لسخرية القوم. الأفكار الشجاعة تحتاج إلى وقت لتنتصر، ولكنها حتمًا ستنتصر. لولا الحرية ما كان الحساب، ولولا العلم ما جاء الفهم. تطالب بالحرية لبلادك والديمقراطية، ولا تعطيها لابنتك؟! لو كان الإنسان مخيرًا في أفعاله فلِمَ ترغمها على ما لا طاقة لها به؟!

ارتاح قلب جليلة لكلام الشيخ، ثم رددت جليلة حينها عبارة لم يعد يخلو بيت مصري منها «مصر للمصريين»، ولكن في بعض البيوت قالها الناس في استهزاء، وبعضهم قالها في حيرة، وبعضهم قالها في خوف، وآخرون قالوها في مرارة ويأس. ولكن كل مصر عرفتها اليوم، وكل الناس عرفوها بمن فيهم أحمد بك ثابت أبو جليلة.

* * *

أحمـد بـك ثابت الذي أنعم عليـه الخديوي بالبكاوية بعـد أن جازف وبعث بابنتـه إلى المدرسـة كان تاجـرًا مختلفًا. نشـأ أحمـد الأخ الأصغـر في عائلة كبيرة في قويسـنا، مـات كل رجالهـا ما عدا أخاه الأكبر الذي اسـتولى عـلى حقه في أراضي والده. واتهمه بالفسـق وهو شـاب عندما وجد في يده كتابًا وزجاجة بيرة، فطرده من البيت ولم يترك له سـوى الفتات، وبالفتات فتح محل قطن في القاهرة، وقاطع أخاه بعدها، وكان طموحه أكبر من أن يعيش أقل من أخيه الذي ظلمه واغتصب حقه. استقر مشهد طرده من سعيد أخيه الأكبر في عقله وقلبه، وكلما حقق إنجازًا أراد أن يقابلـه ويلومـه ويوبخه، وأحيانًـا كان يتمنى أن يعود ثانيةً إلى قويسـنا في المنوفيـة، ويصالح أخاه، ويأكل معه الفتة، ويضحكان معًا كما فعلا وهما طفلان. لم يتحقـق حلمـه قط. بعـد الحرب الأهليـة في أمريكا وتوقف مـزارع القطن عن إنتاجهـا في الجنـوب الأمريكـي ازدهـرت تجارته أكثـر مما توقـع، وأصبح القطن المصري مصدر ثراء الكثيرين وثرائه، هو الذي غير مجرى حياته. سمع عن حرب الأمريكان، يقولون إن لديهم عبيدًا يعملون في الحقول وإنهم يسـيئون معاملتهم. اندهش سـاعتها، فحقول مصر يعمل بها المصريون ربما بأجر ضئيل أيضًا، ولكن لا بـد أن حال المصريين أفضـل، وإلا كانوا قاموا بحرب أيضًا. ولو قاموا بحرب ماذا سيحدث؟

طموح أحمد بك جعله يفكر في اقتناء فيلا في باب اللوق مثل فيلل الأجانب، وليس بيتًا عربيًّا كبيرًا في إحدى الحارات. دخل فيلات التجار الفرنسيين، ورأى فخامتهـا وبهوها الفارغ سـوى من أثاث فرنسي فاخر، لا بهـا حرملك ولا نوافذ خشـبية صغيرة تحجب الحرية. منذ قرر إسـماعيل تغيير حياة المصريين وأحمد بك يقـف في أول الصف، ويطلب المزيد. اشـترى الفيلا وكان بها حديقة، وإسـطبل خيـول، وجنـاح للخـدم، وبهو شـاهق يكاد يصـل إلى السـماء، وأثـاث فرنسي.

وباع البيت في الحارة وسط تذمر أصدقائه واندهاشهم. قالوا له إن أولاده سيصبحون مثل الفرنسيين، ولن يتمسكوا بالتقاليد الإسلامية، وإن الزوجة التي تقبل ببيت بلا حرملك لن تكون مثلهم. ولم يبال.

أعجب أحمد بك بحياة المصريين الجدد بلا جوارٍ ولا حرملك. بدأ التغيير الخديوي إسماعيل نفسه مع أنه كان يملك أكثر من زوجة وجوارٍ، ولكنه مهد الطريق بلقاء بين الشرق والغرب، فلم يتخذ من بعده أي من أولاده سوى زوجة واحدة في نفس الوقت، ولم يملكوا أي مولدات كالجد. وأحمد بك لا يريد أن يكون أقل من الخديوي توفيق الذي اكتفى بزوجة، ولم يعاشر الجواري. حتى لو كان التجار يشترون الجواري البيض سرًّا ويستمتعون بهن، لن يفعل مثلهم، فهو ليس مثلهم، هو مثل الفرنسيين واليونانيين لا يقل عنهم في شيء. هذه البلاد الجديدة تشي بالأمل، ممتلئة بمبانٍ زاهية، ومدارس وحدائق شاسعة، وجسور لا تمتد فقط لتتغلب على الأنهار بل لتفتح مسالك لم ير في روعتها. ارتدى البدل كالأجانب، وحاول أن يتعلم الفرنسية، وأمله حينها في البكاوية، ولكن الدين للإنجليز يخنق. مع أنه لا يشعر به كما يشعر به بقية المصريين، فقد حالفه الحظ في تجارته.

كان يفكر ويتأمل ويجاهد ويعمل، وما إن تضاعفت تجارته حتى بحث عن زوجة من كبار العائلات، وتمنى زوجة مطيعة، وحقق الله أمنيته، فبثينة هادئة بطبعها لا تحب التحدي ولا المجادلة ولا يعيبها سوى أنها أنجبت ثلاث بنات الواحدة تلو الأخرى عفاف ثم عزمية ثم جليلة، بدأ صبره ينفد، وضغط أصدقائه يزيد فقرر الزواج بأخرى سرًّا، ولم يواجه بثينة قط. ولكن زوجته الثانية واجهتها وأخبرتها بنفسها، بل لم تنجب لا ولدًا ولا بنتًا.

ما زال يتذكر ذلك اليوم حين عاد إلى البيت، ووجد زوجته في انتظاره، جهزت الخادمات الغداء، وجلست هي أمامه وعيناها تنظر إليه نظرة لا يفهمها، ولكنها نظرة لم ينسها قط. لا يدري أكانت تلومه،أم توبخه، أم تتهمه بالخيانة. قالت بعد برهة: زارتني اليوم سيدة.

نظر إليها في عدم ارتياح، فأكملت: تمرهان أم حسن تطبخ أفضل من الخادمات الجديدات، ولكنني لا أحب أن أجهدها. لا أعرف شخصًا في إخلاصها. لو أردت أن أعيدها هي إلى المطبخ، وأجعل واحدة من الجديدات تهتم بشئوني فسوف أفعل. لا تأكل كثيرًا في البيت فلابد أن الطعام لا يروق لك.

قال في تأكيد: بل يروق لي. افعلي ما يحلو لك.

هزت رأسها ثم قالت وهي تبلع ريقها، لا يدري هل تبتلع دموعًا أم صرخة في وجهه: بل أفعل ما يرضيك أنت دومًا.

قال حينها كالطفل الذي واجهته أمه بسرقة الحلوى: ما يرضيني هو أن أنجب ولدًا.

بقيت صامتة حينها، فأكمل في رفق: بثينة، أخي ليس بالرجل السهل، وعنفه لن تقوي عليه، لو مت اليوم ماذا ستفعلين؟ أريد ولدًا يرث التجارة، ويرعى أخواته.

طأطأت رأسها، ثم قالت: نسعى ولكن إرادة الله هي التي تقرر. سأحاول.

حاولت مرات عديدة، ولم تنجب طوال خمس سنوات، ثم أنجبت ابنتيها الصغيرتين، سعاد وسعدية. وتوقفت بعدها عن الإنجاب. في هذه الأثناء كان أحمد بك قد تزوج من اثنتين؛ الأولى لم تنجب، والثانية أنجبت ولدًا مات رضيعًا.

ذهب إلى الشيخ الزمزمي يطلب مشورته، فلم يعطه الإجابات، بل سأله أسئلة يصعب الإجابة عنها: قال: انظر بداخلك، وابحث عما تريد يا أخي. لو كنت تطلب الأمان بالولد فلا أمان على الأرض، ولوكنت تريد حفظ الحق والإرث فكلها أملاك الله يورثها من يشاء من عباده. في محاولتك فناء وتلاءٍ عن العبادة.

بعدها اتجه أحمد ثابت إلى الصوفية، وكان يصطحب معه ابن الجارية حسن إلى جلسات مطولة مع شيوخ الصوفيين، يدرس خلالها أفكار شيوخ الصوفية وخاصة أبو حامد الغزالي. حتى إنه كان يختلي بنفسه أيامًا في سبيل الغارق.

وعاد إلى زوجته بقلبه، ولكنه أصبح غريب الأطوار في كثير من الأحيان. تارة يزهد الدنيا وما فيها، وتارة يريد أن يبتلع الدنيا كلها في جوفه في التوِّ واللحظة، فأصبح يزداد طموحًا يومًا بعد يوم، ويزداد رغبة في الترقي والوصول في دنياه. جليلة كانت محببة إلى قلبه، فقد أعجبه ثورتها والتحدي في عينيها، وأزعجه عنادها المستمر. ولكن عفاف أقرب بناته إليه. رأى في عينيها عذابًا صامتًا فالتحم الحب بشفقة جارفة.

****

بالرغم من استسلام حسن وتقهقره أمام جليلة فسطوته عليها لم تكن فقط لعلاقته بوالدها، بل لمعرفته بتفاصيل لا يعرفها أحد عنها. يعرف لأي كتاب فرنسيين تقرأ وأي روايات تحب، بل يعرف قصص كل الروايات، سمعها وهي تحكي لصديقاتها عن قراءاتها، وعن أي نوع من الأبطال تفضل، وأي نهايات تؤثر فيها، تحب النهايات التعيسة، وتنتظر موت البطلة في حماس، وتحب المشاكل الفلسفية والمواقف المعقدة، تشرح لصديقاتها وأقاربها بالتفصيل، وهي نفسها لا تفهم بعض الكلام، وهن بالتأكيد لا يفهمن كلامها، ولكن يستمعن

في خجـل من إظهار جهلهن أمامها. كان يعرف شـكل الأغلفـة مع أنه لا يقرأ، وكثيرًا ما بعثت به ليختار لها الكتب؛ لأنها لا تسـتطيع الخروج، ويختارها بعناية من شكل الغلاف ورسمة الحروف. بل عرف حسن كل صديقاتها ومَنْ تفضل، مَـنْ تغار منها، ومَنْ تعجب بها، ومَنْ مخلصة ومَنْ خائنة. عرف أنواع الأقمشـة التـي تحبها، الأقمشـة الفرنسـية والهندية، تنتظـر حضور الصديقات وتشـتريها منهـن وأحيانًـا تبعث بحسـن ليأخذ الأقمشـة، وأحيانًا يعرف مـا تريد دون أن تخبره. وكل أنواع الطعام التي تفضلها يعرفها، والحلوى التي تسعدها والجيلاتي الإيطالي الذي اعتادته يحفظه. أعوامًا وهو يرافقها، هي لا تلاحظه إلا في أوقات قليلة، وهو يعرف عنها كل شيء أكثر من أبيها وأمها وكل أخواتها مجتمعين.

اليوم تلاحظه في غيظ لا حدود له. يرتدي جلبابه الأبيض، وطاقية بيضاء، وملامحـه الهادئة دومًا لا تـشي بأي شيء. فكرت أفكارًا خجلت منها بعد حين.. هو ابن سِـفاح..ابن جارية..ماذا تتوقع منه سوى الدونية وعدم الوفاء بالوعد! لو صرخت في وجهه الآن بعد أن تسبب في صفعة من الأب وفي حبسها أسبوعًا في البيـت تكـون قد قللت من شـأنها هي الهانم. ولكن لا بـأس من اللوم الحذر وإعلان الفوز.

قالت وهو يمد لها المظلة، ويسـير وراءها: حسن..عدم الوفاء بالوعد ليس من سمات الرجال.

لم ينطق.

تباطـأت لعله يقترب حتى تواجهه بقـوة، ولكنه لم يفعل، تباطأ هو الآخر. قالت في عدم صبر: أخبرت أبي مع أنك وعدتني ألا تفعل. ماذا يفيدك في هذا؟ لِمَ الغدر؟ ها أنا أعود لعملي. كنت تظن أنك سـتأخذ يومًا أو اثنين راحة؟ كنت تريد المال؟ لِمَ لم تطلب مني الراحة أو المال؟

- لم يجب.

قالت في عدم صبر وصمته يستفزها: أتوقع اعتذارًا، وأتمنى ألا تعد بما لا تستطيع بعد ذلك.

ربط نظره بالأرض، ثم قال: أطلب عفوك يا هانم دومًا.

قالت بسرعة واعتذاره لم يجدِ: وعدت، وأخلفت وعدك. لِمَ أخبرته؟

لم يجب. أعادت السؤال فتمتم: لم أعدك سيدتي. ولكنه خطئي أنا بالتأكيد. وأطلب عفوك.

فتحت فمها لتصرخ في وجهه، وهي تحاول أن تتذكر وعده، ولم تتذكر كلماته بالضبط..ثم تذكرت أنه بقي صامتًا، وأنها فهمت صمته بأنه وعد، وأنها ربما ظنت أنه أذكى مما ينبغي مع أنه لا يفقه إلا القليل. وشعرت بوخز الضمير والشفقة مع أنها لم تقسُ كما يفعل قرناؤها مع الخدم، ولم ترفع صوتها يومًا على أمه طوال حياتها ولا عليه. صمتت وتجاهلت وجوده. وذهبت إلى المدرسة. وبعد الانتهاء كان قد أحضر لها طلباتها من حلوى وقماش من السوق كما طلبت منه، وهو في انتظارها في عربة الحنطور، وما إن تجلت له حتى نزل سريعًا، وفتح لها المظلة، وانتظرها حتى امتطت العربة، ثم ركب وسار بالحصان إلى البيت.

***

سبح حسن اليوم عشرين ساعة أو يزيد، لا تعب ولا توقف. وغاص داخل النهر، وفتح فمه يطلب من المياه العذبة ملء جوفه، وتخفيف جفاف نفسه. شهق ولامست المياه أعماق بطنه. شعر بها على شغاف قلبه تحتوي روحه. غرق أو كاد.

ألقى بجسده على الشاطئ لاهثًا يتوق إلى الغرق، ولا يقوى على تبعاته وجبروته.

خرج متجهًا إلى سبيل الغارق يومها، وكان تائهًا عاجزًا عجزًا لم يشعر بوطأته من قبل. تمنى الغرق ولم يغرق. وتمنى المحو ولم يمح، وتمنى التوقف عن التمني، وازداد القلب جشعًا وافتراء.

في المستحيل غواية، وفي تمرد القلب بعض النشوة. ولكن في التمني هزيمة لا مفر منها. وفي إدراك العجز كل الألم.

الأماني دومًا تتفق عليك وتنهشك.

ذهب إلى الشيخ الزمزمي الصوفي في الخلوة في سبيل الغارق وقال في يأسٍ: لا أرضى بالمكتوب، فماذا ترى؟

ابتسم حينها، وقال: مثلك مثل كل البشر.

- سمعت من الشيخ محمد عبده: إن الإنسان مخير وليس مسيرًا.

- استمع وافهم، هذا أفضل جدًّا.

قال حينها في عدم صبر: لا يهمني إذا كان مخيرًا أومسيرًا. ولكنني أتوق إلى المستحيل. ساعدني يا شيخ لأدرك حجمي الصغير وقدرتي المتواضعة.

- يا بني تحكُم على نفسك وكأنك تعرفها مع أنك لا خلقتها من طين ولا شهدت تكوينها البديع.

- ليس لي اختيار. عذاب ليس بعده عذاب. أريدك أن تخففه عني.

- المستحيل لا يخففه سوى خالقه، ولا يسهله سوى خالقه، ولا يمحوه سوى خالقه.

قال في عدم صبر وهو يغطي وجهه: لو رحلت بعيدًا ترى أينتهي عذابي؟

- لم ينهِ الهرب العذاب قط.

- لا أمل لي في النجاة.

- تنشغل بغير الخالق.

- ليس بيدي. حاولت مرارًا ولا أستطيع.

- التوق للمستحيل يعذب، والعذاب يغسل النفس والعين، فترى وتفهم. لا تحاول محو العذاب بل استفد من وجوده لتبصر وتفهم. في الإدراك رضًا وفوز ونجاة.

ثم ردد كلمات أرهبت حسن حينها:

ولو خشيت الغرق فأنت غارق لا محالة

ولو وثقت من قلوعك فأنت غارق لا محالة

ولو سبحت سبعة بحور فلن تصل..

أبحر إلى البحر الذي تجهله تصل

فلا عبور إلى النجاة في السبل التي نألفها..

قال حسن وهو يتنفس بسرعة في رَوعٍ: كأنني سمعت هذه الكلمات من قبل..وغرقت مرة ومرات، جئتك أبغي السكينة فأيقظت بداخلي القلق.

- لا سكينة دون سلام مع الماضي.

- لا ماضي لي سوى ما أعرف يا شيخ. وما أقاسي في هذه الدنيا.

- بل عمق الروح لا يصل إليه سوى من اجتهد وبحث. والبحث داخل النفس كله أمواج عاتية ..تعرف يا حسن من المجذوب؟

قال والاسم يزعجه لا يدري لماذا: رجل عاش في هذا السبيل منذ أعوام، في زمن غير الزمن، وعصر غير العصر، كان أسعد حظًّا، هذا أكيد.

- المجذوب امتدت هزيمته إلى أبعد بحور. مثله مثل الشاطر حسن، بل هو الشاطر حسن. المجذوب من جرأته تعلق بابنة السلطان الغوري وكانت تدعى بلسم. سماها السلطان على اسم النبات الذي يحافظ عليه في حدائق مغلقة هنا بجانب السبيل.

- ألم يحب الشاطر حسن ابنة السلطان أيضًا؟ أي لعنة أكثر من أن يتوق العاجز إلى المستحيل؟

- ولكن ذلك زمن غير الزمن، بعد مئات الأعوام من لقاء الشاطر حسن باليمامة، ظهر المجذوب، وظن أن نجاته بيد ابنة السلطان، وكان يعرف ويتذكر أن الهزيمة مكتوبة عليه. كان السلطان الغوري حينها مهمومًا حزينًا بعد أن اكتشف البرتغاليون طريقًا جديدًا يلتف حول العالم، لا يعرف هو مداه ولا تفاصيله، ولكن يعرف أنه قضى على تجارة مصر وسيطرتها على البحار، بل أغار وهجم الفرنجة على بحار مصر وبحار البلاد التي تتاجر مع مصر فأصبحت الهزيمة ساطعة في الأفق، ثم جاء المجذوب إلى السلطان الغوري يريد أن يتزوج ابنته على أن يساعده في حربه مع البرتغاليين. وافق السلطان؛ لأن اليأس سيطر عليه،

ولأنــه كان يعــرف قدرة المجاذيــب واتصالهم بما هو أكبر منه. ولكنه اشــترط على المجذوب أن ينتصر أولًا في معركة البحر قبل أن يتزوج من بلسم.

- مــا علاقة هــذه القصة بي يا شــيخ؟ لا برتغاليين اليوم ولا ســلطان، ولا يمامة ولا معجزات.

- اســتمع واصــبر، ســيطر البرتغاليــون عــلى كل الأبحــر، وخنقــوا مصر فتــوارت أيام النصر، ولم ينجح المجذوب كما وعد الســلطان، انهزم في البحر ثم البر، فلم يتزوج من بلســم وازدادت وطأة الهزيمة منذ ذلك اليوم وحتى الآن، فــلا يوجد انتصــار واحد في الأفق لهــذا البلد. البعــض يقول إنها لعنة الشــاطر حســن ومن بعده المجذوب، تاه المجذوب بين الدروب، وأيقن أن الهزيمة تأتي لا محالة، ولا مفر من لعنة اليمامة. في دنيانا يا بني يسيطر القوي على كل الدروب حتى لو كان طامعًا.

- هذا ليس عدلًا يا شيخ.

- العــدل في دار الحق يا بني، ومن يدرك قيمة الســبل ينقذ نفســه وروحه. من يتذكر يدرك، ومن يدرك فلابد ألا يخاف.

- لا أفهم كلماتك يا شيخ.

- لِمَ فقد المجذوب عقله؟ هل تعرف يا حسن؟

- لا أفهم كلماتك يا شيخ..

حكى له الشيخ بالتفصيل..

فقال حسن: وماذا كان بيد المجذوب لو انهزم في البحر؟ حاول ثم انهزم.

- يـا بني، الطرق في دنيانا ثلاثـة: طريق للتقرب إلى الله، وطريق للعيش في الرضا بالقضاء، وطريق للسـيطرة على البحـور. عند اليأس لم يتقرب المجذوب إلى الله، وعندمـا لم يحصـل على بلسـم حبيبته، ضاع الرضا من مسـلكه، وعندما حارب البرتغاليين حاربهم بالطرق المألوفة، بينما لو كان صنع طريقًا جديدًا كان سينتصر.

- وكأنني سمعت هذا الكلام من قبل، طريق جديد؟ كيف؟

- التـف البرتغاليون حـول العالم عن طريق البحر، والطريق إلى قلب العالم هنـا، لو تعرف، في صدر مصر، لـو اتصلت البحور داخل مصر فلا قيمة لطريق البرتغاليين.

- كنـت تريـد للمجذوب أن يصـل البحور؟ هو مجذوب، وليس سـاحرًا ولا نبيًّا. لا هو موسى ليشق البحر، ولا هو عيسى ليمشي على المياه.

قال الشـيخ الزمزمي: لن تدرك ما أعنيه الآن، ستفهم يومًا ما، وعن قريب ستعرف. ولكن ليس اليوم. وعندما تفهم، حاول ألا تفقد طرقك الثلاثة. يقول شرف الأئمة الغزالي: فلا تسألني قبل الوقت، وتيقن أنك لا تصل إلا بالسَّير.

قال حسن في عدم صبر: هذه اليمامة قسوتها تعدت الشياطين.

- قال «لا تسألني قبل الوقت».

- لا عقاب يمتد آلاف السنين..

- قال: لن تصل إلا بالسير..

- أنت تعرف أن اليمامة شيطان؟ أليس كذلك؟

- لا تسألني قبل الوقت، ربما كانت خير صديق وأكبر معلم.

- لا رحمة في العذاب.

- بل باطن العذاب كله رحمة لو أدركت ووصلت.

- اليمامة صديق أم عدو؟

- لا يعلم الغيب إلا هو..ولا يصل الإنسان إلا بالسير..

انقبض قلب حسن حينها، وقال للشيخ:

- أي حكاية هذه؟

أطال كل منهما نظره إلى الآخر حتى قال الشيخ: تزعجك حكاية الشاطر حسن أم المجذوب؟

- لا أحب حكايات العذاب.

- تذكرك بعجزك.

- لا شأن لي بهما.

- هما واحد لوتدري.

- لا شأن لي بهما.

- هل عذابك مختلف؟

ثبت نظره إلى السبيل، وأغمض عينيه ورآها، كانت تظهر على حين غرة، وفي أوقات الغفلة دومًا. أخذ نفسًا طويلًا، ثم انقبض قلبه، وصمت أذناه وهو يسمع صفيرًا لا يتوقف..ويهوي من مكان عالٍ إلى أعماق بحر بعيد.

استلقى على ظهره، وقال: يا شيخ..لِمَ حكيت لي هذه الحكاية؟

- سألتني يا بني.

- حكايتك تفزعني.

- الفزع يصيب البشر دومًا .

ازداد الصفير حتى كاد يفقده السمع، وضغط على جفنيه لعله يتوقف. بدأ يقرأ الآيات، ثم قال: كيف أجعله يتوقف؟

- افتح قلبك، وثق بخالقك.

- هذه القصة قاسية. تخيفني..

- لست ككل البشر..هذا أعرفه..وكأنك عشت ألف عام أو يزيد.. حسن..انتبه لروحك، فهي ليست ككل الأرواح.

- ما الذي رآه المجذوب ففقد عقله؟

- البعض يقول إنه رأى هزيمته، ما مضى منها وما هو آتٍ، لكني أرى أن اليأس تفشى داخل قلبه.

- هل يمكن أن يفقد العاشق عقله؟

- لو كان العشق لغير الخالق. فعشق الخالق كله أمان، وعشق المخلوق متقلب وغادر.

- وهل للعاشق اختيار؟

- ربما ليس لديه اختيار فيمن يعشق، ولكن لديه اختيار فيما سيفعل بعشقه، وأي طريق سيسلك. توخَّ الحذر وأنت تصنع الطريق؛ حتى لا تهلك.

* * *

3

سـفر حسـن المفاجئ يزعجها دومًا، وكثيرًا ما طلبت من والدها أن يتكلم معـه، ويشرح له أن الإجازات لا بـد أن تكون قصيرة ولا تتعدى يومًا أو اثنين. أحيانًـا يغيب أسـبوعًا، ومرة غاب شـهرًا كاملًا. وهذه المرة عنـد رحيله ذهبت لوالدها، وقالت في عدم صبر: لا يتحمل المسئولية. كيف يترك عمله أسـبوعًا؟ ماذا أفعل أنا؟

هدأ الأب من روعها، وأخبرها أن أحد الخدم سـيوصلها اليوم إلى المدرسة حتى يعود حسن. ولكن هذا لم يهدئ قلبها. قالت: لا أثق في أحد غيره.

ابتسـم الأب قائـلًا: وأنا أيضًا يـا ابنتي، ولكني لم أشـتره. ولو قرر الرحيل نهائيًّا فلا أستطيع أن أمنعه.

فتحت فمها في ذهول قائلة: مسـتحيل أن يفعل هذا. كيف يتركك بعد كل ما فعلته من أجله؟ أي جاحد يفعل هذا؟

مر الأسبوع وهي متوترة، تارة تؤنب سائق العربة الجديد، وتارة تتجاهل وجوده. وعندما سألتها أمها عن سبب انزعاجها وعدم صبرها لامت حسن وتأخره وعدم تحمله المسئولية. وعندما عاد قالت له في مزيج من السلطة والإحباط: حسن لا يمكن أن تسافر هكذا أسبوعًا. أتمنى ألا تفعل هذا مرة أخرى.

لم يجب. ثبت نظره إلى الفرس كما يفعل دومًا فقالت مسرعة: تسمعني؟ تعرف أني أحتاجك معي عند الذهاب إلى المدرسة.

- أعرف يا هانم.

قالت في لهجة آمرة: لا إجازات قط بعد اليوم.

اليوم قالت جليلة لحسن في حماس: سنذهب لزيارة رقية صديقتي. هل تتذكر مكان بيتها؟

هز رأسه بالإيجاب، واتجه إلى المكان. سار وراءها بالمظلة كعادته، وما إن فتحت رقية الباب حتى قالت: لن تصدقي من يريد أن يراك يا جليلة! صاحب المجلة التي تكتبين فيها باسم مستعار الأستاذ هاني ناصف. تفاجأت جليلة حينها، ولم تخل المفاجأة من إرضاء للنفس، وشعور بتحقيق الأحلام. فمن المؤكد أن هذا الكاتب قد وجد بعض الأمل في كتابتها. والقليل من الإطراء هو ما تحتاجه لتكملة المسيرة. ترددت أيضًا، ثم نظرت إلى حسن، فقال: هل تسمحي لي أن أدخل معك يا هانم؟ وعدت والدك أن أصاحبك دومًا.

قالت وقد كانت على وشك أن تطلب هي منه ذلك: نعم تعال معي.

أشـارت إليهـا رقية بدخـول حجرة الجلوس، وكان الأسـتاذ هاني جالسًـا يشرب الشاي، وما إن رآها حتى قام من مكانه وقال:

- تشرفت بمقابلة صاحبة الموهبة والشجاعة جليلة هانم.

شـكرته، وقلبها يخفق من الحـماس، ها هو هاني ناصف الـذي تقرأ أعماله، هـا هـو صاحب الثـورة وصديق الحرية والمسـاواة. ها هو من يقـف ضد الظلم والظالمين ويبغي مصر أبية وقوية. وها هو يثني عليها أيضًا.

قـال في تأمـل وهو ينظر إليها: الحريـة هي الأمل والنجـاة، تداعب عقولنا وقلوبنا جميعًا. هل تفكرين فيها يا هانم؟ هل تتمنينها؟ لنفسك أم لبلادك؟

قالت بعد برهة: لا أستطيع الفصل يا أستاذ، حرية بلادي هي حرية نفسي، والعكس صحيح.

صفَّر في دهشة، ثم قال: أنت أذكى حتى مما توقعت وأبلغ!

قالت في خجل: شهادة أعتز بها من صاحب القلم الشجاع.

فأكمل: أنت وأنا نعرف ونفهم، غيرنا لا يفقه شيئًا.

ثم اتجه نظره إلى حسـن الذي يجلس القرفصاء على الأرض، وقال: انظري إليه، يحتاج إلى يد العون مني ومنك ليفهم ويعرف.

لم يبد تأثر على حسـن. وشـعرت هـي بشيء من الإحراج مـع أنها بداخلها كانت تعرف أن الصحفي الكبير على صواب.

نظر إلى حسـن، ثم قال في تهكم: هل تعرف شيئًا عن مشاكل مصر وديونها لإنجلترا؟ هل تعرف شيئًا عن الدين؟

لم ينتظر من حسن أي إجابات، ولم يبد حسن أي رغبة في الإجابة. ثبت نظره على السجادة المزركشة، وكأنه لا يسمع ولا يرى ما يحدث.

ابتسم هاني، وأكمل: يا هانم كم واحدًا في مصر يقرأ ويفهم؟ أقل من عشرة في المائة هي نسبة من يستطيعون القراءة أصلًا. ومن لا يستطيع القراءة كالطفل يحتاج من يرشده ويعلمه، وهذا دورك ودوري.

ضاقت بعض الشيء من سخرية هاني ناصف، ولكنها كانت مقتنعة أنه على حق. الجهل ينتشر كالكوليرا، ويعتصر كل الخيرات. الجهل حولها أو هكذا شعرت ، أزواج أخواتها يقرءون ويكتبون، ولكن عقولهم لا تفقه. قالت في خجل: أحيانًا من يقرأ ويكتب لا يعي يا أستاذ.

قال في حماس وهو ينظر إليها: اعرف عدوك. هذا أهم شيء، وتعلم من الغير. انظري، واقرئي عن ثورة فرنسا. سأرشح لك بعض الكتب. الثورة كما في فرنسا لا بد أن تكون على التقاليد البالية، والدِّين المتحجر الذي يحكمنا. الثورة ميثاق وبداية لعهد جديد وقوانين لا تفرق بين البشر. جئت اليوم أهنئك وأشجعك على شجاعتك أول مصرية تذهب إلى المدرسة، وتختار التدريس بها.

شعرت بشيء من عدم الارتياح من بعض كلماته عن الدين، برغبة تجتاحها أحيانًا بالتحدي. فمع كل إعجابها بهاني ناصف فمثَلُها الأعلى كان الشيخ محمد عبده، وكان ملهمها وسندها منذ البداية.

قالت: شجعني على الدراسة ثم التدريس الشيخ محمد عبده.

تغير وجهه وقال: يا هانم الشيوخ مصدر أسرك وإذلالك، والدين هو السبب فيما نحن فيه الآن من تبعيه واضمحلال. هل قرأت لفولتير؟ اقرئي

عـن الحرية وكيـف يقف الدين عائقًا في تحقيقها. الديـن يجعل أمثال هذا الخادم يرضخـون ويتقبلون قدرهـم، هذه وظيفة الدين. وهذا قالـه فولتير، ولا بد أن تقرئيه.

قالت في قوة: قرأت فولتير يا أسـتاذ. واسـمح لي أن أختلف معك، لم يكن ضد الدين، ولكنه كان ضد تدخل الدين في السياسـة، وضد تدخل الكنيسة في بلاده.

نظر إليها في انبهار: يمكنني أن أقسم الآن أنك أول امرأة تقرؤه في مصر.

- بل أعتقد أن هناك الكثيرات قرءوه.

ثـم أكملت في حماس: ولكن يا أسـتاذ الشـيخ محمد عبـده يدعو إلى الحرية والتجديد والفهم الصحيح للدين. ربما المشكلة في البشر وليس في العقيدة.

قـال في حـدة: كلام فـارغ لا قيمة له. هو شـيطان يتخفـى في صورة ملاك ومجـدد ومتنـور، إياك أن تثقي به، الديـن لا يقبل التعددية، لا بـد من قبوله بلا نقاش. اثبتي لي الآن وجود الله.

صدمها سؤاله فقامت في حنق.

قال في هدوء: أتكلم معك كما أتكلم مع رجل مثقف، اعذريني لو قسوت بعض الشيء. تريدين أن تتحاوري كالرجال وأفضل، أليس كذلك؟

قالـت وهـي ترتجـف بعض الشيء مـن الغيـظ: واثبـت لي حضرتك عدم وجـوده. لِمَ عـليَّ أن أثبـت أنا عقيدتي. لـو اختلفت معي اثبـت لي أنت أنك على صـواب. ثم إن الدين يقبـل التعددية والنقاش ألم يناقـش الملائكة الله والأنبياء ناقشوا ربهم وطلبوا الأدلة؟

قال في لين: جليلة، أتمنى أن يتطور عقلك، ويعي من ينافقك لغرض في نفسه، ومن يؤمن بك وبقضيتك، أنت ذكية، وكتاباتك عبقرية، الحرية غير مشروطة، ولا تتبع أي قواعد. ما الضرر مثلًا أن يشرب رجل الخمر أو أن يُقبل حبيبته قبلة كلها حب؟

قامت وصورة هاني ناصف تتفتت أمام عينيها وقالت: يا أستاذ أعتقد أن الحرية التي نبغيها أكبر من مجرد شرب الخمر أو القبلة، هي حرية في المعرفة والفهم، هي طريق للتنفس والتطور. هي التمكين من كل ما يحرمه علينا الرجال وليس ما يحرمه الدين.

قام هو الآخر وقال: برافو. أنت رائعة بكل المقاييس. كنت أريد أن أعرفك أكثر، ولا طريقة للرجل أن يعرف امرأة أكثر سوى باستفزازها.

بدأت تتجه إلى الباب: كنت أتمنى يا أستاذ أن تنحي جانبًا كوني امرأة وتقيم أعمالي. ولكن أشكرك على تشجيعك.

قال وهو يمسك بيدها فجأة: لم تذهبين بسرعة هكذا؟ جليلة ابقي معي ..

شهقت من هول المفاجأة، وحررت يدها، وجرت إلى الباب فشد عباءتها من الخلف وقال: تسمعين أوامري. قلت ابقي معي.

صاحت تنادي صديقتها ولم تجب، وحدث كل شيء سريعًا. حتى إنها حاولت أن تعيد المشهد في عقلها وترتبه مرات ومرات. شد هاني ناصف شعرها حتى كاد يقتلعه. صرخت بأعلى صوت. ظهر حسن لا تدري أكان يتبعها أم يمشي بجانبها، أمسك بيد هاني وحرر عباءتها وشعرها، وخرجت من باب الحجرة بأقصى سرعة وهي تهرول إلى باب الفيلا. سمعت شتائم من

هاني ناصف أكثر قسوة من شتائم الأطفال بل كانت أكثر عنفًا. يبدو أنها عندما جـرت من باب الحجرة وقف حسـن على البـاب ومد ذراعيه ليسـد الباب أمام هاني، فلكمه هاني عدة لكمات وهو يسبه ويشتمه ويسب جليلة أيضًا، قال أشياء مثـل: عاهـرة لا أكثر، جاهلة ومتعصبة، مكانك ليـس المدارس..مكانك بيوت الدعارة..ابتعد يا عبد يا أسود..ابتعد يا جاهل يا حقير..

لم يتحـرك حسـن من أمـام الباب. تقبـل اللكمات على وجهـه وكتفه، وهو يسـد الباب بذراعه، وفي سرعة غريبة خلع هاني حزامه، وانهال على بطن حسن وكتفـه ووجهـه حتى أصابه بالمعـدن الذي في الحزام في رقبتـه، فثُقب عرق وافر بالدماء. حدث كل هذا في أقل من دقيقة. لم يتزحزح حسن ولا رد الإهانة. وما إن تأكد من خروج جليلة من باب الفيلا حتى ابتعد عن الباب، واتجه بظهره إلى باب الفيلا وهاني وراءه يضربه ويسب ويلعن. ما إن خرج حسن من باب الفيلا حتى اختفى صوت هاني وضرباته.

كانت هي داخل العربة تلتقط أنفاسها وترتجف كما لم ترتجف من قبل.

ما إن جاء حسن حتى شد لجام الفرس، وشرع في السير بالعربة، بعد برهة طلبت منه الوقوف ورفعت خمارها وقالت وهي لم تزل تلهث من الخوف: أريد أن أشكرك.

لم يجب.

نظرت إلى الدماء التي تتساقط من رقبته ثم قالت: ربما لا بد أن أعتذر لك.

لا تعرف كيف قالت هذا، ولم تكن تظن أنها ستتفوه بهذه الكلمات لخادمها قط.

قال وهو لا ينظر إليها: يا هانم لم أفعل سوى واجبي.

قالت وكأنها تتكلم مع نفسها: لم أكن أتوقع أن يكون بهذه البشاعة. شيطان في زي راعٍ للحريات والثورة على الظلم. كل هذا العنف بداخله..يا إلهي هذا العنف مخيف. هو أسوأ من الإنجليز لو تعرف.

التفت إليها حسن في بطء وهو يتحاشى النظر إلى وجهها، فقالت في رقة: لا بد أن تطهر الجرح. وأتمنى، فقط أتمنى أن يبقى ما حدث سرًّا بيننا. لو أمكن طبعًا. هل يمكن ألا تخبر أبي هذه المرة؟

بدا مترددًا، فقالت في عصبية: لا تخبر أبي. لا بد أن تعدني ألا تخبره مهما حدث. لو أخبرته..

صمتت لحظات ثم قالت: لو أخبرته سيغضب جدًّا، ولا أريد أن يؤثر الغضب على صحته، وربما ينتقم من هاني ويؤذيه، هذا الرجل حقير. لا تريد أن تؤذي أبي أليس كذلك؟

وكانت تعرف أن هذه المرة غير كل المرات، ولو عرف والدها سيمنعها من الخروج إلى الأبد، وسيضربها، وسيقتل الصحفي ربما، أو يدخل معه في صراع نهايته هزيمتها هي. وكل مستقبلها الآن معلق بكلمة من هذا الخادم.

قال بعد برهة: هل نذهب إلى البيت الآن؟

فقالت في تأكيد وهي تتفحص وجهه وتحاول فهم ما يجول بخاطره. هل هو غاضب منها؛ لأنها تسببت في كل هذا الهوان له؟ وهي تعرف أنه لن يستطيع الرد على الصحفي ولن يبادله اللكمات، سيتحمل في صبر. هل يكرهها ويظن أنها غانية تقابل الرجال وتخاطبهم. لا بد أنه يظن أنها ناشز وكافرة تخرج كل

يوم وتدرس للأيتام والغواني. ماذا يدور في عقله يا ترى؟ طوال سبع سنوات لم تخاطبه سوى بكلمات قليلة، وأحيانًا كانت تنسى وجوده تمامًا ولكنه كان موجودًا يومًا وراء يوم، وعامًا وراء عام. لا تغير ولا تكلم ولا اعترض يومًا. ترى ماذا يعرف عنها؟ وماذا يظن بها؟ هل يلاحظ كلماتها التي تخرج في تلقائية أحيانًا وهي تتشاجر مع نفسها؟ هل يعرف شيئًا عن إحباطها وخوفها؟ هل يفهم ما تتعرض له كل يوم وما تخفيه؟ وهل يستطيع بعقله البسيط أن يستوعب وحدتها الموحشة بين أناس تلفظها وتكرهها إلا القليلين؟ هل يعرف شيئا عن وحدتها؟ وحدتها وسط أهلها وأخواتها وبنات العائلة، وحدتها وسط الأجانب في المدرسة والطالبات، وحدتها حتى أيام الأعياد وهي تتحاشى الكلام عن الزواج والأولاد، وعن شراء المجوهرات والملابس الفرنسية، وعن تفاصيل التطريز ووصفات الأكلات. كان موجودًا دائمًا. في الأعياد، في الزيارات.. ولكن ما يميز الخادم الجيد أنه يستطيع أن يختفي تمامًا عن الأنظار، مع وجوده حول الناس. يستطيع أن ينسيهم أنه حاضر مع أنه أمامهم وحولهم. فعل هذا بنجاح معها على ما يبدو.

قالت في تأكيد: ليس قبل أن تعدني.

لم يُجب. دست يدها في عباءتها وأخرجت بعض المال ومدت يدها به وقالت: لا أعرف كيف أكافئك، وأعرف أن أي مال لن يَفِيَك حقك، ولا يرد جميل ما فعلته اليوم. هل تقبل مني هذا المبلغ الصغير؟

رفض في هدوء وهو يشكرها ويدعو لها. قالت في تأكيد: لن تترك يدي ممدودة. أتمنى ألا تخذلني.

قال مسرعًا: لا أجرؤ يا هانم أن أخذلك، وأتمنى ألا أفعل أبدًا. سأتقبل منك أي شيء، ولكن ليس هذه المرة. اعذريني لو خالفتك هذه المرة.

نظرت إليه في دهشة، ثم أيقنت أنه لا يريد أن يتقبل منها المال؛ لأنه سيخبر والدها. ولاؤه الأول والأخير لوالدها، فقد انتشله من يتم وتكفل به، لا بد أن يشعر بالامتنان، ويرد الدين.

نعم لا بد أن يرد الدين. ولو بقي ولاؤه لوالدها وليس لها، فهو جاسوس عليها دومًا وليس حاميًا. ولا تعرف ماذا تفعل.

تنفست الصعداء، ثم قالت: أجبني بصراحة هل ستخبر أبي؟

قال في صرامة، وهو لم يزل يتحاشى عينيها: لن أفعل.

أمسكت بقلبها وحاولت التماسك، والارتياح له نفس أثر الخوف، ثم قالت: تعدني.

- أعدك يا هانم.

- وماذا ستقول عن الجرح في رقبتك؟

قال بلا تفكير: سأكذب.

الكلمة كانت أقوى مما توقعت، ولم تكن تعرف كيف تجيب. قالت بعد برهة: رب كذبة تنقذ بها حياة أفراد.

لم يجب.

قالت من جديد: ألست معي أن الكذب أحيانًا مفيد في حالات الخطر مثلًا؟

قال: كل ما تقولين صواب يا هانم دائمًا.

لا تعرف لماذا اجتاحها شعور بالرغبة في إقناعه. قالت في تأكيد: مثلًا لو كذبت على عدوك لتكسب حربًا أليست الحرب خدعة؟ أو لو كذبت أحيانًا من

أجل أن تفعل شيئًا هو حق لك، ولكن شخصًا ما يظن أن من حقه أن يمنعك منه.. أتفهمني؟

قال في تأكيد: كلامك دومًا صواب يا سيدتي.

قالت: أنت مقتنع برأيي؟

بدا مترددًا ثم قال: ليس لمثلي أن يقتنع أو يعترض يا هانم. فلا الاقتناع يغير الكثير ولا الاعتراض. هذا واجب أمثالك وليس أمثالي.

- لكل فرد الحق في الفهم والاعتراض. هو حق من الله ولا يتحكم فيه البشر.

لم يبد أنه فهم كلماتها ولم ينطق.

قالت بعد برهة: أريد أن أشكرك على شجاعتك مرة أخرى وعلى وعدك، وهذا أهم.

هز رأسه، واتجه بنظره إلى الفرس فقالت: يمكننا العودة إلى البيت.

ولم تثق في وعده. اتجهت عيناها إلى الدم المتدفق من رقبته، يخرج بغزارة واندفاع ولا يشي بنجاة. وازداد قلقها على مصيرها، وعليه. لمست بأصبعها نقاط دماء على أرض العربة، تأملتها في حيرة وقالت: هل أنت بخير يا حسن؟

- أنا بخير يا هانم.

* * *

عندما رأت تمرهان الدم الذي يفيض من عرق ابنها بجود النيل وتدفقه، صرخت، وولولت، ووضعت الضمادات والقهوة، وسألته عما حدث. لم يجب.

ولكنها رأت عينيه التي تحوم حول المكان، كالأسد السجين وعندما ترى هذه النظرة في عيني ابنها تعرف أن الخراب قادم، وأن الموت لا محالة منه.

همست حينها: أشعر بك يا حسن. يخيفني ما أراه في قلبك.

قال في صوت هادئ: وما الذي يمكن أن يخيف في قلب الخادم؟

- دومًا رابط الجأش، ودوما تسيطر على نفسك، وتتصرف بحذر. ومثلك يخيف.

- تخافين ابنك لأنه يطيع كل الأوامر؟

قالت وهي تنظر إلى عينيه: بل أخاف ابني؛ لأن الغضب كامن في الأعماق ومعه تمرد لا يعتدل الكون به.

قال مسرعًا: لا تمرد لدي.

- ليتني أصدقك. كيف جرحت اليوم؟

- وقعت.

قالت مسرعة وكأنها تحاول تهدئته مع أنها لا تعرف سبب فيض اللهب داخل الروح: نحن محظوظون. تعرف هذا، أليس كذلك؟ أحمد بك رجل يتقي الله وزوجته ملاك وبناته..ما رأيك في جليلة هانم؟ هل تسيء معاملتك؟

قال وهو ينظر إلى الأفق من نافذة حجرته الضيقة: لا تفعل.

- لا تحكي عنها كثيرًا مع أنك تقضي معظم اليوم معها.

لم يجب. ولكن قلبها لم يهدأ ونظرة ابنها لم تزل تنذر بالشؤم.

* * *

تجربة الهجوم على جليلة هزتها أكثر مما اعتقدت حينها، فباتت تفكر في كل حياتها منذ قرار الذهاب إلى المدرسة وحتى اليوم، وتندم أحيانًا وتحزن تارة. لو لم تذهب إلى المدرسة لكانت زوجة الآن وأمًا، ولم تكن لتحتاج أن تشحذ لحظات مع أولاد أختها، ولا أن تختفي حين زيارة الأهل وسؤالهم عن زواجها ولِمَ تأخر. أكانت المعرفة تستحق كل هذا العناء؟ ثم يتهمها من حولها بالجرأة والجنون أحيانًا. ثم يأتي هاني أحد من كَونوا فكرها، وشجعوها على الكتابة، لينكمش أمامها في ثوانٍ فيصبح أقل من عقلة الإصبع وأكثر إيذاءً. كان خطأها. لامت نفسها لأنها أعطته الذريعة ليظن بها ما ظن. لِمَ ظن بها ما ظن؟ هو ذنبها. ألأنها كانت تكتب؟ ألأنها زارت صديقتها في بيتها؟ ألأنها تقابلت معه بحضور الصديقة والخادم ودون موعد مسبق؟ كان لا بد أن ترحل على الفور حين وجدته. ولكنها اعتادت أن تقابل الشيخ وخالها دون حذر، ولم يخطر على بالها يومًا أن شيئًا كهذا يمكن أن يحدث. قالت لنفسها: ربما على المرأة أن تلتزم بيتها إذن حتى تكف الأذى عن نفسها. وعليها الآن أن تنسى الكتابة، وتنسى التدريس وتقضي بقية عمرها في حجرتها تندم على خطأ لا تفهمه بالضبط وعلى عمر ضاع لا تعرف أين ذهب، وكيف ضل ولم يصل.

ما تعلمته في المدرسة غيرها. فمع أنها أجادت العربية والإنجليزية والفرنسية قبل الذهاب إلى المدرسة فهي لم تعرف الكثير عن الطرق والاتجاهات وخرائط العالم، أول درس جغرافيا غيَّر نظرتها لبلدها ولنفسها. عرفت أن في العالم قارات مختلفة وبحارًا ينفتح بعضها على بعض، ويتحكم فيها القليلون، وأن إنجلترا أميرة البحار، تحوم حول الهند وإفريقيا، وأن مصر تقع في منتصف الطريق بين آسيا وأوروبا، فلو لم يسر الطريق من خلالها فسوف يسير من حولها. درست القليل من التاريخ أيضًا، كان هناك قدماء ينتصرون دومًا،

ويبنون ولا يهدمون وأنشأ المصري حضارة منذ زمن أو حضارات مختلفة ربما. هذه الأشياء لم تتعلمها في البيت. اختلطت بالأجانب والأيتام، ورأت العذاب في عيون النساء، وفهمت اليتم والعجز والانكسار. عرفت الكثير وقرأت من المكتبة الصغيرة كل كتاب تجده. وأهم من كل شيء عرفت كيف يمكن للبشر أن يصطف ويثابر طلبًا للعلم لا للحرب. تستحق المدرسة إذن أم لا؟ بعد أن قابلت هاني لم تعد متأكدة.

لاحظت الأم وجومها، وسألتها فلم تجب. وكانت تنتظر في قلق هجوم الأب أو أن تخبر تمرهان الأم بما حدث. بل كانت تحاول دائمًا التواجد مع الأم وهي تتكلم مع تمرهان. استمعت يومًا لتمرهان وهي تشتكي من جرح ابنها العميق الذي لم تكتمه القهوة ولا أفلحت معه أعشاب. لم يزل ينزف من حين إلى حين. قالت الأم في عدم اهتمام: اعرضيه على حكيم.

ولكن تمرهان قالت إنه لن يوافق. سألتها الأم: وماذا فعل ليجرح هكذا؟ تشاجر في الخان أم ذهب إلى أحد البارات وشرب وتشاجر مع أصدقائه. ابنك يا تمرهان يحتاج إلى زوجة. بقاؤه بلا زوجة حرام وغير مفيد.

- أعرف يا هانم، أقسم لك أني أعرف، وننتظر النصيب. ابني لا يشرب، ولا يسهر، تربيتك يا هانم وتربية البك. مع حفظ الألقاب طبعًا. سأبقى مدينة لكم طوال عمري لن أفيَ ديْني لأني لا أستطيع، ولكن ولائي لكم طالما حييت.

- الولاء والشكر لله يا تمرهان. إذن كيف أصيب بالجرح؟

- قال إنه وقع من على الحنطور، ودخل مسمار في رقبته. كان سيموت لولا ستر الله.

تنهدت جليلة في ارتياح. واستمرت خلوتها في حجرتها أيامًا أخرى. حتى جاءها زائر لم تتوقعه. زارتها رقية صديقتها التي تسببت في كل هذا. فكرت

ألا تقابلهـا، وقـد اقتنعت تمامًا أنهـا متواطئة مع هاني وشريكـة في جريمته. فقد استـغاثت بها، فاختفت، ولم تحاول مسـاعدتها. كانت أسوأ من قابلت بالتأكيد، وأكثرهم خداعًا. ظنتها تؤمن بالمسـاواة وهي في الحقيقة تؤمن بالبغاء، وتساعد عليـه لا أكثر. مـن المؤكد أنها جاءت تعتذر، ولن تسـامحها جليلة. ولكن رقية لم تأتِ لتعتذر بل لتهدد وتنذر وكأن المصائب لا تنتهي. جاءت ومعها نبأ من هاني يهددهـا بأنها لو لم توافق على مقابلته سـيخبر والدها بما حدث، وسـيفضحها في كل المحافل، وسـينشر أنها اختلت به، وأنها طلبت مقابلته، وأنها كانت سـتفعل أي شيء لينشر مقالاتها. قال إن لديه أدلة، وأولها رقية نفسها وأن كلمته ستكون فوق كلمتها وأقوى من كلمتها وأعمق، وأن كلمته سوف تخترق عمرها فتهدمه، وأنها لو قابلته مرة واحدة فقط ليشرح لها ما حدث سـيعدها أن ينسى تمامًا ما قد كان. اسـتمعت جليلة وكان لديها طبع غريب منذ الصغر ربما، هذا الطبع المنفر بالنسـبة لأمها هو الثبات عند المواجهة والعناد عند التحدي، بل لطالما شـعرت بنشـوى الانتصار لو أثبتت للآخرين أنها أقوى مما يظنون وأعنف لو لزم الأمر. فسـخرية الجميع لم تكن بالأمر السـهل، والتسـخيف من قدراتها العقلية جعلها تتحمـل في صبر الحمير. اسـترقت السـمع لمـن يتهمها بأنها رجـل في زي امرأة، وبأنها لا تغري فحلًا أو ثورًا وسمعت من يقول إنها ولدت بأعضاء تناسلية لولد وبنت، يا سـبحان الله! وإنها ذهبت إلى المدرسة لتلهي الناس عن حقيقتها. وكم سـخر النساء من ردودها الغريبة، وتسريحة شعرها غير المهندمة وصدرها الذي ادعت بعض النساء أنه صغير تارة وادعت أخريات أنه كبير تارة أخرى. كرهتها نساء العائلة، واحتقرها رجال العائلة إلا القليل. العند ليس صفة حميدة للمرأة، والزوجـة العنيـدة هي من تخرب بيتها بالتأكيد، وهناك سـبب بل أسـباب لعدم زواج جليلة. كل هذا سمعته كثيرًا. وربما لم تدرك الغيرة الكامنة في الأعماق من رجال ونسـاء، فجليلة جميلة ومع ذلك لم تستسـلم لا لرجل ولا لعرف. أثارت

حفيظة نساء العائلة بجمالها الذي لا يتبع قواعد، وبنظرات الرجال إليها التي لا تخلو قط من شهوة أو طمع. والأدهى والأمر هو عدم إدراك جليلة لسطوة جمالها المختلف.

أما كلمات رقية اليوم فقد غيرت كل ما كان. قالت في حدة: أتمنى ألا تزوريني مرة أخرى قط. وأخبري هذا الرجل بردي في كلمتين بل ثلاث. أنا لا أخاف.

فتحت رقية فمها، فقامت جليلة، ونادت على الخادمة لتصطحب رقية إلى باب الفيلا.

بعد هذه المقابلة قررت جليلة العودة للمدرسة، ومع أن القليل من الخوف استقر بداخلها، فهي لم تنطق به لأحد. في الصباح طلبت من أمها أن تطلب من حسن تجهيز الحنطور فهي في حال أفضل وستذهب إلى عملها.

طوال المسافة لم تتكلم معه، ولم ينطق بكلمة. لاحظت الجرح وبدا لها أنه تحسن، ولكنه سيترك أثرًا إلى الأبد ليذكرها بحماقتها ودينها له، هذا أكيد. فتح المظلة، وسار وراءها بخطوات متناسقة، كلما هدأت خطواتها هدأت خطواته، وكلما أسرعت بخطواتها أسرع بخطواته، قالت وقد اقتربت من المدرسة: حسن..

- نعم يا هانم.

توقفت واستدارت له وقالت: أريدك أن تعرف أن هذا الحقير هددني بأن يكذب وأن يقول لأبي ما حدث. لا أعرف لو كان سيفعل. لو فعل لا بد أن تفي بوعدك. وعدتني، تتذكر؟

هز رأسه بالإيجاب.

قالت في تأكيد: حتى لو سألك أبي، وألح عليك.

هز رأسه مرة أخرى.

فقالت بلا وعي: تظنه سيفعل؟ هل سيخبر أبي؟

فاجأته بسؤاله عن رأيه وليس لمثله أن يسأل ولا يستشار، نظر إليها دون إرادة لحظة ربما، ثم طأطأ رأسه وقال: لا.

قالت في استغراب: قلت لا؟ لن يفعل. كيف تعرف هذا؟

لم يجب.

وتداركت نفسها، وعرفت أنه ربما لاحظ أن هذا الحوار لا بد ألا يحدث أصلًا، وأن الخادم ليس له رأي، ولو كان له رأي فلا يمكن الأخذ برأيه هكذا. خجلت من جرأتها، ثم أدارت وجهها وتقدمت خطوات وهو وراءها.

* * *

لجأت تمرهان وابنها إلى بيت أحمد بك منذ زمن.

تمرهان لم يكن الاسم الحقيقي لأم حسن. لا أحد يعرف اسمها الحقيقي، وربما نسيته هي بعد خطفها وبيعها في سوق النخاسة في القاهرة. ثم منع الخديوي إسماعيل تجارة الجواري. في البداية نقل سوق النخاسة خارج القاهرة؛ لأن منظر العبيد كان يزعج الأجانب، هكذا قالوا، وكأن الأجانب لم يختطفوا أو يتاجروا في العبيد، وكأن الحرب التي تدور في أمريكا لم يكن سببها العبيد. ثم منع تجارة العبيد تمامًا. ظن إسماعيل أنه حرر العبيد، كما ظن أن المصريات سيلتحقن بمدرسته..وكما ظن أن الطريق الجديد يفتح الباب لمصر. ظن الكثير...وتلاشى كالهواء من أمام أهل مصر. بعد أن منع تجارة العبيد والجواري، بقيت تمرهان

في بيت سيدها ولم تتركه. وعندما حملت في ابنها طردتها صاحبة البيت في ازدراء، واختفى سيدها، ولم يكن أمامها سوى اللجوء إلى الشارع أو أن تجد من يساعدها. تقبلت مصيرها في خضوع. جاءت من أقصى الجنوب، وتناوب اغتصابها تاجر نخاسة بعد آخر، وسيد بعد سيد وهي تتقبل ولا ترفض، ولا تحاول الهرب. حتى طردتها زوجة سيدها، وأصبح الطفل في أحشائها عائقًا ومصيبة. كرهته قبل أن يولد. كرهته لأنه تسبب في طردها، وكرهته أكثر؛ لأنه يذكرها بآلام من رجل كان يتفنن في تعذيبها وقت اغتصابه وكانت تتحمل.. فلا اختيار سوى التحمل.

شادي بك، أبو حسن، تفوق على كل من قبله في فنون التعذيب، فلم يترك السوط يده صباحًا ومساءً، وكان يعتبر الحرق في مرتبة المغازلة، وغرز المسامير في الجسد كأكل الحلوى. عندما كان يسافر تتبدى الجنة على الأرض، رأته يلاطف الزوجة والابن فلم تعرف هل يدعو وجهها الأسود إلى العنف أم أن العنف بداخل الرجال يحتاج إلى العاجز الذي لا يقوى على الصراخ ليتفجر. ولكنها لم تفكر في الرحيل قط، حتى طردتها زوجته. تعلمت منذ اغتصبها التاجر وهي في الثالثة عشرة أن ما تحتاجه هو سقف تحتمي به وطعام تأكله، وأن العذاب جزء من هذه الدنيا، يأتي بصور مختلفة،أحيانًا يكون عن طريق لمسات رجل، وأحيانًا يكون عن طريق الفقد والغربة. ولكنه مكتوب على البشر كالموت والميلاد. وتعلمت أيضًا أن العذاب وفوقها سقف يغمرها معروفٌ، ويمكن توقعه والتعايش معه، أما عذاب المسالك المجهولة فلا حدود له.

أقسمت أن ترمي طفلها أول ما تلده، وعثرت على عائلة جليلة، أفضل من قابلت، وأطيب الناس. أخذتها بثينة في كنفها، وأعطتها مأوى، ولم تعطها

مالًا فلم تكن تحتاجه. عندما تحرك الطفل في أحشائها تقززت واحتقرت نفسها وتمنت أن تلده ميتًا، أو أن يخرج سريعًا فتتخلص منه، وعندما ولدت ابنها تدفق لبنها فازداد الضيق، قررت أن ترضعه أولًا، ثم تتخلص منه ولم تعطه اسمًا حينها، فلن يكون له وجود في حياتها. لم تنس طوال عام الرضاعة قسمها، ولا هجوم والده عليها كل ليلة. وبعد أن فطمته، تسللت ليلًا إلى ملجأ أيتام، ووضعت الطفل أمام الباب، وتركته ورحلت. وكلما ابتعدت عن الملجأ ينشطر القلب نصفين أو أكثر. بعد أن سارت نصف ساعة صرخت صرخة لم تدرك عمقها، وهرولت إلى الملجأ وهي مقتنعة أنها لن تجده، ولن تراه مرة أخرى بقية العمر. عند الاقتراب رأته من بعيد نائمًا أمام الباب كما تركته، وكلما دنت منه، ظنت أنه يبتعد ويصبح الوصول إليه مستحيلًا، صاحت وهي تلهث: ابني.

ثم احتضنته حتى كادت تقتله خنقًا، وهي تبكي وتتمنى أن تحرق جسدها اليوم بيدها، فقد شرعت في أن تفني ما تبقى من العمر، ولم تنس تلك الواقعة بقية عمرها. وكل ليلة تلوم النفس وتوبخها حتى لو لم يدرك حسن قط. لم تتكلم معه عن أبيه كثيرًا، قالت إنه كان رجلًا طيبًا ومات قبل ولادته. وأقسمت أن تخدم بثينة هانم بقية عمرها، وعلمت ابنها الإخلاص لمن ربوه وأعانوه والتفاني والصدق في خدمتهم مهما كانت الظروف. عندما كبر حسن عرف أن والده لم يمت فهو لم يكن حيًّا أصلًا. فهو ليس له وجود.

عندما فاتحت بثينة زوجها أحمد بك في موضوع تمرهان منذ أعوام مضت، حكت له كيف ألقت بها زوجة شادي بك، أحد معارفها، إلى الشارع، وكيف لجأت إليها تمرهان، لا تطلب سوى سقف فوقها ومستعدة أن تخدمهم طوال العمر. يعرف أحمد ثابت أبا حسن. يراه كل يوم، يتكلم معه ويتبادلان السلع

والمعامـلات. بدا له أنه رجل رقيق الطباع، هادئ، وكثير الضحك والتفاهات. أفاضت إليه زوجته يومًا عما فعله أبو حسن بتمرهان ولم يصدق. كون أبي حسن عاشر جاريته فهذا حقه، وربما فعل هذا قبل منع شراء الجواري، ولكن ما قالته ووصفته بثينة شيء مختلف. أقسـمت بثينة أنها رأت علامات على جسـد تمرهان تعاف العين أن تنظر إليها، وأن ما حكته تمرهان ليس بأفعال إنسـان بل جن أو شيطان. وأقسمت بثينة أن تمرهان كلما سمعت سيرة هذا الرجل ترتجف ارتجافًا لا يتوقـف حتى بقراءة القرآن الكريـم ولا بانطفاء الأنوار، ولا بالنظر إلى عيني طفلها.

فكـر أحمـد ثابت في أن يواجه أبا حسـن، وربما يخبره أن له ولـدًا، غالبًا ما يقابلـه صدفة من حـين إلى حين. ولم يصدق كلمات بثينة، فـما تراه العين يختلف عـن الحكـي. في يـوم كان حسـن في الثالثـة عـشرة قـرر أن يخبر الأب بطريقة غـير مباشرة عن وجود ولـد، فربما يريد أن يعرف عنه شـيئًا. قال بعد السـلام والعصائـر: شـادي بك..هل لو أنجبت جارية من سـيدها يعـترف بالولد؟ ما رأيك في هذا الموضوع؟

بدا على الرجل الحيرة، ثـم قال: ابن الجارية ليس له أب يا أحمد بك.

قـال أحمد في لطـف: أعني لو كانت ملكًا لرجل واحد، ولم يمسسـها غيره أليس الولد للفراش؟

قال شادي حينها في حزم: ابن الجارية عبد وليس له أب. هل تقصد جارية بعينها؟

تردد أحمد، وبقي سـاكنًا، فأكمل شـادي: الجواري لسـن مثلنا، لا يشعرن مثلنا ولا يفقهن، هن جنس مختلف. هناك سـبب لأن يخلق البعض للاسـتعباد، والبعـض لشراء العبيد. لكل شيء في الكون سـبب يـا أحمد بك. لا تصدق هذا

الـكلام الفـارغ عن تحرر العبيد، وحظـر بيعهم. انظر إلى أمريكا تحارب بسـبب العبيد، ولو تحرر العبد أين يذهب؟ لو حررت العبيد وجعلتهم يختلطون بالبشر العاديـين يختل نظام الكون. يخرجون علينا كالغيـلان يحرقون الزرع، ويسرقون المال. العبد بلا سوط في يدك يخرج عن السيطرة.

ثـم اقترب من أحمـد وقال: أريـد أن أنصحك نصيحة، وأرجـو أن تتقبلها منـي، فأنـا مثل أخيك. لديك عبد أسـود رأيتـه اليوم على ما أعتقـد وهو يحمل القطن يبدو في سن مراهقة.

ثـم اقـترب أكثـر وقال: لـو لم تبدأ في جلده مـن الآن، فأنا غير مسـئول عما سيفعل. اجلده حتى تخرج طاقة الشر بداخله. اجلده حتى ترى عينيه مكسورتين أمامك إلى الأبد وإلا فلا أمان له.

التقت أعينهما ولم يكن أحمد متأكدًا لو كان شـادي بك يعرف أن هذا العبد ابنه أم لا. ولم يجرؤ على الكلام معه أو إخباره. خاف لحظتها من أن يقرر شـادي أخذ حسن واستخدامه كعبد أو تعذيبه، وصدق كل كلام تمرهان.

في اليوم نفسـه قدم حسـن لوالده الشـاي، وعيناه مثبتتان على الأرض، ولم ينظر إليه شـادي ولو نظرة واحدة، ولكن حسـن نظر إليـه مليًّا. ما جال بخاطر حسـن لا يعرفه أحد. أيمكن أن يكون قد عرف أن هذا هو والده؟ أسـألَ يومًا مـن أبوه؟ أسـمع حديثهـما عن بعد؟ بعد أن رحل شـادي. نـادى أحمد بك على حسن، وطلب منه الجلوس. جلس حسن على الأرض، وعيناه تنظران إلى أحمد. فقال أحمد بك في رفق: ما رأيك في شادي بك؟

بدت عليه الحيرة ثم قال: ليس لي رأي يا بك.

قال أحمد: عندما رأيته اليوم..بم شعرت؟ أقصد هل شعرت أنه طيب، أنه رجل يمكن أن نتعامل معه في تجارتنا مثلًا؟

صمت برهة، ثم قال: أنت تعرف أكثر عن هذه الأشياء يا سيدي.

قال أحمد في عدم صبر: أجبني يا حسن. لو طلب مني مثلًا أن أعطيك له لتعمل معه، هل أوافق؟

قال حسن مسرعًا، وهو يهوي إلى الأرض: أتوسل إليك ألا تفعل. هل فعلتُ ما يغضبك يا أحمد بك؟

قال وهو يقوم ويمسك بذراع حسن ليرفعه: أنت نعم الرجل. لم تحب شادي. لا تروق لك عجرفته وقسوته، أعرف.

قال بلا تفكير: ليس لمثلنا أن يحب ويكره. هكذا تقول أمي.

- أنت بشر يا بني وكل البشر تحب وتكره، وبعض البشر يقسو ويظلم .. الكثير من البشر يقسون.

امتزج الغرور بالورع داخل أحمد بك فاستحسن كلمات حسن، وأعجبه توسله بالبقاء، وأكدت له كلمات حسن تفوقه الأخلاقي والمالي على شادي بك، وقاده ورعه الملتحم بحب الذات إلى أن يحسن معاملة حسن ليثبت لنفسه أنه الأفضل والعالم الحقيقي ببواطن الأمور. وحاول أن يتجنب أي معاملات مالية مع شادي بك. وفكر في هذا اللقاء الذي جمع الأب بالابن، ولم يعترف أي منهما بالآخر. وبعد أعوام أيقن بداخله أن شادي عرف أن حسن ابنه، وأن حسن عرف أن شادي أبوه. وازداد شعوره بأنه هو، أحمد، الأفضل والأعلم والأكثر تقوى لله.

علاقة أحمد بحسن لم تكن علاقة أب بابنه، ولا خادم بمخدومه، ولا صديق بصديقه، ولا عامل بصاحب العمل. كانت علاقة غريبة. في البداية امتزجت مشاعره ما بين شفقة وشيء من الخوف. سمع الكثير عن غدر الخدم والعبيد والفلاحين والفقراء. والطاعة والولاء لا تشفع لحظات الطمع. كان يتعامل معه بحذر ويراقبه عن بُعد منذ جاء وهو طفل رضيع. عند بلوغه العاشرة طلب منه ألا ينام في بيت الخدم في حديقة الفيلا بل في المحل، وأن يزور أمه كل يومين بعد الاستئذان. ومنعه من رؤية أهل بيته على الإطلاق. وافق في حماس. ولم يطلب الكثير قط. لا طلب المال ولا الملابس ولا حتى الحلوى. أقنعته أمه أن ولاءه لا بد أن يكون لأحمد بك؛ فلولاه لكانت نهايته مثل نهايتها. ولكن الطفل لم يفهم كيف اختلفت نهايته عن نهايتها. كانت تعمل في البيت، وكان يعمل في المحل. كان يخدم، وكانت تخدم. اصطحب حسن معه يومًا ليحمل له الطعام والمشروبات إلى خلوة المطرية، وعندما رآه الشيخ الزمزمي سأل أحمد من يكون؟ فأخبره أحمد أنه خادمه جاء معه.

قال الشيخ الزمزمي: تأتي لتتقرب إلى الله وتنسى الدنيا في خلوة لا يفرقك عنه فيها شيء ومعك خادم؟ أتريده أن يقف عائقًا بينك وبين ربك؟ لا بد أن تأتي إلى ربك وأنت الخادم وأنت العبد، تأتي بلا حمول. والحمول يا أخي هي المال والجاه والعزة والطعام الوفير والقناطير المقنطرة. تريد أن تقضي خلوة تقربًا إلى الله أم لا؟

قال أحمد : هذا ما أريده.

فقال الشيخ في صرامة: هذا الطفل يحتاج رعايتك. كن أنت الخادم ..اكسر هيبتك وتكبرك فلا يلقاها إلا أصحاب القلوب السليمة ﴿ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

- تطلب مني المستحيل يا شيخ. كيف لي أن أتعامل معه عند العودة؟

- وعندما تلبي دعوة الله إلى بيته، وتختلط بالأبيض والأسود، الغني والفقير، الرجل والمرأة، وتساعد المحتاج وتفسح له الطريق، هل تسأل حينها لو كان من ذوي الأملاك؟ هو الله يجيب المضطر إذا دعاه. لو كنت جئت مضطرًّا مأزومًا، فداوِ نفسك وغرورك.

لم يفهم الطفل ذو العاشرة الكثير من كلام الشيخ.

ولكن أحمد نظر إليه حينها، وأمسك منه الطعام، وطلب منه الجلوس، وكسر قطعة خبز، وأعطاها له وقال في حنان: كل معي يا حسن. في الأيام القادمة أريدك أن تبقى معي، ولا تحكِ لأحد عما حدث هنا.

ولمدة عشرة أيام كان أحمد أبًا لحسن. يراعيه، يحضر له الطعام، ويعلمه الصلاة. كاد الطفل أن يصاب بالجنون؛ فلا هو يعرف أحوال البشر، ولا تقلباتهم. قال أحمد: ما يحدث هنا كأنه يحدث في عالم ثالث. هناك ثلاثة عوالم يا حسن: دنيانا التي نعيشها ونخطئ ونذنب فيها طوال الوقت، وعالم الأبدية حيث الحساب والثواب والعقاب، وحيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من رحم ربي، ودنيا ثالثة بين هذه وذاك. نحن فيها الآن. في هذه الدنيا أنت ابني أرعاك ولا ترعاني، أسمع منك ولا تسمع مني.

قال حسن في براءة: وهل يمكن للدنيا الأولى والثالثة أن تلتحما؟ أو تصبح الأولى قصيرة وتستمر هذه الدنيا طويلًا؟

ضحك أحمد ثم قال: تصبح جنة ولا جنة على الأرض يا بني. نصلي معًا ثم أجهز لك اليوم أكلًا مختلفًا.

استمع حسن لدروس الشيخ الزمزمي في حماس، ولم يفقه كثيرًا منها، ولكنه فهم إحباط أحمد بك وقلقه المستمر.

قال أحمد بك للشيخ الزمزمي: القلق على بناتي ومالي يسيطر عليَّ، فلا سعادة تدخل قلبي.

فأجاب الشيخ الزمزمي وهو يقرأ: قال زين الدين وإمام الأئمة أبو حامد الغزالي:

«السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة كلها في أن تملكه نفسه».

لا تجعل همك على راحتك وراحة نفسك. سيطر على طمع النفس وفزعها تَفُز يا أخي.

ثم نظر الشيخ الزمزمي لحسن وقال: تفهم يا بني؟

هز الطفل رأسه بالنفي، فقال الشيخ: ولأنك غافل، يومًا ستتذكر من تكون وكيف صرت. وعندما تتذكر ابحث، وانظر حتى تجد الطريق. يقول الغزالي: «من لم يشكَّ لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في متاهات العمى».

- تفهم يا حسن؟

قال في خجل: لا أفهم يا شيخ.

ابتسم وقال لأحمد بك: هذا الصبي.. مختلف.. حافظ عليه.

ثم ختم حديثه بكلمات للغزالي من جديد.. يا أخي «اجعل الهمة في الروح، والعزيمة في النفس، والموت في البدن».

ما حدث في سبيل الغارق لم يترك «حسن»، ولم يستقم عمره بعده. خلوة السبيل تغير النفس، وتربك العقل؛ فلا السيد سيد، ولا العبد عبد، ولا الدنيا تستحق المقاتلة من أجلها. عند عودته من هذه الجنة حيث كان هو السيد وهو الآمر، توقف عن الطعام والنوم، وكان يبكي ليلَ نهارَ، ولا يعمل ولا يريد رؤية أمه، ولا حتى أحمد بك.

دخلت عليه أمه بعد حين بعينين كلتاهما ألم، وقالت في حسم: عد إلى عملك، ولا تبكِ كالنساء، لا أعرف ما حدث عندما سافرتَ مع سيدي أحمد، ولكنك ابني وللأم حقوق على ابنها. وأنت رجل، ليس لي غيرك. وليس لي مالٌ يعوضني، ولا عائلة تحميني. حسن....

مسح دموعه، ثم قام وكأنها صفعته، وقال: سأفعل.

- ماذا حدث في سفرك؟ هل أهانك أحمد بك؟ ضربك أم أكثر؟ الضرب ليس إهانة، هو تأديب.

- ليته فعل.

نما حب حسن في قلب أحمد دون أن يدري، أصبح يتفاءل به. بعد الخلوة عاد فوجد تجارته ازدهرت وتيسرت طرقه وتفتحت. زادت ثقته بالطفل، وعندما ذهبت جليلة إلى المدرسة طلب منه هو أن يحرسها. وثق به هو فقط. ولم يخيب ثقته يومًا. كان أمينًا على البيت والحرمة والمال. فنقله أحمد بك إلى حجرة

في بيتـه في الحديقـة، ونقل أمه إلى الفيلا؛ لارتباط بثينة بها. لا فتح عينيه يومًا على بنت من البيت، ولا طلب أي شيء. تقبل عطايا أحمد بك بامتنان.

* * *

مـرت السـنون وحسـن سر أحمد بـك، عـرف كل شيء عن زوجتـه الثانية ثـم الثالثـة ولم ينطق لأحد قـط. كان يرعـى التجارة، وينظـف روث الخيول في الإسـطبل، ويصاحـب جليلة هانم، ويشـتري مسـتلزمات البيت من السـوق، أصبحـت أهميته تقارب أهمية أحمد بك ولكنه كالظل لا لون له ولا صوت، ولا وجود ملموس، وقضى حسـن لياليه في وحدة أو سـباحة طويلة في النيل، ولديه صديق واحد يعمل معه في إسطبل الخيول، اسمه صادق. يتيم جاء من الصعيد إلى القاهـرة باحثًا عن حيـاة كريمة، وأخذه أحمد بك في كنفه، ولكنه لم يثق به كما وثق بحسن.

صادق كان الصديق المقرب لحسـن مع أنه لم يكن يعرف عن حسن الكثير، فحسـن يقضي معظم وقته إما مع ابنة أحمد ثابت وإما مع البك نفسـه. يعمل في صمـت، ويطيـع الأوامر بلا نقاش، لا رآه صادق يتذمـر يومًا ولا يثور. وعرف صادق أنه نشـأ في بيـت أحمد بك الذي تولاه وتولى أمه؛ لذا فحسـن يقول دومًا إن عليـه دينًا للبك لا يمكن دفعه. في أحيان قليلة كان يضحك مع صادق وربما يغرقه في مياه الشرب في إسطبل الخيول فيجري وراءه صادق بالدلو يتصارعان مازحـين. وتلقائية صادق جعلته قريبًا مـن قلب تمرهان أيضًا التي كانت تأتي له بالطعام بعد أن تستأذن بثينة هانـم وتجلس معه وتضحك على نكاته.

ويومًـا كانا ينظفان الحصان معًا عندما سـكب صادق على حسـن كل المياه التـي في الدلو، فأمسـك حسـن ببعض الروث من الإسـطبل وألقـاه عليه وهو يضحك، ثم لملم صادق هو الآخر الروث وألقاه على حسـن، وأقسـم كل منهما

ألا يترك الآخر دون أن يغسله داخل فضلات الحيوانات، امتزج حينها الضحك بالمنافسة حتى سمعا صوت جليلة هانم وهي تقول في حسم: ماذا يحدث هنا؟

مسح حسن الروث من على وجهه وجلبابه بسرعة وقال: معذرة يا سيدتي. هل تحتاجين شيئًا؟

قالت وهي تنظر إليه وإلى صادق، وقد وضعت غطاء شفافًا على وجهها، وأمسكت بطرفه بيدها: أحتاج بعض الهدوء. وأنتما ربما تحتاجان الاستحمام.

قال حسن: على الفور يا هانم. اعذريني. وتقبلي أسفنا.

هزت رأسها ثم رحلت.

صفر صادق وهو ينظر إلى حسن وقال: رأيت وجهها للمرة الأولى من هذا الغطاء الشفاف.. هذه نساء غير النساء التي نراها يا حسن.

قال حسن في صرامة: تأدب. هي سيدتك.

- ولكنها جميلة، حتى مثلنا يرى الجمال، لم يفقعن أعيننا يا أخي، ولم يخصصنا، وربما أردن هذا، من يدري؟

لملم حسن الروث ثم ألقاه على صادق من جديد وقال: اذهب لتستحم؛ رائحتك كالبهيمة بالضبط.

كان صادق يسب ويلعن ولكن بصوت خافت.

صادق كان يوفر المال كل شهر، ويحاول ألا يصرف مرتبه الضئيل، بل يعتمد على أكل تمرهان ومعونات البك، ولديه أمل واحد يحيا من أجله منذ عامين وهو أمل غريب نوعًا ما، فصادق لا يريد الزواج أو الانتقال إلى حجرة وحده أو حتى الذهاب إلى البحر والاستحمام فيه أو زيارة أهله في الصعيد بل

كان يحلـم فقـط بأن يوفر ثمن بائعة هوى بيضاء. كان يحلم كل يوم أنه سـيقضي ليلة كاملة معها وسـتدللـه وتقبله، ولن تأبه بلونه الأسمر ولا بأصله المتواضع، وسـيكون ليلتهـا مثل الخديـوي وأفضل، ومـن الأفضل أن تكـون بائعة الهوى أجنبية أيضًا. ذهب إلى بيت البغاء، وسـأل عن البنات ورأى منهن ما لذ وطاب ومـن أعجبتـه كان ثمنها كبيرًا عليه، كان جنيهًا ربـما، فهو لم يعجب بأي فتاة بل بأجملهن، شـقراء لم تمسسـها الشـمس. ولو عاش ليلة سـلطانًا ثم عاد إلى حياته في الإسـطبل والمحـل فهذا في حد ذاته أكبر نجاح. بـل عندما طالب عرابي بهذه الطلبـات الغريبة التي لا يفهمها، وعندما سـمع عبـارة أن مصر للمصريين كان يقول في قوة: ما دامت مصر للمصريين فلا بد لبائعات الهوى الأجانب أن يكن أقل سـعرًا من المصريات أو حتى بنفس السـعر، أما أن تكون الأجنبية بأضعاف السـعر فهـذا ظلم بين، لا بد من الثـورة عليه. تملكه الحلم حتـى كاد يفقد عقله فأصبـح يتردد على بيت البغاء كل جمعة ينظـر إلى بائعة الهوى الأجنبية من بعيد، ويمني نفسـه كل يوم. حتى أنه تجرأ يومًا وذهب إليها فنظرت إليه في امتعاض، ولكنه سـألها كم ثمنها قالت له في سـخرية إنها لن تنظر إليه إلا إذا كان معه جنيه كامـل. فوعدها بإصرار أن يأتي بالجنيه قريبًـا. وكان هذا منذ أكثر من عامين ولم يستطع حتى وهو يلملم الملاليم الواحد فوق الآخر أن يصل إلى ريال؛ لذا فثورة عـرابي مهمة، فأحمد بك لا يدفع لهم ما يسـتحقونه وهو أمـين ولا يريد السرقة، ولكـن الشـغف يزيد في قلبـه، والأيام تمر وكل ما يطلبه من هـذا الزمن هو عدة ساعات لا أكثر.

وبَّخه حسـن عندمـا عرف حلمه، وقال إنه يحتاج أن يصلي ويسـبح معه في النيل، ويبتعد عن الشـيطان. سبح معه سـاعة والشيطان لا يغادره. سبقه حسن فصاح صادق مستغيثًا، وخرج من المياه وألقى بجسده المبتل على الشاطئ وقال:

توقف.. لا الشيطان تركني ولا وجهها الملائكي. لو رأيت بياضها فقط كنت فهمت حرماني ورغبتي.

نصحه حسن بالزواج، ورفض، لن يتزوج قبل أن يعانق وجه القمر، ويتعرف على الحياة الحقة. النساء ليس كلهن سواء، ولو أغمض عينيه، وعاشر ابنة عمه، فلن يجمح خياله ولن يستقر، ولن يشبع جسده ولن ترضى نفسه.

قال صادق في تحدٍّ: تصور نفسك تعاشر جليلة هانم مثلًا، وزوجة اختارتها أمك، هل يستويان! لا يا أخي النساء لسن سواسية.

تجمد حسن مكانه، وقال في صرامة وحدة: إياك أن تتكلم على ابنة أحمد بك هكذا مرة أخرى.

- هي بشر مثلنا يا أخي.

- لسنَ مثلنا.

قال صادق في فضول: رأيت وجهها مرة واحدة، لا يثق بي أحمد بك. لا يثق إلا بك منذ القدم. احكِ لي عنها. هي جميلة، هذا ما أعرفه.

- هذا الشيطان جعلك تتصور أن بنت البك تنتظر منا أنا وأنت أن نقرر لو كانت جميلة. هي ابنة أحمد بك لا تنكشف على أمثالنا. عيناك تدنساها يا صادق.

- هذا الإخلاص الخائب سيؤدي بك إلى أن تبقى في الإسطبل بقية عمرك. أما أنا فسأعيش ساعة ثم أموت بعدها، وهذا نجاح يفشل معظم المصريين في تحقيقه، فمعظمهم لا يعيش حتى دقائق. تقرأ وتكتب ابنة البك. أي فضيحة وأي رجس، ياويل من يتزوجها!

عاد حسن إلى المياه، وغطس فيها قائلًا: تلهث وكأنك ستفضحنا أمام الأجنبية التي تهواها، تعال اسبح بعض الوقت، وأثبت لي أنك ستقوى على معاشرتها أصلًا.

حتى الخدم كانوا يحاولون فهم عبارة مصر للمصريين. رددوها معًا في محاولة للفهم.

قال صادق: يقولون..مصر للمصريين؟ هذا عصر الجنون. يقولون إن يعقوب صنوع تلميذ الشيخ محمد عبده؟ كيف يكون لشيخ مسلم تلميذ يهودي؟ ماذا تعلم منه؟ قراءة التوراة؟ وما معنى هذا الكلام الأرعن. مصر للمصريين؟ أي مجون وأي جنون؟ من هم المصريون؟ تعرفهم؟ أنا وأنت مثلًا؟ أم الخديوي أم الجيش وعرابي أم الشراكسة أم الأجانب أم الإنجليز؟ ماذا يبغي بكلماته؟ ولِمَ يريد أن يهز أركان العمر هكذا ويقلب المواجع. يستحق نفيه هذا المصري الجريء..قال مصر للمصريين قال..

* * *

ما يعرفه حسن وتمرهان عن بيت أحمد بك ثابت أكثر بكثير مما يعرفه أحمد بك نفسه. فتمرهان تتقابل مع ابنها كل ليلة تأتي له بالعشاء، وتحكي ما كان، وما حدث، ومن تكره، ومن تحب. يستمع ولا ينطق. كان يعرف ربما أكثر من أمه عن جليلة بالذات. سنون طويلة يسمع كل إحباطاتها وخوفها وحماسها وصراعها وعذابها. يفهم ماذا تكره، وممَّنْ تغار، متى تأكل، ومتى تبكي لتزيح ذكريات أليمة، ومتى تحرك عينيها في حماس طفل، تعلم للتوِّ أن هناك تليفونًا الآن يمكن لشخص أن يحادث منه شخصًا آخر وهما ليسا في نفس المكان. القراءة تفتح العين على ما يبدو ولكنها أيضًا تخرج الحزن والعجز.

كان يعرف مثلًا أن شريف زوج عفاف ابنة أحمد بك سكير ويضرب زوجته كل يـوم، ويعـرف أكثر من مطربـة وراقصة، ويطلب منها المـال أحيانًا. شريف كان ابن تاجر قطن كبير تزوج «عفاف» وهي في الثالثة عشرة وأنجب منها حتى الآن ثلاثـة أطفال: بنتين وولدًا، ومنذ اليـوم الأول وهو يضربها. أخبرت أمها، ولم تجرؤ على أن تخبر والدها، وبثينة بطبعها تفضل السـلام، طلبت منها الصبر، الرجـل ينضج ويتغـير، مر عام وراء عام وهو لا نضـج ولا تغير، جاءت لأمها تبكي فقالت الأم: نخبر أباك لو أردت ولكن..سيطلقك منه.

قالت عفاف في حسم: لا أريد الطلاق.

فحسـمت البنـت وأمها أمرهمـا وقررتا ألا تخبرا الأب مهـما جرى. لم يكن بينهـا وبين جليلـة الكثير من الإعجـاب، جليلة تراها ضعيفة مستسـلمة لزوج جاهل غاشم، وعفاف ترى جليلة فاسقة جريئة لا تتبع أعرافًا ولا قواعد، تراها خطـرًا عـلى العائلة وعلى كل من يعرفهـا. ومع ذلك كانت جليلة تعشـق أولاد عفاف، وتحاول رؤيتهم كلما استـطاعت. وهي تعـرف بداخلها أن زواجها ربما يكون مستحيلًا، وأن أولاد أختيها هم كل ما تملك.

بعد عدة أعوام انفصلت عفاف عن زوجها جسديًّا تمامًا، ونامت في حجرة وحدهـا، وكان هذا أفضل حدث في حياتها. كانا يتقابلان ربما على مائدة الغداء أو العشاء، وفي أيام رمضان على الإفطار، وبدأت تهتم بأولادها فقط وصديقاتها وأفراد عائلتها، وشعرت أنها في مكانة أفضل من الكثيرات؛ فهي تعرف، وتعي، ومتزوجة من تاجر غني، وابنة بك، فهي تستحق أن تتزعم نساء مصر.

في إحـدى المـرات على الغداء قال زوجها فجـأة في تهكم: يقولون إن مصر للمصريين. وكأن المصريين سواسية. ابن العبد مثل ابن الباشا. هذا هراء. مصر لبعـض المصريين فقط. مصر لأولاد العائلات من المصريـين أما الباقي فخلقوا لخدمتنا.

قالـت في حمـاس: مصر للعائلات التـي تحميها وتحمي أعرافهـا وتقاليدها وليست للفلاحين .

فقال مؤكدًا: هذه المرة الأولى التي أسمعك فيها تقولين كلامًا عاقلًا.

أمـا عزمية الأخت الثانيـة فقد تزوجت صاحب أراضٍ مـن أهل والدها في المنوفية، ضخم الجثة، كثيف الشارب، لا يتحرك كثيرًا ولا يكترث بما يحدث حوله. كان نعم الزوج، يتركها تفعل ما تشاء ما دامت لا تؤرق نومه أو جلسات الحشيش التـي ينعـم بها مع أصدقائـه. وكان يترك لها الكثـير من المـال، ولا يذهب ليتفقد أرضه أبدًا. ينتظر كل شـهر وصول المال إليه في شرفة فيلته، ويوزعه على الزوجة والأولاد، ويترك النصيب الأكبر لمساعده الذي يـأتي له بالحشيش، ويعرف كيف ينظم الجلسـات الطويلة. وكانت عزمية أسـعد حظًّا من عفـاف. ولم يحتج عزمية وفـؤاد معرفـة شيء عما يحـدث في مصر، فما دامـت الأرض موجودة والحشـيش متوافـرًا، لا يهـم من يحكـم ومن يثور ومن يسـيطر عـلى مدخل الطريق. سـمعا عـن هذه العبـارة الغريبة «مصر للمصريين» فقال فـؤاد لزوجته في ذهول: عندما يكون الحشـيش حكرًا على الأجانب، وعندما يكون السـكر متوافرًا لهم وحدهم دون غيرهـم فـلا بد إذن مـن الثورة. لكن غـير ذلك يعتبر خروجًـا على الحاكم.

* * *

عاد حسن إلى سبيل الغارق، واليوم كان أكثر ثورة وأقل صبرًا. بحث عن الشيخ في يأس من انتهى عمره قبل أن يبدأ، ومن ضل الطريق قبل أن يشرع فيه. لهث وجف حلقه. وابتسم له الشيخ في معرفة ثم قال: جئت يائسًا بعد أن اشتد ولعك بالدنيا، لا دواء عندي يا بني. حب الدنيا لا علاج له سوى الفناء، وهو مصيرك لا محالة.

قال في عدم صبر: بل جئتك بعد أن عزمت أمري أن أتركها.

ابتسم الشيخ قائلًا: سمعت هذه الكلمات من الكثيرين. لا يستطيع تركها إنسي. تتشبث في رقبتك لو حاولت، ثم تلقي بك من أعلى الجبل، فتهوي بلا هوادة.

- لو تركتها أنا ربما يخمد تعلقي.

- تعلقك بامرأة. اعرف وافهم. لا تستطيع أن تصل إليها.

- قلت لك من قبل إنه من المستحيل الوصول إليها. أسهل لي أن أذيب هذا الجبل عن أن أصل إليها. إن تعلق نفسي بها ذنب لا يغتفر وتجرؤ ومجازفة.

- لا يعيب المجازفة سوى الظلم. هل تظلم؟

- لا أظلم سوى نفسي. أفني عمري حولها، ويزداد اليأس تألقًا بين حنايا روحي، فيضيء بقية عمري بضوء أصفر مخيف سيفقدني عقلي.

- ابحث داخل نفسك عما تتعلق به. هل هو حب من أجل جمال أم مال أم سطوة؟

- بل حب ينفذ إلى الروح.

- وهذا أخطر أنواع التعلق. لا دواء، قلت لك.

- بل لديك دواء لكل داء. تعرف دواءً للتعلق؟ أعرف.

ابتسم الشيخ الزمزمي وقال: الغزالي قال: «لو عالج الطبيب جميع المرضى بالدواء نفسه لمات معظمهم». لكل عشق دواء، وفي كل عشق مرض يختلف عن غيره. لا أستطيع أن أصف الدواء نفسه لكل العاشقين.

- عزمت على الرحيل. جئت إليك أطلب أن تساعدني.

- تردد كلمات ولا تفهمها. أي رحيل وأي مساعدة؟ لو كنتَ تريد الرحيل لما جئتَ إليَّ، ولو كنت تريد المساعدة ما طلبتها من إنسي.

- أصلي وأصوم وأدعو الله كل يوم. أريد فقط أن أمزق حبل الروح الذي يتعلق بها.

- هل يلهيك الحب عن العبادة؟

- لا يلهيني عن العبادة، ولكنه يلهيني عن العيش. لا أرى الألوان ولا الأشجار من حولي لوغابت عني.

- وتضيء نفسك عندما تراها حتى وهي خارج نطاق دنياك.

- لا أستطيع البعد عنها يومًا. ولكن يمتزج العشق بمرارة وغضب يغرقان كل النفس، أي جحود لديها، وأي غفلة؟ أكرهها يا شيخ بقدر عشقي لها.

- تكرهها أم تكره روحك المتعلقة بها؟

- أكره نفسي وروحي وعبث الأيام ومعرفتي بالمصير..

- ماذا تنوي؟

- نويت الرحيل، وشرعت فيه. ولكني أخشى لو قطعت حبل الروح أن تزهق روحي بغيابها.

قال الشيخ وهو يقوم: عزمت أمرك يا بني أن ترحل حتى تقطع الحبل، ولكني أعرف أنك لن تقوى على هذا. لا تكلف نفسك فوق طاقتها. اختر أقل أنواع العذاب. أي عذاب تفضل، وأي بتر للروح يحافظ عليها؟

لم يفهم حينها. بقي أسبوعًا في السبيل يصلي، ويدعو الله. في البداية تمنى أن تمحى ذاكرته فلا يسيطر وجهها على مسالك الروح كلها، ولكن الآلام لم تأتِ من الذاكرة، ولكن من تمكنها من أحبال الوريد، تقلصت الأمنيات، وأصبح يتمنى فقط أن يتعايش مع الألم ويسالمه، ولو قليلًا، وخطط للسفر خارج القاهرة. سيرحل إلى الشام أو الصعيد، لم يقرر بعد. ربما يذهب إلى أقصى الجنوب يبحث عن أصل أمه، وكيف آل بها الحال إلى ما هي عليه. ولكن جليلة..لم تترك في روحه موضعًا بلا بتر. لم يقابل مثلها في قسوتها ولا سحرها.

رحل بعد أسبوع متجهًا إلى الجنوب، توقف عند النهر يشتهي الغرق، ويعرف أنه مستحيل. غاص برهة حتى غمرت المياه عينيه وأنفه وانسكبت من فمه، ولم يختنق ولم يتنفس، شهق من شدة اليأس من أن يعيش أو يموت. هذا اليأس أكبر من وطنه ودنياه. لا بد أنه مختزن بداخله ما يزيد على ألف عام. لم يعد يعرف من يكون ولا ماذا يبغي.

عندما ألقى بظهره على الشاطئ وهو مغمض العينين وجد شيخًا بجسد هزيل وجلباب ممزق يقول في رفق: ساعدني يا بني.

فتح حسن عينيه، ونظر إليه فقال الشيخ: لم أعد أملك سوى هذا المركب الصغير، أخرج به باحثًا عن رزق في الماء، وأنت شاب فتي، ساعدني على الصيد

في النهـر، وادفع عنـي شر الأقوياء، فلا قبل لي بهـم. يحاصرونني ويلهثون وراء مركبي.

قـال حسـن وهو مغمـض العينين: وهل تعـرف قدر عجـزي لتطلب مني المساعدة؟

اقترب الشيخ وقال: بل أعرف قدر قوتك.

فتـح عينيه، ونظر إليه، ثم هب واقفًا وقـال وهو يتجه إلى المركب الصغير: أنا معك.

تجمـع الأقويـاء حول حسـن والشـيخ، متحديـن ومسـتعدين للمواجهة، فاختبأ الشيخ خلف حسن وهو يرتجف، قال أحدهم: هذا المركب لي..

وقال الآخر: اترك العجوز لا شأن لك به. لا تلقِ بنفسك إلى التهلكة.

ولكـن حسـن لم يبال. وكـز الأول وضرب الثـاني، وعندما أشـهر أحدهـم سيفه في وجهه بحث عن سكين بداخل المركب كان الشيخ ينظف بها الأسماك، وصارع بها الشاب القوي وانتصر عليه. رحلوا مهزومين بوعد بالعودة وتدميره هو والشـيخ والمركب. ولكنه سـعى سـعيه حينها بيقين لا قبل له به، ولم يعرف مصـدره قط. مع أنه كان وحيدًا وهـم كانـوا عصبة، ولكنه تمكن منهم. تكلمت البلدة عن قوة حسن وتنهدت الفتيات وهن يستمعن لقصته، ويتمنين شابًا قويًا مثله فقد ساعد الشيخ وانتصر على الأقوياء.

طال رحيل حسن هذه المرة. سألت جليلة والدها في عدم صبر متى سيعود، وقـال إنـه لا يعـرف، بل ربما لا يعود. في سـفره الجديد لم يؤكد عـلى العودة، بل صافـح وودع. دخلـت حجرتهـا في غـم لا تعرف مصـدره. تأففـت واغتاظت

وعندما سألتها أمها عما يقلقها قالت إن حسن كان يعرف نوع الحلوى الذي تحبه، ونوع القماش وحتى كل الكتب التي تفضلها. قالت إنها لا تريد الخروج اليوم ولا غدًا. قالت الأم في هدوئها المعتاد: حتى لو لم يَعُد، درِّبي الخادم الجديد على ما تريدين.

قالت وكأنها تحاول إقناع الأم: أنت تفهمين يا أمي، تمرهان مثلًا تعرف كل شيء عنك، وتستطيعين التعامل معها بسهولة، ترتاحين لها. لو رحلت ألن تحزني؟

طرقت الأم ثم قالت: سأحزن بالطبع.

فقالت جليلة في غيظ: كيف يجرؤ على الرحيل دون إذني؟ كل هذا التمرد في نفسه ونحن لا نعرف. دلله أبي، فأصبح لا يخاف.

سألت تمرهان عنه كل يوم، وسألتها عن سبب رحيله، هل يحتاج إلى أموال؟ هل سئم العيش معهم؟ ما الذي يحزنه؟

ضربت تمرهان كفًّا على كف، وقالت في خضوع: يا سيدتي أنتم أفضل الناس، لا أعرف ما يدور بداخله. سامحيني وسامحيه.

كل يوم تسأل عنه وتعرف أنه لم يعد، فينتشر الحزن في الأطراف. وأحيانًا كان الغيظ يزحزح الحزن فتقسم أن توبخه وأن تطرده بنفسها لو عاد. ولكن ما يسيطر على القلب هو إحساس بالتيه، هذا الإحساس بالتيه يطاردها كل يوم. غريب عليها. طمست المسالك الواضحة في غيابه وأصبحت الأيام طويلة بلا موعد بشمس أو قمر، بل بلا ليل أونهار.

* * *

عاود الأقوياء الهجوم، وفي كل مرة كان حسن يتحداهم وينتصر، حاولوا قتله مرات ومرات وفي كل مرة كان يتغلب عليهم، التف أهل البلدة حول الشيخ يتساءلون من يكون الغريب الأسود الذي يدافع عنه؟ قال إنه ابنه عاد بعد سفر طويل. امتزج الخزي بالإعجاب؛ فلا هم دافعوا عن الشيخ في غياب الابن، ولا هم استطاعوا التغلب على الأقوياء. ولكنهم التفوا حول حسن يساعدونه ويعرضون عليه الطعام والزواج.

مر شهر ثم اثنان، وكل يوم كان الوجع يكبر وينمو حتى كاد يبتر ما تبقى من روحه.

بعد مرور شهرين وفي صباح أحد الأيام وجد حسن الشيخ ميتًا داخل المركب بوجه مبتسم وعينين مطمئنتين. دفنه ثم أخذ المركب، وأبحر به في النهر مستمرًّا في رحلته إلى الجنوب. كلما ابتعدت المسافات انشق القلب. وكلما مرت الأيام عرف قدر عجزه، واستغاث طالبًا النجاة.

اتجهت عيناه إلى الأفق، ابتعد كثيرًا، فلو أراد أن يفتح عينيه في الصباح على وجهها وصوتها وعينيها الممتلئتَين بالحياة لن يستطيع، لكي يعود لا بد أن يقضي في الطريق أربعة أيام أو يزيد.

في فجر يوم، استقرت يمامتان على شراع المركب في ثقة ومعرفة. رهب منهما، وأشفق عليهما. بعد فترة، نظر حوله إلى صبي أسود يسبح في حماس، تبادلا النظرات، ثم أشار حسن إليه، وأعطاه المركب. لم يفهم الصبي في البداية فقال: لم تعطيني مركبك؟

- هو ليس مركبي، هو مركب الشيخ تركه لي أمانة كي أعطيه لمن يستحقه. لا نملك شيئًا يا أخي، هي أمانات نتبادلها أحيانًا بسماحة وكثيرًا بعداء. خذ المركب حتى يأتي اليقين ثم أعطه لمن يستحقه.

نظر الطفل إلى اليمامتين ثم قال: هل ستبنيان بيتًا هنا على الشراع؟ هل أهدم البيت أم أذبح اليمامتين؟

فقال حسن في حسم: لا تفعل.

- هو ليس مركبهما لتمرحا فيه.

- ولا مركبك ولا مركبي..

هرول عائدًا إلى سبيل الغارق، وقد تفرقت المسالك، ولم يجد فيها ما يبعث على الرضا.

قال للشيخ الزمزمي مستغيثًا: هي أيام نقضيها فلِمَ قدر لي أن أعشق هذا العشق؟ هي دنيا قصيرة ستمر. كيف أبتلعها وحلقي به كل هذه المرارة؟

- قلت لك لا تكلف نفسك فوق طاقتها.

- لم أر أحدًا مثلي من قبل. ما الذي أصابني؟ أي لعنة هذه؟

- لست ككل البشر يا حسن. لم تكن يومًا ككل البشر. ألم تلاحظ بعد؟ روحك تبرح الجسد، وتهيم ولا تستقر. تتنقل من هزيمة إلى أخرى، ومن وجع إلى آخر. لا تكلف نفسك فوق طاقتها.

- رؤيتها كلها عذاب، ولكن عدم رؤيتها موت. أريد العيش ولو مجذوبًا.

- هو المجذوب..تذكره..كلما تألمت..هو المجذوب.

- من المجذوب؟ هل روحه تشبه روحي؟

- بل هي نفس الروح.

- كلماتك تخيفني. لا أفهمها.

- عندما يحين الوقت ستفهم.

بكى حينها من إدراك بالعجز، وتعلق نابع من الروح، ويقين بهزيمته. حقد عليها، وثار عليها، ثم احتقر نفسه التي لا تقوى على البعد.

* * *

عاد حسن والاستسلام يرافقه، والمرارة تصاحب نفسه؛ فلا استطاع البعد، ولا عرف نهاية لعذابه. كانت العائلة ترتب للذهاب إلى الإسكندرية.

قالت أمه في قلق: لِمَ سمح لك أحمد بك بتلك الإجازة؟ تغيب كثيرًا هذه الأيام، وأحمد بك رجل طيب، ولكن ابنته تسأل عنك كل يوم في عصبية وعدم صبر. أخاف أن تشتكي لأبيها يا بني. لا تترك عملك هكذا شهورًا.

قال في مرارة لأول مرة: لم يشتروني يا أمي.

- بل اشترونا منذ زمن..منذ أخذني في كنفه وأنقذنا يا بني. هو دين لهم.

ردد وهو ينظر إلى الأفق: هو دين، أعرف.

قالت في لوم: لِمَ لم تخبرها أنك سترحل بعض الوقت؟ لا بد أن تخبر جليلة بكل خطواتك. وتطلب موافقتها.

نفخ وقال: لست عبدها يا أمي.

- حسن، ماذا بك؟ لِمَ كل هذا التمرد؟

- ضاقت الدائرة عليَّ، ولو لم أخرج منها أموت خنقًا.

- بعد الشر عليك. لِمَ تتكلم هكذا؟ لا أفهم.

في الصباح كان ينظف الإسطبل في نشاط وقوة والكثير من السخط. وسمع صوتها وراءه. تجمد مكانه لوهلة وكأنه سينفجر للتو، ثم استمر في عمله.

ارتدت جليلة رداءها، وغطت وجهها بوشاح أبيض، ومكثت تنظر إليه في لوم هذه المرة، ثم قالت في تحدٍّ: حسن..تغيبت مرة أخرى..

استمر في التنظيف بهمة من يملك طاقة المدافع والقذائف مجتمعة ولم يجب. قالت في حدة: حسن..لم تجب. لِمَ تغيبت دون أن تخبرني؟

قال وهو لا ينظر إليها: هذا المكان لا يليق بك يا هانم. نتكلم عندما أنتهي من التنظيف.

كانت أول مرة تسمع العصبية في صوته. قالت بلا تفكير: لديك واجب ناحية أبي وناحيتي. افترض أني تعرضت لموقف خطر مرة أخرى وأنت لست هنا ماذا أفعل؟ أنا لا أثق في هذا السائق ولا غيره. هذه مسئوليتك، وكل منا في هذا المكان يحتاج أن يقوم بعمله بإتقان. أنا مثلًا أدرس، وأتحمل من أجل أن أقوم بدوري. وأنت لا بد أن تقوم بدورك..ودورك هو..

هربت منها الكلمات حينها. لم يزل يعمل بهمة وكأن بداخله بركانًا يوشك على الاشتعال.

لا تدري لماذا خرجت منها الكثير من الكلمات بلا تفكير. قالت وهي تنظر إليه، وقلبها تشتت في خفقاته المتتالية: «شهرين يا حسن؟». تتغيب شهرين! هل أغضبتك إلى هذا الحد؟ هل أنت غاضب مني؟!

لم ينظر إليها. قال بسرعة: لا يا هانم.

قالت في حسم: لن تفعل هذا مرة أخرى، وهذا أمر.

دفع بالسطل الممتلئ بالروث في البئر الصغيرة في قوة، فاصطدم السطل بحائط الإسطبل، وفاجأها الصوت لوهلة، وتبدى لها أن النار التي بداخله ستحرقهما معًا، ولم تدر أهو بركان شوق أم يأس. هزت رأسها لعل الفكرة المجنونة تبتعد أو تتلاشى، واختفت الفكرة في لحظات. عند ارتطام السطل هلعت من مدى غيظه ومن نفسها، لم تعرف نفسها بعد على ما يبدو. وهلع النفس لم يتركها أيامًا.

ثم قال في صوت هادئ: أنفذ أوامرك دومًا يا هانم.

تركته واتجهت إلى البيت، ثم عادت وتقهقرت وراء باب الإسطبل، واختلست نظرة إليه وقلبها يثور، وعيناها غير مستقرتين، رأته يضرب بالسطل حائط الإسطبل مرات ومرات، وصوت ارتطام السطل ينفذ إلى روحها مباشرة، العرق يتصبب منه والإحباط يتسرب من نظرته. وضعت يدها على قلبها لا تدري هل تريد أن تحميه أم تريد أن تثبُت أمام كل هذا الجنون، ثم هرولت بعيدًا تبغي عالمها المستقر الهادئ، مقارنًا بعالمه.

* * *

عائلة أحمد بك ثابت اعتادت منذ أعوام قضاء الصيف في فيلا إيجار في العطارين، ولم ينوِ أحمد ثابت أن يغير عادته لمجرد أن الإنجليز يهددون الإسكندرية؛ فمصر بلده هو، لن يتحكم فيه الأجنبي فيملي عليه أين يذهب في الصيف ومتى يأكل ومن يتزوج. هذا فوق احتمال البشر. اليوم وهو ينظر إلى جليلة عرف من أين تأتي بعنادها ورغبتها في التحدي، وابتسم لنفسه حينها وهو يتمنى لو كانت ولدًا، ولكنها بنت. كان يفكر في حال بلاده اليوم..

انتفضت مصر، وانقسمت حتى عائلة الأباظية في الشرقية، وأصدقاء أحمد ثابت وأعوانه، انقسم الجميع إلى قسمين؛ قسم مع عرابي، وقسم مع الخديوي وشيوخ الحارات وعمداء الكفور والأعيان والكتاب والمحامين. وكل من يعرف كيف يتكلم ويصل إلى الناس، كان له رأي فيما يحدث. ولكن الخليفة العثماني بدا مترددًا، يومًا يشجع عرابي، ويومًا يشجع الخديوي ويقابل الإنجليز. أما بابا الكنيسة القبطية فقد أقسم أن يكون مع عرابي، ولكنه أوضح أنه يريدها ثورة مصرية وليست إسلامية. فلو كانت ثورة إسلامية فلن يدعم عرابي، ولن يكون له دور فيها، ولكن عرابي وأعوانه أكدوا له أنها ثورة لمصر والمصريين لا تفرق بين قبطي ومسلم. أثلج هذا صدر البابا وكان يعاني الأمرَّين حينها من التبشيريين الأجانب ومدارسهم وإرسالياتهم. أغدقت أموال الأعيان من مسيحي ومسلم على الجيش ومعداته.

واحتمى الخديوي توفيق في الإسكندرية، وحدثت حادثة المكاري الذي تشاجر مع المالطي، وقتله المالطي، فهب المصريون يتقاتلون مع الأجانب. اتهم الإنجليز عرابي بالتحريض على الأجانب، وخرج الأسطول كله يحمي أجانب الإسكندرية، بل أشاع الإنجليز أن الأسطول يحمي المسيحيين في مصر من الأجانب والمصريين. ولكن بدا واضحًا أن من ينفق على عرابي كان

مـن المسـلمين والمسـيحيين، فلم يصـدق المصريـون كلام الإنجليـز ولا صدقه الفرنسيون ولا حتى الإنجليز أنفسهم.

انطفأت المعركة ومات خمسـون أجنبيًا وألفا مصري، والأسطول البريطاني يغمر الأفق ويهدد من سيعتدى على الخديوي أو يثير الشغب.

كتـب الإنجليـز في صحفهم: كيف لشـعب لا يعرف كيـف يدفع ديونه أن يطلـب برلمانًـا حرًا، ويكتـب هو دسـتورًا جديـدًا؟ أيمكن للطفل الـذي يأخذ مصروفه كل يوم من والده أن يثور على الأب ويضع القواعد للبيت؟ والأدهى والأمرُّ هو الخسـائر التي تسبب بها المصريون في أموال الأجانب وتجارتهم، المال يعـادل الحياة، والقانون يكفل قتل السـارق لو دخل بيتـك ليسرقك، والمصري يريـد أن يفسـد تجارة الأجانب وعندما يفسـد تجارة الأجنبي سـيضر بلده هو، ويـضر نفسـه. من يطلب المال لا بد أن يدفع الثمـن، ولا تعطي البلاد القروض بـلا رادع. من حق كل بلد الحفاظ على مصلحته وقوته. اضطرابات مصر فاقت حدود المعقول، وكلمات السـخرية من صحفي منفي كيعقوب صنوع لن تفيد. مصر للمصريين..ما معنى هذا؟ مصر لم تكن يومًا للمصريين، فَلِمَ يبدأ الأطفال بالتجرؤ على من يعلمونهم ويهذبون من أخلاقهم؟ زمن العجائب هذا بالتأكيد.

هددت بريطانيا أنها ستضرب، ولم تضرب.

كل يـوم تهـدد ولا تـضرب. تنتظـر أن يعلـن عـرابي استسـلامه، ويعترف بالخديوي.

ولكن أحمد ثابت ذهب إلى الإسكندرية على كل حال، وكانت هادئة، يسير ناسها في الشوارع وكأن شيئًا لم يكن، ويشترون الفاكهة والخضراوات.

***

4

قبل الذهاب إلى الإسكندرية جاء خالها محمود وزوجته. كانت زيارة جميلة؛ فصحبة خالها تفرحها دومًا، وزوجته تحبها وتقدر مساعدتها وتضحيتها بذهابها للمدرسة. وطلب منها خالها حينها أن تساعد الجيش بتوصيل بعض الرسائل وهي في الإسكندرية.

ما طلبه منها خالها بدا سهلًا، زيارة كل يومين إلى مكتب البريد الإيطالي، يوجد هناك رجل يدعى ألفونسو سيكون في انتظارها، تعطيه الرسالة فيوصلها إلى من يحتاجها بتلغراف سريع حتى يتسنى للجيش التنسيق مع بعضه البعض. لن يشك أحد في بنت مصرية من عائلة محترمة.

ما أثار دهشتها وسألت خالها عليه هو: لِمَ يعمل إيطالي مع المصريين لو كانت ثورة عرابي ضد امتيازات الأجانب؟ قال خالها إن المصريين يعطونه المال وهو يعمل مع من يعطيه المال، كما أنه عالم مصريات، يعشق مصر، وعلى علاقة وطيدة بعالم المصريات جاستون ماسبيرو، وكان من ضمن بعثة ماسبيرو التي

أنقذت آثار الأقصر العام الماضي في قرية القرنة، وقبضت على عصابة عبد الرسول، بل لمح خالها أن ماسبيرو نفسه يتعاطف مع المصريين ويكره الإنجليز ولا يثق بهم. جادلته جليلة قائلة: ولكن الفرنسيين أيضًا يهددون بالحرب.

قال : ربما. ولكن ماسبيرو رجل أثق به، قابلته مرتين وأعرف عشقه لهذا البلد. العاشق لا يخون. والمحب بحق لا بد من الاعتماد عليه. ثم لو اكتشف الإنجليز تعاطفه سيطردونه ويضطهدونه.

فتحت جليلة فمها لتجادله ولم تفعل.

لم تخبر والدها بطلب خالها، ولكنها نفذته حرفيًّا، يدفعها إحساس بالمسئولية عن مصر كلها، وبالكثير من الفخر، فقد جازفت من أجل الحرية والمساواة.

أخبرت حسن بوجهتها، واتجهت معه إلى البوسطة الإيطالية في الإسكندرية، وجلست تنتظر ألفونسو.

طلبت من حسن الدخول معها، فاصطحبها إلى الداخل، ثم وقف على الباب ينتظر قدوم الإيطالي.. جاء بعد حين، وكان رجلًا في الستين أو يزيد، ممتلئًا بالحياة ويتكلم العربية بفصاحة.

صافحها بحرارة ثم اتجه بنظره إلى حسن وقال: مَنْ يكون؟

لم تشأ أن تقول خادمي، فقالت: هو يصطحبني بالعربة.

حررت الخمار عن وجهها، ثم قالت في ارتباك وهي تعطيه الرسالة: هذه الرسالة ..

أطـال نظـره إلى وجهها ثم قال وهو ينظر إلى حسـن: اطلبـي منه أن يجلس مثلنـا ومعنا، لا ثـورة تقوم يا صديقتي، ولا قائد ينتصر وهو يعتمد على الصفوة من شعبه.

لم تفعل ما أمرها. تجاهلته ثم قالت: أشكرك على مساعدتك لنا.

قال : أنا لا أساعدك، أنا أساعد بلادك.

بدا لها أنه يتكلم بطريقة مباشرة تزعجها بعض الشيء. اتجه بنظره إلى حسن ثم قال: ما اسمك؟

قال حسن في عدم ارتياح: حسن.

أشار إلى المقعد الذي بجانبه وقال: تعال اجلس هنا بجانبي.

فقال حسن في تأكيد: لم أعتد الجلوس على المقاعد يا سيدي...اعذرني.

ابتسـم ألفونسـو، ثم نظـر إلى جليلة وقال: سـيدات مصر يُخِفْـن الرجال.. تتحدين وتتناقشـين..خالك يعـرف أنك الأفضل للمهمـة. ألا تخافي من بطش الإنجليز؟

قالت في قوة: أنا لا أخاف.

صفر في إعجابٍ لحظتها ثم قال: يا ويل من يتعامل معك.

لاحظت اهتمام ألفونسـو بحسـن، ولم تفهم سـببه، وكأنه جاء من أجله أو يعرفه منذ سنين أو يشفق عليه، لا تعرف بالضبط.

قبل الوصول إلى البيت قالت جليلة:

- حسن، لا بد ألا تخبر أبي هذه المرة أيضًا.

بدا عليه التوتر ثم قال: لا أستطيع يا هانم.

نظـرت إليه، وكانـت أول مرة يتحداها بلا خوف. ثـم قالت: هذه المرة ما أفعله من أجل بلدنا، وأنت مصري مثلي تمامًا.

أجاب بلا إرادة: لست مصريًّا مثلك تمامًا يا سيدتي.

قالـت في حـدة: تتجادل معي كثيرًا اليـوم. لا تظن أن كونك حفظت السر مرة سيعطيك الحق أن تجادلني. أنت تنفذ الأوامر فقط.

لم يجب. ثبت نظره على الحصان. وكان صمته بالنسبة لها هو إعلان حرب: أكملـت حديثهـا في حـدة: «أنت تنفـذ أوامري أنـا فقط من اليـوم». لا بد أنك لا تـدرك مـا أفعل من أجل هذا البلد. نحن نحـارب من أجلك ومن أجل كل المصريـين. عـرابي يريد مصر لـك وليس للأجنبـي، وأنت لا تريـد حتى حفظ السر. تعرف عرابي؟ سمعت عنه؟ أجبني.

بقي صامتًا.

فصاحت حينها: عندما أسألك لا بد أن تجيب.

قال في صوت لم تفهمه: هل تريدين العودة إلى البيت الآن يا هانم؟

قالت والخوف يخرج القسوة: هل ستخبر أبي؟ لو أخبرته لن أبعث برسائل الجيش، وسنخسر كل الحروب، وسيبقى حالنا كما هو. لو أخبرته تصبح خائنًا.

زادت حـدة التوتر بينهما كما لم تزد من قبل واحمرت وجنتاها ولم تر وجهه، لم يزل ينظر إلى الفرس في إمعان، ولا يبدو عليه أي انفعال.

امتزجت مشـاعرها ما بين خوف من والدها ورغبة جامحة في إذلال الخادم الـذي يعـرف الكثير، ويسـتطيع أن يتأكد من أنها لن تخرج بقيـة عمرها لو أراد. كانت تريد أن تحدد معالم الأدوار مرة أخرى وتوضح سلطتها المطلقة.

ساد الصمت المخضب بالإحباط.

قالت بعد حين: خذني إلى البيت.

مـا إن وصـلا حتى خرجت مـن العربة في غيظ، واتجهت إلى أمه تشـتكي. لم تخبرهـا بـما حدث بالضبط، ولكنها قالت إنه تحداها وإنه لا يتسـم بالولاء، بل يخـبر والدهـا بـكل شيء، وإنه رفـض الأموال التي كانـت تريـد أن تهديها إليه. طلبت من أمه التدخل، وأعطتها بعض المال، وقالت في وضوح: حسن لا بد أن يكون ولاؤه لي أنا وإلا طلبت من أبي أن يطرده.

خرجت الكلمات بلا إرادة حينها، وندمت عليها.

هزت السـيدة رأسـها وطَمْأنت جليلة. وقبل الغروب كانـت جليلة تلعن نفسـها، وتعنتها، وتوبخ غرورها. وتسـلل قلق ينخر الروح بأن حسن ربما يقرر ترك العمل والرحيل. وهذه المرة ستكون هي السبب، ولن يجدي الندم. وحتى لـو رحـل أليـس هذا أفضل لهـا؟ إذا كان يتجسـس عليهـا ويراقبهـا، أليس من الأفضل أن يترك المكان؟ قالت لنفسها في حسم: مستحيل.

وطلبـت لقـاء والدها، وأخبرته بكل ما حدث اليـوم، ولم تجرؤ على إخباره بـما حدث مـن قبل. كانت تريـد أن تخبره قبل أن يخبره حسـن، وتريـد أن تريح ضميرها أيضًا.

اعترض الأب على ذهابها، وحاولت إقناعه ساعة كاملة، ثم قالت في حماس: أنت تعرف يا أبي..نريد بلدنا لنا. وحسن معي طوال الوقت، ولا يوجد أي مشكلة في زيارة مكتب بريد.

نظرت إلى أبيها ربما لأول مرة ثم قالت: أتسمح لي بالكلام بصراحة.

قال في عدم صبر: إذا أوجزتِ.

قالت في حماس: لشد إعجابي بك يا أبي! عملت، وتاجرت، واجتهدت، واشتريت فيلا كفيلات الأجانب وسط اعتراض الجميع، لا سمعت لأصوات تريد أن تقيدك، ولا اكترثت بكلام الحاسدين. أتمنى أن أصبح مثلك يومًا مع أنني بنت.

الإطراء جعل الأب أكثر مرونة، فقال: البنت ليست مثل الولد.

- أعرف، ولكني أتمنى فقط أن أكون بقوتك. وأريد مصر لنا.

ردد: مصر لنا.. كيف؟

- لا أعرف بالضبط، ولكن أتمنى أن ينجح عرابي، وأن نفكر فِيمَنْ نكون.

قال والدها إنه سيفكر في الأمر، وتركها هي وضميرها الذي لم يخمد. كلما تذكرت أنها اتهمت حسن بالخيانة بعد كل ما فعله من أجلها، تزداد اقتناعًا بأنها لم تتعلم شيئًا. ولو طلبت منه الصفح تصبح بلا كرامة أمام الخادم. مشكلة ومصيدة لا خروج منها. أخجلها بكرمه وقدرته على ضبط النفس، وأشعرها بهمجيتها اليوم.

ذهبت إلى حجرة تمرهان، وقالت في رفق: اعذريني ..كنت غليظة معك اليوم. أنت تعرفين كم أحبك، أنت ربيتني كأمي.

قالـت في هدوء: المقامات محفوظة سـيدتي، أمك زينة النسـاء، خيرها علينا جميعًا.

قالـت وهـي تقـاوم كبرياءها: أتيـت ببعض الحلـوى من المطبـخ لأعطيها لحسـن، أنا صنعتهـا، أقصد..أشرفت عـلى صنعها بنفسي. هل سـيأتي لزيارتك اليوم؟

قالت الأم في ذهول: يا سـيدتي أنا أعطيها له. خيرك يغمرنا. هو لا يستحق كل هذا العطاء. أنت ابنة أصول، لا يوجد مثلك.

ولكـن جليلـة انتظرته حتى أتى بعد العشـاء ليـزور أمه، فطرقـت الباب، ودخلت بالحلوى.

نظر إليها لحظتها، ثم طاطأ رأسه.

قالـت في رفـق: صنعت هـذه الحلوى مع أمـي اليوم. أريـدك أن تتذوقها. تكلمـت مع أبي أيضًا، وأخبرته بزيارتي لمكتب البريد. أتمنى أن ننسـى ما حدث اليوم.

قال وهو يثبت نظره بالأرض: لم يحدث شيء.

مدت يدها بالحلوى، فأخذها منها في تردد.

نظـرت إليـه ثم قالـت في رقة: أتمنى ألا تتركنـا أبدًا؛ فقـد اعتدت وجودك معنا، وأثق بك أنت فقط.

رفع رأسه، والتقت أعينهما برهة، فابتسمت له وأكملت: أراك غدًا.

أدار عينيه عنها، ثم قال: بإذن الله.

رحلت، وأغلق الباب. شرد لحظة ربما، ثم أفاق من غفلته على صوت أمه.

أمـا جليلة، فلا تدري لمـاذا تعلو الدقات وتصطدم في عنـف بجدار قلبها. بعد أن أعطت حسـن الحلـوى، انتابها هذا الارتياح الممتد، والنشـوة العابرة إلى الضفـة الأخـرى من النهر، لا بد أن سـببها أنهـا أراحت ضميرهـا لا أكثر. فلا يمكن أن تكون النشوة بسبب نظرة الخادم إلى عينيها مثلًا ولا رؤيته. هذا جنون ومجون.

قالـت أمه بعد برهـة: جليلة غريبة الأطوار. لا أفهمهـا. تتكلم معنا أحيانًا وكأننا متسـاوون، وأحيانًا تتكلم بغرور العارف المطلع، وهي متأكدة أن الناس درجات. هل هي متعِبة يا حسن في المعاملة؟

بقي ساكنًا.

قالـت أمه: المعاملـة مع هؤلاء كالمشي على البيض، لا بـد من أن تكسره ثم تدفـع ثمنه، لا هـروب من أهوائهم مهما حاولنا. هي أطيـب أخواتها هذا أكيد، ولكنها غريبة، تقرأ، وتكتب، وتخرج كل يوم كالرجال.

ثم أمسكت منه الحلوى وقالت: لا تعرف طبخًا، ولا دخلت مطبخًا يومًا. فلنتذوق ماذا صنعت ابنة البك..وكيف أفسدت الحلوى.

جَلسـت بجانبه، وربتـت على كتفه، وأعطته قطعة مـن الحلوى، ثم قالت: كنت أظن أن حظي سيئ حتى رأيت بنات بثينة فأيقنت أن لا حظ للنساء في هذا البلد. تعرف أن عفاف لا تعاشر زوجها، عافته منذ زمن، ولكن هذا حرام.. أما عزمية ففؤاد زوجها، وأعوذ بالله مما سـأقول، ولكنني سـمعتها تقول لأمها إنها تشك أنه على علاقة منذ أعوام..تعرف بمن؟ بخادمه الذي يأتي إليه بالحشيش. مـاذا تفعـل الزوجة في هذه الحـال؟ قالت أمها إن هذا حـرام، وغير جائز، وإنها تتخيل هذا، ولكنها تكلمت معها عن تفاصيل..

ثم همست في أذن حسن.

أخذ قطعة من الحلوى في فمه، ولم يبد عليه تأثر، ثم قالت هي: أما جليلة فأنت ترى بنفسك.. جاء العريس الواحد تلو الآخر، وكل منهم يشترط أن تتوقف جليلة عن التدريس، وتنسى كل ما تعلمته. لم تزل ترفض بشدة حتى إن بثينة مقتنعة أن سلفتها زوجة العم في المنوفية سحرت لجليلة. منذ أيام تقدم لها خريج مدرسة الحقوق، هل تتصور؟ لقد رفضته.

ثم انفجرت في الضحك وقالت: المجنونة طلبت أن تقابله وهي ترتدي خمارها، وتتبادل معه الكلمات، ووافق والدها على مضض، وأحضرت للضيوف القهوة، وجلست جليلة أمامه كالرجال تسأل وتتكلم.

وأم العريس سألته عندما قامت بثينة هانم عن رأيه، وهمس في أذنها: كأنني سأتزوج «باش شاويش» أو كاتبًا في جريدة.

ما إن انتهت تمرهان من الضحك حتى قالت: هي طيبة لا أنكر، ولكنها مسكينة حكموا عليها بالشقاء حين أرسلوها للمدرسة.

ثم ربتت على ظهر ابنها وقالت: أريد أن أزوجك يا حسن، وأفرح بأبنائك. صبرية التي تعمل هنا نعم البنات. لم يمسسها رجل أقسم لك. جاءت من الأرياف إلى هنا، وأحمد بك رجل خير ويتقي الله. أزوجها لك ولن تتكلف شيئًا، هي جميلة. أنت رأيتها، شعرها لمنتصف ظهرها، وعيناها كعيون الأتراك، صفراء، ولونها أبيض كشق اللفت. وغير هذا كله هي مطيعة، وطيبة تصلح أمًّا لأبنائك. لن تحتاج شيئًا، ستأتي إليك في حجرتك باللباس الذي ترتديه. حتى لا تحتاج سريرًا جديدًا.

قال وهو يغير الموضوع: ليست بهذا السوء هذه الحلوى؟

- تفاجئنا أحيانًا جليلة.

فقدت أم حسن الأمل في أن تلفت صبرية نظره، ولكن صبرية لم تفقد الأمل. في الصباح الباكر كانت تساعد أمه، وتنفذ كل أوامرها في حماس، خلعت عباءتها، وارتدت رداءً ضيقًا يشي بالكثير، وهي تتمنى أن تتزوج حسن، وقد أقسمت أنه حبها الوحيد، منذ رأته يتكلم مع أمه منذ بضعة أيام. كان من المقرر لها الزواج من أحد أقاربها ولكنها تفضل حسن، يعجبها وجهه الأبي، وعيناه الثابتتان. عندما دخل على أمه اليوم صباحًا ليفطر معها كانت موجودة، تبتسم في دلال، وترمقه بنظرات تعد بالكثير من السعادة. لم يلتفت إليها في البداية حتى مدت يدها بالخبز، وقالت في رقة: صنعته من أجلك خصيصًا ..هل تريد أن تتذوق صناعة يدي؟

دارت عيناها وهي تعطيه الخبز، أخذه منها، وأمه تبتسم، والآمال تتبدى في الأفق مرة أخرى. لم يلاحظ دخول جليلة، ولا دهشتها الممتزجة بالغيظ حتى قالت في حسم: تأخرت يا حسن. لدي موعد كما تعرف.

التفتت إلى صبرية وقالت وهي ترى صدرها يضيق ويثور على فستانها الضيق: كيف تخرجين من حجرتك بهذا الرداء؟ هذا بيت عائلة محترمة. اذهبي وارتدي رداءً محتشمًا بسرعة، هيا.

ثم اتجهت إلى العربة، والغيظ لم يتركها.

اليوم ساد الجو انتفاضة غريبة، واضطراب يخرج من الأنفاس. ولا تدري ما سبب هذا التغير. حسن هو حسن. يحرك لجام الفرس كما تأمره، ويسير

وراءها بالمظلة ليحميها من حرارة الصيف، ويذهب معها للبوسطة الإيطالية بلا اعتراض ولا تذمر. ولكن التوتر يغمرهما معًا. لا بد أن هبَّة عرابي قد أصابتهما أيضًا، أو هو حنق يكنه لها وحقد دفين. ربما يظن أنها تتعمد إذلاله ثم تعطيه الحلوى وكأنه حيوان لا يشعر ولا يفقه، ربما يظن أنها جريئة وظالمة معًا. ربما لديه أفكار، الكثير من الأفكار، وربما لا يستوعب عقله أي شيء.

قالت بعد حين: حسن.. كان لا بد أن تطلب من صبرية أن تغير رداءها، وكان لا بد ألا تتأخر. هذه الأشياء لا تروق لي. إذا كنت تريد الزواج من صبرية فلا بد أن تخبرني، ولكن لا بد من احترام هذا البيت.

لم يجب.

فقالت: هي جديدة في بيتنا، ولكن أنت تعرف عاداتنا وأعرافنا. أنا أفهم أن حياء صبرية يختلف عن حياء بنات العائلات، وأنها لا تجد مشكلة في ارتداء ملابس ضيقة أو كشف وجهها أمام الغرباء؛ لأنها خادمة ولكن حتى الخادمات لا بد أن يلتزمن بأخلاق البيوت التي يعملن بها.

قال في صوت هادئ، وهو يثبت نظراته على الشارع فقط: جليلة هانم، صبرية خادمة، ولكني لم أر منها سوى كل الأخلاق.

فتحت فمها في ذهول وهي لا تصدق أنه تحداها مرة أخرى، ثم قالت: لم أر منها أخلاقًا اليوم. رداؤها لا ينم عن أي أخلاق، ولا جلوسها في حجرة بها رجل غريب عنها.

قال في هدوء: أنت على صواب سيدتي دومًا. ولكن صبرية ابنة ناس طيبين. هي أفضل مما تظنين يا هانم.

استمراره في تحديها كان أكثر من احتمالها، ولكن الدخول في جدال مع الخادم كان أيضًا لا يليق بها.

نظرت إلى وجهه، ملامحه جميلة اليوم، ولونه الأسود يضفي سحرًا عليه لم تعرفه من قبل. رفع ذراعه ليحرك لجام الفرس وعيناها تنظران إلى العروق والعضلات المنبثقة من ذراعه، ثم إلى ما يظهر لها من وجهه. كيف لخادم أن يملك هذه الملامح الشامخة؟ وكأنه تمثال للقدماء، دومًا بعينين مفتوحتين ومستيقظتين.

قالت بلا إرادة: حسن، والدي لن يوافق على زواجك من صبرية. يمكنني أن أقول لك من الآن.

اتجه بنظره إليها، فأدركت ما قالت للتوِّ، وما فكرت فيه. ازدادت ضربات قلبها، ثم أدارت عينيها عنه، وقالت: لا بد أن تتزوج بالطبع، ولكن والدي هو من سيختار لك الزوجة الصالحة التي تستحقها. انس أمر صبرية وإياك أن تفكر فيها.

كتم ابتسامة، كادت تقسم أنها رأتها على شفتيه. أكملت وهي لا تعرف لِمَ تتكلم بلا تفكير: بالطبع لو وافق والدي يمكن أن تتزوجها. هو من سيقرر، ولكنه لن يوافق. يمكنني أن أقسم لك من الآن إنه لن يوافق. ولا تتناقش معي.

قال وهي لا ترى وجهه: لا أجرؤ يا هانم.

ساد الصمت المتوتر مرة أخرى.

استقبلها ألفونسو اليوم، وأعطاها الرسالة التي وصلته، وأخذ منها الرسالة الجديدة. تكلم عن مصر وعن آثار مصر وعن فراعنة مصر، حكى بحماس عن نفسه، ونشأته في فينيسيا وسفره للتعلم في فرنسا مع جوستاف ماسبيرو، ثم

استقراره في مصر، والآن في الإسكندرية إلى حين تتضح الرؤية، ويظهر المنتصر في هذا الصراع الجديد.

هذه المرة أصر ألفونسو أن يجلس حسن على المقعد معهما. قالت هي في رفق وعدم ارتياح: اجلس يا حسن.

استمر في الوقوف قائلًا: أفضل الوقوف.

قال ألفونسو وهو يسلط عينيه على حسن: عندما تدرس تاريخ الفراعنة تكتشف الكثير، لا هزيمة تصاحبهم قط، هزائمهم قصيرة وانتصاراتهم ممتدة لتحيط العالم، ثم جاء المماليك..هل تعرف طريق التجارة يا حسن؟ الطريق الذي سيطر عليه المماليك ثلاثة قرون؟ هل تعرف المدخل إلى العالم؟ ماذا تتذكر؟

نظر إليه حسن في ذهول، ثم قال: كيف أتذكر ما لم أعرف يا سيدي؟

- بل تتذكر ما يبقى كامنًا بداخلك. يا حسن.. كنت تعلم ربما، ثم فقدت ذاكرتك. لا يمكن أن تكون غافلًا. هذا مستحيل. ستتذكر. فكيف لمن امتلك أن يرضى بالحرمان؟ وكيف لمن تمكن بأن يستسلم للقراصنة؟ هذا عار لو تعلم.

بدا على حسن عدم الارتياح، وتمنى لو يترك الحجرة. ولم تفهم جليلة كلمات ألفونسو.

أطال ألفونسو نظره إلى جليلة هذه المرة ثم قال: سمعت عنك. مصرية تذهب إلى مدرسة حكومية، ثم تدرس فيها. شجاعة أنت.

دارت فخرها، وقالت: لكل منا دوره الذي يحاول القيام به.

ابتسم حينها. واستمر في الحكي، وحين انتهى قامت جليلة، وهمت بالذهاب، فقال ألفونسو: هل يمكنني أن أتكلم مع حسن عدة كلمات فقط؟

اندهشت من طلبه، وانتظرت حسن خارج الغرفة. ما إن خرجت حتى قال: يا حسن، سيدتك هذه ساحرة. أحببتها للتوِّ.

فتح حسن فمه في ذهول فقال الرجل: أعني أنا أحببتها للتو. حب رجل مثلي لا يعني شيئًا، ولكن للحب لذات ولذات، مجرد الشعور به هكذا يشرح الصدر ويخرج الآلام. صحبتك السلامة. سنلتقي من جديد أنا وأنت عما قريب.

عندما استقلت العربة معه قالت: ماذا قال لك الإيطالي؟

قال في صوت متردد: هو غريب يا هانم.

قالت في إصرار: ماذا قال لك؟

بقي صامتًا لحظات، فقالت في عصبية: هل ستفعل كما فعلت أمس ولا ترد عليَّ؟

قال: يحبك يا هانم.

ظهر الفزع على وجهها، وقالت: مَنْ يحبني؟

التقت أعينهما لحظتها، ثم أدار عينيه، وبدا تائهًا.

قالت في صوت حانٍ لا تعرف لماذا: حسن..من يحبني؟

قال في هدوء وهو ينظر إلى الأفق: الأجنبي.

فقالت في صرامة: لا يمكن أن يقول هذا. لا بد أنك ..ربما لم تسمع..كيف لي أن أتعامل معه بعد اليوم؟ لن أذهب إلى هناك مرة أخرى. حسن..

قال قبل أن تتكلم: لن أخبر أحدًا. والحلوى أمس كانت لذيذة، أشكرك.

ابتسمت رغمًا عنها، وقالت: هواء الصيف عندما يجود علينا فلا بد من التمتع به، لنسر بالعربة بعض الوقت على شاطئ البحر..

هز رأسه بالإيجاب، ثم اتجه إلى البحر. أغمضت عينيها، وابتسمت، وأسندت رأسها على المقعد.

ثم أزاحت الغطاء عن وجهها، وطلبت منه التوقف. وفعل.

قالت في رفق: ما أجمل الحرية! تعرف عرابي يا حسن؟

قال بعد برهة: لا أعرفه يا هانم.

- ما يحارب من أجله هو حريتنا جميعًا. يطالب بدستور ينصف مصر، دستور يعني قانون يحكم كلًّا منا. مثلًا أنا وأنت لا قانون يحكمنا الآن. لو قررت قتلك أو تعذيبك بلا قانون يحكمنا فلن يحاسبني أحد، أما لو كان هناك قانون فسيحمي القوي والضعيف، الغني والفقير. نريد دستورًا للمصريين وبرلمانًا يمثلنا كلنا. أنت ستستفيد وأنا وكل مصري.

نظرت إلى الأسطول الإنجليزي الذي يملأ الأفق، وقالت: كأنهم أتوا بكل جنود إنجلترا وأوروبا مجتمعة، حتى السفن الفرنسية تقف على أعتاب المدينة، ولكن الإنجليز لن يحاربوا. من الصعب أن يشرحوا للدول الأوروبية دخول جيشهم إلى مصر. ستعترض روسيا وألمانيا، حتى فرنسا لن تجرؤ على الدخول. يقفون على الباب حتى نخاف، ويستقيل عرابي، وتخمد ثورته، يرهبوننا فقط؛ لذا أنا مع الجيش الآن. أنزل جنوده كي يحموا القلعة..انظر هناك..

نظر إلى القلعة، ثم قال في صوت هامس، ولكنها سمعته: وكأن كل الطرق ضاقت بنا.

قالت في حماس: لا تقل هذا. بل ستتفتح كل الطرق، وستتغير بلادنا، وفي يوم ما ستأخذ البنت البكالوريا مثلها مثل الولد. وربما تدخل مدرسة الحقوق. من يدري. هناك صبح ينتظر أن يتنفس..

قال فجأة في بطء: هناك شيخ صوفي يقطن في سبيل في المطرية بجانب شجرة مريم اسمه الشيخ الزمزمي نسبة إلى مياه زمزم يختلي وسط الأحجار المهدمة.

كانت أول مرة يتكلم حسن بوضوح ويحكي بصراحة.

انتظرت ليكمل كلامه، وهي تداري دهشتها من حكايته التي لا مجال لها في كلامهما الآن.

فقال: أطلقوا عليه اسم الشيخ الزمزمي؛ لأنه كان مريضًا بمرض عضال، ولم يشفه سوى مياه زمزم، أغرق نفسه فيها، وشفي بعدها.

- أي مرض؟

- مرض لن تعرفيه يا سيدتي، لا يأتي إلا للمحرومين.

قالت في إصرار: أي مرض؟

- كان مريضًا بلهفة لا تزول وتوقٍ لا ينقطع، أدى المرض إلى وهن جسده، وشق روحه.

قالت: لا أفهم.

- لا بأس، لا تشغلي بالك بأمراض المحرومين. الشيخ الزمزمي يقطن الآن في سبيل الغارق. تعرفين من الغارق يا سيدتي؟

بلعت ريقها، وشعرت بارتجافة لا تعرف مصدرها، التفت إليها فجأة، ونظر إلى عينيها ثم قال: يقولون إن رجلًا كان يحيا في زمن قديم في هذا المكان وغرق، كان يظن أنه يعرف الطريق، يتمنى ويحلم، ينطلق بقوته يمتلك الكون، فسقط فرسه في نهر عميق، وغرق، ولكنه لم يغرق.

- غرق أم لم يغرق؟

- تمنى الغرق ولم يغرق.

قالت وعيناها تغوصان في عينيه: لا أفهم ما تقول.

نظر إليها برهة، ثم قال في رقة: كان يسأل عن الطريق، فأشار إليه رفيق في السفر قائلًا: هذا هو الطريق اليابس الآمن، وذلك هو البحر الغادر المجهول، اختار الرجل الطريق الآمن، وترك البحر، فغرق.

أمسكت بقلبها بلا إرادة ثم قالت: كيف غرق في اليابس؟ أي قصة تحكي؟

قال في تأكيد: لو كان اختار الطريق غير المألوف كان سينجو. حتى لو غاص في بحر مجهول. أما طريق اليابس فلا يجدي. الغرق يا هانم ليس دومًا تحت المياه، أحيانًا يكون من هواء نتنفسه، وسفن أجنبية تحاصرنا ولهفة لا تزول، ويأس لا ينتهي. ليت الغرق يحدث فقط لمن يسبح في المياه، حينها كانت الدنيا سوف تصبح أكثر رحمة.

انقبض قلبها، وقالت: أريد العودة إلى البيت.

عادت والثقل يغمر صدرها. وكأنها ابتلعت ماء البحر كله. كان والدها يصرخ ويهدد. قال إنهم لا بد أن يرحلوا؛ فالإنجليز يهددون الإسكندرية كل يوم. أمر زوجته أن تعد كل شيء للرحيل. سيرحلون غدًا أو بعد غد، وهذا

قرار نهائي. أخبرته بأن هناك رسالة واحدة باقية ستعطيها للأجنبي بعد غد في الصباح، ثم يرحلون. وافق على مضض.

- ليلًا سمعت تمرهان تستجدي بثينة هانم أن تتحدث لأحمد بك ليزوج حسن من صبرية أو غيرها؛ فقد أتم الخامسة والعشرين، والزواج يحمي ويعف. وافقت بثينة.

لم تنم ليلتها. تقلبت من جنب إلى جنب، وإحساس جديد بعدم الاستقرار يسيطر عليها. نفخت، وتأففت، وقامت من مخدعها تنظر من النافذة. ما تفكر فيه اليوم مربك ومختلف. أغمضت عينيها، وأسندت رأسها إلى جدار النافذة وهي ترى وجه حسن. كيف لها أن ترى وجه حسن؟ لِمَ يتجلى وجه الخادم في ظلام الليل؟ ولِمَ يقلقها أمر زواجه؟ لم يقل إنه سيتزوج صبرية. ولو فعل؟

هواء الإسكندرية وسفن الإنجليز المستقرة على الشاطئ تفقد العقل وتلعب بالبصر هذا أكيد. فقد سيطر وجه حسن على الأفق، وثبتت في مخيلتها صورة ذراعه القوية وهو يشد لجام الفرس، وقد زادت خفقات القلب خشية زواجه أو رحيله. لِمَ تقلق؟ فما تشعر به طبيعي؛ فحسن لم يفارقها طوال أعوام ماضية، واعتادت وجوده، كما اعتادت وجود أمه، وكم من أميرة ارتبطت بمربيتها، وتعاملت معها على أنها أمها. ولو كان ما تشعر به هو اعتيادًا يوميًّا على وجوده فلِمَ يغضبها مشهد صبرية وهي تعطيه الخبز؟ لا بد أنها تكره صبرية لا أكثر من ذلك. ومن الخطأ أن تفكر في الخدم أصلًا، ولا أن تسترعي انتباهها عينا خادمها، ولا لونه. لم يتركها الأرق ولم يرحل عنها الروع. وبَّخت نفسها، وودَّت لو جلدت النفس الآن. قالت بصوت عالٍ: أجننت يا جليلة؟ أفقدتك المدرسة عقلك أم فقدت عقلك منذ زمن؟ حسن ابن الجارية..حسن خادمك.

تحتاجين إليه نعم، تعتادين وجوده هذا أكيد. لا أكثر. أي جنون، وأي شرود يحدث لقلبك هذه الأيام؟

لم تزل تتذكر جليلة أول حب لأختها عفاف، وأول حب لعزمية. أحبت عفاف جارهم، رأته ولم يرها، وأحبت عزمية ابن خالها وكانت تضحك معه وتلمع عيناها عند مجيئه، وترتدي أفضل ملابسها. لا تزوجت عفاف من جارها، ولا تزوجت عزمية من ابن الخال. هكذا هو الحب. كانت تستمع لحديث أختيها، وكيف يجمح الخيال فتهمس عفاف لعزمية: لو مر بيده على ذراعي، أو صدري؟ أحلم به يا عزمية وهو يقبل رقبتي..فيخفق قلبي ولا أنام طوال الليل، ما أجمل الحب!!

أغمضت عينيها. لا تجرؤ، ولم تجرؤ على هذه الأحلام. رأت الكثير من الرجال، تقدم لها وهي في الخامسة عشرة أحد الأقارب، وكان وسيمًا وطويلًا وكان شاربه الأسود مطمع كل البنات. طلب منها أن تتوقف عن الذهاب إلى المدرسة. لم توافق. لِمَ لم توافق؟ ولِمَ أطاعها والدها؟ بعد أن زوج البنتين خاف أن يضيع مستقبل جليلة أيضًا مع زوج لا يقدرها، وعندما رفضت جليلة وافق على الفور وكأنه يتمنى ألا تتزوج حتى لو تكلم عنه الناس. لم يسيطر رجل على مخيلتها من قبل. فلِمَ تعاود صورة الخادم على الظهور؟

ضغطت على جفنيها وقالت: هو هواء الإسكندرية والاعتياد لا أكثر.

دوت كلمات أمها في أذنيها عندما أتتها عزمية بعد يومين من الزواج وقالت: لا أحبه يا أمي.

فقالت الأم في هدوء: الزواج غير الحب يا عزمية. والحب كلمة لا يفهمها أحد. هي لا تضمن السعادة قط، ولا تحافظ على الأسر، الحب يا ابنتي هو ما

يوهم الرجال أنفسَهم به ليظلموا زوجاتهم، ويرافقوا غانية أو مطربة أو جارية، يقولـون يا عزمية إن الحب يزيد من خفقـات القلب، ولو زادت خفقات قلبك تموتين يا ابنتي، هي لحظات لا تقيم حياة.

رددت جليلة : هي لحظات لا تقيم حياة.

غفـت هنيهـة، وسـمعت كلـمات أنعشـت القلـب، وأرهقتـه، ولم تعرف مصدرها..

«ولو سبحت سبعة بحور لن تصل..

أبحر إلى البحر الذي تجهله تصل

فلا عبور إلى النجاة في السبل التي نألفها..».

شـهقت، وفتحـت عينيها، ووجه حسـن لا يفارق الخيـال. يرتدي جلبابه الأبيـض ذا الأكـمام الفضفاضـة، والطاقيـة المزركشـة، يقـترب وجهه الأسـود ويبتعد..

عنـد الصباح، عزمـت جليلة أمرها على شيء واحد. حسـن لن يتزوج، لا اليـوم ولا غدًا ولا بعد مائة عـام. هو مدين لوالدها، ولا بد من رد الدين؛ ولذا عليـه أن يكـون موجـودًا طوال الوقـت، كل يوم وفي كل اللحظـات بلا زوجة ولا أولاد. أراحتهـا هذه الفكرة، وقبل الظهر كانت تسـقيها لعقلها بماء عذب. الجواري والعبيد كانوا ملكًا لأسيادهم، هم مـن يقررون لهم الزواج أو عدمه. حسن ليس عبدًا، ولكنه ابن جارية تعيش في كنف والدها، وهو من يقرر مصير حسـن، وليس حسـن نفسـه. ولو اعترض حسـن؟ لم تفكر في هذا بعد. واجبه القيام بحماية أهل بيت أحمد بك وخدمته، سيعيش ليرد الدين لا أكثر. وبعد أن اطمأنت إلى هذا القرار الحكيم، فكرت في طريقة لتحقيقه. ولم تفلح بعد.

ولكن هواء الإسكندرية يلفح الهانم والخادم على ما يبدو ولا يفرق بينهما. في نفس اليوم جاءت أمها بخبر ظنت أنه مفرح. جارهم في الإسكندرية الذي جاء لقضاء الصيف في الفيلا المجاورة يريد الكلام مع أحمد بك في شأن مهم يتعلق بنسب وقرابة، يعرف أن جليلة تعمل في المدرسة، وهو مستعد أن يفكر في أمر بقائها في عملها بعد مناقشة الأمر مع الأب. شاب تحلم به كل فتاة في القاهرة والإسكندرية. رآها صدفة أو لمحها تمر، لا أحد يعرف، ولكنه متحمس جدًّا لعقد القران قبل نهاية الصيف.

لم تبد جليلة سعيدة، قالت لأمها في عدم صبر: أي زواج والحرب على الأبواب؟ نطمئن أولًا على بلدنا.

نظرت إليها أمها في دهشة، ثم قالت: لا أراك تحاربين بالسيف يا ابنتي، ما مشكلتك في الحرب؟ هذا زوج تتمناه كل فتاة، وهذه المرة لن نرفضه.

قالت في رجاء: ننتظر حتى نعود إلى القاهرة.

تجاهلتها الأم. وقالت في حسم: ستتزوجينه يا جليلة. انتهى الأمر. ولا تتناقشي معي ولا مع والدك.

قالت في رجاء: أمي أريد فقط أن أدرس في المدرسة، ولا أريد الزواج. سعادتي في ذهابي للمدرسة كل يوم.

قالت الأم في سخرية: لمَ؟ هل أنت مغرمة بالحصان الذي يرافقك في الرحلة؟ أم بالعبد الذي يرافقك أنت والحصان؟ ما السعادة في الذهاب إلى المدرسة؟ أنت لست راهبة.

أفزعتها كلمات أمها فقالت في حدة: أمي..أنا فقط أحب التدريس.

- هذا هراء. قلت لك انتهى الكلام في هذا الموضوع.

أين السعادة في الذهاب إلى المدرسة؟ رتبت الدفاع الطويل الذي ستقوله لأبيها. ولم تعجبها سخرية أمها حتى لو كانت تمزح. كيف تمزح فتذكر الحصان والعبد و..سيدته في نفس الجملة؟

الحيرة تصاحب أمواج الإسكندرية هذا أكيد. ولكنها تحلم بشيء واحد. تريد أن تعود إلى القاهرة، وتستمر حياتها كما هي. هذه الرحلة جعلتها تدرك جمال حياتها والسعادة التي تصاحبها في الذهاب إلى المدرسة كل يوم مع حسن. وماذا في ذلك؟ ستذهب إلى المدرسة مدى الحياة، حتى يشتعل الرأس شيبًا، وسيكون حسن هو الذي يقود الحصان، كل يوم، عامًا وراء عام. هذا المصير يبدو اليوم بعيدًا مع أنه كان قريبًا أمس.

ومصمصت تمرهان شفتيها في حسرة على جنون ابنة سيدتها، وفي الليل أخبرت ابنها بما حدث في استياء، وقالت له إن جليلة مدللة ومجنونة، ولن يسيطر عليها رجلٌ، هي نقمة على أبويها، ولكن هذه المرة ستتزوج لا محالة فهي تقترب من الثانية والعشرين.

استمع ابنها في صمت.

قالت تمرهان في حتمية: سيرغمونها لو رفضت هذه المرة. لن تقوى على المقاومة، وهذا أفضل، مع بنت كهذه لا بد للأب أن يكون أكثر حزمًا. وعندما تتزوج جليلة ستتفرغ أنت للعمل مع أحمد بك. لا أظن أن زوجها سيسمح لها بالذهاب إلى المدرسة، وحتى لو فعل، فلديه عربته وخدمه. أليس هذا خبرًا جميلًا يا حسن؟

لم ينطق. سألته من جديد، فقال: لا أدري.

في الصباح كان في انتظار سيدته بوجه متحجر، وكانت عيناه لا تحيدان عن الفـرس كعادتـه. اليوم بدا لها مختلفًا، ومع أنها لا ترى عينيه فقد اخترقها شـعور غريـب بالحـزن لم تتأكد من منبعه ولم تعرف إن كان هذا الشـعور مصدره هي أم حسن. ولو كان الحزن آتيًا منه هو، فلِمَ يذيب قلبها هكذا؟ قالت بعد برهة: لن نتأخر. كما تعرف يا حسـن سنعود إلى القاهرة اليوم. سأعطي الأجنبي الرسالة، ثم نعود مباشرة.

هز رأسه بالإيجاب.

قالت : حسن..كنت أفكر أمس..

لم يجب. فأكملت: أنت مدين لأبي، ونتمنى أن تبقى معنا. ولو تزوجت الآن أو بعد عام ربما لن تستطيع أن تبقى معنا، أو ربما يعطلك الزواج عن العمل، أبي لـن يوافق عـلى زواجك هذا العام. ربما العام المقبل أو بعـد عدة أعوام. أريد أن أخبرك قبل أن تسأله.

لم يحرك عينيه عن الفرس، ولم يجب.

قالت في رفق وكأنها تطمئن نفسها: لن تتزوج دون إذن أبي أليس كذلك؟

- بالطبع يا هانم.

قالت في حسم: وأنا أعرف أنه لن يوافق.

ثم قالت لنفسـها بصوت عالٍ: سـنعود إلى القاهرة، وسـيعود كل شيء كما كان. هواء الإسكندرية يخلط الأمور علينا.

ثم تذكرت كلماته أمس عن الشيخ الزمزمي..وانشطر قلبها مرة أخرى... كان مريضًا بلهفة لا تزول، وتوق لا ينقطع.

عبس وجهها وهي تتصور ما سيحدث عند العودة إلى القاهرة. لو أرغموها على الزواج ربما تستمر في الذهاب إلى المدرسة، ولكنها لن ترى حسن كل يوم. لِمَ لا يبقى الوضع كما هو. لا تتزوج، ولا يتزوج، وتراه كل صباح؟ اعتادت هذا الوضع سنوات، ولا تريد تغييره.

قالت فجأة: حسن..الشيخ الذي حكيت عنه أمس..شفي حقًّا عندما أغرق نفسه في ماء زمزم؟

- نعم يا هانم.

- ولو فعل غيره نفس الشيء هل سيشفى؟

- «لوعالج الطبيب جميع المرضى بالدواء نفسه لمات معظمهم» هكذا قال أبو حامد الغزالي.

- كيف تعرف هذا الكلام؟

قال في مرارة: لأني سألت الشيخ أيضًا السؤال نفسه.

قالت: ولكن لو كان هناك مريض آخر بلهفة لن تزول فسوف يعالجه الدواء نفسه.

قال في يقين: اللهفة يا هانم كالموت، تصيب كل قلب على حدة، لا يوجد شوق كشوق ولا عشق كعشق. كما لا توجد كف مطابقة لكف، ولا ألم مطابق لألم.

- وكيف عرفت كل هذا؟

بقي صامتًا.

لم يزل القلب مثقلًا، وكأنها آخر مرة. تُرى أهي آخر مرة سترى فيها حسن؟ هل يعرف هو أيضًا؟

كيف يمكن أن تنشطر الروح نصفين بهذه السرعة؟ لا تتمنى إلا أن يعود كل شيء كما كان، وألا تتزوج وألا يتزوج حسن. حاولت أن ترى عينيه، لمحتهما بعد برهة، ولم تر طوال عمرها هذا القدر من الغم. قال منذ برهة: لا يوجد ألم كألم، وهي تكاد تسمع صيحة اليأس من داخل أعماقه، وينتابها شعور مزعج بأنها تختنق حد الموت.

* * *

5

وصلت عند مكتب البريد الإيطالي في السابعة صباحًا حتى تعود إلى البيت قبل التاسعة، ويرحلوا إلى القاهرة.

جلست في انتظار ألفونسو، وكان حسن واقفًا على الباب.

دوي الانفجار أصابها بالصمم لبرهة، فلم تسمع بعده سوى صفير أذنيها وحتى صراخها لم تسمعه. صاحت باسم واحد: حسن..ومدت يدها للخادم.. ولم تره..

عم الظلام، وجاءها إحساس غريب بوخز في فخذها، كان طفيفًا في البداية، ثم ازدادت حدته، تحسست فخذها في الظلام، وعرفت أنه يحترق، ضربت بيدها في هستيريا، وسمعت صوتًا من بعيد وكأنه انفجار آخر أو مدفع يخترق رأسها لم تتأكد.

دارت بعينيها حول المكان، ولم تعرف معالمه، ولم تعرف كيف تخرج منه، ولا كيف تطفئ النيران. اصطدمت بحجر أو رفات لا تدري، التفتت برأسها تبحث عن باب الخروج، وضلت الطريق على ما يبدو..وآلام الحرق تنخر الجسد بإصرار وتفرض نفسها عليها وتنتشر.

دفعت بها يد، فوقعت على الأرض، وكاد البصر يزيغ، ودارت عيناها حول الحطام، وكان جسده فوق جسدها هذا أكيد، أمسك بطرف جلبابه، وبدأ يضرب به على فخذها ليطفئ النيران. لم تكن تسمعه، ولم يسمعها. حركت رأسها لترى ما يحدث، ولكنه دفع برأسها، وغطاه بيديه، ثم برأسه، ولم تعترض ولم تحاول القيام، كانت يدها تعسعس في الظلام عن أي دليل، عن مكان النجاة، ولكن الانفجارات لم تتوقف من حولها. بعد برهة حاولت أن تتحرك فهز رأسه، وحرك شفتيه قائلًا: لا تتحركي..

أو هذا ما بدا لها. لم تكن تسمع شيئًا سوى دوي القنابل والمدافع حولها. ولم تتوقف الانفجارات، ولا تعرف كم مرَّ. دارت بخاطرها أشياء غريبة لحظتها، كيف لها أن تواجه الخادم بعد اليوم؟ وهل سيستمر في السير وراءها والحفاظ على المسافة بينهما وهي الآن تحت جسده تشعر بوزنه يغمرها هكذا.. دار في ذهنها الكثير..الشيخ هل مات؟ لو مات محمد عبده ماذا ستفعل؟ صورة أمها وأبيها؟ هل تنوي بريطانيا العظمى تسوية الإسكندرية بالأرض؟ كانوا في مكتب البريد الإيطالي..قصفت بريطانيا مكتب البريد الإيطالي، لا بد أن ألفونسو تبعثر إلى قطع لا يمكن لململتها، ولو تبعثر والدها أو أمها؟ هل هذه المدافع تضرب هذا المكان فقط أم الإسكندرية كلها؟ هذا غزو أم محو أم ظلام؟ هل تلاشت كل أحلامها أم بدأت؟ ولِمَ تبقى السكك مراوغة وخائنة هكذا؟

كادت تختنق من ضغط هذا الجسد على صدرها، دفعت به بيد قوية، وشعرت بالأرض ترج رجًّا حولها، فتشبثت به بلا إرادة، بل لا بد أنها طوقت عنقه، وخنقته، وصاحت وهي لا تسمع نفسها: أنا خائفة جدًّا. سنموت؟ أين أمي ..تعرف أين أمي..حسن...حسن..

سقطت الأخشاب فوق ظهره وكتفه، وتطايرت قطع الحديد حول رأسه، وربما أصابت رأسه من الجانب الأيمن، فانتزعت معها قطعة صغيرة من جلد رأسه.

اقترب بفمه من أذنيها، وقال بصوت عالٍ: لا بد أن نخرج من هنا. تسمعينني؟ نحاول معًا.

هزت رأسها بالنفي، فصاح من جديد، وهو يبعد رأسها بعض الشيء، وكانت بالكاد تفهم ما يريد. قام وشدها معه، ثم أمسك بيدها في قوة ودار بعينيه حول الدمار..

لم يهتم بالكدمات على ظهره ولا بالألم في رأسه. ولكن خرجت أوجاع من مكان آخر.

وتجلت صور غريبة..أو تخيلات.. لا يعرف..أصابه مس ربما لحظتها..بحر، وغرق، وسفن، وسهام تتساقط ومدافع، وقتلى، الكثير من القتلى تتهاوى في المياه، وبحران أو ثلاثة.. سمع أصوات البرتغاليين، سفنهم تنتصر اليوم، غاص برأسه حتى كاد يموت من ابتلاع الماء ثم خرج سالمًا، لا يستطيع التخلص من المياه في جوفه..تقيأ الكثير من الملح وبدت أصوات بعيدة تصيح وتتهامس...سبيل الغارق هو الغرق..وسبيل الغارق هو النجاة ..مكتوب عليه الغرق ومكتوب عليه النجاة، يصطحب في طريقه الهزيمة، ولا يسعد بالنصر سوى عشية وضحاها

..يكتمل القمر أمامه، ويبقى نصره ناقصًا، تتنفس الشمس، ولكنها لا تبقى حوله كثيرًا..يختنق من رائحة الدخان، ويغوص لعله ينجو. لو مات سيحيا، ولو نسي سيتذكر..لا مفر.. من الخوض.....

اهتزت دنياه حينها وأصبح العالم بلا حدود، ولا حكايات، ولا تاريخ، ولا ملامح. انفطر قلبه نصفين أو يزيد.

أغمض عينيه، ثم ضغط على يدها أكثر، ودس قدميه في جثث، ورفات، وطوب، ورمال، وحديد صهرته المدافع صهرًا. هذه يد يلمس إصبعها كف قدميه، وهذه عين رقيقة لا تغلق بعد اليوم ولا تنقذ نفسها من الانصهار. نظر حوله من جديد، وسمعها تصيح: كيف نخرج؟

ردد: ليتني أعرف كيف نخرج..لا بد من طريق.

تشبثت يداها الاثنتان بيده وهي تنظر حولها. ولا ترى شيئًا. لا بد أنهما دفنا تحت الرفات في هذا المكان المظلم.

قالت في يأس: سنموت هنا. لا مخرج لنا.

هز المكان انفجار جديد.. أفسح طريقًا لم تتوقعه..رآه هو أو جازف، لا يدري.

شدها ناحيته، وهو يزيح الطوب والرفات ليخرج بها، دون أن يعرف أوجودهم بالداخل آمن أم بالخارج؟ خرجا إلى الشارع، ونظر إلى المباني المهدمة حوله وران على المكان صوت الهدوء الذي ينم عن الموت. حجب ضباب البارود الرؤية، أغمضت عينيها، ثم فتحتهما ولم تر سوى لون رمادي ودخان حولها، اختنقت، ولازمها السعال طويلًا ولم يتركها.

نظر إلى مكتب البريد الإيطالي المنهار ثم قال: الأجنبي.

لم تفهم ما يريد. طلب منها ألا تتحرك، ثم حاول الدخول إلى المبنى مرة أخرى فصرخت: حسن..لا تتركني..ستموت لو دخلت..

قال وهو يختفي من أمامها داخل المبنى: ربما لم يزل هناك أحياء.

لم يغب أكثر من دقيقتين ظنت هي أنهما أعوام. خرج، ثم سار بها بلا هدف بعيدًا عن مكتب البريد الإيطالي، ولم يجد سوى بيت في الأفق بدا سالمًا، شدها وهو يجري وهي وراءه تجر قدميها، وآلام فخذها تنتشر من جديد، ما إن وصلا إلى المبنى حتى بحث عن قبو تحت البيت ليحتميا فيه، نزل الدرج وهي معه، وجد باب القبو مغلقًا، وسمع أصواتًا خافتة داخله، حاول فتحه دون جدوى.. قال رجل: لا يوجد مكان هنا. ابحث عن مكان آخر، اكتمل العدد، سنموت لو دخل شخص آخر.

قال في شيء من الرجاء: هي فتاة وحيدة أصيبت، أدخلها لتأخذ ثوابها.

- صدقني يا بني، لو دخلت ستموت هنا. لا نكاد نتنفس.

حاول من جديد دون جدوى. مكث على درج السلم، وأسند رأسه على باب القبو، وأغمض عينيه وقال: ننتظر هنا.

هزت رأسها ويدها لم تزل في يده. لا تركها ولا حاولت تركه. غريب هو الخوف، يكسر كل الحواجز، ويخرج الصدق من الأعماق.

كان يرى .. يسمع ..تتكاثر الأصوات من حوله حتى يكاد يفقد عقله. عذاب يثقل النفس فتغوص في العدم. تفحصت وجهه، ورأته يضغط على جفنه وكأنه يتألم، وقالت في قلق: أنت بخير؟ هل أصبت؟

فتح عينيه، ونظر إليها وكأنه لا يراها للحظات، ثم قال وكأنه أدرك كل شيء فجأة: أنا بخير يا هانم.

ثم نظر إلى يدها في يده فتركها في خجل وقال: اعذريني وقت الخطر..

قاطعته: أنقذت حياتي من جديد. وازداد الدين بيننا.

قال في شيء من التهكم لأول مرة: لست متأكدًا هذه المرة يا هانم. لم نزل في خطر. السؤال هو: هل سيكتفي الإنجليز بقصف كل الإسكندرية وهدمها أم بقصف مصر كلها؟ وإلى متى سيستمر القصف؟ ربما لا نجاة لنا يا هانم.

كانت أول مرة يتكلم معها هكذا، ويعبر عن رأي أو موقف. قالت في خوف: والداي..

- بخير إن شاء الله.

سمعا معًا همسات مريرة من وراء الباب...الله يخرب بيت عرابي وأعوانه.. ضيعنا وضيع البلد معه..لِمَ يستفز الإنجليز؟ من يستطيع الحرب ضد بريطانيا العظمى..هل تعلم الدرس؟..هل بات سعيدًا الآن بعد أن أحرق البلد وخربها وقعد على تلها؟..أي قائد وأي ضابط ينقلب على سلطانه؟..خائن..غافل.. مندفع..يثير الرثاء..لم يفهم..لم يعِ..

وجاء صوت آخر من داخل القبو قال في يقين: عرابي أو دون عرابي.. بريطانيا كانت ستدخل مصر. قدر ومكتوب.

- ولِمَ يكون قدرنا الموت والانهزام؟ هي غلطة حاكم وسلطان وقائد مندفع يبحث عن مجده الشخصي.

- قدر ومكتوب..

- قصف الإسكندرية ليس قدرًا بل سوء حظ..

- قدر ومكتوب..

- بل خطة محكمة من بريطانيا العظمى..

علا صوت الرجل: قدر ومكتوب.

- لو قلت هذا مرة أخرى سأقتلك بيدي داخل القبو..

سمعا صياحًا وحركات كثيرة وكأن أحدهم يمسك بالآخر أو يركله، بدت معركتهم كنبش الدجاج أمام المدافع البريطانية. ثم بدأت النساء في صراخ أصم أذن الرجال، فتوقفوا عن الشجار.

قالت في عدم صبر: متى يمكننا الخروج؟

- عندما يتوقف القصف.

- وكيف نعرف أنه توقف.

- سنعرف.

كان الصمت يخيفها، وأصوات الصرخات أضفت التشاؤم على قلبها، قالت: وكأنك تعرف حروبًا..وكأنك تعرف معنى القصف. مع أننا لا نعرف شيئًا عن الحروب، كلنا..أكنا نعيش في سلام أم وهم؟ أكان لا بد من مدافع تمحو وجودنا لنفيق؟..ولو أفقنا ماذا بيدنا؟ أشعر برغبة قوية في حضن أمي لم أشعر بها ربما منذ كنت في السابعة. حسن..بماذا تفكر؟

نظر إليها في دهشة، ثم قال: في سلامتك يا هانم.

- لا بد أن لديك أحلامًا وأمنيات.

- أريد الخروج من هنا معك سالمًا.

قالت في يقين: معك حق.

ثم قالت في تلقائية: هذا الدين.. لأبي لأنه رعاك أليس كذلك؟

- هو كذلك يا هانم.

- ولكنك كذبت عليه عندما طلبت منك هذا يوم تهجم عليَّ الصحفي.

صمت برهة ثم قال: يا هانم قلت لي إن هذا لمصلحة والدك وأصدق كلامك.

قالت: نعم. حدث ذلك. هذا النوع من الإخلاص شحيح في عصرنا، وندرته كندرة الرجال. أنت طيب يا حسن. تستحق كل خير.

لم يتكلم. جلست على الدرج، وفخذها يؤلمها ونظرت إلى الدائرة المحترقة في عباءتها، وتحسست مكان الحرق.

اتجه بعينيه إلى يدها ثم قال: هل تسمحين لي أن أرى الحرق؟

قالت مسرعة وهي تداري فتحة العباءة: لا.

- أريد أن أتأكد فقط من عمقه. أعتقد أنه ليس عميقًا..

انحنى، وأزاح يدها في رفق، وهي لا تدري كيف تركته يفعل هذا. ثم نظر إلى موضع الحرق، ولمسه بكفه، فتأوهت. قال وهو يقوم: ليس جرحًا عميقًا. من الأفضل ألَّا تغطيه.

قالت في شيء من التوسل: ولكنه مؤلم جدًّا.

وكأنها تستجديه أن يوقف الألم. قال في رفق: الحرق دومًا مؤلم. سيتلاشى الألم بعد حين.

نظرت إليه لا تعرف من يكون تحديدًا، ثم أسندت رأسها إلى الحائط، وصوت صفير كرات المدفع لا يتوقف.

قالت في تلقائية: ألم أقل لك لا بد أن تبقى معي لتحرسني؟ كنت تريد الرحيل، وكأنك لا تتحمل مسئولية ولا..

صمتت، لا تجد الكلمات، ثم قالت من جديد وهي لا تنظر إليه، وتحاول أن تغمر الخوف بالكلمات التلقائية: كنت غاضبًا لأنك عدت. أعرف، رأيتك يومًا في الإسطبل، وأنت تضرب بالدلو على الحائط. لِمَ فعلت هذا يا حسن؟

فاجأه السؤال فقال في تردد: لا أتذكر يا هانم.

قالت وهي تحتضن جسدها: رأيتك والنار تخرج من عينيك. ماذا حدث؟ هل تخفي عنا شيئًا؟

قال في حسم: لا أعرف عمَّاذا تتحدثين يا هانم.

قالت: عن يوم عودتك..عن..

أغمضت عينيها فجأة، ولا تدري لماذا جمح خيالها فتصورت حسن يعانقها في ذلك اليوم في الإسطبل، بدلًا من أن يدفع بالدلو فيصطدم بالحائط، كان يقبلها في قسوة من استسلم بعد مقاومة عنيفة، ويذيب جسدها داخل جسده ليعاقبها على خضوعه اللا مشروط. الشيطان يدخل القلب لحظات الخطر، ويلعب بالذاكرة.

تمتمت: تتذكر. اصدقني القول، هل كنت غاضبًا؟

قال في صوت لا تعرف لماذا أخافها: كنت أحترق غضبًا لو تعلمين يا هانم.

قالت بلا إرادة: لماذا؟

- لم يهتم أحد بالإسطبل في غيابي.

هزت رأسها وهي تعرف أنه يكذب، ولا تستطيع أن تجد المسلك لمعرفة الحقيقة. ولا تدري لِمَ تقتحم هذه الصور رأسها..أبقت يديها حول ذراعيها، وأغمضت عينيها من جديد وهذه الصورة المفجعة لا تتركها.

مرت ساعات..ساد الصمت بينهما. كان يجلس هو الآخر على الدرج وراءها وحاول أن يبتعد قدر الإمكان عنها. قالت وهي مغمضة العينين: تظننا سنموت هنا؟

لم يجب في البداية ثم قال: الكثير يموتون وقت الحرب.

- من يحارب؟ الجيش؟ إنجلترا أم فرنسا؟ من يضرب؟

لم يجب.

قالت في صوت متألم: كنت أريد أن أفعل الكثير. كان لدي أحلام..كنت أحلم بمصر مختلفة، العلم ينتشر فيها فيقتل كل فقر وحقد. وأنت؟ ماذا تريد يا حسن؟

- ليس لمثلي أن يريد شيئًا يا هانم. ولا أُحسن التعبير مثلك لأقول ماذا أريد.

قالت وهي تلتفت إليه، وتنظر إليه عن قرب وسط الظلام: حسن..

كانت عيناه تلمعان بضوء أسود..ولم تفهم نظرته. هالتها للحظات حتى ظنت أنه من عالم آخر يخفي الكثير أو يحمل همًّا يفوق تحمل البشر. أي هم

يمكن أن يحمله الخادم وأي أحلام؟ لو كان يأكل ويشرب ويعيش في أمان فماذا يريد؟ وإلى ماذا يطمح؟

اخترقها الألم الذي يتفشى في نظرته، وأقلقها لدرجة أنها لم تعد تسمع صوت القذف ولا تأبه به.

ولم تدر هل تسأله عن مصدر تعاسته؟ أم تصمت حتى لا تذيب قشرة ربما يخفي تحتها ما لا تريد أن تعرفه؟ من عادتها الكلام بلا توقف وقت التوتر والخطر، ولكن ما يدهشها الآن هو قدرة شعوره على النفاذ إليها. لِمَ تشعر بتعاسته؟ ولِمَ ينفذ إلى روحها ألمه؟

قالت في رفق: الإصابة في رأسك، هل تؤلمك؟ والحطام الذي ارتطم بظهرك وكتفك هل يؤلمك؟

قال وعيناه مثبتتان على الدرج: عندما ارتطمت الأخشاب بالمياه، لم أستطع التنفس. لم تخنقني المياه، خنقني دخان المدافع وصيحات الطامعين. رأيت السفينة الأخيرة وهي تتهاوى أمامي، كنت بداخلها، تشبثت بالأمل الأخير بلا جدوى.

نظرت إليه في ذهول، وكادت تقسم أنه فقد عقله. قالت: حسن، لم يكن هناك بحر ولا سفن. ما تهدم من القصف هو مكتب البريد الإيطالي. هل تتذكر؟ حدث هذا منذ عدة ساعات لا أكثر.

لم ينظر إليها.

قالت وهي تطمئنه: أفهم حزنك، وأشعر به.

- لا أعتقد هذا.

- لم يكن هناك سفن ولا بحر. ربما اختلط عليك الأمر؛ لأننا رأينا سفن الإنجليز أمس في الميناء. هل اختلط عليك الأمر؟

نظر إليها فجأة، وكأنه أفاق من غفلته، وكأنه يراها لأول مرة، ثم قال: اعذريني سيدتي. ربما اختلط عليَّ الأمر.

غطت رأسها بيديها، وبدأت في الدعاء..ومرت ساعات..لا تدري عددها.

***

بدأ الجميع في الخروج بسرعة غريبة من المبنى إلى الشارع ومنه إلى خارج الإسكندرية. انتظرا حتى خرج كل من كان في القبو، ثم مد يده لها قائلًا: أعطيني يدك.

ترددت، فقال: لا بد أن تعطيني يدك وإلا تاه أحدنا، ربما سنجري وقد نصطدم بآخرين، أو يبدأ القصف من جديد..

أعطته يدها، فأمسك بها بقوة، وشدها إلى خارج المبنى، وكانت الشمس على وشك الشروق والشوارع الجانبية فارغة من البشر، وبدت المدينة مدكوكة دكًّا كاملًا، والمحلات مازالت تحترق، والمباني تلفظ باطنها. قالت وهي تجري معه: والدي..كان في العطارين..هل سنطمئن عليه؟

قال في حسم: لا.

- أين سنذهب؟

- إلى خارج الإسكندرية.

قالت في تحدٍّ: لن أبرح هذه البلدة حتى أطمئن على والدي.

ازدادت قبضته على يدها، ثم قال: لا بد أنهم سبقونا إلى رشيد ..كل أهل البلد يتجهون إليها.

حاولت أن تحرر يدها، وقالت في ضيق: اترك يدي..أنت تنفذ أوامري، وليس العكس.

لم يتوقف، استمر في السير، وهو يشدها وراءه: معذرة يا هانم. اغفري لي هذه المرة. أفعل ما أراه صوابًا.

قالت في عصبية وهي تنظر حولها: ومن أنت لترى الصواب والخطأ؟ ماذا تعرف أنت؟ اترك يدي وإلا صرخت في وسط الشارع..

تسمرت مكانها، وقالت في قوة: أنا أقرر أين أذهب.

أدار رأسه ناحيتها، ثم قال وهو لم يزل يمسك بيدها: القرار لك يا هانم دائمًا. أخشى فقط أن يؤدي تأخرنا إلى حدوث شيء لك، أو لهم، فربما ينتظرونك في رشيد، وإذا لم تأتي يعودون إلى هنا، ولا قدر الله يبدأ القصف من جديد. لو ذهبت معي إلى رشيد أعدك أننا سنجدهم، ولو لم نفعل سأعود وأبحث عنهم بنفسي.

ترددت قليلًا ثم قالت: حسنًا.

وجدوا ضالتهم على أسوار الإسكندرية بعد السير ساعة أو أكثر، وكان هناك مكاري ينتظر من يريد توصيله إلى رشيد. ركبا معًا، ومعهم على الأقل خمسة أفراد، من يبكي، ومن يبحث، ومن يسلم أمره إلى الله..لاحظت عربة حمير أخرى تحمل أشلاء في أكوام تشبه أكوام القمامة، ممزقة وليس لها أي ماهية ولا أي شكل واضح ولا أي لون لافت. سارت عربة الأشلاء موازية لعربتهم.

وقعت عيناها على الأشلاء، وتبلد الشعور، وكأنها اعتادت هذا المنظر، وكأنها تصحو كل يوم لتجد أصابع محترقة، وجماجم مدهوسة. كانت تريد النجاة، وتريد نجاة من تحب لا أكثر. غريب أمر الحروب، تخرج الأنانية والقسوة من داخل قلوب سالمة.

استمر سير العربتين متوازيتين نصف ساعة أو أكثر..حتى ربطت نظرها بأكوام الأشلاء تريد التعرف على ما تبقى من الإنسان، أحيانًا خرقة من جلباب أوعباءة، أحيانًا قطعة ذهبية لا تموت وسط الحريق، أحيانًا إصبع بطلاء أظافر لامرأة.. أو آخر بخاتم كان صاحبه يحبه ويرتديه دومًا، فبقي حتى مع رحيل صاحبه.

وهذا الخاتم تعرفه..ربطت عينيها بالخاتم، وبدأ العقل يسقط في بئر عميقة، تمتمت بصوت لا تعرفه: حسن..هذا خاتم أبي..

ثم بدأت تردد في بلاهة: هذا أبي..خاتم أبي..خاتم أبي..ذراعه..أعرف ذراعه..لا أرى وجهه..حسن...

انتفضت من مكانها، وخرجت منها صرخة أقوى من صفير المدافع. ثم بدأ الارتجاف الذي لا يتوقف، وعيناها مربوطتان بالخاتم وبالعربة، وظلامٌ يسود كل ما حولها، فلا يلمع في أفق نظرها سوى الخاتم الفضي ذي الفص الأزرق الذي يختلف عن كل الفصوص. ويد والدها التي تعرفها منذ الصغر. لا بد أن هذا جزء من حلم لا ينتهي. هذا أكيد، فلو كان حقيقة فلِمَ ترى الكون كله أزرق الآن؟ ولِمَ يتخلل الأزرق نقاط سوداء فقط؟ طغى الخاتم على كل الأفق. فلم تعِ، ولم تسمع همسات النساء: مسكينة..قلبي معك..كل الناس حتموت..

انتفاضة جسدها لا تتوقف، والأزرق لم يزل يطغى على كل الألوان..

لا تتذكر، وربما لا تدرك ما حدث..

طوق كتفها، وضمها إلى صدره في قوة.. هذا الرجل الذي صاحبها في الحلم الطويل. همس وهو يمر بيده على رأسها وشعرها: كلنا لا حول لنا ولا قوة. كلنا..

رشيد 1882

لا بد أنها بلَّلت نفسها وقت أن ضاع منها العقل؛ فقد كانت ملابسها مبتلة، ربما تبولت لحظات القصف من يدري. أراحت رأسها إلى حائط، ويد تربت على كتفها وتهدئها، ولم تكن تعرف هذا الوجه ولا هؤلاء الناس. ربما لم يكن والدها، ربما تمزق كتفه فقط، وما رأته ليس رأسه في أسفل العربة، فقد كانت مدكوكة، ولا يظهر منها سوى شعر أبيض، وكم من الرجال اشتعل رأسهم شيبًا في هذا الزمن وهذا اليوم..

قالت السيدة من جديد: أنت في أمان هنا. وحِّدي الله يا ابنتي..

لا سألت من تكون السيدة ولا اهتمت، ولكن يدها كانت حانية، ومن ذاق العذاب يستشعر الحنان على بعد أميال. تمتمت السيدة بأدعية والكثير من الكلمات، فقالت جليلة بعد حين: حسن هنا؟ تعرفينه؟

قالت وهي تشد يدها: أعرفه، مع الرجال في الخارج. أريدك أن تغتسلي، وترتدي ردائي هذا، وتنامي بعض الوقت، ثم نتكلم.

قالت في إصرار: أريد أن أسأله عن أمي وأبي. هل رأى أمي وأبي؟

صمتت برهة، ثم قالت: انتظري بعض الوقت. اصبري حتى انتهاء الحرب. الصبر مفتاح الفرج.

شدتها من جديد، وجهزت لها كل شيء لتغتسل، فاغتسلت وكأنها فصلت الروح عن الجسد، ثم ألقت بجسدها على السرير، وأغمضت عينيها ودموعها لا تتساقط.

دخلت عليها السيدة بعد بضع ساعات، ووضعت أمامها بعض الخبز والجبن وقالت: لا بد أن تأكلي كي تستطيعي العودة إلى أهلك.

قالت في بلاهة: لي أهل؟ هل تعتقدين أنه لم يزل لي أهل؟ أين حسن؟

- تسألينني عليه كل حين. هو هنا، لا تقلقي.

- لا أعرف غيره هنا.

- كم من غريب هو في الأصل رفيق، وكم من أخ هو في الأصل خصم غليظ.

- حسن ليس أخي. وليس غريبًا.

- هو من؟

بقيت صامتة، وقد اختلطت عليها الأشياء، وللحظات لم تتذكر بالفعل من يكون، كيف يمحو الموت كل الفروق التي يعجز العيش على هزيمتها؟ لا تعرف.

من حين إلى حين كان الأزرق يسطع أمامها، وتتخلله نقاط سوداء، وتختفي الحقائق، وتثمل الذاكرة، ولا يتبقى سوى الرغبة الجامحة في الراحة، ما أجمل النوم العميق الذي لا يقظة منه ولا إدراك.

كل بضع ساعات كانت تستيقظ وتسأل عن أناس ملتصقة بالذاكرة، ولا تجد إجابة فتغوص في نومها، والنقاط السوداء تخترق عقلها، فتكاد تفقده كل قدراته. همست في صوت معذب بعد حين: تنتشر هذه النقاط..تخيفني..مقززة وكئيبة وكريهة، تخرج منها رائحة الموت. تسمعينني؟

تربت السيدة على كتفها وتقول: نامي. كل شيء سيكون على ما يرام. هو قضاء الله. مكتوب يا ابنتي.

- ما هو المكتوب؟ لا أفهم.

- ما حدث وما سيحدث.

فتحت عينيها، ورأت الفستان الوردي الواسع، ورباط الرأس المربوط بحرفية الذي ترتديه الفلاحة، وحاولت أن تحفظ ملامحها، لتتذكرها وتسأل عن اسمها ربما،أو أين تسكن، ولم تستطع.

قالت السيدة بعد حين: حسن يريد أن يراك. من يكون؟ هل يجوز أن يراك هنا على سريرك؟ هو محرم عليك يا ابنتي أم هو زوجك؟ لا أعرف..

قالت بلا تفكير: أريد أن أراه..

لابد أن ردها القاطع أقنع السيدة أن حسن أخ أو زوج، ولكنه أسود وهي بيضاء، من يدري ربما تزوج والدها جاريته، أو زوَّجها والدها هذا الرجل. لهذا الزمان أحكام مختلفة، ووقت الحروب يرتبك الكون أو يكاد.

عندما دخل عليها، كانت نائمة على جنبها الأيسر تسند رأسها على يدها، وتمد يدها إلى خارج السرير كأنها تنتظر النجاة، وشعرها مبتل ويكاد يغطي وجهها.

جلس على الأرض، ونظر إليها في تركيز، والسيدة تستند إلى الباب، وتشاهد من مسافة ليست ببعيدة. بدأ يزيح شعرها عن وجهها، ويمسح بيده عليه، واقترب منها وهمس: جليلة..

أمسك بخصلة من أطراف شعرها، وقبلها في بطء. نظرت إلى الأفق وهي لا تعرف ما يحدث ولا أين تكون. ثم التفتت إليه فترك شعرها من يديه، واعتدل في جلسته وقال: كيف حالك اليوم؟

قالت في تلعثم وسرعة: رأيت أبي ميتًا أليس كذلك؟ هل رأيته مثلي؟

قال في رفق: لا نعرف بعد. ارتاحي بعض الوقت، وبعد بضعة أيام سنسافر إلى القاهرة، وستجتمعين بأبيك وأمك وأخواتك، وسيعود كل شيء كما كان.

قالت في مرارة وهي تتفحص وجهه: سيعود كل شيء كما كان..

أمسك بيدها، وضغط عليها قائلًا: أعدك أن كل شيء سيعود كما كان.

نظرت إلى يدها في يده، واختلطت عليها كل الأمور. ثم نزعت يدها، وقالت في يأس: أشعر بالصقيع؟ نحن في الصيف أم في الشتاء؟

- في الجحيم.

قالها ثم قام واتجه إلى الباب، وقال للسيدة في حسم: سأرحل إلى القاهرة اليوم، ربما يدخلها الإنجليز. من يدري؟ والجيش فتح الباب للمتطوعين، وليس لرجل أن يبقى في بيته والغريب يدكها. سأترك معك بعض المال. ارعيها حتى أعود، وسأعرف كل شيء عن عائلتها.

قالت السيدة في تأثر: ربنا معكم يا بني، لا أعرف ما فائدة كل هذه الحروب، لا تعرض عليَّ المال. هي ابنتي. ستكون في أمان لحين عودتك.

اختلس نظرة أخيرة إليها، فقالت في استغاثة: حسن، لا تتركني هنا.

نظر حوله لحظة ثم اتجه إليها، وأمسك بيدها بلا تردد وقال وهو ينظر إلى عينيها: سأعود. ستنتظرين هنا بعض الوقت فقط. وعندما أعود سيصبح كل شيء كما كان.

قالت في أسًى: أبي لم يمت. ستعود ونذهب إلى القاهرة أليس كذلك؟

- هو كذلك.

- كنت ترحل أحيانًا شهرًا واثنين.

قال في حسم: سأعود. اثبتي حتى أعود.

حاول ترك يدها، فتشبثت به دون كلمة.

أغمض عينيه وقال في صوت خافت وهو يضغط على يديها بيديه: جليلة، لا تفعلي هذا بي. لا تصعبي الأمر عليَّ.

فتحت عينيها في استغاثة، وأصابعه تضغط على أصابعها في قوة، وخرجت أنفاسها بطيئة متعبة. قرب يديها من فمه حتى شعرت بأنفاسه على عروقها، ولم يقبلها ثم قال: سأعود.

أرخت قبضتها عن يديه، فخرج بسرعة.

هزت السيدة رأسها وكأنها تحاول الفهم، ثم اقتربت من جليلة وهمست: يعشقك هذا الرجل. تعرفين أليس كذلك؟

قالت في عدم فهم: من يحبني؟

- بل يعشقك عشقًا لم أر مثله، لهفته عليك، وعيناه اللتان تحتويان كل جسدك وكأنك له هو فقط. هو زوجك؟

لم تجب. أغمضت عينيها، وضغطت على جفنيها وقالت: هذا الضوء يزعجني.

- سأطفئه يا ابنتي. نامي بعض الوقت.

- عندما تدفن رأسها في الوسادة يصبح الواقع أكثر احتمالًا. السيدة من رشيد ترعاها كالأم، وتتكلم معها ساعات بلا توقف، تحكي عن حياتها، وتسأل الكثير من الأسئلة. لم يزل العالم يعتصرها بين راحتيه وكأنها خرقة مبتلة تحتاج أن تجف قبل خسوف القمر، وعسعسة الليل. احتضنت جسدها، وقالت بعد عدة أيام: تعرفين أين ذهب حسن؟

- ذهب إلى الحرب يا ابنتي.

شهقت، وتوقفت عن التنفس برهة، ثم قالت في رجاء: كيف يفعل هذا؟ وعدني أن يبقى معي. هذا الرجل خائن لو تعرفين؟ لا يحرسني، ولا يفي بوعوده.

- هو من يا ابنتي؟ لا أفهم.

قالت وكأنها لا تسمعها وجسدها يرتجف: ولو مات يصبح خائنًا للعهد بالتأكيد. فلا يمكن أن يغامر بحياته بعد أن وعد أن يرافقني طوال الوقت.

- هو من يا ابنتي؟

- أليس من المفروض أن يستأذن مني قبل أن يقتل نفسه؟

- هو زوجك؟

- قال إنه سيعود. هل تتذكرين؟

- ليس بيده يا ابنتي. ليتنا نستطيع السيطرة على المدافع.

- أيقظيني عندما يعود..سيعود، دومًا يعود.

* * *

انشطر القلب نصفين أو أكثر، وأصبحت اللهفة لا تزول ولا تهدئها مياه، ولا يشفيها دواء. عندما تشتعل الحرائق تغيب الحقائق وأحيانًا تمحى، وبعد أن تخمد الحرائق يتبقى القليل من الدلائل على ما قد كان وما قد فقد، احترقت الإسكندرية في ثلاثة أيام بعد قصف دام عشر ساعات من الأسطول البريطاني، ورفض الفرنسيون قصفها والتدخل في الحرب، بل بقيت السفن الفرنسية حذرة وقلقة من سيطرة المنافس على الطريق ومدخله. لم يعرف أحد لماذا قصف سيمور الإسكندرية عشر ساعات مع أنه لم يكن يحتاج إلى قصفها أصلًا، حتى عرابي لم يتوقع هذا ولا الخديوي المحتمي في قصر رأس التين، لم يعرف السبب سوى حسن، كانت تظهر له تجليات من حين إلى حين، تقلب أيامه ولياليه، وتهز جدران النفس يأسًا وخوفًا وأملًا وفخرًا في بعض الأحيان. بدأ يفهم، ولم يفهم غيره. لا بد أن أميته جعلته يستوعب ما لم يستوعبه المتعلمون وأصحاب الأراضي والألقاب، حتى عرابي لم يعِ ولم يدرك. ربما للإدراك علاقة وثيقة بمعرفة ما كان وما حدث والتلاحم معه. وكانت تأتيه لحظات صحوة تظهر وتختفي، لحظات شك ويقين، وأحيانًا يزعجه التفكير ويتمنى لو عرف الحقيقة ثم انهزم، لا يبالي. لا بد أن الحقيقة هي الانتصار الحق، وليست الحروب المبنية على الكذب والخيانة. لديه الكثير الذي يحتاج البحث عنه. هذه الصور التي تظهر له وتختفي، وهذا الماضي الذي يكاد يتذكره ولا يدركه.

احترقت الإسكندرية أيامًا، مات من مات من النار، ومن اليأس، ومن ضياع المال والولد. لماذا حطم الإنجليز الإسكندرية وهدفهم القاهرة؟ لا أحد يدري. ربما لم يكن هدفهم القاهرة ولا الإسكندرية. ربما أراد القائد أن يضع شعبه أمام الأمر الواقع ويخترق الحدود ليبقى، وربما هي شراهة وقسوة الطامع التي لا حدود لها ولا بحار تصدها. من يدري؟ في أغسطس كان هناك أربعون ألف جندي بريطاني في أنحاء مصر، وانهزم عرابي ولم يستسلم، تقهقر في التل الكبير وهو ينوي الحرب في القاهرة. لو دخل الإنجليز القاهرة بنفس طريقة دخولهم الإسكندرية ماذا سيحدث؟ كانوا يعرفون وكانوا يخططون منذ زمن. اجتمع المجلس العرفي في القاهرة، وطُلب من عرابي الاستسلام، لا قِبَلَ لجنوده بكل أساطيل بريطانيا وكل جيوشها، حتى الجنود الهنود استعملتهم في حربها، وبدا للشعب البريطاني أن بريطانيا استدعت كل جيشها من جميع أنحاء العالم لتدخل مصر. لِمَ تجازف كل هذه المجازفة؟ ولِمَ تستحق مصر كل هذا العناء؟

تحتاج مصر إلى يد المساعدة، هكذا قال الإنجليز، والدين الكبير لبريطانيا لا بد من دفعه، وحماية الأقليات والأجانب واجب للبلاد المتحضرة. عندما اعترض البرلمان البريطاني أسكته الساسة، وهم يُقسمون بشرفهم أن القوات الإنجليزية لن تبقى في مصر. وعند اعتراض الفرنسيين أقسم القائد الإنجليزي أن الخروج من مصر مسألة شرف وعهد، وأنهم دخلوا فقط حتى يستتب الأمن، وتستقر الأحوال، لن تبقى القوات سوى عدة أشهر أو عام على الأكثر.

استسلم عرابي، وفهم الخديوي، واستوعب الإنجليز، وزاد الدين، زاد كثيرًا. فقد أصبح على المصريين الآن دفع ديون إسماعيل «بالفائض»، وديون جديدة لتحطيمهم الإسكندرية واعتدائهم على الأجانب وديون الحرب؛

فالديـون ستُدفع للجيش المحتل ليقـوم بعمله في حرفية. عـلى مصر والمصريين دفـع أربعة ملايين جنيه إسـترليني خسـائر تسـببوا فيها بسـبب الحـرب، وعلى بعـض المصريـين بالـذات ديون أخـرى، فقد سـاعدوا عـرابي وسـاورهم أمل محظور بالحرية. بدأ الانتقام من كل من تعاون مع عرابي وأعطاه المال أو القلب، البعض فقد أراضيه، والبعض دفع غرامات، والبعض كان مصيره السـجن. أما ضباط الجيش الذين أظهروا تعاطفًا فبعضهم فُصل من عمله، وبعضهم عوقب بالسـجن، وآخرون منهم فقدوا وظائفهم وسـجنوا، وفقدوا كل أموالهم أيضًا. كان انتقامًا طويلًا ومفصلًا بعناية وإتقان وصبر، الكثير من الصبر.

عاد حسـن، حارب وعـاد. لم يقابل عـرابي، ولم يواجه الإنجليـز، انتظر في الخنـدق هجـوم القـوات، وجـاء الكثير من القـوات، وكانـت الجنود تشـبهه، أو ربما عدم نومه ليالي كثيرة طمس نظره، تحقق منهم بعد حين، يطلقون النيران بلا توقف، وضعهم الإنجليز في مقدمة جيوشـهم، يحاربون من أجلهم، وكانوا هنودًا، رفع بندقيته التي لا يجيد استعمالها، وضرب بها من يقاتله، ورأى من بعيد رجلًا بريطانيًّا بين الكثير من الجنود، كان يتباهى ويفتخر بردائه وموكبه، وسمع أنه ابن الملكة فيكتوريا جاء يحارب هنا، لا فهم لِمَ يحارب الهنود في صحرائه، ولا لِمَ يتباهـى الملـوك باختراق قلبه، بعد قليل توقف عن الضرب، ولكنه لملم الكثير من الأشـلاء، وانتشـل الكثير مـن الجثث، وحـاول أن ينقذ بعـض المجروحين وبعـض المعلقـين بين المبـاني المهدمة، وغمـر المصريين إحسـاس باليأس ممزوج بحقـد ومرارة على من حارب، ومن خان، ومن بـاع، وأكبر حقد ومرارة كانت منصبة على من تمنى.. فالأمنيات أخطر الخطايا.

هـدأت القاهـرة، واستسـلمت، فليدخل الإنجليـز أو يخرجـوا، ماذا يهم الشعب؟ فلينتصر الخديوي أو السلطان، من سيفكر في الشعب؟ لا فهم الناس سبب حروب بريطانيا الممتزجة بطمع يشوبه حماس وارتباك فوق طاقة المصريين حينها، ولا فهموا معنى مضاعفة الدين، فأموالهم بالكاد تكفيهم.



الباب الثاني

«ولكن العذاب يشي بحكمة غير مسبوقة ونضج لا يعرفه البشر».

6

بعد شــهر من القصف شوهد عجوز إيطالي يجلس على أحجار سقطت من قلعة قايتباي. كان يجلس ووجهه للشارع الفارغ وظهره للبحر ويتكلم ساعات دون توقـف. ألهى المتبقين من السـكان عن مصيبتهم، فجلس الأطفال حوله في فضـول؛ تـارة يهزأون منه، وتارة يستشـفون هويتـه. تارة يطلبون منـه الرحيل، وتارة يسـتجدون عطفه. تفشـى الخبر كالوباء، رجل لم يفـر ولم يخف، فقد عقله أثنـاء الهجـوم. قيل إنه يقطن داخـل مكتب البريد الإيطالي الـذي حطمته قنابل الإنجليـز، وقيـل إن القصف أفقده السـمع؛ لـذا يصيح بكلمات غـير مفهومة. عطـف عليه البعض، ووضعوا أمامه الطعام والماء، وأصبح وجوده على أحجار القلعة مستسـاغًا ومتوقعًا، ينام هناك ويصحو أو يكاد. تكاثرت الحكايات عنه، وكتب عنه رجل أو اثنان. رجل إيطالي يسكن حطام قلعة قايتباي لم يُستدل بعد على اسمه.

تعثـر بـه عامل يريـد أن يمحو آثـار العـدوان، وطلب منـه أن يتزحزح أو يرحل، فأبى وتحدى..تدخل أحد المارة..وكان حسن....

عرفه حسن. كان يبحث عنه. عاد إلى الإسكندرية خصيصًا ليجده، فبينهما كلمات لم تنته بعد. ولم يشرح لنفسه لِمَ شغله أمر الأجنبي. ربما انشغل بأمره لأنه إنسـان، وكان سيقابله وقت القصف في مكتب البريد. مـن الطبيعي أن يدفعه فضوله ليعرف هل مات في القصف أم لا. ولكنه لم يفهم لِمَ يبحث عن الأجنبي في أنحـاء الإسـكندرية وخاصة حـول كل المواقع التي تهدمـت. ما دفعه لذلك بقي مجهولًا داخل أعماق الروح. ولكنه حين رآه عرف أنه وجد غايته.

شده حسن في رفق، وجلس معه على الضفة الأخرى للشاطئ. ذهب معه ألفونسو بلا مقاومة، ثم نظر إليه، وقال:

- أنت حسن، أليس كذلك؟

- كيف تذكرت اسمي، ولا تتذكر شيئًا آخر؟ ما الذي جعلك تجلس أيامًا أمام القلعة؟ من تكون؟ هل تسمعني؟

- كنـت أنتظـرك هنـا، حيث بنـى المماليك آخـر قلاعهـم. المماليك كانت تبنـي القلاع لتحمي طريقها. وعندما جاء البرتغاليون بنوا القلاع الصغيرة على أطراف الشـواطئ ليهجموا منها على التجار والسـفن، فيثيروا الرعب ويسدوا مدخل الطريق. تعرف شيئًا عن المماليك وعن البرتغاليين؟

- لا أعرف عماذا تتكلم.

- لِمَ ضربت مدافع بريطانيا قلعة السلطان المملوكي قايتباي في الإسكندرية؟ لأنهم يتذكرون وأنت تنسـى. ما أحزنك! تقابلنا من قبل يا حسن. ولكن مُحيت ذاكرتك..سـتعود..وعندما تعود سـيمتد وجعك إلى ما بعـد كل البحور. أنت

حســن والمجذوب. أتعرف هذا؟ هما الشــخص نفســه. ولكن حقيقتك لم تظهر لــك وهذا أفضل. عرفتك من خطابـات تاجر البندقية التي أحملها. كنت أعرف أن هنــاك أرواحًا على موعد بلقاء قصير، يغير المصير ويكشــف الضوء، ولقاؤنا أحد هذه اللقاءات. تقابلنا من قبل، قلت لك.

شعر حسن بوخز في قلبه، ثم قال: بالطبع تقابلنا مع جليلة هانم.

- قبل أن أرى جليلة بكثير. وكأننا تقابلنا من قبل.

- لِمَ ادعيت الجنون؟

- لم أدعِ الجنون. هم من ادعوا أني مجنون. كنت أنتظرك.

- كيف عرفت أني سأبحث عنك؟

- لأنك تريد أن تعرف..في الإدراك نجاة. حتى لو تبعتْه هزيمة.

- من أنت؟

- ألن تسألني أين الطريق؟

- لا.

- إذن عرفت مكانه.

قال حسن:لم أعرف مكانه. ولكنه سؤال ساذج. لو كانت الإجابة سهلة لما مات الكثيرون حائرين تائهين. أي إجابة ستعطيها لي هي ضلال.

أمســك حســن بيده قائلًا: تعال معــي، لا تبق هنا. تعــال نجلس على قهوة ونتكلم.

- أريد أن أبقى أمام البحر.

جلسا جنبًا إلى جنب ينظران إلى البحر، ثم قال حسن: تعرفني من قبل.. ماذا تعرف عني؟

ردد ألفونسو:

أعرف أنك المجذوب، وأنك الشاطر حسن. وأعرف أني بحثت عنك حتى وجدتك وعرفتك، وعرفت أن عليَّ أن أوصل الرسالة، ثم أكمل ألفونسو في فصاحة: «اليوم انتهى عالمك القديم، وكل السبل طمست، وكل المسالك محيت، زالت كل أيامك، ولم يتبق لك سوى الغرق».

انقبض قلبه، وكأنه مات آلاف المرات، ثم قال: أكمل..من أنت؟ ومن أين جئت بهذه الكلمات؟ من قالها؟

قال ألفونسو: وكأنك تسألني أين الطريق؟ لِمَ أجيب على أسئلتك ولو أجبت لِمَ أصدق؟ لو عرفت تتعذب، ولو لم تعرف تتعذب. لو أدركت تندم ربما بعد فوات الأوان، ولو لم تدرك تموت بغفلتك لا محالة. في تاريخك غرق وسبل ونجاة وفناء وفي الماضي فهم للحاضر، ولكن الفهم لا يغير المصير.

جمع حسن كل شجاعته ليسأل: ربما تعرف ما لا أعرفه.. عندما انهار مكتب البريد، وانهالت مدافع الإنجليز على رءوسنا..انتابني شعور محير حينها، كأن قلبي شق نصفين من الألم. وكأنني مررت بنفس الشيء من قبل. نفس المدافع ونفس الإحساس بالغرق، تهاوت نفسي، ولكنها لم تتهاوَ من الفزع بل من المعرفة. هل يمكن أن أكون عاصرت شيئًا شبه ما حدث؟ ولِمَ تبحث عني؟

نظر إليه ألفونسو، ثم ابتسم، ولم ينطق.

قال حسـن وعيناه عـلى المياه الهادئة اليوم وكأنها ميـاه لا تقوى على الثورة: الإنجليـز دخلـوا مـصر. يقولـون إنهم سـيخرجون بعد شـهر أو شـهرين..لن يخرجوا منها ..لن أشـهد على خروجهم. عرابي انهزم..كان يريد أن يردم القناة، ولكن ديليسبس خدعه. يهتم ديليسبس بأمر القناة..عرابي كان يريد..

قاطعه: عرابي كان يسأل أين الطريق، ويتوقع أن يجده ..ولكنه لم يدرك..

- لم يدرك ماذا؟

- الطريق..

- الطريق إلى النجاة؟

- الطريق الذي يقاتل الجميع من أجله..المدخل إلى الفوز..

- لو طلبت منك أن تشرح لي..

- لن أفعل.

- أن تحكي لي..

- «اليوم انتهى عالمك القديم، وكل السبل طمست، وكل المسالك محيت، زالت كل أيامك، ولم يتبق لك سوى الغرق».

أطال حسـن نظره إلى القلعة، ثم قال: كيـف تتكلم العربية بهذه الفصاحة. هذه كلمات قالتها اليمامة للشـاطر حسـن، أعرف هذه الكلمات. قالها لي الشـيخ الزمزمي من قبل. الشـاطر حسـن أطلقوا عليه المجـذوب في زمن المماليك. من بنى هذه القلعة؟

- بناها رجلٌ كان يملك حينها كل الطرق حتى اكتشف غيرُه طريقًا جديدًا فأصبح طريقه بائسًا. كيف لا تتذكر؟ لِمَ لا تتذكر؟ تتصل البحور بعضها ببعض، فتخرج الطمع من جوف الأرض وقسوة الطمع تمحو الحضارات. التف البرتغاليون حول إفريقيا ليتجنبوا طريق مصر..كان طريقهم حينها بلا حواجز ولا يابس. فقدت مصر الطريق إلى الهند، وفقدت استقلالها. وعندما غارت دولة البرتغاليين سيطر الإنجليز على الطريق إلى الهند، الطريق الذي اكتشفه البرتغاليون، رأس الرجاء الصالح، ثم جاء رجل فرنسي يفكر في طريق جديد أقصر وأسرع، يجعل كل الطرق دونه بلا قيمة..أتعرف أين وجد هذا الطريق؟ في مصر.

بدأ يضحك بلا توقف. ثم أكمل: لا أعرف يا حسن، هل أنت ملعون أم ساحر؟ اعترض الإنجليز على الطريق وقالوا إنه لن يفلح، البحر ضحل، وأعشابه الحمراء لن تتحمل السفن المحملة بالبضاعة الثقيلة. ولكنه أفلح.. واختصر الطريق إلى الهند آلاف الأميال..ماذا يفعل الإنجليز؟ فقدوا الطريق، وسدت السبل أمامهم، طريق البحر سريع، ولكنه على أرض غير أرضهم، بناه غيرهم. الطريق.. هو الغاية..دومًا.

ردد: الطريق هو الغاية. ليس الديون ولا الحماية..ولا ..

قاطعه: كان..ولم يزل..هو الطريق، بدون الطريق لا وصول. هو الغاية لنا جميعًا. عند افتتاح القناة كان من المفترض أن تدخل سفينة «أوجوني» الفرنسية لتفتتح القناة..ولكن من تسلل ليلًا؛ ليكون أول من يدخل القناة، ويسلك طريقه وحده بلا مساعدة وبلا دليل لم تكن سفينة فرنسا.

- من دخل القناة؟ هل دخلتها سفينة بريطانية؟

- السفينة التي افتتحت القناة هي سفينة من يريد الفوز بها. من يخاف الطريق الجديد ويشتهيه. لا تتوقع مني كل الإجابات. لو حاربت لا تحارب دون أن تفهم غاية الطامع، وإلا ضللت السبيل.

الفهم يحتاج إلى وقت مثله مثل الإدراك..لا يأتي إلا بالآلام. عندما تتعذب تدرك، وعندما تنهزم لا بد أن تفهم. ربما كتبت عليك الهزيمة، ولكن في الإدراك فوزًا ونجاة، تذكر هذا. اذهب إلى الإسماعيلية عندما يحين الوقت، وابحث عن رجل عجوز يعيش هناك منذ زمن اسمه حافظ الشيشاوي، هو صديق..يعرف ويشهد..اطلب منه المعرفة.

نظر إليه حسن ثم قال: هل يمكنني أن أوصلك إلى بيتك؟

- هل تعرف الطريق؟

- أحاول.

قام قائلًا: سأرحل..جئت لك برسالة، وأديت أمانتي..أو جزءًا منها. لو بقي بيتي واقفًا أعطيك الرسائل التي أحملها إليك. وجدتها في البندقية، وأنا أبحث في إحدى الكنائس، سترشدك ربما أو تُذَّكرك، من يدري؟

قال حسن في عدم فهم: هي رسائل للجيش المصري؟ انهزم، وانتهى الأمر.

- لا، هي رسائل قديمة من تاجر في البندقية عاش منذ أربعة قرون، كتب عن الطريق، وعن هزيمة المجذوب. أنت تعرف المجذوب. قلت لك هو الشاطر حسن الذي أصيب بلعنة منذ سنين. هامت روحه، ولكن المجذوب عاصر أول هزيمة، وأنت تعاصر ثاني هزيمة. هو عاصرها عام 1509، وأنت تعاصرها عام 1882.

قال حسن في ضيق: وما شأني بالأساطير؟

- بها تاريخك هذه الأساطير، وكل ما تريد نسيانه. هذه رسائل غير رسمية من فرانشيسكو تيلدي تاجر البندقية يحكي فيها عن مقابلة سلطان مصر الغوري.

سارا معًا في صمت حتى وصلا إلى بيت ألفونسو، كان يتكلم دون توقف، ولم يفهم حسن الكثير مما يقول. خاف أن يكون ألفونسو قد فقد عقله تمامًا من القصف. هل خاف على عمره أم على ألا تصل الرسالة؟ بعد أن بحث، وفتش، وجدها في صندوق صغير وأعطاها لحسن قائلًا: لا إدراك دون استرجاع ما كان، ولا أمل دون يأس يسبقه. هل تتركني بعض الوقت؟ أحتاج البقاء وحدي.

قال حسن في قلق لا يعرف سبب شعوره به تجاه رجلٍ لا يعرفه: ربما لا بد من الذهاب إلى المستشفى.

- كل من يحيا على هذه الأرض له هدف ودور، ويوم ينتهي دوره يموت. هل تقرأ يا حسن؟

قال حينها: حاولت أن أتعلم، ولم أستطع. الشيخ يقول إني لا أرى الحروف..كأنها لعنة أو مرض..

- كنت تتعلم من أجل من؟

بقي صامتًا.

- إذا كنت لا تقرأ، فهي تقرأ. اطلب منها أن تقرأ لك الرسالة.

- هي من؟

- من تسيطر على روحك حتى وروحك هائمة في الكون.

قال حسن في حيرة: لماذا؟ لماذا بحثت عني؟ ولِمَ سافرت واجتزت البحور لتراني؟

قال: «يبعث الله لنا أناسًا في الطريق ليضيئوا المسلك، ويرشدوا الضال. ابحث عنهم».

قال حسن في ذهول: هذه كلمات الشيخ الزمزمي.

- لا أعرف شيخك يا حسن. هذه كلمات سمعها المجذوب من شيخه هو. وكتبها فرانشيسكو تيلدي نقلًا عن المجذوب. وحفظتها أنا عن ظهر قلب.

- تحيرني كلماتك.

- ربما لو قرأت رسائل فرانشيسكو تاجر البندقية فستفهم أكثر وتتذكر من تكون. لا بد أن تقرأها عند سبيل الغارق حيث كان يسكن الشاطر حسن ثم المجذوب. رسائل فرانشيسكو يا حسن عن المجذوب وعنك.

ما حدث بعد ذلك حاول حسن استيعابه طوال المسافة من الإسكندرية إلى رشيد، ولم يستطع. طلب منه ألفونسو كوب ماء، فبحث حسن بعض الوقت، وجاء به وكان ألفونسو مستلقيًا على أرض الحجرة ميتًا. قالوا إن جرحًا بداخله نزف حتى الموت، لم يشعر به أحد، ولم يبد عليه أنه مريض. كان يصرخ ويتشاجر ويهلل ويثور. ترك حسن الإسكندرية بقلب مثقل ورسالة قديمة. لم يحن الوقت بعد لقراءتها. قرر أن يبقي الرسالة برفقته بعض الوقت حتى يستعد لقراءتها ولابد من قراءتها عند سبيل الغارق.

* * *

عاد حسن إلى رشيد ليعيد جليلة إلى عائلتها. أو ما تبقى منها. لم يكن يعرف كيف يخبرها. هل يخبرها بمن مات أم بمن عاش؟ ولم لا بد أن يخبرها هو؟

عندما رآها نظر إلى عينيها، كانت تجلس على كرسي، وتنظر إليه في لهفة، ولم يعرف أهي لهفة له أم لمعرفة مصيرها.

قالت في لوم: تأخرت يا حسن.

- اعذريني لم يكن بيدي.

- هل حاربت؟

- ربما.

- ماذا تعني بربما؟

انحنى ليتكلم معها بصوت خافت، ثم قال: جليلة هانم. سنعود اليوم إلى القاهرة. انتهت الحرب.

قالت وهي تنظر إلى عينيه ولا تتحرك من كرسيها: أعرف. دخل الإنجليز مصر.

قال وهو يبحث عن كلمات: كنتِ يا هانم دومًا مختلفة، قوتك مصدر إعجاب الجميع. لا أعرف الكلام الكبير ولا أفهمه مثلك. والدك يرحمه الله، هو مات شهيدًا.

قالت وهي تبلع ريقها: أعرف.

تنفس في ارتياح، ثم قال: أصاب البيت القصف والمدافع..

قالت في استسلام: من مات أيضًا؟

- لم ينجُ سوى أمك. ماتت أختاك سعاد وسعدية. وخالك مات في الحرب، وجدوا جثته في التل الكبير.

قبضت يدها على مسند المقعد وقالت في مرارة: أمي تعرف. رأيتها؟

- هو قضاء الله.

- قابلتها؟

- قابلتها. تنتظرك في لهفة. تريدين الذهاب اليوم إلى القاهرة؟

خرجت منها صرخة مكتومة، ولم تجب.

- استمرت في النظر حولها بحثًا عن مكلوم أو ميت، ولكن بدا لها أن كل شيء عاد كما كان، وكأن الحرب لم تؤثر على أحد، ولم تغير حياتها رأسًا على عقب..

كان الطريق طويلًا ضيقًا يشبه الممر بين النار والجنة، ويقترب أكثر من النار. بدأت تتمتم بكلمات كثيرة في صوت ممتلئ بالشجن وأحيانًا بدت له أنها فقدت عقلها. في القطار من الإسكندرية إلى القاهرة، جلس أمامها وعيناه لا تترك عينيها. تاهت منه، وابتعدت، حلَّقت في سماء معتمة، وهي تتمتم: من مات؟ من مات؟

أمسك بذراعها، وهزها وصاح: جليلة..

نظرت إليه، وتجمدت ثم قالت في رجاء: لِمَ لم أمت أنا؟ لا داعي لوجودي. لا آتي لعائلتي سوى بالمصائب والفضائح. أختاي صغيرتان. تحتاجان العيش. كانت غلطتي أنا..أنا أردت الذهاب إلى الإسكندرية، وشجعت أبي..أنا ظننت أني سأغير الكون. أستحق القتل..بل الحرق.

خرجت منها صيحة، فقفز من مكانه، واتجه إليها واحتضنها وقال: اهدئي. والدتك تحتاجك.

تشبثت به ربما، تعلقت بكتفه.. لا يدري. لا بد أنها فقدت عقلها. أو نسيت من يكون ومن تكون. ربما ظنت أنه والدها أو خالها.

خفق قلبه واختلج، حك خده بخدها، ونسي أين هما وكيف وصل بهما الحال إلى هنا. همس وهو يقبل خدها قبلة طويلة يائسة: تعرفين من أكون؟

قالت: أنا السبب. لو مت أنا لعاشوا. تسمعني. لو مت أنا..لِمَ لا تقتلني الآن؟ عد وقل إنك وجدتني ميتة. اقتلني..

أغمض عينيه، ومر بيده على شعرها وقال: نامي. حاولي النوم.

طوقت رقبته، وأراحت رأسها على كتفه، وعيناها مفتوحتان وصمتت.

اتفقت عليها كل جيوش العالم وهاجمتها كل المدافع، حتى تهشم رأسها من الضربات ولم تمت. لم يتبق سوى سبيل بعيد، ولكنه يسطع بضوء قوي، ورجلها لا تقوى على السير إليه، ظهرت لها عصًا سحرية سميكة وعميقة، أمسكت بها، فغاصت العصا بداخلها ودفعت بها إلى طريق الضوء، ضربت برأسها على صدره.. كان صلبًا كالجبال، وكان حنانه يغمر ما تبقى من نفسها المهشمة. ولكن قوة الصدر معجزة وسط هذا الدمار. لِمَ لا يتهشم ولا يختفي كما اختفى الأب والخال والسند. كان هو العصا والطريق والضوء. بدأت تضرب برأسها على الصدر في رتابة لتختبر قوته... ربما، لتتأكد أنها لم تزل تشعر... ربما، أو أنه لم يزل هنا معها. ثم توقفت.

ودَّ أن يتأكد أنها نامت، وخاف أن يبعدها عنه. فربما لا تسنح له الفرصة مرة أخرى أن يأخذها بين ذراعيه. لا بد من حرب مدمرة وموت يمحوان كل ما تبقى من العقل حتى يتسنى للخادم أن يحتضنها هكذا.

ودَّ لو يستطيع أن يقبلها مرة واحدة قبل أن تصحو، ويعود إلى موقعه خارج نطاق الكون. مرة ربما. ويعرف أن هذا مستحيل. قبل رقبتها قبلة طويلة، وكتم لهفة اعتاد أن يغوص بها إلى أعماق البحر. وتذكر كيف دمرته يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة. كلما رآها أدرك أن السبيل إليها ليس اليابس ولا البحر، بل هو طريق لا يطؤه بشر. ممر مصنوع من الفخار لأميرة من عالم غير عالمه. كل ما سيصل إليه هو رؤيتها من زجاج شفاف. ستبقى داخل العرش، وسيستمر خارج الممر، لا تشعر به، ولا تكترث لروحه التي أسلمها لها. في اليأس فناء، وفيه موت يختلف عن ميتة المحاربين. ميتة اليأس بطيئة ومعذبة ومظلمة، وجليلة تبتر بلا رحمة. قسوتها لا يعرفها غيره.

تذكر لحظتها من يكون. فقال هامسًا في أذنيها: جليلة هانم..

أبعدها عنه بعض الشيء، فنظرت إليه في حيرة، ثم تشبثت به، وقالت: لا تتركني.

لو تركها فستهوي في فضاء الضياع وتتلاشى كل سبلها. هو فقط..يعرف كيف يخرج بها من الكابوس، وكيف يلملم أشلاء نفسها المهشمة. كان موجودًا منذ زمن.

أخذ نفسًا طويلًا ليستوعب ما يحدث، أو ربما ليسيطر على تدفق مشاعره حينها، وضمها حتى شعر بصدرها ينبض داخل صدره ورائحتها تملأ جوفه، وقال: قلت لك من قبل لا تفعلي هذا بي.

لو قبلها قبلة واحدة وأبقى على ذكرى شفتيها لحين الهزيمة فماذا في ذلك؟ أليس من العدل أن يعرف فقط طعم شفتيها؟ لو لم يكن مكتوبًا له قط أن يشبع منها ويعتادها. الجفاف قادم والفقر والقحط لا محالة منهما، وسوف يعود كلٌّ إلى

موضعه، ويستمر النقر على باب روحه يؤلمه ولا يقتله، يُذكره بمكانه ولا يدفع به إلى أسفل ولا إلى أعلى. ولم يقبل شفتيها، ولم يستطع أن يستغل غياب الحذر واختلاط الأمور بداخلها.

في الماضي قال إنه مستعد أن يدفع عمره وينساها. أن يصوم الدهر ولا يفطر، أن يخترق السيل العرم، أن يصلي ليلًا ونهارًا لو ساعده الشيخ أن ينساها. صلى وصام واستطاع الصمود ولم يستطع النسيان.

عزم أمره مرات ومرات أن النحر علاج وشفاء. سيبتر قلبه وروحه. عند الرحيل لن يتذكر. ولن يقلق، ولن يتساءل عن مصيرها. ستتزوج وتسعد أو تشقى لن يبالي. لن يحميها من حريق الشمس ولا من أحجار الصغار ولن ينتشر حولها عند هجوم الطامعين. حتى لو كانت تحتاجه فهي لا تراه..

ضغط على عينيه. كره هوان النفس، وأقسم على الرحيل. عند النحر سيشفى. لِمَ لم يستطع؟ هي لعنة ربما أصابته هو فقط.

قال الشيخ الزمزمي إن في الألم إدراكًا وفهمًا، وفي استحالة الوصول تأهيلًا للنفس على التحمل. عندما يشتد الوجع يثبت النبات في مكانه، ولا يمكن اقتلاعه. وعندما يشتد الوجع تلتحم النفس بخالقها وتتجه إليه بصدق طالبة النجاة. الصبر والثبات..هما النجاة.

استقرت بين أضلعه وقالت: تهشمت الإسكندرية ومعها نفسي. محا الإنجليز أثرنا يا حسن.

قال بلا تفكير: في جمع الرفات همة وعزم، وفي البحث بين الأشلاء الكثير من المعرفة، ليس لهم أن يمحوا نفسًا كنفسك يا هانم.

- وماذا تعرف عن نفسي؟

- إنها الكنز المنتشر بين الأشلاء.. لابد من الحفاظ عليها..

- ماذا تقول؟

تشبثت بكتفه، وأغمضت عينيها، وهمست في مرارة: يا رب لو مت الآن، أتمنى الموت فقط، عجل لي برؤية أبي. أكاد أراه. ولِمَ يموت من يستحق الحياة ويعيش من لا يستحقها؟ حسن.. أخبر أبي أني سأترك المدرسة ولن أفعل أي شيء يزعجه من اليوم. حسن..

نظرت إلى يدها التي تمسك بكتفه في ذهول، ثم انتفضت من مكانها وشهقت، فابتعد عنها سريعًا، وجلس أمامها ثم قال وهو ينظر إلى الأرض: أنت بخير الآن يا هانم؟

أطالت نظرها إليه وكأنها تحاول استيعاب ما جرى، ولا تستطيع. ثم أغمضت عينيها، وبدأت في نواح خافت.

* * *

القاهرة بدت مختلفة اليوم. هدوء في بعض الأركان، ووجوم على وجوه الجالسين على المقاهي والبائعين، ورجل يصيح: لا قانون يحكم هذا البلد، سُرق كل مالي للتو..لمن أشكو؟ للإنجليز أم العثماني أم الخديوي؟ لا يسمعني أحد.

سارت جليلة بجانب حسن، وبدت يقظة، قوية ومستعدة لرؤية أمها.

قال حسن ربما للمرة الأولى بعد أن استيقظت من نوبة الحزن: تفشت الجريمة، واختفى الأمان، تُهنا في صحراء قفراء على ما يبدو. لا يوجد رجل قائم برأس مرفوع في هذه المدينة.

نظرت إليه فجأة، كانت كلمات بليغة لا يمكن أن ينطق بها أميٌّ. قالت: كيف قلت هذا؟

قال وهو يبتسم في ألم: تقصدين كيف لمثلي أن يعرف هذا؟ الوجع والكسرة أكبر معلمين، تحول الجاهل إلى عالم والبريء إلى بائس.

قالت في مرارة: وماذا يعنيك يا حسن في الحكام؟

نظر إلى الجنود البريطانية المنتشرة في الشوارع، ثم قال: ماذا يعنيني؟ ولِمَ لمثلي أن يهتم؟

ثم أكمل لنفسه: تعرفون كل شيء، وتفهمون كل شيء، ما لنا نحن وما للحكام.

وجدت أمها في حال مزرية، ترتدي السواد، وعينها متحجرة، لا تبكي ولا تشتكي ولا تنعى حظها، كان عزاؤنا سخيًّا، وبدل الميت ثلاثة وأربعة وبدل الصرخة صرخات. لم تقو الأم على حضور عزاء أخيها أيضًا، ولم تعد قدماها تحملانها خارج الحجرة. جاء عمها من قويسنا خصيصًا لحضور عزاء أخيه، وأحضر معه أولاده الثلاثة وزوجاتهم، وزوجته، ولم يحضر بناته. صرخت زوجته، وقامت بواجب العزاء على أكمل وجه. وبعد انتهاء العزاء حدث شيء غريب.

بقي العم وزوجته وأولاده الثلاثة في الفيلا، ولم يرحلوا. بل دخلت زوجة العم تبحث عن الذهب والأموال، بكل صراحة ووضوح قالت للأم التي تسند رأسها، وتنكمش في ركن في الحجرة: يا حبيبتي حق الورثة محفوظ مهما كان الحزن. أين الذهب؟ هو ذهب أم سعيد ولا يمكن أن تستأثري به. ثم ذهب ابنتيك المتوفاتين من حق العم أيضًا. هذا حق لا يغضب أحدًا.

نظرت إليها الأم وكأنها لا تفهم ولا تهتم، وكان في الغرفة جليلة وتمرهان، ربتت تمرهان على كتف الأم بلا كلمة، وقالت جليلة في قوة: إذا سمحت لي يا زوجة عمي، أمي ليست بخير، وأتمنى أن نؤجل هذا الكلام لوقت آخر.

ولكن بدا أن زوجة العم كانت مستعدة بالمدافع والقنابل، قالت في تحدٍّ: وقت آخر لا، تريدين أن تخفي الذهب؟ هذا لا يرضي الله، هذا ظلم، تزحزحي لأبحث عنه.

قالت جليلة في قوة وهي تقف أمام باب جناح الأم الخاص: يا زوجة عمي هذا ليسُ الوقت المناسب.

صاحت زوجة العم تنادي زوجات أولادها، ودفعت بجليلة فوقعت على الأرض ودخلت مع خمس نساء من زوجات وخدم، وقالت لتمرهان: خذي سيدتك إلى حجرة في الدور الأرضي. هذه حجرتي من الآن ثم تعالي هنا، وأخبريني أين الذهب؟

قالت تمرهان في خوف: لا أعرف يا سيدتي. لا أحد يعرف.

سبَّتها، وبصقت على وجهها، ثم دفعت بجليلة خارج الحجرة فأسندت تمرهان الأم، وخرجت بها.

بـدا أن العـم وعائلته جاءوا في مهمة سـامية، وأن العـم كان ينتظر أعوامًا وفـاة أخيـه الأصغر الغنـي التاجر الـذي لم ينجب الرجال وليس لـه عزوة ولا سـند. وبدا أيضًا أن للحروب فوائد عنـد البعض، تأتي بالمال الوفير ويعم الخير على المحرومين منذ زمن. فسـعيد أخو أحمد بك تاجر الأقطان كان يراقب يومًا وراء يـوم نعيمًا لا يسـتحقه أهل بيت أحمد، وفُجرًا من نسـاء أحمـد، وتبذيرًا من أحمد نفسه، الذي لا فكر في أخيه ولا نَصفه يومًا.

في اليوم نفسـه قام العم أيضًا بهجوم على محلات الأقطان، واسـتحوذ على كل الخزائن والأموال، وقال إنه من اليوم هو صاحب كل هذا العزِّ، وطلب من العـمال أن تعرض عليـه كل صغيرة وكبيرة. واتجه أولًا لحسـن واحتار في أمره، في البدايـة أزعجـه هدوءه وعـدم وضوح نيته، فقرر أن يطـرده، ثم نصحه أحد الموثـوق فيهـم ألا يفعل، فحسـن كان الأقرب لأحمد بك يعـرف عنه كل شيء، والأسـلم أن يقربـه منه، ويطلب مسـاعدته وعونه. ففعل، وبدا حسـن هلاميًّا وغـير مفهـوم، تارة ينصاع لأوامر العم، وتارة يتهرب من سـؤال، أو طلب. لا بـد من طرده عاجلًا أو آجـلًا ولكنه يحتاجه الآن ليفهـم العمل، ويعثر على كل الأوراق.

بحثـت زوجـة العم عـن الذهب سـاعات حتـى وجدت خزانـة حديدية في حجـرة الأب فأخذتهـا لزوجهـا. طلـب العم مقابلـة الأم وجليلـة وأختيها عفـاف وعزمية وزوجيهما، وحين حضروا جميعًـا كانت الأم تائهة لا تقوى على الوقوف، وكانت جليلة مسـتيقظة تعرف جيدًا ما يبغيه العم، ولا تعرف تحديدًا كيف تقاومه.

بـدأ العـم بمقدمة طويلة عن الأخوة، وأهمية صلـة الرحم، ثم قال إنه قرر أن يبقـى هنا في القاهرة ليرعـى مصالح أخيه المتوفى، وزوجة أخيه، وجليلة، ثم

إنـه هو الوريث أيضًا. قاطعـه زوج الابنة الكبرى شريف قائلًا في تحدٍّ: يا عمي، للبنات حق معلوم في تركة أبيهم.

طوال الوقت وتمرهان تسـترق السـمع، وتربت على كتـف بثينة هانم التي لا تبدو وكأنها تعبأ بأي من هذه التفاصيل الصغيرة من مال وذهب.

نظر إليه العم في حدة ثم قال: تطمع في مال والد زوجتك يا شريف؟

قـال شريف : هو حـق يا عمي. حق لزوجتي ولأختيها وأمها. هكذا يقول ديننا.

قـال في حسـم: ليس في عرفنا؟ حماتك سـتبقى هنا في الفيـلا معززة مكرمة بأكلها وشربها وكسـوتها؛ فهي زوجة أخي، وكذلك ابنتها، غير هذا، ليس لكم حق عندي.

قالت جليلة: ذهب أمي يا عمي، ما حق زوجتك فيه؟

نظـر إليهـا في هلـع من تجرئها عليـه، ثم قـام وصفعها في قـوة، وقال: هذه الفاجـرة ابنـة المدارس التي تخالـط العاهرات تتكلم معي عـن الحق. ألم يعلمك والدك ألا تتحدثي عندما يتكلم الرجال؟ لم يربك، ولم يهذبك.

قالت وهي تقوم وتمسك بخدها: عمي هذا بيتنا وبيت أمي وأبي.

هم بأن يضربها مرة أخرى، فأمسك فؤاد يده، وقال في رفق: اهدأ يا عمي. نتكلم بالعقل. للبنات حق في الميراث.

- تريـدني أن آخذهـن معـي إلى المحـلات يبعن ويشـترين؟ أم يشرفن على الأراضي والمزارعين؟ جننت أم ماذا؟

ثــم قال العم في حســم: لنكن واضحين، ما أعطيــه لحماتك وابنتها من مال وكسوة وطعام هو منةٌ مني وإلا طردتهما خارج هذا البيت الذي أملكه أنا الآن، ومن يبقى هنا يبقى بأدبه. أنا المسـئول عن هذه العائلة، وعن هذه البنت الجامحة الفاجرة التي ستتزوج من ابني حتى يسترها بعد فضيحتها التي عاش بها أخي.

وضعــت يدها على فمهــا في فزع، فقالت عزمية: عمي... ابنك لديه زوجة وأولاد.

- لا يعيبه هذا. يتزوج من ثانية.

ثــم قــال في صراحــة: وليعلم الجميــع أن رجالي لا تحــب التدخل في شيء، وأن القتل لدينا مستساغ وعادي، وأنه لو تحداني أيٌّ منكم، فالطلقات المجهولة منتشرة في البلد هذه الأيام.

- تهددنا بالقتل علنًا؟

- سعيد أنك فهمت سريعًا. أهددك بالقتل وبالضرب وبكل شيء. وافعل ما بوســعك. فليس بوسعك شيء. اذهب إلى المحكمة لو أردت، ولو كان هناك محاكم أصلًا. وبلغ الشرطة لو كان هناك شرطة.

أخافــت كلماتــه زوجــي البنتــين وأســكتتهما. ولم يكــن مســموحًا لجليلــة بالخــروج قــط، لا هــي ولا أمها. ولم تكــن جليلة متأكــدة من صحة مــا هدد به عمها هل سيزوجها غصبًا. يستطيع بالطبع أن يفعل أي شيء. فلا يوجد قانون يحكم هذه البلدة ولا ضمير، هي القوة لا أكثر. كانت على اســتعداد أن تترك له كل الأمــوال عــلى أن يتركها هي وأمها لحالهما، ولكنــه لم يكن يريد الأموال فقط بــل إذلالها هــي بالذات. وكأن هناك ثأرًا معها هي بالــذات، وكأنها كانت نقطة الخــلاف بينه وبين أخيه. أمســكت بخدهــا، ونامت بجانب أمها في استســلام.

ربما لو هربت تنقذ نفسها من هذا المصير، وربما يجدها ويقول للجميع إنها فعلًا عاهرة لا شرف لها.

* * *

قال صادق وهو يرتجف: أقسم لك أن كل ما حدث كان بسببي أنا يا حسن.

- كيف ذلك؟

- كنت أريد أن أوفر المال لأصرفه على بائعة هوى، ولم أوفر المال لعمل الخير ولا حتى الزواج من العفيفة الطاهرة. كنت سأبيع نفسي للشيطان من أجل لحظات أو حتى ساعة، ولكن أقسم لك ثلاث مرات أنني من اليوم سأبدأ في الصلاة، وسأتزوج من بلدتنا، وسأنسى البيضاء تمامًا حتى أنني قررت أن أتزوج من سمراء.

ابتسم حسن ثم قال: هذا قرار صائب.

وما إن مر شهر حتى نسي صادق عهده، وقال لحسن في حيرة: هل سيعطينا أخو أحمد بك ما كان يعطينا أحمد بك نفسه؟ أعني هل سأستطيع أن أوفر المال من أجل هدفي. أنا متأكد أن أسعار الأجنبيات الآن بعد الحرب أقل بكثير. ما رأيك؟ هل سيرفعن سعرهن أم سيقل؟

- كنت أظن أنك نسيت هذا الموضوع، واتجهت إلى الله.

- فعلت. أقسم لك أنني فعلت، ولكن هي ساعات قليلة أعيش فيها، ثم أتوب بعدها بما أن العمر قصير، فلابد من العجلة.

ردد حسن وهو ينظر إلى أخي أحمد بك وهو يأمر وينهى ويجادل الموظفين في المحلات: لا بد من العجلة دومًا.

* * *

مرت أيامها في انتظار الذبح. مر شهر وهي في انتظار أن يأتي العم ليهجم عليها أو يزوجها غصبًا، فهمت أنه ينتظر بعض الوقت قبل أن يعلن زواجها؛ فوالدها لم يمر عليه حول.

زوجة العم كانت لديها خطة واضحة للتعامل مع بثينة وجليلة تعتمد على الإذلال المتقن المستمر بلا مواجهة. طلبت من بثينة ألا تأكل معهم؛ فلهم تقاليد مختلفة، والنساء يأكلن في وقت مختلف عن الرجال، وقالت إنها ستأتي لهن بالطعام كل يوم بنفسها. وعدت وأوفت زوجة العم، ولكنها كانت تأتي ببقايا الطعام بعد أن يأكلوا كلهم، تلملم ما تبقى من الأطباق، وتجهز ثلاثة أطباق متساوية: واحد لبثينة، وواحد لجليلة، والثالث لتمرهان التي كانت تأخذ الطعام من زوجة العم.

اكتشفت جليلة الأمر من أول يوم، ولم تكترث الأم، ولم تكن تأكل كثيرًا. همست للجارية: لا أستطيع أن آكل هذا الأكل.

قالت في خضوع: اصبري يا ابنتي، ماذا بيدنا؟

فقالت في إصرار: هل يمكن أن يشتري لنا حسن شيئًا؟

وأصبح حسن يهرِّب لهما الطعام لو استطاع مع أمه.

قالت جليلة لأمها في قوة: لا بد من الرحيل. سنموت هنا.

تمتمت الأم: قدر الله وما شاء فعل.

فقالت في عدم صبر: لن نستطيع البقاء مع عفاف ولا مع عزمية. وزوجة خالي تعاني الآن بعد أن تحفظوا على أموال خالي وأراضيه عقابًا له. أين نذهب؟

رددت: هو قضاء يا ابنتي.

قالت في عدم صبر: لن أستطيع البقاء هنا.

أحيانًا كانت تبحث عن حسن ولا تجده. كان يختفي تمامًا أو ربما يتحاشاها، فوجوده معها الآن سيقطع عليه رزقه، وسيطرده عمها لو رآه يهرب لها الطعام. لم يعد مسئولًا عنها، فلم تعد تخرج قط.

العجز قدر لا جدال فيه. هكذا قالت أختها عزمية عندما شكت لها جليلة ما يحدث من زوجة العم. قالت عزمية إن المرأة خلقت لتتحمل، وتتقبل تقلبات الزمن بصدر شجاع. قالت عزمية وهي تربتُ على يد جليلة: ضللت يا أختي، المدرسة جعلت عقلك مشوشًا، وظننت أن البنات يستطعن الأمر والنهي. أنت هنا تحت ولاية عمك ولا كلمة لك. لو فهمت دورك يا جليلة لهدأت نفسك. انظري إليَّ وإلى عفاف، أنا لم أختر زوجي يا أختي، ولم أره، ومع ذلك أتعايش معه وأتحمل. نجاح المرأة يا أختي في قدرتها على التعايش، والتحمل، وكلما تحملت أثبتت قدرتها وقوتها. هل تظنين أني أرى زوجي جميلًا مثلًا؟ هل خطر على بالك يومًا أني أحبه أو أستمتع بمعاشرتي له؟ لأكون صادقة معك لا هو يستمتع ولا أنا. هو مُجْبَرٌ مثلي..

قالت جليلة في أسَى: ومن أجبرك؟ ومن أجبره؟ لم يجبر أحد زوجك على الزواج منك، ولم يجبرك أحد على الزواج منه.

- تتكلمين كلامًا ساذجًا مرة أخرى. أجبره أهله وأجبرني أهلي.

ثم همست في أذن أختها بكلمات أخجلتها، فقالت جليلة: لا أعتقد أني سأتزوج قط، وبعدما قلته سأكون ممتنة لهذا القرار.

لم تستسلم جليلة للعجز، ولا هي استطاعت مقاومته. أصبحت تدور حول الغرفة وكأنها مسجونة، حتى قالت أمها يومًا في يأس: اهدئي، فلا مرد لقضاء الله.

يومها قالت لتمرهان في عدم صبر: لم لا يحاول حسن أن يرانا؟

قالت في يأس: لا يستطيع يا سيدتي. لو فعل سيطرده عمك.

بعد مرور شهر كانت تمرهان تستجدي زوجة العم أن تسمح لجليلة وأمها بالخروج وزيارة بيت الخال المتوفى؛ فهذا واجب ولابد من القيام به.

ولكن سبب هذا الطلب لم يتضح في البداية لجليلة حتى همست لها تمرهان: يا ابنتي لدي رسالة من حسن. يريد أن يتكلم معك أنت وأمك الليلة، لا يستطيع دخول البيت صباحًا، ولكنه سيأتي لزيارتي في حجرتي في التاسعة مساءً.

قالت جليلة في حماس: سنكون هناك.

أسندت أمها التي لم تعد تمشي إلا بصعوبة، ولا تأكل، ولا تتكلم مع أحد، وذهبتا إلى حجرة تمرهان، وكان في انتظارهما.

علت دقات قلبها يومها، وكأن حسن الوحيد الذي ينتمي إليها في هذا البلد الغريب عليها. هو من دمها يعرف تاريخها ومكنونيتها، وهم أعداء كلهم. حتى أختاها عدوتان لها، وأمها لا حيلة لها ولا حياة. هرولت إليه، وما إن رأته حتى قالت اسمه في ألم، وهوت إلى المقعد، وظل هو واقفًا.

هذه المرة أطال نظره إلى جليلة، ولا تعرف لماذا شعرت برغبة جامحة في البكاء، أشفقت على نفسها، وكان أقرب للنفس من كل الحضور، ثم قالت في تلقائية: هل عرفت ما يحدث لنا هنا كل يوم؟

قال في وجوم: أمي حكت لي كل شيء.

قالت وكأنها طفلة وجدت أباها: حسن، نريد أن نرحل من هنا. ساعدنا..

قال في بطء: لن يكون هذا الأمر سهلًا. سيجدك، وربما يقتلك، ويجرسك.. لابد من توخي الحذر..لدي اقتراح أريدك أنت وبثينة هانم أن تسمعاه جيدًا.

قالت مسرعة: بالطبع. ماذا تقترح؟

نظرت إليه بثينة في استغاثة فقال: عمك ينوي أن يزوجك ابنه الكبير بعد شهر أو شهرين على الأكثر ولا يحتاج موافقتك. سيفعل أي شيء، يملك الرجال ويملك الشهود.

قالت في رجاء: أعرف. سأفعل أي شيء حتى لا أتزوج ابن عمي.

قال في حتمية: تزوجيني أنا إذن.

فتحت الأم فمها في ذهول، فأكمل هو مسرعًا: أقصد نكتب الكتاب في المحكمة حتى لا يتسنى لعمك أن يزوجك مرة أخرى، ولكنها مجرد زيجة صورية تحمي الهانم وتحميك يا بثينة هانم. وربما لا نحتاج أن نواجهه لو لم ينو إرغام جليلة هانم على الزواج. ولو احتجنا..

قالت جليلة: ولو احتجنا ستواجهه أنت؟ لم يجرؤ زوجا أختي على مواجهته فهل ستواجهه أنت؟

هز رأسه وكأنه يفهم ما تعني ثم قال: أعرف أنني مجرد خادم لا عزوة لي، ولا قوة، ولكن ورقة الزواج لا يختلف عليها اثنان، وحينها يمكنك أن ترحلي مع أمك، وسأكون معكما..دائمًا..

التقت أعينهما وقالت: لماذا؟

قال، وقد فاجأه السؤال: لماذا ماذا؟

- لماذا تعرض نفسك لهذا الخطر وهذه المشاكل؟

قال في قوة: دين في رقبتي لأبيك. قلت لك من قبل يا سيدتي.

نظرت إلى أمها، ثم إليه، وقالت: أين كنت الأيام الماضية؟ هل عرفت ما حدث؟ لقد سرقوا ذهب أمي.

قال في مرارة: لو كانت كل بلادنا قد سرقت يا هانم فلا أموال تضاهي الهزيمة.

- تتكلم كثيرًا عن السياسة هذه الأيام.

- توافقين؟

- كيف سنخرج من البيت؟

- تطلبين زيارة زوجة خالك. أمي فعلت هذا، ولكن زوجة عمك يا هانم تبغي كسرك وتريد إذلالك. اذهبي إليها، واطلبي منها الصفح، وتوسلي إليها أن تسمح لك بالخروج مع أمك.

فتحت فمها في ذهول فقال: هذا أملك الوحيد.

- مستحيل.

نظر إلى وجهها، وقال: تعلمت يا سيدتي أن أفصل روحي عن الكثير من البشر؛ فالخادم يصفعه البعض، ويسبه آخرون، وهذا لا يسيء إليه بل إلى من يفعل هذا. لو هجم عليك كلب ضال هل ينقص هذا من شأنك؟ أم من شأن الكلب؟

- تنظر إلى الناس كأنهم كلاب ضالة.

- الكثير منهم، وليس كلهم.

***

تم زواجها من حسن.

حدث.

لا تعرف كيف أقدمت على هذه الخطوة، ولا كيف استطاع أن يأتي بالشهود والوكيل، وأن يجرها جرًّا هي وأمها إلى المحكمة. عندما انتهى من الإجراءات التقت أعينهما، ولم تفهم نظرته بالضبط، ولكنها أصابتها بالقلق. كان يسير وراءها كعادته، وينتظرها ويعاملها كما كان يفعل قبل حادثة الإسكندرية، لم يبد منه أي شيء يجعلها تشك فيه على الإطلاق. ولِمَ تشك فيه؟ هو حسن الذي طالما ساندها في صمت وقوة.

قال: تريدين زيارة زوجة خالك الآن مع أمك؟

نظرت إلى أمها التي هزت رأسها بالنفي، ولم تكن تريد أن ترى ولا تتكلم مع أحد. قالت هي في ترجٍّ: حسن..كيف لي أن أخرج..أختنق في البيت.

أطرق هنيهة ثم قال: سنجد طريقة، كل هذه الغمة ستزول.

- لو كان أبي حيًّا..

نظرت إليه وهي تحاول أن تستشف هدفه، وقالت: بعد أن تزول الغمة ستطلقني بالطبع.

قال في حسم: على الفور.

- لا أعرف كيف أشكرك على مساندتك لنا.

- واجبي وهدفي. تريدين الحلوى التي تحبينها؟

نظرت إليه في دهشة فقال: بيننا عشرة طويلة أعرف عنك الكثير.

ابتسـمت لأول مـرة ربما، وقالت في حماس: نعـم. أمي أيضًا لا بد أن تأكل شيئًا.

لم تكـن الأم تتابـع الحديث، ولا تتكلم كثيرًا، نظـرت إليها عندما تكلمت عنها وروحها مع الأموات.

وعدهـا حسـن بأن يحاول أن يجـد الفرصة ليخرج بها مـن البيت، ولم تأت الفرصة، وقال إنه سـيحاول أن يطمئن عليها هي وأمها لو استطاع، سيزور أمه ويمكنها أن تأتي إليهما في حجرة أمه ليلًا لو احتاجت أي شيء. وعد أنه سيكون بجانبهـا. أصبـح اليـوم مملًا بلا معنـى، ولا هـدف، والعمر يذهـب هباءً وهي جالسـة مع أناس تكرههـم، سرقوا كل شيء منها، لا علـم حولها، ولا تلاميذ، ولا الشـيخ محمد عبده الذي نفاه الإنجليز عقابًـا له، ولا خالها الثوري وزوجة خالها الحنونة ولا أختيها. وأهم من كل هذا فقدت الأب الذي لم تكن تتصور ما كان يحمل من هموم وكيف حماها أعوامًا من هؤلاء الطامعين. كان درعًا وقلعة. دمره الإنجليز.

أحيانًـا كانـت تذهب مع أمها، وتنتظر قدوم حسـن في غرفـة أمه، ويحكي لهما عن حال مصر، وحال المحلات، ويأتي لهما أحيانًا ببعض الحلوى أو البطاطا التـي تحبهـا الأم. كانت زياراته تسـاعد على التحمل. وبعد أسـبوع حدث ما لم يكن في الحسبان.

جـاءت الشرطة إلى فيلا والدهـا، وابتهجت هي، فلابد أن الشرطة تبحث عن عمها اللص الطامع الذي سرق كل أموال أخيه، وجاء العم مهرولًا وأولاد

العم، وزوجة العم، وحتى أمها جاءت في فضول لترى ما يحدث. ولكن الشرطة لم تكن تريد أيًا من اللصوص، كانت تريد جليلة فقط.

وهذا حدث جلل؛ فالنساء لا تقبض عليهن الشرطة إلا في حالات نادرة، مثلًا لو سرقت غانية جنديًا إنجليزيًا أو نهرته بعد ممارسة الجنس معه أوتهجمت عليه.. وجرائم بشعة من هذا النوع. ماذا فعلت جليلة حتى تقبض عليها الشرطة؟ وهل هذا يعني أن جليلة ستقضي ليلتها في السجن؟ فلو حدث هذا فهي لا تصلح للعودة إلى الفيلا، ولا إلى القاهرة أصلًا، وربما يجب نفيها مع عرابي. فسجن النساء في القاهرة ليس سجنًا عاديًا، هو ليس سجنًا للنساء بل حجرة أو حجرتين في سجن الرجال بحمام مشترك بين السجناء الرجال والنساء. فلا بكر ستبقى في هذا السجن يومًا مهما حدث ومهما فعلت. ستدخل السجن بكرًا هذا جائز، ولكنها ستفقد بكارتها بعد ساعة على الأكثر. كان معروفًا هذا السجن وكان معروفًا من يدخله. وكون الشرطة تطلب جليلة فهذه مصيبة فوق احتمال العائلة المكلومة. اضطر العم أن يصطحبها حتى ينقذ ماء وجهه أمام الناس، وطوال المسافة وهو يعنفها. عند الوصول وجد حسن يلهث وقد جرى ليصل إليهم قبل فوات الأوان. سأل العم عما حدث والعم ينظر إليه في استياء ويوبخه أنه جاء دون إذن، قال حسن في رفق: يمكنني أن أشرح لك سبب زيارة الشرطة. جئت لأساعدك يا سعيد بك.

قال سعيد في غيظ: لو رموا بها إلى السجن كان أفضل، ولو ماتت كان أفضل. بنات لا يأتي من ورائهن سوى الشر والخراب. ماذا تعرف؟

تلفت حسن حوله ثم قال: سأخبرك بعد أن نستمع إلى الاتهامات.

هـم بـأن يصيح في وجهه، ثم قال وهو يضرب كفًّا على كف: الخدم في هذا البيت مجانين بحق.

وكانـت الاتهامـات كلهـا خطـيرة، وتتخطـى العهـر، والسرقة، والسـب والقـذف. فقـد أثبتت الشرطة أن جليلـة كانت من الخونـة والمضللين، وكانت تسـاعد عرابي في الإسـكندرية من مكتب بريد البوسطة الإيطالية. كانت ترسل تليغرافـات للجيـش ورسـائل بـين المتمردين مـن الضبـاط الذين تمـردوا على الخديـوي وخليفة المسـلمين أيضًا. بـل أثبتت التحريات أن جليلة شـاركت في حرق وتدمير محلات الإسكندرية ومبانيها وأضرت بالمال العام.

فتـح العم فمـه في ذهول وهو يسـتمع إلى الاتهامات، والتقت عينا حسـن بعينـي جليلـة ثم قـال الشرطي: عـادة في هذه الحـالات يدفع المتهـم تعويضًا، ويصبـح مدينًـا للدولـة أو في حالتنـا هـذه يصبح مدينًـا للإنجليـز؛ لأنهم الآن مسـئولون عن اقتصاد مصر كله. وعليها أيضًا أن تقضي ثلاثة أشـهر في السجن عقابًا على التآمر ضد الخديوي.

قال حسن بلا إرادة: السجن مستحيل.

نظر إليه الشرطي في دهشة ثم قال: من سمح لك أن تتكلم؟

قـال في رجـاء: هي مصريـة، منذ متى تدخـل المصريات السـجن؟ هذا لا يحدث في بلدنا.

قال الشرطي: سيحدث من الآن.

فقال حسن في رفق: تدفع الدين، ولا تدخل السجن. هل هذا ممكن؟

ساد الصمت ثم قال الشرطي: لو دفعت الدين وبما أنها فتاة لن تدخل السجن. ولكن لا بد أن تدفعه كاملًا.

قال العم: كم الدين؟

- دين مصر أم دين جليلة؟ دين جليلة بسيط أربعة آلاف جنيه إسترليني. دين مصر أربعة ملايين جنيه إسترليني يضاف على الدين القديم الذي تسبب فيه الخديوي إسماعيل. الأربعة ملايين من أجل تخريب الإسكندرية، هي تعويض لمن خسر محلاته وتجارته من الأجانب.

قالت جليلة بلا إرادة: ولكن الإنجليز هم من قصفوا الإسكندرية وليس عرابي. هم من هدموا..

نظر إليها الشرطي في تذمر قائلًا: هل تريدين البقاء هنا طوال عمرك؟ اخرسي..لا أسمع صوتك.

وضعت يدها على قلبها، وهوت إلى الأرض، فقال حسن: ستدفعها ولكن نحتاج إلى وقت.

- الوقت سيعني الأرباح على الدين. كم من الوقت تحتاج؟ لو أعطيتك عامًا، ولم تدفع الدين سأسجنها.

قال في ترجٍّ: ستدفعه. أعطني عامين لو أمكن.

نظر إليه العم في ذهول، ثم قال: من أنت لتتكلم هنا هكذا؟

فقال حسن في رفق: سيدي لو دخلت ابنة أخيك السجن ستكون فضيحة لا تتحملها عائلتك.

- لا يملك أيٌّ منا هذا المبلغ.

قال الشرطي: وفي هذه الحالة أريدها أن توقع - لوكانت تقرأ- أنها ستدفع المبلغ خلال عام إلا لو قرر القاضي أن يؤجل لعامين، وأريد ضامنًا.

فقال حسن مسرعًا: أنا أضمنها.

قال العم، وهو يلتفت إلى حسن: أنت تضمنها، وليس أنا؟

قال مسرعًا وهو يخرج ختمه: أنا أضمنها. ولكني لا أوقع ولا أقرأ، أبصم فقط.

استمر العم في تعنيفها في قلق على نفسه وأولاده، ويتوعد بضربها ضربًا مبرحًا وهي صامتة. وحسن يسير وراءهم خطوات. عند الوصول إلى الفيلا جرت هي إلى حجرتها، وأغلقت الباب مسرعة وهي تتوقع غضب العم، أخذ يطرق الباب بيديه وهو يتوعدها، ويصرخ في أمها وفي كل من في البيت. وكان قد عزم أمره أنه لن يزوج ابنه منها مهما حدث، وأنها عار ومصيبة ونهايتها بعد عام، هذا أكيد.

كل من ساندها تلاشى من الأفق. وكأن من تبقى في هذه البلاد هو من صمت، ومن خان، ومن تواطأ. وكأن الرضوخ هو الحل دومًا الذي يضمن العيش والاستقرار. ولو كانت نفسها تعرف الرضوخ لكان أفضل جدًّا. لو بدأت تتعلم الرضوخ وتأقلمت النفس على تقبل الذل والإهانة ستمضي لياليها في رخاء هذا أكيد. ألم يتبق في مصر من يستطيع أن ينتشلها من هذه الهزيمة؟ أكد الإنجليز أن مصر ليست للمصريين ولم ولن تكون لهم قط. ما رأيها الآن في هذه الجملة؟ وكم من مصائب ستتحمل بسببها؟ وليتها تستطيع أن تقنع

النفس بالاستسلام. ليتها تستطيع أن تهادن الريح، وتخفض رأسها، لا... لا تستطيع. ربما قصف الإنجليز الإسكندرية ساعات ليؤكدوا للمصريين عجزهم ودونيتهم. ربما أرادوا أن يمحوا كل أمل سيظهر في الأفق، وكل طريق لم يتبدَّ بعد. استكانت الأنفس، واكتفت الأرواح من الحرية على ما يبدو. مصيرها الآن محتوم.

طرقت تمرهان بابها ليلًا، وطلبت منها الذهاب إلى حجرتها. تسللت إلى حجرة تمرهان، وما إن رأت حسن حتى قالت في استغاثة: حسن..

قال في قوة: ليست مشكلة كبيرة كما تظنين.

- كل ما يملك أبي، وكل ما سرقه عمي، لن يكفي لأدفع هذ الدين. أي افتراء وأي ظلم. لا بد أن أموت قبل نهاية العام.

قال في ثبات: اثبتي، كنتِ دومًا قوية. هل ضربك عمك؟ لم أستطع التدخل، كنت أريد أن .....

قاطعته: لم يفعل.

- وأمك عرفت؟

- عرفت.

- هدئي من روعها.

احتضنت جسدها، وجلست وتمرهان تنظر إليها في شفقة، وأطالت نظرها إلى حسن بلا كلمة، لا تدري كم مر من الزمن، ارتجفت الأنفاس برهة ثم قامت وخرجت من الحجرة.

قالت أمه بعد أن خرجت: أنت نعم الابن. تتذكر دين والدها، وتقف معها وهي يتيمة.

قال: نعم أتذكر دين والدها.

قالت في تأكيد: تفعل كل هذا من أجل والدها أليس كذلك؟

- بالطبع.

- حسن..لم تعجبني أن تجازف وتكتب عليها. لو تحديت عمها يقتلك، وأنت ابني الوحيد.

قال في حسم: هي ورقة صورية لا تقلقي لن نحتاجها، وسأطلقها عندما يزول الخطر.

* * *

مر يوم واثنان وحسن لا يسأل عنها، وعمها يتحاشاها، وهي تفكر في الدين ولا تعرف مخرجًا سوى النفي مع عرابي بالفعل. كانت كثيرة الحركة، وقليلة الصبر. سألت تمرهان يومًا وراء يوم لو كان حسن يريد أن يقابلها، يخبرها بما يحدث خارج البيت، يطمئنها..وكانت الأم تقول دومًا إنه مشغول، وإنها هي أيضًا لا تراه. لم تكن تعرف بالضبط هل تفتقده أم أن ضعفها جعلها تعتمد عليه كليًّا.

بدأت تتخيل قصصًا عن حسن وصبرية. صبرية لم تزل تعمل هنا، تتحاشى الكلام، وتعمل في صمت وكأنها جزء من البيت. كانت تريد حسن. رأت جليلة عينيها، وفهمت منذ زمن. ربما قررا الهرب معًا، وربما يزوجها له عمها من يدري. ضاق صدرها اليوم. سألت أمه فجأة عن صبرية، فنظرت إليها في ذهول، فقالت: هل سيتزوجها حسن؟

قالت تمرهان في صوت ضعيف: نحن في حالة حزن يا سيدتي كيف له أن يتزوج؟ سيدي أحمد وبناته لم يمر عليهم عام بعد.

قالت في عدم صبر: وبعد العام؟

- لا أعرف سيدتي. ولكن أعتقد أن صبرية ستتزوج أحد العاملين في محلات عمك.

- أين هو؟

- صدقيني لا أعرف عنه شيئًا هذه الأيام.

لم تنم ليلتها.

بعد مرور يومين آخرين، قالت تمرهان إن عمها سمح لها بالذهاب إلى زوجة خالها ساعة واحدة بعد إقناع طويل. ولم تكن تنوي أن تذهب، وفهمت أن حسن رتب لها فرصة للخروج من البيت، أو ربما زوجة خالها تريدها فعلًا. خرجت في حماس إلى الحنطور، وكان في انتظارها، هز رأسه، وانتظر حتى امتطت العربة، ثم جلس وراء الفرس، وسار بعيدًا عن فيلا والدها. سار ساعة أو أكثر في صمت تام.

نظرت حولها، ثم قالت: هذا ليس شارع بيت خالي.

قال في هدوء وهو يحرك لجام الفرس ليتوقف: أعرف يا هانم.

- أين نحن ذاهبون؟

توقف عند ركن هادئ، ثم التفت إليها وقال: كنت أريد التكلم معك..

نظرت إليه في عدم فهم، وشيء من الدهشة. بدا مختلفًا اليوم. لا يطأطئ رأسه، ولا يتردد، ولا يحمل أيَّ نظرة امتنان في عينيه، ولا حتى سكينة، بل كانت عيناه تتحركان في إحباط وسخط ..الكثير من السخط.

أربكها غضبه، وقالت في لين: حالنا بائس كلنا. أعرف ما تقاسيه مع عمي.

قال وهي ترى صدره ينبض أمامها: سأرحل.

- ماذا قلت؟

- سأرحل بعد يومين.

قالت ودقات قلبها تعلو لا تعرف لماذا: سترحل إلى أين؟

قال وهو يبتسم في تهكم: إلى أين؟ وماذا يعنيك يا هانم مكان ذهابي. سأرحل، سأترك العمل هنا، وأرحل.

- وأمك؟

- تريد البقاء. سأزورها من حين إلى حين حتى أقنعها بأن تأتي معي.

قالت في سرعة: لا يمكن أن تفعل هذا.

قال في تأكيد وغيظه يسطع في عينيه: بل يمكن أن أفعل هذا.

- أنت مدين لأبي. هل نسيت؟ رباك، وآواك، واهتم بأمرك، وأمر والدتك كنت تقول إنك م..

قاطعها: كنت..ودفعت الدين مرات ومرات.

- تتركنا الآن في هذه الحالة؟ أي أصيل يفعل هذا؟ تتركنا بعد أن..

قاطعها من جديد: لست أصيلًا يا هانم. لا عائلة لي، أنا ابن الجارية تتذكرين؟ بلا أب ولا بيت.

قالت وهي تسيطر على عصبيتها: حسن، نحن عائلتك. لا تتركنا، أتمنى أن تبقى، وأن تساندنا، أتمنى أن تبقى، هل يمكن أن تفعل هذا من أجلي؟

صاح في وجهها فجأة: لن أفعل شيئًا من أجلك..أضعت عمري من أجلك..ساعدي نفسك يا هانم. لن يستطيع عمك تزويجك غصبًا، وسوف تحيين في بيتك كما أنت، ماذا بيدي أن أفعل؟ فعلت كل ما أستطيع.

قالت في وجوم ممتزج بهلع: لقد صحت في وجهي، كيف تجرؤ؟

قال وهو يسيطر على نفسه: وأنت كيف تجرئين؟ كيف تجرئين على التعامل معي وكأنني بلا روح حتى الحيوانات يكترث لها البشر. هذا يكفي.

قالت: لن ترحل. لن أسمح لك..تريد المال؟ تعرف أنني لا أملكه الآن، ولكن لو كنت تريد المال..تعرف الدين الذي سيزج بي إلى السجن..تعرف كل هذا..وتريد الرحيل..ربما لا بد أن ترحل..

لا تدري لماذا ظهرت دموع طفيفة في عينيها وصوتها، ربما أشفقت على نفسها، أو لعنت اليوم الذي ترجو فيه الخادم بالبقاء ويرفض.

نظر إليها، وقبض يديه، ثم قال: تزوجتني. تتذكرين..أنا زوجك الآن..

- نعم كان بيننا اتفاق، وأنقذتني من مصير تعافه نفسي.

- فضلت الزواج من الخادم؟

- لا أفهم قصدك.

ثبت عينيه في عينيها ثم قال: بل تفهمين. لست هذا النوع من الأزواج. تزوجتني بإرادتك، وأريدك زوجة.

شهقت ثم قالت: كيف تفكر هكذا؟! هذا ليس الاتفاق.

- غيرت الاتفاق. لم يعد يروق لي. لن أتحمله.

- مستحيل.

هز رأسه، وكأنه توقع منها تلك الكلمة، ثم قال: أعرف؛ لذا مستحيل بقائي هنا.

- لماذا؟ لا أفهم.

- غريب ألا تفهمي يا هانم مع أنك تقرئين وتكتبين وتدرسين.

- أي شيطان سيطر عليك؟ وأي زواج سيدوم بيننا؟

- معك حق. أي زواج سيدوم بيننا، وأي شيطان سيطر عليَّ؟ أتمنى لك التوفيق سيدتي.

ثم أدار وجهه، وشد لجام الفرس، وبدأ رحلة العودة إلى البيت.

قالت بعد برهة وقلبها لم يزل يخفق وكأنها جرت أميالًا: حسن..

لم يجب.

قالت في شيء من الترجي: أرجوك ألا ترحل. لم أترجك من قبل.

لم يجب.

- ماذا سأفعل لو رحلت؟ لا تتركني هنا حبيسة ذليلة، قلت إنك ستساعدني..حسن..لا تعد بي إلى البيت..أكره الحبس هناك. حسن..

لم يكن يجيب ، كان يجري بالفرس والعرق يتصبب من جبهته ويطبق شفتيه في غيظ لا تعرف مداه. عندما وصلا إلى البيت لم تنزل. قالت مسرعة: عدني أنك لن ترحل. هل يمكن أن تجيبني..أجبني فقط..لا تعرف حجم كسرتي وذلي..

لا بد أن كلماتها الأخيرة حركت شيئًا بداخله أو ربما لا. قال وهو لا ينظر إليها: سأنتظرك غدًا في حجرتي بعد منتصف الليل، تتخفين في عباءة الخادمة وتأتين إليَّ كزوجة. لو فعلتِ فسأبقى. ولو لم تأتي فلن تري وجهي مرة أخرى قط.

قالت: ربما لا أستطيع..اترك لي فرصة، بعض الوقت لأفكر في الأمر..

- سأنتظرك غدًا.

خرجت منها رجفة، ثم اتجهت إلى البيت في خطى متثاقلة.

عندما دخلت عليها أمها قالت في دهشة: ماذا حدث يا جليلة؟ هل أنت بخير يا ابنتي؟ وجهك شاحب، وكأنك متِّ للتو؟ أين ذهبت؟ لزيارة زوجة خالك؟ كيف استطاع عمك الموافقة؟ جليلة..

ضمت نفسها، وهوت إلى مخدعها ثم قالت: حسن كان يريد الرحيل. ماذا نفعل لو رحل؟

- لا يمكن أن يتركنا..قال إنه سيساعدنا.

- ماذا أفعل؟

- حاولي إقناعه. دائمًا يستمع إليك. أنت ولي نعمته يا جليلة، ووالدك أخذه في كنفه ورعاه، لن ينسى الجميل أبدًا.

- نسيه.

- ربما كان غاضبًا، ربما يريد بعض المال. هل أخبرك بما يريد؟

قالت في صوت متحشرج: أخبرني.

- نفذيه على الفور. لو أراد المال أعطه قطعة من ذهبك. أو ما تبقى منه.

- ولو أراد شيئًا آخر؟

- شيئًا آخر مثل ماذا؟

- لا أدري.

تفحصت وجهها، ثم قالت: ماذا طلب منك؟

قالت مسرعة: المال؟

- أعطه له.

- ولو أخذه ورحل؟

أطرقت الأم ثم قالت: معدنه طيب لن يكذب. ربما يحتاج بعض المال.

- ابن الجارية من أب مجهول معدنه طيب؟

قالت الأم بعد برهة: ليس للقلب علاقة بالعصب يا جليلة.. ظننتك تعلمين هذا. كم من مجهول يغمرك بطيبته وكم من باشا يقسو ويعذب.

قالت وهي تفرد ظهرها على السرير: اتركيني أنام، كان يومًا طويلًا.

لم تنـم. اغتاظت منـه، ومن جرأته وشـجاعته. لديها يـوم لتفكر في الأمر. ولكـن ليـس هناك مـا تفكر فيـه، فليرحل، فـما يطلبه مسـتحيل. تقلبـت يمينًا ويسـارًا، والنوم مسـتحيل باسـتحالة طلبه. ربما لو تكلمت مع أمه في الصباح، وشرحت لها سـتقنعه أمه بالبقاء. ولكن ماذا سـتقول لأمه؟ هل تجرؤ أن تخبرها بـما طلب منها؟ تقـول لجاريتها إن ابنها يريدها زوجة؟ قالت لنفسـها حينها إن الناس سواسـية، ولكن هناك أصول وقواعد، وحتى لو دخلت البنت المدرسـة وتعلمـت سـيبقى الخـادم خادمًا والسـيد سـيدًا، هو كـون له نظـام ونواميس. نفخـت في غيظ وانتظرت قـدوم الصباح، وخافت من مـرور الوقت واقتراب موعـد الاختيـار. لـو قابلته اليوم سـتحاول إقناعـه. طلبت من أمـه أن تقابله، ولكنها قالت في خجل: سـامحيني يا سيدتي هو مشـغول ومصمم على الرحيل. جهز أشياءه، وقال إنه يكره هذا المكان. يبدو أن موت سيدي أحمد أثر فيه، ولا يقوى على العمل مع عمك. كنت أريده معي، ولكن لم تفلح محاولات إقناعه.

لا يكـذب إذن. قـرر الرحيل حقًّا. لِمَ تعلو دقات القلـب هكذا؟ ولِمَ الفزع والرعب؟ مر يومها في بطء وقلق.

استلقت على سريرها ليلًا.

ولو رحل ماذا سيحدث؟ هي أيام تزداد عتمة كل نهار، ولا أمل في زوالها. لو رحل ماذا يعنيها في ذلك؟ لِمَ هذا الجزع؟

الجزع موجود..منذ قال إنه ربما يرحل، بل سيرحل، وهي مصابة به وكأن العمر انقلب رأسًـا على عقـب، وكأنها فقدت الطريق، تاهت دونه، وتلاشـت وسـط صحراء قفراء. لا بد أنها ستتلاشـى يومًا وراء يوم وسـاعة وراء سـاعة، ماذا فعل الخادم بها؟ وكأنه مزج مأكلها بدواء لا تستطيع الاستغناء عنه. ولكنها

لا تتوقـع مـا يطلـب ولم تتصور حدوثه. كانـت تريده حولهـا وبجانبها كما فعل طـوال السـنوات الماضية، ولكـن ليس كزوج. لِمَ يهتـز الزمان هكـذا؟ ولِمَ تفرز الأيـام البـشر فلا يخرج منهـم واحـد دون شر وأنانية. أنانيتـه لا توصف. يريد نقـض العهد، وعـدم الوفاء بالدَّين، كيف لها أن تثق بـه؟ ربما يطلب المزيد، من يدري؟ ماذا يتوقع؟ أن تنام بين ذراعي العبد؟ ولو رحل..

لا حيـاة لهـا لو رحـل. عامًا بعد عام يسـير وراءهـا، وهو يمد يـده بالمظلة ليحميها ويحجب الكثير، حجب عنها الكثير. فعل. عندما تلقى الضربات وهو يعرف أنه لا يسـتطيع ردها ولا منعها كان من أجلها، غمرها مرة ومرات. ولو ردت لـه الديـن مـاذا في ذلك؟ وهل تفضل الـزواج من ابن عمهـا أم منه؟ من كانت تريد بين ذراعيها؟

أمسـكت برقبتها، هذا زمن اختلال الميزان وقلب الحقائق. تتشـبث به منذ زمن، وزاد تعلقها به في الشهور الماضية. ولكنها أبدًا لم تتخيل نفسها على مخدعه ولا بين ذراعيه. أليس من حق من ندين له بعمرنا أن يملكنا؟ ألم ينقذ حياتها من قبـل؟ ومكث معهـا ليالي طوالًا. رآها وقت الهزيمة فلـم يكرهها، ووقت الذل والضعف فلم يعفها. ألا يكفي شعورها بالامتنان لتعطيه نفسها؟ لو قارنت بين حسن وهاني ناصف؟ حسن وابن عمها؟ حسن وزوجي أختيها؟ لا مقارنة بين حسـن وكل هؤلاء. سـتعطي نفسها لحسـن آلاف المرات في تلك الحالة. عقلها يحاول أن يحلل بهدوء. وقلبها.

كلـما اقتنعت وهمت بالقيـام والذهاب إليه تتذكر أنه الخادم الأمي، وتزجر نفسـها الجامحـة، أي جنـون أن تعطـي نفسـها للخادم حتـى لا يرحـل؟ ثم ألا يسـتغل الخادم ظروفها ومأسـاتها اليوم؟ بـم هدد؟ بالرحيـل. أعطاها الاختيار أم أرغمها؟

وضعت الغطاء على رأسها، وقد قررت ألا تذهب. ولو رحل ماذا ستفعل؟ لو رحل كما وعد ولم تره مرة أخرى قط. فماذا ستفعل؟ أمسكت برقبتها. فكرة رحيله مستحيلة. وقسوته لا تضاهيها قسوة، يخيرها بين أن تموت غارقة أو محروقة. الحرق لا نجاة منه، أما الغرق..فلديها قصة غريبة عنه. لن تنساها طالما حييت.

أغمضت عينيها، وضغطت على جفنيها، نسيت في غمرة الحروب أن تشتاق للمسات الرجال ولحبهم. قسا عليها الرجال والنساء، وتوارت داخل نفسها ووحدتها، فلا تتذكر أنها حلمت يومًا بقبلة رجل ولا عناق حبيب. لم تسمع عن حب استمر ولا زواج نجح. شاهدت عذاب النساء من حولها، وتتذكر يوم عرفت أمها أن والدها تزوج بأخرى. كانت معها، مشغولة بدروسها حينها، ولكنها لم تر نظرة عذاب كالتي رأتها في عيني أمها. قالت أمها في يأس يومها: عندما تنجبين البنات ويتخطى عمرك الثلاثين، يتوارى جمالك، وتخمد نضارتك. وتصبحين ضعيفة يا ابنتي كخيوط بيت العنكبوت. ما أوهن قلب المرأة، وما أقسى أحكام الرجال.

أشفقت على أمها حينها، ولكنها كانت مشغولة بما ستحققه وما ستنجزه. لم تجهزها أمها ليوم الزواج، ولا تكلمت معها، وربما لم يكن لديها أمل في زواج جليلة أصلا. ماذا ستتوقع من حسن؟

لا يهم. لن تعرف، ولا تهتم.

ولكن كيف يجرؤ أن يهددها؟ بعد الاحتلال تجرأ اللصوص والشحاذون والمجاذيب.

ستنام نومًا عميقًا، وعندما تستيقظ ربما تحاول إقناعه أن يبقى. ولو رحل..

انتفضت من مكانها. حسن لا بد أن يبقى.

❋ ❋ ❋

كادت تسمع دقات قلبها وهي تسير في اتجاه حجرته، نظرت حولها، وكان البيت نائمًا، ألصقت ظهرها بالجدار حتى وصلت إلى حجرته وجدت الباب مواربًا، دفعت به ودخلت، أغلقته، توقفت عدة ثوانٍ تستجمع ما تبقى من شجاعتها. وسارت في خطى بطيئة إلى الداخل. كان جالسًا على فراشه لم يتحرك. ولم تجرؤ على أن تنظر إليه الآن.

جلست وهي تفرك أصابعها، ثم قالت: فعلت ما تريد. جئت إليك حتى لا ترحل.

أمسك بكتفها، وأدارها إليه، ونظر إليها برهة وهي لم تزل تتحاشى عينيه، ثم قال في صوت لم تفهمه: جئت..لتضحي بنفسك لأبقى. أعرف.

أخذت أنفاسًا ثقيلة ولم تجب. اتجهت بعينيها إلى صدره العاري الذي تراه لأول مرة، ولم تدر هل هي الرهبة التي تغمرها بسبب أنها ستتزوج خادمها للتو، أم لأنها لم تر صدرًا عاريًا لرجل قط؟

ثم قالت في شيء من الرجاء: لو أعطيتني بعض الوقت. لقد حدث الكثير، وأريد أن أفهم وأستوعب.

قال في رقة وحسم: أعطيتك عمرًا، واكتفيت من العطاء. ستكونين زوجتي اليوم.

- لا بد أن نتكلم أولًا. ما تطلبه ربما فكرت فيه في لحظة مجازفة، ولكنه لن يغير من الأمر شيئًا. لو كنت طامعًا يا حسن..فالطمع لن يجدي.

قال في صرامة وعيناه لا تفارقان عينيها: لست طامعًا.

- لا سبيل إلى الوصول إلى علاقة تربطنا.

- اصنع سبيلًا، واكتب عليه اسمي.

أحاط وجهها بيديه، وحدق فيها وكأنه يتأكد أنها هي، فقالت في يأس: لماذا؟

همس وهو يقترب منها: أتسألين لماذا؟ انتهى الكلام بيننا.

قالت مسرعة: لم ينتهِ..استمع إليَّ..

نظر إليها وهو ينتظر ما ستقول، فقالت وهي تنظر إلى حجرته في شفقة على نفسها وعليه: تعتقد أنك تستطيع أن تمحو الماضي بعد ما حدث لي. تستغل ضعفي، وقلة حيلتي، وتطلب مني المستحيل. وأمس صحت في وجهي وكأنك..

صمتت ولكنه فهم. قال: وكأنني لست العبد الأسود..

لم تنطق. ثبتت نظرها على الأرض، فرفع ذقنها بأصابعه وقال: العبد الأسود يا جليلة هانم يطلب منك أن تخلعي عنك ملابسك..كلها..

نظرت إليه وقد أمسك بأزرار عباءتها وفتحها.

قالت في رجاء وهي تزيح يده: حسن..لا تذلني.

همس وهو يقترب منها، ويتنفس أنفاسها: ما الذل في أن يرى الزوج زوجته؟

قالت في قوة وهي تدفع بصدره: جئت أتكلم معك.

قال في صرامة وهو يقوم: قلت لك انتهى الكلام بيننا يا هانم. طلبت منك أن تأتي إليَّ كزوجة. ووافقتِ.

قامت وقالت: لم أوافق. جئت أتكلم معك، وأثنيك عن الرحيل.

اتجه إلى باب الحجرة وقال: الاختيار لك يا جليلة..تخلعين ملابسك وتكونين زوجتي اليوم وغدًا ولبقية عمرك، أو ترحلين ولن تري وجهي مرة أخرى.

قالت وكأنها لم تسمعه: عندما تنطق اسمي بلا هانم..تذكرني أنك لم تصن أهل من رباك ، تذكرني بأن..

كانت ستقول تذكرني بأن الأصل غلاب، وأن ابن الحرام ليس له عهد، ولكنها توقفت. اشتعل الغضب بينهما، تلاقت الأعين على موعد بقتال ضارٍ، وكل منهما يحافظ على ما كسب ويتناسى ما خسر.

قال وعيناه لا تتركان عينيها: رأيك فيَّ لا يعنيني، هل قررت يا جليلة؟

ضاقت الحجرة عليها، وضاق العمر حولها، حسن كان يفتح المظلة ويتقهقر وراءها، حسن كان يتلقى ضربات السوط من أجلها، حسن غمرها بجسده من قبل، والدمار يضيق المسافات كاليأس تمامًا.

قالت: ترغمني وتعرف أنني لا أملك الاختيار. افعل ما شئت يا حسن، وانته منه، حتى أعود إلى حجرتي وحياتي.

فتح الباب في بطء، ثم قال في صوت خافت: ارحلي يا هانم. وإياك أن تأمريني مرة أخرى. الاختيار لك، لا توهمي نفسك أني أرغمك.

أمسكت بالباب، وأنفاسها تتسارع، وهمست وهي تتأهب للخروج: تذكر والدي بعد أن تتخلى عني، وتذكره عندما أدخل السجن..تذكر..

شدها إليه، ودفع الباب بيده، وعانقها في قوة أفقدتها النطق. شهقت وهي تدفع به فقبلها حتى كادت تتوقف عن التنفس.

التصق القلب بالقلب، وعم الدمار، وأزاح العقل والوعي.

ضغط على خصرها، وتشبثت بكتفه، وهي تقول بلا أي حماس: لا بد أن تتركني.

دوت كلمات في أذنيها.. «كان مريضًا بلهفة لا تزول وتوق لا ينقطع».

لو بقيت بين ذراعيه تشفي هذا المرض أكيد.

قبل خدها في بطء فهمست: حسن..

قاطعها وشفتاه تبحثان عن الطريق لوجهها ورقبتها: تفكرين في كلام الشيخ..أعرف..

أغمضت عينيها وقالت: هي لهفتك وليست لهفتي..

ردد وهو يتحسس جسدها: هي لهفتي أنا..

تنفست أنفاسه، وحكت خدها في رقبته، وامتزجت الدروب، فلم تعد تميز بين الألوان ولا درجات البشر واختلافاتهم، التحمت الخفقات باللهفة التي تسطو بلا رادع، وتمتمت وهي تتمنى أن تنصهر بداخله: ما نفعله جنون.

لم يبد أنه سمعها، قبلها قبلة قوية على شفتيها، أفزعتها فحاولت أن تدفع به دون جدوى..

أيقظ شوقًا كان موجودًا منذ زمن، مختبئًا في الأعماق. أغمضت عينيها لعل الشوق يهدأ ولم يهدأ. بل ازداد وبدأ يفزعها من شدته. لا تعرف هذا النوع من القبلات، ولم تتخيله من قبل.

قال في حسم: أنت زوجتي.

عبس وجهها، وضغطت على رقبته بأصابعها، وألم اليقين لا شفاء منه، رددت وهي تمر بشفتيها على رقبته: فقدت عقلك..أنت فقدت عقلك..أنا لم أفقد عقلي بعد..أتمنى ألا أفقده.

استقرت شفتاها وسط رقبته، حيث منبع أنفاسه وبقية عمره، والكلمات لا تترك القلب والعقل..«لهفة لا تزول وتوق لا ينقطع»...

أدهشته وفاجأته، لم يتوقع قبولها ولا لهفتها. ازدادت حيرته، وخاف أن ترى تأثير لمساتها عليه. وخاف أن يكون شُبه له ما يرى وما يشهد، ألم تقل إنه فقد عقله؟

ولكنَّ شفتيها لم تزالا مصوبتين حيث منبع أنفاسه بالضبط. جليلة.. سيدته.

حملها بين ذراعيه إلى مخدعه، فقالت في حيرة: لا تُزِحْ ملابسي. أرجوك.

كانت تتذكر الخادم تارة، وتارة لا تشعر سوى بعاشق يتدفق حبه فيفقدها القدرة على التنفس. لا بد أن الغرق سهلٌ في هذا العصر وتلك الليالي الطويلة. كيف لرجل أن يملك كل هذا الحنو، كيف له أن يغدق عليها بكل هذا العطف، وكأنه يشتاق إليها منذ ولادته؟

ولِمَ يخفق القلب ويتمنى قبلاته. أكانت تتمناها؟ أكانت تشتهيه كالجواري؟ تشتهي خادمها؟

فتحت عينيها في بطء..وهي تشعر بيده على جسدها، وارتجفت رعبًا من مسالك النفس التي لا تعرف لو كانت يابسًا أم بحرًا، ومن التباس الحقائق بداخلها، ومن تمزق الحواجز التي اعتادتها سنين طويلة، كانت هناك طرقٌ

لا تفكر في خوضها ولا اجتيازها، وكانت هناك طرق تألفها، ولكن اليوم تاهت في كل سبل النفس.

قالت: لن تزيح ملابسي.

همس: لن أزيح ملابسك، لن تتعري أمام الخدم يا أميرة.

قالت في قوة: لن تزيح ملابسي اليوم ولا غدًا. لن يحدث أبدًا.

ردد: لن يحدث أبدًا.

ما حدث بعد ذلك كان انتكاسة لمرض بلا دواء. فلا زالت اللهفة ولا خمد الألم. بل اخترق عمقًا جديدًا. كتمت ألمها، وتحاشت عينيه، فهمس: ست الحسن والجمال، أنت لي اليوم وإلى الأبد.

قبل وجنتها، ثم قال: سأبقى بداخلك كما تملكت أنت كل أعماقي. شئت أم أبيت.

ابتعد عنها قليلًا، ازداد ارتجافها، فأحاط وجهها بيديه، ونظر إلى شفتيها واقترب وهو يتمتم: أريد أن أكون رقيقًا معك. ولا تدرين ما بداخلي. كتب عليَّ أن أسيطر على نفسي على ما يبدو طوال وجودي معك. سأحاول.

لم يزح عنها كل ملابسها، ولكنه كان ساحرًا ينفذ إلى الأعماق بحنان وكرم فيمحو كل الحذر.

عندما انتهى، استلقى على ظهره، وأغمض عينيه ثم مد ذراعه وقال: تعالي هنا.

قالت في ارتباك: لا بد من العودة..

أمسك بكتفها، وقربها إليه، فنامت على صدره، وقالت في عذاب: ما نفعله جنـون ولـه عواقب. أنتَ من أقدمتَ عليه، وليس أنا. كنت سـأرحل، ولكنك أغلقت الباب..

قال وهو يمر بيده على ظهرها: أنا من أقدمت عليه، وليس أنت.

أغمضت عينيها، ولم تدر بنفسها وهي تقبل صدره ثم قالت: سيذبحوننا. وسيزداد ذلي. لِمَ تزيد من ضعفي يا حسن؟

حملهـا فاسـتقرت على صـدره وقال: أجمل ما في الجنون أنـه ينتصر على كل خوف وحذر وضعف.

كانـت له اليوم، مرة ومرتين وثلاثًا. وفي كل مـرة يزداد حنوًّا وتزداد حيرة وارتبـاكًا. هذا الإدراك بتعلقها به جديـد عليها وانتظارها لتدفق وغزارة عطائه يهز كل نفسها. بعد أن انتهى في المرة الأخيرة قالت وهي تبتعد عنه وتهم بالقيام: حسن..جاء الفجر علينا..لابد أن أعود.

أمسـك بيدهـا ليبقيها بجانبه واعتدل في جلسـته وقال في حسـم: لا بد أن نتكلم.

لم تـزل ترتدي رداء نومهـا، أعطاها الرداء أمانًا غريبًـا، بحثت عن عباءتها ونظـرة عينيه تقلقهـا، كان غاضبًا، محبطًا، يائسًـا لا تـدري. لم تعد ترى نظرات التـوق واللهفة التي سـيطرت عليه منـذ لحظات. ربما توقع منها أن تقول شـيئًا آخر، ربما لا تعرف شيئًا عن خادمها في حقيقة الأمر.

قالت في تلقائية وصراحة: أريدك أن تعرف..

ابتعد عنها بعض الشيء: أعرف ماذا؟

قالت وهي تداري خجلها: أنني أريدك معي.

قال في شيء من التحدي: تريدينني معك كزوج أم كخادم أم كحامٍ من الإنجليز والديون والعم وزوجة العم؟

فاجأها سؤاله. ولم تعرف الإجابة. بقيت صامتة، فقال في حسم: اليوم أصبحت زوجتي أمام المحكمة وأمام نفسك. ربما لستِ مستعدة بعد، ولكن هذا لا يعنيني، هناك واجبات على الزوجة.

نظر إلى وجهها، ثم رفع ذقنها بأصابعه وقال: انظري إليَّ...

نظرت إليه، وعينها تبدو منكسرة، فقال في رقة: جليلة..يقسو عليك هذا الزمن. يجبرك أن تعطي جسدك للخادم. أيام غادرة ولكنه لا يريد جسدك فقط هذا الخادم بل روحك وقلبك وكل خلجاتك. هو طامع هذا العبد.

قالت في حيرة: لا أفهمك. لِمَ تغضب مني؟ فعلت ما طلبته مني، فلِمَ الغضب؟

تجاهلها ثم قال: لن يبقى زواجنا سرًّا طويلًا. ولكن لا بد من الحذر حتى أنتهي من بعض الترتيبات ثم سنعلن للجميع عنه.

- حتى أمي وأمك لن نخبرهما؟

قال في تأكيد: حتى أمي وأمك.

قالت وهي تقوم: هل يمكن أن أعود الآن إلى البيت؟

قال في حسم: وستأتين غدًا وكل يوم.

- تعرف أن في المجيء مجازفة، ولو رآنا أحد ربما يقتلونني أو يقتلونك.

- عندما يكون هناك خطر سأبعث لك برسالة، وأطلب منك عدم زيارتي. لا خطر الآن.

ارتدت ملابسـها بيد مرتجفـة، وجفاؤه فاجأها. منذ لحظات كان يعشـقها عشـقًا لم تكـن تتوقعـه، لا قـرأت عنـه مـن قبل ولا تصـورت أنـه موجود على الأرض. كان يحبها مرة ومرات، يضمها تارة ويعتصرها تارة رغبة في أن تذوب بداخلـه، ثـم تحجـر أمامها فجأة. ربـما فعلت ما يغضبـه، ولكنهـا لا تتذكر أنها فعلت أي شيء يغضبه.

قالـت مرة أخرى وهـي تقف أمام الباب: نفذت شرطـك، ولابد أن تنفذ وعدك.

قـال في قوة: لا بد يـا جليلة أن تبدئي في تدريب نفسـك على عدم إعطائي الأوامر.

فتحـت فمهـا في فزع، فقام واتجه إليها وقال: هي هكـذا الأيام، يومًا نأخذ منها بنهم وبلا أدنى اكتراث، ويومًا نتمنى أن تقبل عطايانا وترضى عنا.

* * *

لم تنـم. اسـتلقت على سريرها، وأحداث السـاعات الماضيـة كانت بغرابة الأساطير. ما حدث به مسحة من مأساتها في الإسكندرية وبعض الغبطة والرضا أيضًـا وهذا جديد عليها. أصبحت امرأة اليوم، يعشـقها رجل تحتاجه بالتأكيد، وربـما تحبه، لا تعرف. لم تحلل مشـاعرها تجاهه، ولكن مـا تعلمه علم اليقين هو أنه ليس حسـن الذي عرفته منذ ثماني سـنوات، ليس العبد الذي يعرف مكانه، وينفذ وينتظر الأمر في حماس. بل ليس الهادئ الذي لا تشعر حتى بوجوده، بل

هو شخص ممتلئ بالسخط والحقد. نعم لا بد أن ما يشعر به ناحيتها هو الحقد. ماذا تتوقع من طبقته؟ ربما ساورها الشك يومًا أنه لا بد سيكون حاقدًا بداخله. ولكن لِمَ يتكشف هذا الحقد الآن وهي ذليلة؟ لِمَ لم يظهر وقت المجد والقوة؟

لم تنس أنه الخادم. حتى وهو بداخلها، حتى وهو يذيبها شوقًا له كانت تعرف من هو. تتذكر خطواته البطيئة وراءها، ونظراته الخجلى المبجلة لوالدها ولها ، تتذكر توبيخها له لو تأخر أو فعل ما لا يروق لها. وتتذكر أيضًا كيف غمرها بجسده حتى لا تحترق، وكيف أنقذها من موت محقق يومًا ما، ومن اغتصاب مرة أخرى وكيف كان يصاحبها طوال العمر. لم ير جسدها كله حتى لو رأى ما يريد للحظات، دون أن يخلع رداءها، لم يتفحصها كما يتفحصون الجواري، وكما تفحصوا أمه يومًا ربما، تعلمت منذ الصغر أن الهانم محصنة ومقدسة، فلا يرى العبيد وجهها، ولا يلوثون بأعينهم طهارتها. كان يعرف. وكانت تعرف.

تعلمت في المدرسة، وقرأت، وفهمت، وعجزت اليوم عن فهم هذا العبد الأمي.

هل يمكن أن تحبه؟ لا بد أن تصدق مع نفسها لو كانت تريده معها، فهل هي تحبه أم تحتاجه؟

كانت تحلل مشاعرها دومًا، وتحاول الصدق مع نفسها. ما تشعر به تجاه حسن ليس فقط احتياجًا. هو وصال من نوع آخر، اتصال منذ زمن يصعب شرحه، وما حدث بينهما اليوم محير. خافت أن تعافه، أو تكره معاشرته، ولم يحدث. كلما تذكرت كيف تركته يعبث بجسدها، كيف اشتاقت له ولقبلاته، كلما تذكرت كل هذا شعرت ببعض الخجل. لم تتوقع كل هذا الوهج في علاقة الرجل والمرأة، وكان لوالديها سريران منفصلان وكلامهما معًا رسمي

ومحسوب. أذاب حسن كل الحواجز ولو لساعات، وما يثير قلقها الآن وحزنها هو جفاؤه بعد ذلك. ربما تتكلم معه وتفهم. غدًا ربما أو بعد غد.

انتابها شعور اليوم أنه ليس رجلًا عاديًا،ربما كان ساحرًا أو مجذوبًا، كان دومًا غير كل البشر. يلاحظها، يرسمها، ويحتويها، فلا يبقى منها جزء لا يعرفه. أعوامًا وأعوامًا..رآها في لحظات ضعف وقوة، لحظات خيبة ونجاح، عرفها كما لم يعرفها غيره قط.

قامت في بطء، وأطلت من النافذة الخشبية لعلها تراه، ولكنها لم تره. دخلت أمها وأختها عفاف، قالت الأم بعد برهة: هل عزم حسن أمره على الرحيل؟

فقالت وهي تبلع ريقها: لا أعرف.

- لا بد أن أسأل أمه إذن.

بقيت صامتة. تفحصت الأم ابنتها وقالت: تبدين في حال أفضل اليوم، وجنتاك متوردتان، وعيناك لامعتان، ماذا جرى؟

قالت وهي تقوم: نمت جيدًا.

- نعم لا بد أن تنامي جيدًا. لدي أخبار سارة لك.

- ماذا حدث؟ مات عمي..

- لا، ولكنه سيسافر بضعة أيام.

- وحده؟

- لا أعرف. ربما يأخذ حسن. من يدري؟

بدأت عفاف تفتش في خزانة جليلة وقالت: سرقوا ملابسك أيضًا أم الذهب فقط؟

- الذهب فقط.

أخرجت عفاف قميص نوم جليلة من الخزانة وقالت: لا تحتاجينه الآن يا جليلة، فنحن لا نذهب إلى أي زيارات ولا أمل لك حتى في الخروج. أعطيه لي.

قالت جليلة بلا تفكير وهي تمسك به: لا. صنعته أمي خصيصًا لي.

شرحت لأختها في هدوء، ولكن اللوم لم يترك عفاف وسط غياب عقل الأم وعدم تتبعها للمشكلة.

هذا الرداء صنعته أمها خصيصًا لها لتنام به عند زيارة الأهل حتى يعرفوا حجم ثراء عائلة أحمد بك، ارتدته منذ عامين عند زيارة خالها وقضاء أسبوع في بيته، كان مصنوعًا من الكتان الأبيض ومزينًا بالدانتيل الأصفر عند الصدر والذراعين. أرادت أن ترتديه اليوم، لم تتصور يومًا أنها سترتديه لحسن.

قبل ميعادهما بساعات وجدت نفسها تنظر إلى المرآة، إلى شعرها، إلى عينيها، إلى شفتيها، عبست ووبخت نفسها. ما الفرق بينها وبين الخادمة لو كانت تريد أن ترتدي رداء يعجبه؟ كثيرًا ما تكلمت أختاها عن ملابسهما، وما يعجب الرجال، وكيف تتزين الزوجة لزوجها، وظنت ساعتها أنها تبعد كل البعد عن هذا العالم، وأن الجمال ليس لها ولا الزواج ولا هذا الشعور الجديد عليها بأنها تحب جسدها وتفتخر به.

بدأت تتذكر وفي الذاكرة إزعاج ويقظة. ماذا حدث لابنة العائلة؟ يأتي إلى ذهنها نفس المشهد دومًا ذلك اليوم في الإسطبل اشتد التوتر بينهما وكان يعمل

بنشـاط من بعث للحياة بعد موت طويل أو من يحترق شوقًا. أكان يشتاق إليها حينهـا؟ لِمَ مكثـت تنظر إليه؟ ولِمَ تكلمت معـه؟ في الأعماق كانت تعرف، وربما اشـتاقت هـي أيضًا. من يـدري؟ مرة أخرى يجمـح العقل، ويصـور لها ما كان سـيحدث ذلك اليوم الذي ضرب به السطل فاصطدم في حائط الإسطبل، كان يريـد أن يغرقهـا قبلات لوم ومرارة وولع لا ينتهـي، من يدري، وربما في أعماق النفس شعرت بقبلاته، ولم تكن قبلات رقيقة بل كلها انفجارات، يومًا لن تنساه تأججـت النيران من حولهـما، وعرفا أنه لا مخرج من العشـق والفناء. ويومها لم تنم، كان وجهه يلازمها ولا يبرح النفس. ولو فقد الخادم عقله فكيف تفقد هي عقلها؟ ولو تمنى الخادم سـيدته فكيف لابنة العائلات أن تشتهي خادمها؟ لولا أنـه ابتزهـا ما كانت ذهبت إليه.. نعـم. لم تذهب إليه إلا بعـد تهديده بالرحيل. واليـوم تتزيـن له؛ لأنه أصبح زوجها لا أكثر. حسـن هو حسـن. هـذا لم يتغير. ولكـن كيف ابتزها؟ وماذا بيد الخادم ليعطيه لها؟ هو ليس قادرًا على دفع الدين ولا على رد المظالم؟ فلِمَ تخشى رحيله؟

تـرددت، وخفـق قلبهـا اليـوم كما خفـق أمس، وتسـللت خـارج البيت، وفتحـت البـاب، وكان في انتظارهـا. هذه المرة كان جالسًـا عـلى مقعد ينظر إلى النافذة، قال وهو يتفحصها بعينيه: تأخرت يا جليلة.

انتزعت عباءتها، وجلست على حافة السرير، وقالت وهي تتحاشى عينيه: لا يروقني هذا. أخشى التوابع وأخشى الذل على يد عمي..

قال في حسـم: لن يسـتطيع أحـد أن يذلك طالما حييت. هـذا وعد. لم يتبق الكثير. اصبري بعض الوقت.

قالت في ترجٍّ: ربما لو عزفت عن المجيء إليك حتى نستطيع الإعلان عن زواجنا يكون أفضل.

قال في حسم: صبرت أعوامًا، ونفد صبري.

نظر إلى ردائها وشعرها ثم قال: تزينت اليوم..

مر بأصابعه على أطراف ردائها المزينة، ثم مر بكفه على خدها، فانكمشت من خشونة كفه. قال: هي كف خشنة بعض الشيء من العمل الشاق. ستتحملينه وتتحملينني.

اقترب منها فقالت: ماذا تنوي؟

قال وهو يقبل وجنتها ثم أذنيها: أن أحبك كما حلمت.

قالت في خجل: أقصد ماذا تنوي أن تفعل مع عمي؟ أنت تعرف أنه لن يوافق على زواجنا، وأختاي وأمي وأمك..كيف سنواجههم كلهم؟

طوق خصرها ثم قال: وأنت هل توافقين على زواجنا؟

- ألم تسألني هذا السؤال أمس؟! فما الجدوى من سؤالي اليوم؟

- أجيبي يا جليلة.

لم تعتد أن ينطق اسمها دون أن يلصق به هانم أو سيدة، وأزعجها إصراره على الإجابة. فلم تتكلم.

أمسك بأزرار ردائها وقال: هذا الرداء الجميل نريد الحفاظ عليه، وأحيانًا لتحافظي على شيء ثمين لا بد من انتزاعه وإخفائه بعيدًا. اخلعيه يا جليلة.

قالت في حسم: كان بيننا اتفاق.

- لم أتفق معك.

- في كل مرة تخل بالاتفاق وفي كل مرة تثبت أن..

- ليس للعبد عهد يا سيدتي.

قالت في تهديد ممتزج بالخوف: إياك يا حسن..

اقترب وهمس في أذنها: اخلعيه بنفسك حتى تحافظي عليه.

- سأرحل..ولن آتي إليك مرة أخرى، ولتفعل ما تشاء.

رفع الرداء في قوة وحرص، وهي تتذمر وتحاول أن تمنعه بذراعيها.

لم يأبه بكلماتها، خلع الرداء عنها، ونظر إليها وكأنه فتح كنزًا كان يخبئه أعوامًا.

قال وعيناه مثبتتان على جسدها وهي تغطيه بذراعيها في خجل: تعرفين كم مرة تخيلتك بين ذراعي؟ كم مرة تمنيت رؤيتك هكذا؟ كنت أوبخ خيالي على الحلم. كم مرة غصت في بحر بارد في شتاء طويل حتى لا أتصورك هكذا؟

دفع ذراعيها بعيدًا عن جسدها، ثم أمسك بهما ليملأ عينيه منها.

قالت وهي تغمض عينيها حتى لا ترى نظراته إليها: قلت لك إنك لو خلعت ردائي سأعود إلى حجرتي.

تجاهلها وقال في لهجة آمرة، ويده تمر على جسدها: انظري إليَّ..انظري إليَّ وأنت ملك لي، كل قطعة منك ملك لي.

- لست ملكًا لأحد يا حسن حتى لو ظننت أنك تستطيع أن تسطو وتكسر.

احتضنهـا فشـهقت، وحاولـت أن تدفع بـه بعيـدًا عن جسـدها وروحها وقالت: جئت إليك بنفسي، ولكنك لم تحترم رغباتي؛ لذا وجب الرحيل.

فقال وهو يقربها أكثر: ماذا بك يا جليلة؟ لا تتصورين خادمك في مخدعك وبـين ذراعيك؟ تارة يزداد ولعك، وتـارة تتذكرين الماضي الذي انتهى. انسي ما كان.

- الماضي هو أنا. تريدني أن أنسى من أكون؟!

- كلنا نحاول النسيان..أتعتقدين أنني أعرف من أكون؟

تذكرت هوانها أمامه وجسـدها الذي يعـرف كل تفاصيله اليوم، وظهرت دموع لا تعرف من الماضي أم من الحاضر. لم يكسرها فقد عذريتها أمس، ولكنه أذلهـا اليـوم عندما تعرت أمامـه تمامًا كالجـواري. أذلها وهـو يتفحصها، وكأنها بضاعتـه. أذلهـا وهـو يذكرها بأنها له وعليهـا طاعته. كان يتعمد هـذا.. ربما، لا تدري.

همس وهو يمسك بيدها: ضحيت بنفسك وانتهى الأمر.

- لم أعرف يومًا أنك بهذه القسوة.

- بـل قسـوتك لا تضاهيهـا قسـوة يا جليلة، وأسـوأ مـا تفعلينـه هو عدم درايتك ولا إدراكك لمدى قسوتك. هذا في حد ذاته يذبح.

أمسكت بالرداء وقالت: اتركني أرحل اليوم يا حسن. سآتي غدًا.

هز رأسه بالنفي، ثم قال: ألم أقل لك قسوتك اجتازت كل البحور.

فتح ذراعيه ثم قال: سأتركك ترحلين بعد أن أضمك إلى صدري مرة ربما. يرضيك هذا الاتفاق؟

قالت في حسم: لا يرضيني سوى أن أرتدي ردائي ثم أرحل.

قال في حسم: هذا لن يحدث.

اقترب منها فحاولت أن تبني حاجزًا بين جسدها وجسده بيدها، أزاح يدها، وضمها، ثم قبل شفتيها في رقة في البداية، وتشبثت بالسرير حتى لا تعانقه كما أرادت لحظتها.

ازداد الارتجاف، واللبس بداخل الروح. وتبدت لحظتها طرق كلها بحور عالية تغري البحار الماهر بأمواجها البيضاء الغزيرة المتألقة فيتبع الأمواج لا محالة.

قالت وزبد البحر يطفو فيهلك الحذر: وعدت أن تضمني مرة واحدة.

همس وهو يقبل أذنها: لم يكن بيدك يا جليلة، لا تلومي نفسك، تذكري الشوق الذي لا شفاء منه، هل تتذكرين؟

- وكأنك لست بشرًا.

- لم يكن بيدك..

- ماذا تبغي؟

قال في رقة وهو يخترق الروح: أنا من فقدت عقلي هل تتذكرين؟ أنا من أرغمتك، وأنا من خلعت عنك الرداء عنوة، هي جريمتي أنا، اخترقت الحواجز، وكسرت كل القواعد.

اقتربت منه أكثر، وكلماته تهدئ النفس حتى كادت تذوب بداخله، ثم قالت: هي جريمتك وجنونك..منذ زمن..يزداد الجنون بداخلك.

قال وقبلاته تتناثر من حولها: منذ زمن..يزداد..الجنون.

كانت تلهث وتقول في صوت متقطع: كان كل شيء يسير على ما يرام، كل العلاقات واضحة، ولكنك جازفت، وسندفع ثمن مجازفتك، سأدفعه مع أنني لم أشارك فيها..

لابد أنه بداخلها، لا بد أن الجنون شهي ويحث على الإدمان..همست: حسن..

- حبيبتي.

- ماذا قلت؟

- قلت إني سأدفع الثمن، وحدي، لا تقلقي..

بعد أن هدأت وطفت على سطح الماء، بدت عليها الحيرة، وهي تبحث عن ردائها وترتديه بسرعة، ثم نظرت إليه وهي تحاول أن تتذكر حوارهما..

فقال وهو يعتدل في جلسته: تعالي إليَّ لحظات قبل أن ترحلي.

قالت في لوم: هل كنت ستتركني يا حسن لو لم أنفذ ما تريد؟

ضمها في قوة ثم قال: للزوج الطاعة أليس كذلك يا هانم؟ وليس للزوج أن يتخلى عن زوجته.

- ستبقين معي ما دمت أطيع أوامرك.

- وكأن العالم انقلب رأسًا على عقب.

- ألم تدركي بعد أنه انقلب رأسًا على عقب؟

- أتمنى أن تنتهي سريعًا من هذا الاتفاق.

قال في تحدٍّ: لم أبدأ بعد. ولن أنتهي قبل أن يهدأ شوقي إلى حين..

- تتعمد تعذيبي؟

- لا، لا تعرفين شيئًا عن العذاب... لقد قلت لك ذلك من قبل.

قالت وهي تبتعد في رفق: تأخرت يا حسن.

تركها على مضض.

فقالت في تذمر: هذا الجنون مرض معدٍ، كنت دومًا عاقلة..

قال في حسم: لم يمر العقل على بابك يومًا يا جليلة..تذكري من تكونين..

صمتت خوفًا من تحد ستخسر فيه بالتأكيد.

فاتجهت إلى حجرتها وهي تنفض الغبار عن عينيها وقلبها..

تذكرت سؤاله، هل كانت تريده زوجًا؟ هو تواصل روحي ربما. كان موجودًا منذ البداية.. منذ كانت طفلة لا تشعر بالأمان إلا وهو معها. لم تدرك لحظتها ولم تدرك قط الحبل المتصل بينهما سوى يوم هددها بالرحيل وكأنه ألقى عليها كرة مدفع أكبر من كرات مدافع الإنجليز.

لحظة ما هددها بالرحيل، عادت صورة رفات الأب، ودوي القنابل، وكل ما حُفر بالدم في ذاكرتها.

تمنت لو استطاعت أن تمحو الماضي ولا تتذكر أن حسن ابن الجارية. أو أن تنسى أنه رأى جسدها كله.

* * *

الريبـة دخلت قلب أمه منذ رأت لمعة عينيه وحيويته، لم تر ابنها بهذه الحال من قبل، تارة تراه غاضبًا وبداخله قوة وعنف، وتارة تراه هادئًا وراضيًا عن كل شيء، ولم تـر نظرة الحماس الصبياني في عينيه حتى وهو مراهق. راقبته من بعيد، وتسـللت إلى حجرتـه ليـلًا ذات يوم حين كان البـاب مغلقًا بالمفتـاح مع أنه لا يغلق حجرته قط. انتظرت أمام الباب حتى فتحه، وخرجت امرأة بخمار طويل وعباءة سوداء ولكنها عرفت من تكون.

نظـرت إلى حذائهـا وقدمهـا وكانت تعرف كل شيء عن جليلة. شـهقت، وتنبأت بنهاية ابنها ونهايتها.

ثـم دخلت قائلة في صـوت متحجر: العرق دسـاس، حاولت أن أجعلك ابني أنا وليس ابن أبيك، ولكن العرق دسـاس، أخذت قسوته وفجره وظلمه. كيف تجرأت على فعل هذا؟

قال وهو يعرف جيدًا ما تقصد: هي زوجتي. تزوجتني بإرادتها.

- كيـف للسـيد أن يتـزوج مـن العبد؟ أفقـدت عقلك؟ نسـيت مكانك؟ وحتى لو نسيت مكانك فكل مصر لن تنساه. انظر للونك وهيئتك، مثلنا لا بد أن يعرف مكانه حتى يسـتقيم الكون. وأنت تريد أن تزلزل الكون من حولك. غـرورك ربما وبراءة الهانم التي لم تدنس كالخدم هما السـبب. اسـتغللت براءتها لا أكثر.

بقي صامتًا، فأكملت والغيظ يشتعل: طلقها.

- لن يحدث.

- ستفعل وإلا أخبرت أمها وعمها، وقتلتك بيدي.

بقي صامتًا، بوجه متحجر، فأكملت: سأخبرهم..لن يهمني ما سيحدث لك. حتى لو قتلوك أمام عيني لن أبالي. كيف تجرأت؟ أي شيطان مسك؟ وأي جنون مسها؟ الجاريات يعاشرهن أسيادهن غصبًا هذا جائز، ولكنني لم أسمع طوال سنوات عمري عن سيدة تزوجت عبدًا. أتفهم؟

بقي صامتًا.

- تحبها؟ أَصوَّر لك الشيطان أنك تحبها؟ هل لي أن أحب أنا الإنسانُ جنسًا مختلفًا، أسدًا مثلًا أو فيلًا؟ كيف تحبها؟! أي عقل تملك؟ طلقها حتى لا تلوث سيرة أبيها الذي رعاك، ورباك، وآواني وأنا غريبة وضعيفة.

بدا عابسًا، حركها الحزن في عينيه، تمنت لو لطمته لطمة أو اثنتين، لو جعلته يفيق قبل أن يضيع منها إلى الأبد وأشفقت عليه دون أن تدري. جلست بجانبه وقالت وهي تضع يدها على كتفه: أنت ابني وخير الابن، لا تسئ فهمي، لا أراك أقل منهم، ولكننا لا نعرفهم، لنا دنيانا، ولهم دنياهم. وقت الحروب يختل الميزان، ولكن الحرب انتهت، وسيعود كل شيء كما كان، لا تغرك فورة الشباب وثورة العشق، تموت ويبقى الواقع يا بني. أتسمعني؟

لم يجب. قام في بطء، وخرج من الحجرة بلا كلمة.

كانت متوترة طوال اليوم، تبحث عنه وتخاف عليه، كان كل ما تبقى لها، قست عليه على ما يبدو، خافت، وقست، وعرفت، وأبصرت ما لا يستطيع أن يرى. توارى من أمامها طوال الليل والنهار، وكاد قلبها أن يقتلع من صدرها.. سألتها بثينة هانم ماذا بها ولو كانت تريد شيئًا. استأذنت أن تذهب إلى حجرتها، أغلقت بابها وتمنت أن يأتي..وتذكرت.. ذلك اليوم الذي أرادت فيه التخلص

منه، ذلك اليوم الذي سارت فيه بعيدًا عنه وكان نائمًا ظنًّا منها أنه بين ذراعيها. أي أم كانت؟ وأي خيانة؟ تستحق التعذيب هذا أكيد. حسن هو كل ما تملك.

سمعت طرقًا على الباب فهرولت لتفتح ولم يكن هو.

كانت بثينة تطمئن عليها.

لم تنم. وندمت بعض الشيء، ثم ندمت كثيرًا..ما قالته..ما شعرت به للحظة من كره له؛ لأنه منه؛ من صلب رجل قسا حتى اكتفى. ولو رحل ابنها؟ هل يستوي العمر بعده؟ وهل لحياتها أي غاية؟ دفعت به ليرحل، حثته أن يتركها.

سمعت طرقًا من جديد، وخافت أن تكون طرقات تمنٍّ وليس واقعًا، راقبت الباب بعينيها، ورأت وجهه، وشعرت به في الظلام، مدت يديها، وقالت وهي تراه طفلًا في لحظتها: حسن، لا تغضب مني.

ضمته في قوة وقالت: أخاف عليك. أخاف؛ لأننا بلا ثمن، يقتلونك ويتخلصون منك، وأبقى أنا بلا سند. افعل ما تريد، فقط لا تغضب.

قال في صوت عميق: لست غاضبًا.

- بل غاضبًا، أسمع الغضب في صوتك. امرأة عجوز خرفاء..

قبَّل يدها قائلًا: لست غاضبًا، ولا أرى نفسي أقل منهم، ولا أخاف.

قالت هي: أحيانًا يصور لنا بأسنا وشبابنا أننا نستطيع أن نحارب المستحيل وننتصر عليه، هذا ما حدث مع عرابي ورأيت نهايته. لكل منا وضعه ومكانه وإلا أصبح العالم في فوضى. أنا جارية، كنت أعرف ولم أحاول الهرب قط. حتى عندما منع الخديوي الجواري لم أبلغ الشرطة كما يفعل البعض ولم أهرب.

الرضا بالنصيب دواء لصاحبه، أما محاولة تغيير الواقع ففيها هلاكك وهلاكي، وفيها هلاكها أيضًا.

لم يجب.

- ماذا نويت أن تفعل يا حسن؟ هل ستطلقها؟

قال في حسم: هي زوجتي وستبقى زوجتي حتى نهاية عمري.

- بعد الشر عليك.

قالت بعد برهة: وحتى لو استطعت بمعجزة أن تأمن بطش أهلها هل ستتفاهم معها؟ هي متعلمة في المدارس. عنيدة ومتحدية، حتى والدها كان يُحبَط من جرأتها. أنا أعرف أنها طيبة وحنون، ولكنها لن تطيعك ولن تعاملك كما تعامل الزوجة زوجها يا بني. ستتعالى عليك وتراك دومًا أقل منها. كم مرة عرضت عليك الزواج من بنت مثلنا تعيش معك حياتنا وتفهمنا وأنت ترفض ذلك، كم مرة؟

لم يجب.

ساد الصمت المتوتر بينهما حتى قالت في يأس واستسلام: فلتبقَ زوجتك. افعل ما يحلو لك. تستحقها وأكثر.

* * *

لم يستطع أن يقابلها بعد عدة أيام، كان يختلس النظرات إليها من حين إلى حين، وتلتقي أعينهما فتحاول فهمه، أحيانًا ترى شوقًا في عينيه، وأحيانًا ترى إحباطه وسخطه، ولا تعرف هل هو سخط منها هي، أم من نفسه، أم من حالهما.

اقتربت منها تمرهان وقالت في فتور: حسن يقول لك إنه مسافر، وسوف يرسل إليك رسالة أخرى عند عودته.

قالت في هلع: مسافر كم يومًا؟

- لا أعرف. قال إنه سيخبرك عند عودته.

قضت يومًا واثنين داخل حجرتها والضيق لا يتركها. مستحيل أن يكون قد رحل بلا رجعة. لهفته ليست لهفة خائن ولا غادر. هذا ما تعرفه. ولكن أن يتركها بلا كلمة يومًا واثنين.. أن تفقد سيطرتها على أيامه ولياليه.. هل اعتادت أن يكون ملكًا لها وفي انتظار أوامرها؟ هل غيرتها أيام الهزيمة؟ نظرات تمرهان لها تقلقها أيضًا. كأنها تلومها أو توبخها. أعرفت من ابنها ما بينهما؟ ضاقت الدروب، وأصبح الهرب مستحيلًا، زوجة عمها بدأت ترمقها بنظرات استهزاء وتأتي خصيصًا لحجرتها لتجرحها بكلمات منتقاة بعناية عن فجور البنات، وعن سجن المتمردات، وعن ابنها الذي رأى جليلة على ما يبدو وتعلق بها لتزداد مصائبها ولم يزل يريد الزواج منها. قالت زوجة العم إنها لكي تتزوج من ابنها لا بد أن ترجو العم، وتتعلم الطبخ والتنظيف وتطيع كل الأوامر. قالت إنها ستكون زوجة ثانية فلا تخرج من حجرتها دون استئذان، ولا ترفع عينيها في عين حماتها. قالت الكثير. استمعت جليلة في صبر، وهي تحاول السيطرة على نفسها كما نصحها حسن، ولكنه تأخر، ومنذ اهتمام ابن العم وزوجة العم تراقبها في تحفز واشمئزاز يفوق كل ما مضى.

بعد أسبوع قالت تمرهان إن حسن يريد أن يقابلها، ولكن ليس في حجرته بل في حجرة تمرهان. لم يفعل هذا منذ دخل بها. خافت أن تكون تمرهان قد دبرت لها شيئًا ولم تثق بها، ولا وثقت في عينيها اللائمتين. ولم يكن لها اختيار.

تلفتـت حولهـا ليلًا وهـي تتجه إلى حجـرة تمرهـان، ثم دخلـت وأغلقت البـاب، وكان واقفًـا ينتظرها. قالـت في تلقائيـة والكثير من الغيـظ: لِمَ لم تتأخر بعض الوقت حتى يتمموا زواجي من ابن عمي؟

فتحـت تمرهـان عينيهـا في دهشـة، فنظر حسـن إلى أمـه فخرجـت. ما إن خرجت حتى قالت جليلة في صوت خافت ممتلئ بالإحباط: تتركني بلا كلمة، تتركهم يذلونني ويتحكمون فيَّ، لا تفي بأي وعود، أعطيتك نفسي ولم تكتف.. ماذا..

قاطعها في حدة: استمعي إليَّ..

ثم قال في حسم: سأخبر أمك الليلة.

نظرت إليه في ارتياح ثم قالت: لماذا؟

- لأن أمي تعرف، ولأنني استأجرت بيتًا لنا.

- لِمَ رحلت؟

- قلت لك عندي بعض العمل.

- أي عمل؟

قال في جفاء: لا تسأليني.

- لا يذلني غيرك يا حسن لو تعلم. تريد أن تستأثر بذلي، ما أطيبك!

قال وكأنه لم يتأثر من اتهامها: لا أعرف ما هو الذل بالنسبة إليك يا جليلة. فلـو كنت تظنين أن واجبـات الزوجة ذل، فنعم أريد أن أذلـك. أتوقع أن تثقي في، وتخلصي لي.

قالت في مرارة: وأطيع كل أوامرك بلا نقاش ولا فهم. وأتقبل غيابك، وغموضك، وبعدك، وقربك.

قال في تحدٍّ: وهذا أيضًا.

- ولو لم أفعل؟

- لا يوجد «لو» يا جليلة... ستفعلين.

قالت في تهكم: سأطيعها كما كنت تطيع كل أوامري من قبل، أليس كذلك؟

نظر إليها ثم قال: هو كذلك بالضبط، أمس ليس كاليوم، وكل شيء يتغير بين عشية وضحاها، كما تعرفين يا زوجتي.

تنفست في بطء وهي تتمنى أن تنفجر فيه وتخرج غيظ أيام من اليأس والهوان، ولكنها قالت: وأنت؟ ما هي واجباتك؟

- لدينا متسع من الوقت للنقاش عندما نرحل من هنا.

قالت في حنق: تظهر معادن الناس في الشدائد. انكشف لي الكثير يا حسن لو تدري.

نظر إلى قرة عينيها، ثم قال وهي ترى الغضب في مقلتيه: وأنت يا جليلة متعلمة، وتعرفين كيف تختبرين معادن الناس، أما أنا فأمي؛ لا أعرف الكثير ولا أحلل البشر. ولكني أعرف أن لا مفر لك إلا معي، في بيتي وحمايتي. وسيكون لديك متسع من الوقت لاكتشاف معدني المزيف.

قالت مسرعة: لم أقل إن معدنك مزيف. قلت..

قاطعها: لا يهم ما قلته. لا يعنيني الآن.

- أعرف وأقدر أنك تساعدنا.

- يهمني تقديرك يا هانم.

كلمة هانم هذه المرة لم تخرج في احترام، بل خرجت في تهكم لا تعرف مداه. لم ترد إغضابه، وخشيت رحيله وتخليه عنهم. قالت من جديد: كنت خائفة لا أكثر.

ثم أكملت في تصميم: زوجة عمي كانت ستزوجني من ابنها، أقسم لك، قالت إنه لم يزل يريدني.

- أعرف.

- تعرف كيف؟

- كيف له ألا يريدك؟ كل من يراك يريدك يا جليلة. ربما لا تدركين قدر جمالك، ولكني أنا أعرف.

قالت: أكنت تريدني من أجل جمالي؟

- كنت أريدك من أجل شيء لن تدركيه. كيف له أن يتزوجك ولديك زوج؟ كنت معك دومًا أراقبك، وأحميك، لم يكن يستطيع الاقتراب منك.

- ظننتك سافرت.

- هل تركتك من قبل؟

- لا أفهمك.

- وعدتك أن أبقى حولك.

- هذا أيضًا لا أفهمه.

- تعرفين ماذا قال الغزالي للولد؟

- لا أعرف عماذا تتكلم.

- قال: «فلا تسألني قبل الوقت، وتيقن أنك لا تصل إلا بالسَّير».

صمتت برهة، ثم قالت: كيف تعرف هذه الكلمات؟ كل ما تعرف.

قاطعها: أنت لا تسأليني عما أعرف، بل تسألين عما لا تعرفين عني.

- من تكون؟ أين تعلمت كل هذا؟

- الوصول يحتاج للسير..والوقت.. لا تتوقعي مني أن أجيب على أسئلة لا بد لك من معرفة إجابتها.

ساد الصمت. وتمنت أن يخرجا من هنا سالمين.

سمع طرقًا على الباب، فتركها، وفتح وكانت أمه ومعها بثينة.

استمعت إليه الأم في صبر وكانت تنظر إليه بعينين هادئتين، شرح لها أو حاول دون الغوص في مشاعر، ودون الحديث عن أحداث عمر مضى، قال إنه يعتبر نفسه فردًا في هذه العائلة، وإنه سيرعى جليلة طوال عمره..كانت تنظر إليه ولا تنطق. حتى قال بعد برهة: ربما تظنين أنني طامع.

قالت في هدوء: أنت لست طامعًا. لم تكن طامعًا قط. ولم يعد لدينا ما تطمع فيه.

- نريد رضاك.

قامت، وربتت على كتفه، وقالت: أنت رجل، والأم لا تريد سوى رجل لابنتها. عرفت جليلة كيف تختار زوجها.

فتحت تمرهان فمها في ذهول، وكانت جليلة تستمع والارتياح يجتاحها.

قال بعد برهة: نوينا الانتقال إلى بيت صغير في المطرية، وأتمنى أن تصطحبيني أنت وجليلة وأمي.

نظرت إلى تمرهان وقالت: تمرهان، لست خادمة، بل أم أفضل رجل عرفته. أريدك أختًا وصديقة.

انحنت على قدميها قائلة: لا تقولي هذا يا سيدتي ..لا يجوز.

شدتها ثم قالت: بل يجوز.

ثم نظرت إلى جليلة وقالت: تعالي هنا قبلي حماتك وأمك الثانية.

بدا على تمرهان الإحراج، ونظرت إلى ابنها في عدم ثقة، ولكن جليلة قبلتها على خدها، وعيناها تنظران إلى زوجها في حذر.

قال حسن: لو رحلنا اليوم نصل إلى المطرية قبل الفجر، وسوف أعلن زواجنا. كان لا بد أن أنتظر لأمر مهم وانتهيت منه.

نظرت إليه جليلة في قلق فقال: لا أملك الكثير من المال، ولا أعدك أننا سنعيش كما عشت من قبل، ولا حتى بقدر ربع ما عشته.

- عمي ..

- لن يكترث. يريد التخلص منك الآن، وطالما أموال أبيك في يده فلا يريد شيئًا آخر.

- وابن عمي؟

- يتكلم مع زوجك، لا شأن لك بهذا.

قالت الأم: وستدخل بها يا حسن في البيت الجديد طبعًا. كنت أتمنى أن أجهزها لك، وأشتري لها الكثير من الأشياء، وأحتفل بها. كنت أتمنى حضور أختيها وزوجيهما، وأعرف أن هذا مستحيل.

مصمصت تمرهان شفتيها في لوم، وطأطأت جليلة رأسها، ولم تجرؤ على النطق. وقال حسن: بالطبع. كنت أتمنى أن يزفها أفضل الغوازي والمطربين ولكن لا بأس، هي أيام صعبة. إذا سمحت لي أن أدخل بها يا هانم فسأفعل. لن أفعل دون رضاك.

نظرت إليه جليلة وهي تكاد تتمزق من الغيظ. فقالت أمها في هدوء: بالطبع يا بني. هي زوجتك.

ثم اتجهت إلى جليلة وقالت: أصيل زوجك يا جليلة، أحسني معاشرته. لن يدخل بك إلا بعد أن يستأذنني. قليلون من يتذكرون الدِّين بهذا الإخلاص.

تمتمت: قليلون بهذا الإخلاص.

* * *

7

خفـق قلبهـا بخـوف جديد حـلَّ عليها وهي تلملـم ما تبقى لها من أشـياء قليلة هي وأمها. سـفر عمها يعطي أملًا، ولكـن وجود ابن عمها وزوجة عمها وكل أهـل عمها ينذر بالخـراب. انتظرت كما أمرها حتى بعد منتصف الليل، ثم أمسكت بيد أمها واتجهت إلى باب الفيلا وتمرهان وراءهم تنظر حولها في حذر. انتابها شعور أن هزيمتها بدأت للتوِّ، وأن خروجها لن يكون سهلًا، وكانت على صواب.

سـمعت صـوت زوجة العم وهي تشـد ذراعهـا وتصيح: أيـن تذهبين في منتصـف الليل يـا تربية المدارس يا غاهـرة كل المدن مجتمعـة؟ وتجرين أمك إلى أين؟

تجمـدت مكانها، وارتجف الجسـد كله. قالت الأم في رفـق: نرحل، ونترك الفيلا لك.

- يا بثينة لم تعتادي وجود رجل في حياتك؛ لأن زوجك لم يكن يعرف كيف يحكم النساء. في عرفنا لا يخرج النساء في منتصف الليل، وبدون إذن الرجال.

ثـم نادت ابنهـا وهي تصرخ. هوت الأم إلى الأرض لا تسـتطيع الوقوف، وضربت تمرهان على وجهها وهي تلعن جنون ابنها الذي ينتظر بالخارج.

هرول الابن بملابسه الداخلية، سأل أمه عما حدث..قبل أن تكمل قصتها سـمعت صراخًا آتيًا من المطبخ بأن حريقًا قد نشـب في الفيلا. نظرت حولها لا تـدري ماذا تفعل، ثم قالت لابنها: اربطهما حتـى لا تهربا، وهرولت إلى المطبخ هي وبقية النساء. نظر إلى جليلة ثم قال: لِمَ فعلت هذا؟

ثـم طلـب من حارس الفيلا أن يأتي بحبل ليربطهـما. تأخر الحارس على ما يبدو، وابن العم يتكلم دون توقف، ويهدد ويسب جليلة وأمها.

صاح ينادي الحارس، ثم شد يد جليلة قائلًا: لا بد أن أتزوجك اليوم حتى أعرف كيف أربيك من جديد.

اتجهـت عينا جليلة إلى مصـدر الصوت من ورائهـا وكان هو، يحمل عصا سميكة اتجه بها إلى بطن ابن عمها وضغط عليه بالعصا قائلًا: لا تلمس ما ليس لك.

تأوه من العصا المغروسة في بطنه وقال: سأقتلك..

قال في حسم: اخرجي يا جليلة مع أمك وأمي بسرعة.

خرجت متجهة إلى العربة وهي تجر أمها.

بقيت أمه عدة ثوانٍ تنظر إليه في قلق ثم خرجت، وعيناها لا تتركانه.

قال حسن: جليلة زوجتي، في عرفكم الزوجة تطيع زوجها ولا يقترب منها رجل آخر، أليس كذلك؟

فتح ابن عمها فمه، ثم قال في فزع: ماذا تقول يا بن الجارية؟!

غرس العصا حتى كاد الرجل يلفظ أمعاءه ثم قال: حارسك مربوط أمام الفيلا. لو حاولت أن تتبع خطواتي أو تقترب من زوجتي أقتلك في الحال.

ثم دفع به فوقع، وهو يمسك ببطنه ويتأوه، فخرج بسرعة، وقفز على العربة، ووخز الفرس فجرى بكل قوته.

كانت جليلة تحتضن أمها، وترتجف بلا توقف. ولا تعرف هل ارتجافة العربة هي التي تهز القلب أم ما رأت وما حدث الآن. أحاطت أمها كتفها وقالت: لا تخافي يا جليلة.

أما تمرهان فكانت عيناها تحملقان في ابنها. قالت في يأس: قلت لك من قبل ستدمر نفسك، وتدمرني معك. فتحت النار علينا يا حسن.

لم يجب.

قالت من جديد: لا سند لي ولا أهل، لِمَ تضحي بنفسك وبي؟

قال بعد برهة: لا تقلقي. ليس بيدهم شيء.

- بل بيدهم كل شيء. هم الأسياد، وهم القادرون.

التفت إلى جليلة ثم قال: أنت بخير؟

قالت في صوت مبحوح: أمك على حق.

فقال في غيظ: تريدين العودة إلى الفيلا؟ تفضلين البقاء هناك؟

- لو تعقلت كنا سنفكر في هدوء.

شد اللجام فتوقف الفرس، وكادت تنكفئ على وجهها، ثم التفت إليها وقال في حسم: قلت لك لن يؤذيك أحد، وعدتك، ووفيت بوعدي، ماذا تريدين؟

كانت ترتجف بلا توقف، ولم تدر بنفسها وهي تتزحزح من مكانها لتقرب يدها من يده. أمسكت بيده في قوة ولم تنطق.

فتحت أمه عينيها في غيظ وعدم فهم. شد على يدها ثم قال: وعدتك. لا تخافي.

- أنت من أشعل النيران في المطبخ، أليس كذلك؟ كيف؟

- لا تشغلي بالك.

- لديك أعوان من الخدم.

لم يجب.

قالت بلا إرادة: لا أعرف هل كنت أخاف عليك أم على نفسي أم من فراق محتوم.

قالت أمه: لو بقينا هنا سيقتلوننا يا حسن.

شرع في تحريك العربة، ويده لم تزل في يدها حتى قالت أمه في تذمر: هو فراق محتوم لو انقلبت بنا العربة؛ لأنك تمسك باللجام بيد واحدة.

تركت يده، ونظرت إلى تمرهان، وكأنها أيقظتها. فهمست تمرهان في أذنيها: لدي ابن واحد، أعرف مصيره الآن. سيجلدونه أمام الناس حتى يكون عبرة لغيره، ثم يذبحونه أمام عيني، فورة الشباب تُذهب العقل..

لم تجب جليلة، ولم تفهم هل تتهمها تمرهان بأنها السبب فيما حدث أم لا. ولكنها تأكدت عندما أكملت تمرهان في أسًى: لو فقد العبد تمييزه يا سيدتي فلا بد للسيد أن يعي ويفهم، ابني أميٌّ، وأنت تقرئين وتعرفين. ليس الأعمى كالبصير، لِمَ فعلت به هذا؟

فتحت فمها في فزع، ونظرت إلى حسن وكان منهمكًا في قيادة العربة، ثم التفتت إلى تمرهان، وقالت في حنق: لم أفعل شيئًا، هو من أرغمني، هو من قرر، وهو من نفذ، تكلمي معه وأثنيه لو أردت عن زواجنا.

مصمصت تمرهان شفتيها ثم تمتمت: «كُهن نسوان».

لم تسمعها جليلة، إلا أن قوة واتهام الخادمة لها وكلامها معها وكأنهما متساويتان لا يمكن تحمله، فقالت: ماذا قلت؟

نظرت تمرهان إلى أسفل ثم قالت: لا تؤاخذيني، هو الخوف يزيح الحواجز أحيانًا، أتمنى ألا تخبري حسن بشيء.

صمتت جليلة في عبوس.

ثم أغمضت عينيها. جال بخاطرها الكثير من الأفكار، والنهايات، وهم في طريقهم من باب اللوق إلى المطرية. العم سيجد مكانهم ويقتلهم، وربما يقتلهم زوج الأخت فهو قاسٍ وعنيف منذ البداية، وهذه فضيحة ليست ككل الفضائح. وربما لا يقتلهم أحد. ربما يتفق العم وزوج الأخت على قتل حسن فقط، ثم حبس جليلة مدى الحياة، حبسها في سجن عمها، ثم سجن الإنجليز، فسجن الإنجليز سيرحب بها قريبًا حين تعجز عن دفع الدين. ثم تموت أمه

وأمهـا كمدًا، وتصـاب هي بالجنـون. كانت نهايات تشـبه نهاية أعـوان عرابي، ونهاية والدها، ونهاية أختيها وخالها.

وبدا أنه يعرف الطريق، سـار فيه، أو صنعه، لا أحد يعرف، ولكنه واضح له وليس لغيره.

نظـرت إليه، وكان الحنـق الذي يظلل عينيه ممتزجًا بحـماس المنهزم الذي لم يتسن له الحرب، وبيأس العارف بأن السبيل ليس دومًا مستقيمًا، ولا اتجاه واحد لنهايته.

ثقتها في حسـن لم تكن مطلقـة، ولحظات الولع والعشـق لا تصنع زواجًا. ربـما كان حسـن هو السـجان من اليوم. أليـس للزوج كل الحقـوق؟ لو قرر أن يحبسـها، أن يذلهـا، أن تخدمه هي..يسـتطيع فعـل ذلك وأكثر. قـال إن للزوجة واجبـات. لم يفتح أبواب ممرات نفسـه لها قط. لا هي تحتمل البعد عنه، ولا هي تثق به، ولا هي تأمن تغير المسـارات والأمواج العاتية. ترى ماذا ينوي أن يفعل بها؟ لو هدأت نفسه فقط، واستقرت لأصبح العيش ممكنًا.

كانت شـقة من ثلاث حجرات، أشـار إلى أمه وأمها يفرجهما حجرتهما، ثم ناداهـا إلى حجرتهـما. دخلت في عدم ثقة، ثم نظرت للسرير المتواضع الخشـبي، وبقيت صامتة.

طلـب منها الجلـوس ثم أغلق الباب وقـال: لا تعجبك الشـقة بالطبع. لا يهم. سنبقى هنا لبضعة أشهر فقط.

- وبعد ذلك؟

نظر إليها ولم ينطق.

قالت بعد برهة: يمكننا أن نضع سريرًا آخر هنا.

قال في دهشة: لِمَ؟

- أعنـي، الزوجان لا ينامان على السرير نفسـه. أمـي وأبي كان لكل منهما سريره، فهذا.. .

قاطعها في صرامة: أنت تنامين بجانبي.

لا تـدري مـا الـذي أخافهـا في عدم صـبره فقالـت : لو كنـت تفضل هذا فسأفعله.

خلع جلبابه فقالت وعيناها تطاردانه: حسن..والدتك..

التفت إليها قائلًا: ماذا بها؟

مـرت بأصابعهـا على المـلاءة في عصبيـة وقالـت: والدتك لا تعـرف أنك أرغمتني، وأنك الذي خططت لكل هذا، وقررت أن تتزوجني وأن.. هي تظن ربما أننا كنا على علاقة..لا بد أن توضح لها..

- ماذا تريدين مني أن أوضح لها يا جليلة؟

- إنها فكرتك أنت، وإنك من..

قاطعها: سأوضح لها أنها فكرتي أنا.

قالت في تردد: كانت فكرتك، ونقضت العهد مرة ومرات، ولكننا تزوجنا، وأنـا أعرف واجبات الزوجة، وأفهم الأصول، لا تقلـق من هذا. أريد لزواجنا النجاح.

تفحص وجهها ثم قال: لماذا؟

فتحت فمها، فقال هو: لتنتقمي من عمك وأختيك؟ لتستمري في تحدي العرف والتقاليد؟ لأنك تحبين الثورة حبًّا مجردًا من أي أطماع؟

قالت بعد برهة: تعرف الكثير. تعرف عني كل شيء وعن غيري. ولكن هذا ليس السبب يا حسن.

كانت المرة الأولى التي تقضي ليلتها بين ذراعيه بلا خوف أو قلق، سألته عند الفجر ماذا ينوي أن يفعل وكيف سيواجه أهلها، سألت الكثير من الأسئلة ولم يجب. أغمض عينيه، وأمسك بيدها المستقرة على صدره، ثم قال بعد برهة: ربما أستطيع أن أقنع أمي أنني نقضت عهدي معك..ولكن كيف سأقنع عائلتك يا جليلة؟ أتعرفين ماذا يقولون عنك الآن؟ لا بد أنك تعرفين..

اعتدلت في جلستها وقالت في تحدٍّ: لا يعنيني الناس..

أمسك بيدها، ثم قربها من فمه وقال: سيقولون إنك عشقت العبد، منذ زمن.. واتفقت معه على الزواج سرًّا والهروب، سيقولون إن المدرسة خربت عقلك كالخمر والميسر، وإنك اختلطت كثيرًا بفتيات الليل فعرفت حكايات العشق والغواية.. سينشرون تفاصيل كثيرة عن قصة العشق، كيف بدأت ومتى توهجت..

قالت في استياء: لا يعنيني ما يقولون يا حسن.

قبَّل كفها ثم قال: ترى ماذا سيقولون عن البداية؟

قالت في عدم صبر: حسن..قلت لك لا يعنيني ما يقولون..ما يهمني هو كيف نخرج من هذا الخندق..

- نخرج معًا؟

قالت بلا تفكير: نخرج معًا بالطبع.

* * *

فرحتها بالخروج لم تدم واستقرارها لم يخمد، وبدأ القلق والإحباط من شكل معاملته معها، ومن مصير لا تعرفه في بيته. كلماته قليلة ومقتضبة معها، ومع أنه دومًا يأخذها بين ذراعيه طوال الليل فإنها لم تستطع أن تصل إلى نفسه. يخرج كل يوم صباحًا، ويعود في منتصف اليوم أحيانًا ثم يخرج مرة أخرى. سألته أين يذهب كل يوم، وقال إنه يبحث عن عمل، حاولت أن تعرف أي نوع من العمل، ولكنه لم يجب. لم يزل لديها بعض الذهب الذي ترتديه، عرضت عليه يومًا أن تبيع أحد خواتمها أو تبيع عقدها، فقال إنهم لا يحتاجون إلى المال. يشتري ما يلزمهم كل يوم، ولا تدري هل وفر بعض المال على مر السنين، أم من أين ينفق الآن؟!

صعوبة حياتها في هذا البيت تكمن في إعادة توزيع الأدوار المألوفة. منذ أول يوم قررت أن تساعد تمرهان ووالدتها في الطبخ، ولم تعتد لا الطبخ ولا تنظيف البيت، وأمها لم تكن تقوى على العمل الشاق. كانت تمرهان تنظر إليها في شيء من الاستهزاء وهي تقطع الخضراوات أو حين تنظر إلى التوابل في حيرة وكأنها مساحيق طبية لا تعرف محتواها. لم تتقن جليلة التعامل مع النار ولا التعامل مع إناء الطبخ، ولم تعرف يومًا كيف تشعل النار لتطبخ. قالت تمرهان بعد يوم أو يومين: اتركيني أنا أطبخ.

تمنت لو فعلت، ولكنها كانت تفضل الطبخ عن التنظيف فقالت في إصرار: سأحاول.

ولم تحاول.

تطبخ تمرهان الخضار كل يوم نفس الأنواع التي لا تحبها جليلة. اعتادت جليلة في الماضي أن تستيقظ صباحًا فتفكر فيما تريد أن تأكل، وتأمر الخدم بطبخ كل الأصناف، والآن تتحمل صنفًا أوصنفين ورداء أو رداءين، بعد أن كانت تمتلك خزائن من الفساتين الأوروبية. افتقدت أيام الرخاء، ولم تفتقد عمها ولا زوجته. افتقدت والدها وجلوسهم جميعًا في انتظار الحلو بعد الطعام والقهوة والشاي. كانوا يجلسون معًا، وقبل أن يطلبوا شيئًا يأتي خادم ليصب شايًا أو قهوة في الفناجين، واعتادت أن تمد الفنجان للخادم، ولا ترفع يدها لتصب الشاي قط.

أصبحت تجهز الغداء للخادم بنفسها بعد أن كان يمد يده بالمظلة ويتأخر خطوات، وأصبحت تتكلم مع خادمتها وكأنها عمة أو خالة. كيف تفعل هذا لا تدري. تحاول وتجتهد، وأحيانًا لا تفلح. عندما يطلب منها شيء تهم برد عدواني ثم تسيطر على نفسها. كل شيء حدث بسرعة يصعب عليها استيعابها.

عندما عاد في اليوم الأول قال وهو ينظر إليها: هل جهزت الغداء؟

بدت مترددة ثم قالت: نعم

وبدأت في تجهيز الأطباق في بطء على الطاولة وهو ينظر إليها. استمر تجهيزها للطاولة ساعة أو أكثر، ثم قال: جليلة..متى تجهزين الغداء؟

فقالت في إحباط: أحاول.

نظر إلى الطاولة ثم قال: لا أحب الأكل على الطاولة. اعتدت الجلوس على الأرض.

قالت في استياء: هذا لن يحدث. لم أعتد الجلوس على الأرض، ولا أعرف كيف آكل على الأرض.

- فلتعتادي من اليوم. وأحب أن آكل بيدي. سأعلمك كيف تدسين الخبز في الخضراوات، وكيف تكومين الأرز في كفك..وكيف..

قالت في رجاء: أتمنى أن لا تفعل. لِمَ لا أعلمك أنا؟ عشت معنا سنوات وتعرف الكثير..

ابتسم وقال: المشكلة أنك تظنين أن طريقتك هي الصحيحة، وأن البشر لا بد أن يتعلموا منك.

- ربما لا توجد طريقة صحيحة، هي طرق مختلفة فقط. ولكني لم أعتد طريقتك. اعذرني.

كانت تمرهان تستمع، ولا تفهم بالضبط المشكلة، ولكنها قالت لابنها وهي تضع طبق الطعام أمامه على الأرض: سأجهز لك الطعام يا حسن.

تسمرت جليلة مكانها، ونظرت إليه وهو يأكل بطريقته، قال بعد برهة: هل تريدين أن تجلسي معي؟

ترددت ولم تود أن تجرح مشاعره، ولكنها تمنت أن يتعلم منها، ويأكل مثلها، ويكف عن ارتداء الجلباب، ويرتدي البدل الأوروبية، تمنت أن يحاول التقرب إليها ولو في شكله الخارجي وتصرفاته. لم تَعَف طريقة أكله ولا ملبسه، ولم تجد فيها ما يقززها، ولكنها كانت تذكرها بمن كان حسن طوال الوقت.

قالت وهي تشبك يديها وراء ظهرها: أفضل الوقوف.

وضع قطعة خبز في فمه ثم قال: ستنظرين إليَّ هكذا ولا تأكلين؟

تذكرت كم كانت جوعانة فذهبت إلى المطبخ، وأتت بطبق، وجلست على الطاولة، ونادت أمها وأصبحتا تأكلان بهذا الأسلوب المختلف كل يوم. تأكل هي وأمها على الطاولة، بينما يفضل هو أن يجلس مع أمه على الأرض. طلبت منه مرة أن يحاول الجلوس على الطاولة، وأن يرتدي البدلة، ولكنه قال في حسم: لن يحدث.

من حسن حظها أن تمرهان كانت تتحاشى الكلام الكثير معها، أو مع أمها، وربما شعرت هي أيضًا بغرابة الموقف، ولم تحب دورها الجديد.

أصابت جليلة الحيرة، تارة تظن أنه يتعمد إذلالها ويحمل مرارة الخادم وحسده، وتارة تظن أنها حمل ثقيل عليه؛ فلديها دين تزداد فوائده كل يوم، ولها عائلة ستحاول الانتقام منه. هي حمل هذا أكيد. أحيانًا كانت تفكر أنه تزوجها كما يسرق الفقير طبقًا فضيًّا كان في يد الغني، يريد أن يقتنيه ولا يعرف عنه الكثير، وفي بعض الأحيان يزداد اللبس حتى يصل إلى أعماق الروح، فتضمه في قوة وهو يحبها ليلًا، وتنطق اسمه وتنظر إلى عينيه في ألم، لا تدري من أين يبدأ ولا متى ينتهي.

اليوم عندما ضمها إليه ليلًا، وأغمض عينيه قالت: ليس لدي ما أعطيه لك، بل لدي دين للإنجليز لا أعرف كيف أسدده. أخاف أن يزداد تعلقي ثم..

- الدنيا ليست كلها معاملات مالية بين الأفراد. أحيانًا في عالم غير عالمك يعطي الإنسان بلا مقابل، ربما لا تعرفين، لم تقابلي شخصًا هكذا من قبل.

بلعت ريقها، وجفاؤه يتجلى من جديد، ثم قالت في حسم: أريد أن أعود إلى التدريس.

صمت برهة ثم قال وهو يعتدل في جلسته: هذا قرار أم تسألينني رأيي؟

قالت: أعلمك لأنك زوجي.

قال في تهكم: تعلمينني؟ كيف أشكرك على هذا الشرف؟

قالت في جدة: سنحتاج المال على كل حال. أريد العودة لعملي.

قال: لا.

فتحت فمها في فزع وهي تتقهقر إلى حافة السرير ثم قالت: تتوقع أن أرجوك مثلًا؟ أن ترى ذلي وهواني؟ رأيته من قبل يا حسن. هل تحتاج أن تراه كل يوم وكل ساعة وكلما رأتك عيني؟

قال وهو يتجاهلها: أريد النوم، فلدي موعد صباحًا؟

صاحت: لن تتجاهلني، ولن تعاملني كأنك اشتريتني.

قال في صوت هادئ وصارم: لا ترفعي صوتك عليَّ مرة أخرى أبدًا. قلت لك لا ذهاب إلى المدرسة، ولا خروج دون إذني، وانتهى الكلام.

هبت من مكانها قائلة: أختنق في هذه الحجرة. سأنام في الخارج.

همت بأن تفتح الباب فقال في حزم: لن تخرجي من الحجرة. عودي إلى مكانك ونامي.

أمسكت بمقبض الباب في تردد. عندما تدخل السجن سينساها، وستموت أمها كمدًا، وسينتهي هذا الذل. طرقت برهة وهي تسيطر على أنفاسها الثائرة، ثم عادت إلى السرير، وانتقلت إلى حافته، وتكومت، وانكمشت ويداها تطوقان جسدها وعيناها مفتوحتان.

سمعت صوته: جليلة..تعالي هنا. قلت لك إني أريدك أن تنامي بين ذراعي كل يوم.

كانت كلمات ربما تسعد كل نساء الأرض، ولكنه قالها بلهجة آمرة، وبسخطه الذي اعتادته. لم تجب. أغمضت عينيها، وتزعمت النوم فأمسك بذراعها، شدها إليه، ووضع رأسها على صدره، وطوق خصرها كما يفعل كل يوم. وأمسك بيدها، ووضعها على كتفه. لم تقرر بعد؛ هل تعترض؟ هل تترك الحجرة؟ كيف يجرؤ أن يفعل بها ما يشاء، وكأنه اشتراها؟ ألم يشترها؟ ألم يوقع على الدين؟ ألم ينقذها من بطش عمها؟

قالت في مرارة: لا نستطيع الاستمرار هكذا للأبد يا حسن.

- الاستمرار؟ كيف؟

- أن تتعامل معي وكأنك تكرهني ثم تتعامل مع جسدي كأنك تعشقني. الجسد والروح ملتحمان.

ردد: الجسد والروح ملتحمان..لا أفهم هذه الكلمات المعقدة.

قالت في تحدٍّ: لِمَ تريدني بين ذراعيك كل ليلة؟ لا أفهم.

أطرق برهة ثم قال: ولِمَ لا؟ أنت زوجتي.

لم تكن إجاباته شافية قط. ولم تعرف هل أسئلتها في غير محلها، أم أنها لا تعرف شيئًا عما يجول بخاطر الرجال.

قالت في إصرار: هل تسمح لي أن أذهب إلى المدرسة؟

قال من جديد: لا.

كانــت تــود لو لكمته لحظتها، سيطرت على غيظها ثم قالــت: كنت أتوقع منك أن تكون أكثر تفهمًا، وأن تدعمني وتساعدني.

اعتدل في جلسته ثم قال: أحاول.

- ما الذي يضرك لو ذهبت إلى المدرسة؟ لو كان هذا سيروِّح عن نفسي بعد كل ما حدث، فما العيب في ذلك؟

- نؤجل الكلام في هذا الموضوع.

- ولِمَ نؤجـل الـكلام في كل الموضوعـات؟ ولِمَ تـود إذلالي والتحكـم فيَّ؟ أعـرف أنك الضامن أمام الشرطة، وأعرف أنني بدونك كنت سـأكون سـجينة أو ميتة الآن، وكنت أتمنى أن تكون كريمًا معي ولا تذلني.

لم يجب. بعد برهة قال: هل يمكن أن ننام الآن؟

ضربت السرير بيدها وقالت: تكلم معي. لا تتعامل معي كأني لا شيء.

أحـاط وجههـا بيديه، وقال في قوة: جليلـة..لا تأمريني ولا تتناقشي معي. سـأتكلم عندما أريد الكلام، وعلاقتنا الآن ليســت كما كانت من قبل. أنا آمر، وأنا أنهى، وأنا أقرر متى نتناقش، ومتى لا نتناقش. وأنا أقرر ما يمكن أن تفعليه ومـا لا تفعليه حتـى لو صور لك كبرياؤك أنك المتحكمـة في كل شيء. ما كان، انتهى، ومن اليوم تتعلمين كيف تنفذين الأوامر.

- ما الفرق بينك وبين عمي أو ابن عمي أو..

- لا أعرف، قولي لي أنت ما الفرق؟

فتحـت فمها وهي تنوي أن تجرحـه بكلماتها، ثم أغلقتـه، وصمتت برهة، ثم قالت: لا أفهمك ولا أعرفك وكأنك رجل مختلف عن الذي عرفته أعوامًا.

- بل ربما لم تحاولي معرفتي قط.

لم ترحها كلماته، بل تجلى شعور بالحيرة والعجز.

أمسـكت بالغطاء وقالت: سـأنام عـلى الأرض. ولا تحـاول أن تثنيني عن ذلك.

قال في حســم: ســتنامين على مخدعي، وبين ذراعي كل يوم. بلا نقاش ولا كلام.

- بِمَ تهددني اليوم؟ سـترحل أم سـتطلب منهم أن يسجنوني. أم ستعيدني لعمي. ماذا ستفعل بي اليوم يا حسن؟

قال: لن نعرف لأنك لن تعصي أوامري.

قالت في جفاء: ربما ستصفعني كما فعل عمي. لِمَ لا تضربني يا حسن؟

ثم أكملت لنفسـها وليس له: تذل ابنة من رباك، وأكرم مثواك. ذلني أكثر حتى تهدأ نفسك وتعرف أنك الأفضل.

قال: أنا لا أضرب النساء يا جليلة.

- تتحكم فيهن فقط؟

- أريد النوم.

لـو صاحـت في وجهه توقظ أمها وأمـه، ولا تدري ما رد فعلـه. ولو نامت عـلى الأرض ماذا سـيفعل؟ هـل يمكن أن يرحل؟ قالت أمه إنه اسـتعد من قبل للرحيـل. ربـما لم يـزل يفكر في الرحيل. وهل ستسـتمر في التنـازل عن كل شيء

خوفًا من رحيله. قال إنه لا يضرب النساء وتصدقه، فما هي العواقب إذن؟ هل سيعيدها لعمها؟ مسحت دمعة خرجت من يأس وعجز سيطرا عليها، ثم قالت: هل تسمح لي بالنوم على الأرض اليوم؟ لست غاضبة ولكنني أحتاج أن أكون وحدي.

أمسك بكتفها ليقربها إليه وقال: لِمَ لا نؤجل كل المشاكل، وتنامين بين ذراعي؟

- لو أجلناها لا تختفي.

- ربما تختفي بعد حين.

ضمها، مكثت مكانها متجمدة، ثم تمدد على السرير، وشدها معه ووضع رأسها على صدره، وقال: نتحمل الأيام بعض الوقت. لا تبكي.

كادت تفقد عقلها وسط تقلبات مشاعره وتصرفاته. تارة يسكب حبًّا لا قِبل لها به، وتارة يقسو، ويتحكم، ويحيط نفسه بجفاء لا قبل لها به أيضًا. لم تعد جليلة تعرف نفسها وهو معها. تعلقت به وخافت أن تفقده، ولكنها حنقت عليه واغتاظت من تحكمه، وبعده النفسي عنها. أحبطها وعذبها أكثر من كل عذاب الماضي. لم تحط كتفه بذراعيها كما تفعل كل يوم. بقيت متجمدة ولم يبال. نامت بعد حين، فوضع يدها على قلبه، وأغمض عينيه.

* * *

في الصباح لم تخرج من حجرتها. ازدادت حيرتها، وانتشر الغضب حولها. لو كان يتعمد إذلالها فلِمَ العيش معه؟ ولو كان يتمنى أن تحبه فهو لا يسعى لهذا بقلب سليم، بل لا بد أن حقدًا دفينًا هو ما دفعه للزواج منها. ستواجهه

اليوم. ماذا سيفعل؟ سيرحل؟ وماذا لو رحل؟ لم تكن تخاف هكذا من قبل، ولا بد لكسرتها أن تلتئم. لن تتركه يتحكم فيها وكأنها إرث أو أَمَةٌ؛ فهي ليست كذلك.

لم تدرك معنى حيرة الزوجة من قبل، لا تعرف أين يذهب ولا مع من يقضي يومه، ترى ألديه أصدقاء؟ عشيقة ربما من زمن فات؟ كلما تأخر ازداد الشك، وكلما قلت كلماته نخر الإحباط عقلها. ربما يعمل سرًّا من يدري. لا تريد رؤية أمه اليوم ولا أمها.

عند عودته ناداها، فرفضت الخروج من حجرتها. بعد برهة دخل، وخلع جلبابه، واستلقى على سريره في صمت، فقالت هي: لن أنام في هذه الحجرة يا حسن. وافعل ما تريد. طفح الكيل. ولم أعد أستطيع.

قال وكأنه يتوقع انفجارها: قولي ما تريدين، وما تكتمين طيلة الأيام الماضية. أسمعك.

فاجأها حينها. ولكنها جلست أمامه وقالت في صوت حزين: تهددني بالرحيل طوال الوقت لأنك تعرف أني أحتاجك. وتتعامل معي كالبضاعة وليس كزوجة. ماذا تريد مني؟ ماذا تتوقع؟ أن تحبسني وتتحكم فيَّ؟ أن أعيش معك لأني أحتاجك؟ هل ترضى بهذا؟

ساد الصمت برهة ثم قال: لم تقولي ماذا تريدين.

لم تكن تعرف بالضبط ما تريده. نظرت حولها، ثم قالت: تريد حبسي، والتحكم فيَّ، وإذلالي، وهذه ليست أخلاقًا...

صمتت وخافت أن تجرحه كلماتها. فقال في هدوء: قلت لك لا أعرف شيئًا عن أخلاقكم الحسنة، لا تتوقعي مني أن أسير خلف عاداتكم.

قالت : لِمَ تزوجتني، ولم تتزوج صبرية؟

كانت تود أن تقول ألأنني كنت سيدتك؟ هل يرضي غرورك ذلي وكسري؟ ولكنها عدلت عن ذلك.

قال: فلنؤجل هذه الأسئلة.

- نؤجل الخروج والعمل والأسئلة..ولو قلت لك إني لا أريد العيش معك مثلًا ماذا ستفعل؟

نظر إليها ثم قال: لا أفهم سؤالك.

قالت في تردد: أنا لم أقل إني لا أريد العيش معك، أنا فقط لست سعيدة و..كنت أتمنى أن تحاول معي، أن تجعل زواجنا ينجح، ولكنك لا تحاول.

ثبت نظراته على السرير لحظات، ثم قال: تكلمتِ كثيرًا يا جليلة، ولم تقولي ما يجول بخاطرك.

- ماذا تقصد؟

- ما يجول بخاطرك أعرفه. وما لم تقوليه أشعر به.

علت دقات قلبها ثم قالت: لا أظن أنك تعرف عني أي شيء.

- بل كل شيء.

وضعت يدها على الفراش والعالم يدور حولها. أغمضت عينيها، وقالت في صوت ممتلئ بالألم: تعذبني كما تعذبني الأيام، لماذا؟

ضمها إليه وقال: لا أريد تعذيبك.

ثم أكمل، وهو يمر بيده على ظهرها: هو عذابي أنا الذي يطفو على السطح فيخرج الحزن والإحباط.

يده على ظهرها هدأت حزنًا لا يتركها. وكلماته مست أعماق الروح على الرغم من أنها لم تفهمها حينها.

سقطت الدموع بلا توقف. دموع على والدها، وأختيها، وعجزها وذلها. دموع على ما فقدت، وما آل إليه حالها.

حملها، ووضع رأسها على رجليه، ومر بيده على شعرها وهي مستلقية على بطنها. عندما يتدفق حنانه يصعب السيطرة على النفس والروح. تخاف من سيطرته ومعرفته بها. لو انكشف للرجل كل قلب امرأته هكذا، فسوف تهلك لا محالة.

أغمضت عينيها، ثم تمتمت: هل كنت ستتركني يا حسن؟ لو لم آتِ إليك في تلك الليلة هل كنت ستتركني؟

لم يجب.

قالت: لم تبح بشيء، ولم أبح بشيء. دار كل منا حول العالم في بحر عميق، ولم نلتقِ. هل تعرف؟ أبحرنا ولم نصل، لم نزل ندور باحثين عن السبيل.

عبس وجهه ثم قال، وهو يمر بيده على ظهرها وشعرها: لو كان الوصول سهلًا لما هلك الكثيرون بحثًا عن السبيل الصحيح.

- لا تتوقف.

- عن الإبحار؟

- عن الإبحار وعن المرور بيدك على شعري وكتفي وظهري.

- لن أتوقف.

- عدني ألا تتوقف حتى أنام.

- أعدك.

أغمضت عينيها، وهدأت دموعها. تمتمت وهي نصف نائمة: أبكي كثيرًا هذه الأيام.

أمسكت بيده، ووضعتها تحت رأسها، وراحت في نوم عميق.

* * *

عند سبيل الغارق اليوم كان أكثر حنقًا، وتوهج الحزن وانفجر. أغمض عينيه، وأراح رأسه على النافذة الهائلة؛ لعل هواء الفجر ينفذ إلى حنايا القلب ويحييها. قال الشيخ الزمزمي في هدوء ومعرفة: هل انتصرت أم ترعرعت هزيمتك يا حسن؟

لم يجب. ثم قال في بطء: فزت هذا أكيد.

- وكأن الفوز لا يطفئ مرارتك وغضبك بل يؤججهما.

- ليس للغضب أن يخمد بأي فوز يا شيخ. لا أستطيع الوصول لروحها. ولا أعرف كيف. امتلكتها ولم تزل تفتتني كما فعلت من قبل.

- عشت ألف عام أو يزيد.. تريد لعمق عشقك أن يقارن بعشقها.

- لِمَ تقول هذا؟

- تعرف ماذا فعل الشاطر حسن بعد أن قابل اليمامة؟

- رحل عن ابنة السلطان.. أعرف..ليس لي علاقة به..حتى لو طاردني في أحلامي.

- هو مزيج من الإحساس بالذنب والمرارة واليأس، جعل حياته معها مستحيلة يا بني. فقد الطريق إلى البحر والطريق إلى حبيبته. وحتى طريق السكينة هرب من بين يديه. والمجذوب أيضًا لم يجد الطريق لبلسم ابنة السلطان.

قال وكأنه لا يسمعه: لم أترك لها الاختيار. ولم يكن لي اختيار. ولكني لست هو. لن أهجرها، ولا فراق بيننا حتى موتي.

- ليس للإنسان أن يفوز طالما في صدره كل هذا الغل. لا تسامحها على أنها لم تدرك. وكيف لها أن تدرك؟

قال في إصرار: هي لي الآن. ملكي للأبد.

ابتسم الشيخ: يأتي لي البشر غافلين، أحدهم يحسب أن ماله أخلده، والآخر يحسب أن علمه أخلده، ومثلك يحسب أن عذابه أخلده، ولا خلود لإنسي. لا تجزع من مرارة روحك، وتذكر أنك لا شيء، جسد فانٍ سواء انهزمت أو انتصرت.

- لا راحة تدخل قلبي. بيننا حواجز لا أراها لأقتحمها.

- وأنت لست ككل البشر..تذكر عندما ترك الشاطر حسن ابنة السلطان تاه في السبل، مع أن مفتاح الطريق كان معها. أتعرف لماذا لم يدرك الشاطر حسن هذا؟

قال حسن في يأس: لا أعرف. يطاردني هذا الرجل في الصبح والليل، فلا أتنفس دون التفكير في أمره.

قال الشيخ الزمزمي وهو يمر بأصابعه على أخشاب نافذة السبيل: يا حسن، أصعب المسالك هو مسلك نفسك. مسالك النفس لم تطأها قدم حتى

قدمـك. فـلا يوجد من حاول أن يسـير في مسـالك نفسـه كلهـا، ولا من أدرك مداها وحفظ مداخلها وسـدودها. تظن أنك تعلم، وأنت لا تعلم، ومأسـاتك أنك تظن أنك تعرف مسالك نفسها كلها، حفظتها سنين، أليس كذلك؟

- جليلة روحها معي منذ بداية العمر.

- ولكنـك لم تصـل إلى كل مسـالك نفسـها كـما لم تصـل إلى كل مسـالك نفسـك. أصعب الطرق وأوعرها وأكثرها شـقاء هو الطريق إلى نفسـك، يحتاج الخلـوة والتأمـل، وأهم شيء أنه يحتاج إلى ترك الكبر والغرور. اعترف لنفسـك أنـك لم تمـر في كل حـارات وأزقـة روحها حتى تسـتطيع الاسـتمرار، فلا أنت تعرف ماضيها كاملًا ولا مكنون قلبها برُمَّته.

قـال حسـن في إصرار: بـل أعرف، ربـما لم أسِر في كل أزقة نفـسي، ولكني أعرف نفسها.

قال الشـيخ وهو يبتسـم: لو كنت لا تعرف أزقة نفسـك فكيف تعرف كل حنايا نفسـها وعطوفها؟ ألم أقل لك الطريق إلى النفس هو أشد الطرق خطورة. حتى هي ربما لا تدرك.

- لا أفهمك يا شيخ. ماذا تريد مني؟

- أنـا لا أطلـب منك شـيئًا يا حسـن، أنا أفتـح الأبواب حتـى يتبدى لك المسلك، أنت من تبحث عن السبل، وليس أنا.

ردد وهو يتنفس بعمق: أنا من أبحث عن السبل..

بقي في السبيل يومًا كاملًا.

قال الشيخ بعد برهة: قال تعالى: «وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون». هو سبيل واحد يا حسن إلى الله، كله بصيرة وفهم. أما السبل التي تبحث عنها فكلها فانية: مَن امتلك البحر للأبد، ولم يتركه لغيره؟! ومَن امتلك الطريق للأبد ولم يفنَ حوله؟! تفهم يا بني؟

- السبيل إلى الله واضح يا شيخ، ولكنه ليس سهلًا، يأتي بتقوى القلوب، أعرف، وما أصعب تقوى القلوب. أما سبل الدنيا فمتفرقة، تزيد حيرتي وعنائي. فلا أستطيع التمكن منها.

- ربما لو سرت في سبيل الرشاد، لن تأبه بالوصول المؤقت في سبل الأرض.

- وكأن سبيل الرشاد سهل يا شيخ! كم إنسان تاه قبل الوصول أو شرد ونسي!

- الكثيرون. وهذا ما يجعل الرحلة شاقة حتى لو بدت واضحة. في المستهل تجد الصراط المستقيم، ثم يساعدك الصراط في الوصول لسبل الأرض المتفرقة.

- أحاول..

- لا تنشغل بفوز الدنيا فقط.. كبرياؤك ربما تؤدي إلى هلاكك. تذكر..

- أي كبرياء وسط كل هذا العجز؟

- بل لا كبرياء تضاهي كبرياءك لو تعرف. اسبر غورك، واعرفك يا حسن.

قال حسن في تأمل: الطريق الآمن نهايته الغرق. ألم يمشِ عيسى عليه السلام على الماء؟ ألم يشق موسى البحر طالبًا النجاة؟

- كانا على يقين أنهما اتخذا السبيل إلى الله، الغرق يأتي لمن لا يقين في قلبه. المجازفة تحتاج اليقين.

قال حسن: وأنا أحتاج اليقين...ساعدني..

- اطلب من الله أن يساعدك، ولا تطلب اليقين من إنسي أبدًا. السبيل إلى اليقين بيده هو فقط.

صلى، وقرأ الآيات كلها عن السبيل سعيًا إلى الراحة واليقين.. عندما عاد ليلًا. كانت تنتظره في حجرتهما، ولم يدخل. استلقى على دكة في البهو، وأغمض عينيه، ولم يترك الهم قلبه. فتحت الباب بعد برهة، ونظرت إليه ولم تفهم لِمَ فعل هذا؛ هل أغضبته؟ هل توقف عن إذلالها ربما، أو ملها ولم يعد يريدها؟ لم تحاول الكلام معه. نظر كل منهما إلى الآخر ثم دخلت، وأغلقت باب الحجرة، أغمضت عينيها ولم تنم.

في الصباح لم يخاطبها، تجاهل وجودها تمامًا، وخرج، وعندما عاد فعل نفس الشيء. سألتها أمها لِمَ ينام زوجها خارج الحجرة، وما الذي حدث بينهما، ولم تجب ولم تعرف الإجابة.

عندما ألحت الأم في السؤال، قالت جليلة في حنق: ماذا تتوقعين من ابن الجارية؟ يذلني لا أكثر.

فتحت الأم فمها في ذهول، ثم قالت: جليلة.. هو زوجك، لا تتكلمي عليه هكذا.

لم تعرف هل الغضب منه أم من نفسها؛ لأنها تركته يتملك الروح هكذا. قالت وهي تكتم دموعها: لا تعرفي مدى قسوته.

نظرت إليها الأم في حيرة ثم قالت: لا تدخلي الشيطان بينكما، تكلمي معه، وافهمي ما الذي يغضبه.

سقطت دمعة ثم قالت: لن يحدث.

قالت الأم في يأس: لم يعد لنا غيره يا جليلة، تذكري.

قالت في تحدٍّ: لنا رب، لن يكسرني كما يريد.

نظرت إليها الأم برهة ثم قالت: هل يسيء معاملتك؟ يقسو عليك يا بنتي أو يهينك؟ أخبريني..

صمتت ثم قالت وهي تحتضن نفسها: يقسو يا أمي..لا تدرين وطأة قسوته.

قالت الأم في بطء: لا تعجبني طريقتك، أفهم أنك لم تعتادِي على الطبخ والتنظيف، وأفهم أنك لو تزوجت غيره لكان لديك الخدم، ولكن في نهاية الأمر الزوجة مسئولة عن راحة زوجها ،حتى لو لم تطبخ له تشرف على الخدم ولو لم يكن لديها خدم تطبخ له وتغسل ملابسه و..

قاطعتها: تريدينني أن أخدم الخادم؟

قالت الأم في إصرار: جليلة..تغيرت الأدوار، وأصبح زوجك.

- أمه ترعاه، وليس أنا.

قالت الأم في تأمل: تبالغين في تأكيد تفوقك، أهذا لأنك تخافين الفناء حوله؟

لم تتوقع سؤال أمها. ولكنه أربكها.

احتارت في أمره كثيرًا، وبدأ يخرج منها عذاب لم تعرفه من قبل، ولكنها لا تنوي أن تسأله، ولا أن تبدأ بالحديث معه. أصابها الداء هي أيضًا، وانتشرت

المرارة حولها. اجترت ذله لها منذ البداية، وأغلقت القلب على حزن هو السبب فيه.

كل ليلة تنتظر أن يفتح الباب ولا يفعل. كل ليلة تفتقده، فتنكسر نفسها أكثر من قبل. وكل ليلة تدرك مدى الوهن الذي أصابها. لو كان ينوي هجرها ثم تركها ماذا تفعل؟ وأين ذهبت الإرادة والقوة؟ حتى لو فتح باب الحجرة لن تسمح له بالاقتراب منها. هي ليست طوع أهوائه، ولن تتهاوى أمامه كمباني الإسكندرية.

* * *

بعد خمسة أيام أخبرها أنه يريدها معه عندما يذهب إلى المحامي، وخرجت معه وهي لا تدري كيف سيتعامل معها. هل سيطلب منها أن تسير وراءه اليوم أم سيسير خلفها، ويفتح لها المظلة كما كان يفعل في الماضي؟ تسلقت العربة في ضيق ولبرهة نسيت ما كان. وكأن الزمن لم يتغير، وكأن الخادم يقود العربة وعيناه مثبتتان على الفرس كعادته. توقف، وطلب منها النزول. لا تحدث معها ولا نظر إليها. نزلت في تردد، ووقفت مكانها. التقت أعينهما، وكل منهما يفهم ما يجول في خاطر الآخر. مد يده وقال: هيا بنا.

أخذت يده فسار في خطى سريعة، وجدت نفسها تسير وراءه في بطء، ولم تبال. لم يعد يعنيها سوى التخلص من الدَّين. توقف، والتفت إليها، ثم أشار إليها أن تشبك ذراعها بذراعه. أذهلها طلبه. فعلت، سارا معًا خمس دقائق أو يزيد. كان إحساسًا مختلفًا، كان حولها وبجانبها، وكأنه سندٌ وجيشٌ. وأراحت ذراعها داخل ذراعه حتى كادت تتأقلم مع هذا الوضع بقية عمرها. ولو ازدادت تعلقًا به ثم غدر بها؟ ولو تملكها الشغف ثم تركها تموت في سجن

مظلم؟ وكأن كل العذاب لم يبدأ بعد. والخوف والتمني في مستهل الطريق إلى القلب، وقريبًا سيغوص حسن أكثر، فيتمكن من كل المداخل. ولو فعل، فهذه نهايتها حتمًا.

قال وهو لا ينظر إليها: بِمَ تفكرين؟

- لو دخلت السجن ماذا ستفعل؟

قال في صرامة: لن يحدث.

همست في مرارة: حسن، نحن لسنا أهلًا لتحدي الإنجليز. ولن نستطيع أن ندفع الدين هذا مؤكد. لو عينوا للقضية قاضيًا مواليًا لهم فلا أمل لنا.

قال في إصرار: قلت لك لن يحدث.

- سنهرب حينها؟

- لِمَ نهرب من بلدنا؟

لم تستطع أن تصل إلى ما ينوي، ولا إلى ما يفكر فيه.

دخلا معًا عند المحامي، واستمع لهما، وكانت تنظر إلى عيني حسن وهي تحكي، تنتظر دعمه، وصوتها مهتز هذه المرة. صدقت مع المحامي، وحكت عن دورها، وعن خالها في فخر، قالت إن الهزيمة لا تعني محو التاريخ، وإنها درست في المدرسة تاريخ مصر وتاريخ العالم، وإنها لو كتب لها الله العمر ستحكي لأطفالها عن الحقيقة وعن الأمل الذي توارى، والظلام الذي تفشى، والاستسلام إلى أننا بلا ماضٍ ولا حاضر، سنستسلم ونرضى بأننا مجرد بضعة من البشر المتناثرين بلا شكل ولا لون محدد يجمعهم، ولكنها هي لم تستسلم. تسربت القوة إلى صوتها، وعاد بريق ظنت أنها فقدته. استمع إليها في انبهار، ونظر حسن إلى عيني المحامي ثم إلى زوجته، وقام حسن فجأة، وأمسك بيدها،

ورحـل من مكتب المحامي بلا كلمـة، في الطريق نظرت إليه فتعثرت في حجر، وكادت تنكفئ على رأسـها لولا أنه شـد ذراعها وهي تشهق من هول المفاجأة. قالت في تذمر: لو سرت أبطأ ما احتجت أن تنقذني من الوقوع.

قال وهو لا ينظر إليها ويده لا تترك يدها: يدي في يدك يا جليلة، لا وقوع وأنا معك. لو سرت أبطأ أحمِّل نفسي ما لا أطيق.

استشـعرت غيرته منذ البداية، كانت عيناه غير مستقرتين وأنفاسه سريعة. أعجب بها المحامي، هذا أكيد. فما أشـد جاذبية المرأة الشـجاعة المتمردة ولكنها لا تصلح زوجة بالنسبة للمحامي، هي جميلة جمال الطاووس ينبهر بها ولو أمكن يرافقهـا إلى حين. كل هذا فهمه حسـن من عيني المحامي، واستشـعرته جليلة، وكان من أفضل المحامين وكان يرتدي بدلة وليس جلبابًا. ومن المؤكد أنه يأكل على الطاولة. لم ينطق زوجها حتى وصلا، وعند الوصول قال في حسم: سنغير المحامي. وفي المرة القادمة لا أريدك أن تكشفي وجهك.

قالت بدون تردد: حاضر.

كان قليل الصبر، غير مستقر طوال اليوم، جهزت له أمه الغداء فلم يأكل.

همست أمه في أذنه: ماذا بك يا حسن؟ تتحاشى زوجتك، ولا تطيق البيت.

قال في اقتضاب: لدي بعض المشاكل.

قالـت في ضعـف: ألم أقـل لـك..ألم أحذرك!..كنت أعـرف أن الراحة لن تدخـل قلبك بفعلتـك هذه. لا تعرفـك، ولا تفهمك. لن تقـوم على خدمتك، ولن تهتم براحتك، وأبدًا لن تطيعك. لو تزوجت من امرأة مثلنا..

- مثلنا كيف؟

- تفهمنا، وتعرفنا، ولا تتعالى عليك، ولا..

صمتت. لن تصل كلماتها إليه. كانت تعرف. قالت في استسلام: قدر الله وما شاء فعل.

دخلت جليلة الحجرة ليلًا وأغلقت الباب وراءها. نفخت، وغطت وجهها بالغطاء.

اليوم جاء. فتح باب حجرتها وهي مستلقية على السرير، فاعتدلت في جلستها، ونظرت إليه. لم يتكلم، عانقها في قوة أربكتها لحظتها. لم تقاومه. قال بأنفاس مكتومة: افتقدتك.

ودَّت لو سألته متى غضب، ومتى هجر، ولِمَ عاد؟ ودت لو فهمت من يكون.

قالت في مرارة: لِمَ أتيت اليوم؟ كنت تريد أن تكسرني أولًا ثم..

وضع إصبعه على فمها، وقال في رقة: لا تتشاجري معي الآن.

ثم ضمها من جديد، ضغطت على جفنيها حتى لا تبكي، وتلاشى غضبها، لا تدري كيف.

تركته يقبلها في عذاب لا قبل لها به، ولا تعرف سببه ولا مداه. خافت منه اليوم. بدا وكأنه مجذوب. انسكب يأس وأسًى من قلبه، وصل إلى روحها. غاص بداخلها طالبًا النجاة، ولم ينجُ. ثم جلس، وأجلسها على رجليه، ونظر إليها وقال: أتشتاقين إليَّ أحيانًا يا جليلة؟

فاجأها سؤاله. وكانت منذ لحظات تختلج بين ذراعيه. يعرف أنها تشتاق إليه، وتريده، فلِمَ المواجهة؟ طأطأت رأسها، وطوقت رقبته، ودست رأسها في زاوية كتفه.

قال في إصرار: لم تجيبي.

همست في خجل وحيرة من سؤاله الذي لا تتوقعه: لا تسألني هذه الأسئلة. أتمنى ألا تسألني هذه الأسئلة، فليس لمثلي أن تتكلم كبائعة الهوى.

قال وهو يبعدها بعض الشيء: وكيف تتكلم بائعة الهوى؟ من أعطاك هذه الأفكار؟

قالت كلمات سمعتها من أمها وأختيها: ليس للبنت المحترمة الكلام هكذا يا حسن. هذه أشياء لا تفكر فيها بنات العائلات.

قال وهو يمسك بيدها ويفتح كفها: ولو تزوجت بنت العائلات من ابن الجارية فمن الممكن أن تفكر فيها. من الممكن أن تشتاق لزوجها وتريده.

كلما قال الكلمات ازداد خجلها. فقالت في قوة لتداري توترها: والدتي علمتنا أن هناك قواعد للزواج، منها ألا تتفوه الزوجة بكلمات كهذه.

قال وهو يمسك بذراعها ليضمها: كنت أظن أني أعرف كل شيء عن عائلتك، ولكن يبدو أنني لم أعرف أهم الأشياء.

ضمها حينها لعل ثورته تخمد. أخفت وجهها في صدره وهمست: أتمنى ألا نتكلم عن هذا. مع أنني لم أنفذ وصايا أمي.

ولكن قلبه لم يهدأ، وثورته لم تخمد.

قالت في عتاب: هجرتني خمسة أيام، ثم تسألني لو كنت أريدك؟ أنت من ترك حجرتنا. وأنت من عاد. لا أفهمك.

قال وهو يكاد يمزق أضلعها بين أضلعه: لم أتركك، لا أستطيع.

- هـل كنت غاضبًا؟ تغضـب وحدك وتعود وحدك، تفكر وحدك وتهجر وحدك..واليوم .. الآن..هل ستهجرني من جديد؟ لا أثق بك، ولا أعرف أي ذل ينتظرني معك.

لم يجب. شـعرت بنبضات جسـده تثور، وكأنه يوشك أن يحترق، أو ينفجر أمامها.

خافت من غضبه، ولكن خافت أكثر من هجره.

همست وهي تقبل خده: ماذا بك؟

تمـددت عضلاته وكأن مرارته سـتمتد إلى بحر الشـمال، حتـى تملكها روع جديد عليها. وتمنت لو استطاعت أن تهدئه. خشيت على نفسها من كل القسوة الكامنة بداخله، لم تتجل لها بهذا الوضوح من قبل.

نظر إليها، وما رأته أرعبها، بل يكاد يكون قد دهسـها دهسًا . رأت فراقه. لا تـدري هل عـزم على الفراق أم أن الفـراق هو الذي اقتحـم عينيه. وتناثرت نفسها، ودارت بلا هدف ولا معرفة.

قبلـت كتفه قبلة خافتة، وكأنها تطلب منه أن يلقي بكل همومه داخلها، أن يعشـقها حتى ينضب السـخط. ويختفي الفـراق. كانت كريمة معـه. هذا عرفه منذ البداية، لم تتحفظ في العطاء، ولم تخف اللهفة، والآن كانت تدعوه أن يحبها، وخاف لحظتها من عنف بداخله لا يدري من تسـبب في انتشـاره. أهو المحامي بنظراته المفعمة بالإعجاب؟ أم العسـاكر الإنجليز المنتشرون؟ أم الزمن الذي لم يخلقهما سواسية؟ خاف عليها من نفسه، فأبعدها عنه بعض الشيء، وقال: لا بد أن تنامي يا جليلة، أنت مرهقة اليوم.

كانــت المرة الأولى التي يبعدها عنــه، أربكها وأخجلها، وأكد لها أن الفراق قادم لا محالة.

ابتعـدت عنه، واتجهت إلى حافة السرير، وأغمضت عينيها، سـتبكي ككل يوم. وبكاء اليوم غير كل بكاء. لو ماتت هي وعاشت أختاها. كانت أكبر منهما وأقـل قيمة وأهمية، لِمَ أنقذها حســن؟ حياتها بعدهما سرقــة. أخذت من عمرهما لتعيش. ولو فارقها؟ وهل ينوي هذا أم أنها لا تعرفه؟

وتركته يحارب عنفه ورغبته فيها قبل كل شيء. نظر إليها ورغبته تنتصر على كل محاولاته للتحكم في النفس، ومراعاة مشـاعرها. شـدها إليه فجأة، فشهقت حينها من المفاجأة، ثم غمرها في قوة حتى أصبح التنفس صعبًا لحظتها، وقال في لوم: لا تلومي سوى نفسك.

كان مختلفًــا. افترسـها، وكأنـه يتأكـد أنه اسـتولى عـلى كل قطعة مـن البدن والـروح، ولم يتبـق لغـيره شيء، وامتلكها بإصرار وغلظة وقسـوة معًـا، أخافها وأذهلها. ولكنه أيضًا عشقها. شهقت وهي تتألم تارة، وتغوص في العشق مرات ومـرات، فقال وهو يقبلها: أريدك أن تعرفي كم اشـتقت إليك.. اشـتقت عمرًا طويلًا.. وأنا أعرف أن شوقي مستحيل..

مـا بـين الألم والغـوص في متاهـات القلـب، تفوهـت بكلـمات لا تعـرف مصدرهـا؛ قالـت: كنـت أشـتاق إليـك أيضًـا..منـذ زمن..وأعرف أن شـوقي مستحيل..

قال في حيرة: ماذا قلت؟

غفوة الصدق تتلوى وتهرب دومًا، ما خرج من الأعماق لا يمكن تكراره.. قالت وهي تقبله، وتدس رأسها في صدره: أقول إني معك..

- وهل كان لك اختيار؟ ولو كان لك الاختيار..

قالت في إصرار وهي تضغط على كتفه بأصابعها في قوة: بل كان لي اختيار..

تـرك آثاره على كل جسـدها، ولكن لهفته غمرتها حتـى كادت تموت غرقًا بداخلـه. هـذا ليس فراقًـا. ترى أكان يحـارب الفراق وانتصر عليـه؟ أكان الألم اليـوم موجهًا لنفسـه أم لهـا؟ وبعد حين تركهـا متعبة لا تقوى عـلى الكلام ولا الحركـة. عانقها، فأغمضت عينيهـا، وقالت بصوت خفيض: أكنت تريد تركي يا حسن؟ رأيت الفراق في عينيك؟ لماذا؟

همس وهو يقبل جبهتها ثم عينيها: لم تكن عيني. لا أستطيع تركك أبدًا.

- عينا من إذن؟

- من هجر، ومن ضل، ومن لم يجد السبيل. ليس أنا. هو رجل آخر ولكنه لن يكون أنا.

راحت في نوم عميق حتى الصباح. ولم تستوعب كلماته.

في الصباح همس في أذنيها: لا تغضبي مني.

قالت في دهشة: لمَ أغضب منك؟

- ربما لم أعاملكِ كما تستحقين. نسيت من تكونين أمس.

قالت وهي تمسك يده، وتعتدل في جلستها، وحب يغمرها تجاهه: حسن.. أنت زوجي.

أطال نظره إليها، ثم رحل.

كانت متعبة طوال اليوم وكأنها جرت أميالًا، ثم هوت من أعلى جبل في العالم. لم تخرج من حجرتها إلا في منتصف النهار، وبدأت مراسم الحيرة والتجارب مع حماتها في الطبخ. ولكن حماتها كانت تنظر إليها اليوم وكأنها تعرف، وكأنها تشعر بتوهج العشق، واستحالة التأقلم. حاولت جليلة إخفاء آثار قبلاته أمس، ولكن تمرهان رأتها. لا عرفت تمرهان الحب، ولا شعرت بلمسات رجل من قبل. تفحصت تمرهان جليلة من رأسها لأسفل قدميها، نظرت إلى جفنيها الناعسين، ثم إلى شفتيها المتعبتين من قبلات لا تنتهي، ووجنتيها المتوهجتين بحرارة ولع وتعلق ثم ذراعيها وآثار الحب عليهما وكتفها التي تحاول أن تخفيها بردائها، ولكن عيني تمرهان نفذت إليه.

تملكتها الغيرة دون أن تدري. ولم تحلل مشاعرها. أتحسد جليلة على تدفق الحب من عينيها؟ أم تحسدها على ولع ابنها بها حتى أنه صارع المستحيل ليصل إليها؟ أتشفق على نفسها من قدر مكتوب لم تتحده يومًا ولم تثُر عليه؟ كان هناك آثار على جسدها هي أيضًا، وبعضها لم يزل موجودًا، ولكنها لم تكن آثار تدفق حب ولم تكن آثار تعلق بل آثار عذاب وانكسار. جمح خيالها، وحاولت استيعاب الفرق، وثارت كما لم تثر من قبل.

بدا عليها الأرق والتمرد. التقت عيناها بعيني جليلة فقالت بلا إرادة: لا بد أن تتعلمي كيف تطبخين. الزوج يحتاج من تطبخ له.

نظرت إليها جليلة في استياء، وكانت أول مرة تتكلم معها تمرهان الجارية وكأنها هي الآمرة والناهية في البيت. ثم اتجهت إلى حجرتها، وأغلقت الباب. في وقت الانفعال يخرج الكامن من الأعماق. ستخبره أن أمه كانت جاريتها وأنها لا بد أن تتذكر دينها لأحمد بك، وأنه آواها وأخذها في كنفه. ستذكره أنها حتى

لـو كانـت زوجته فلها وضع مختلف، ولابد لأمه أن تحترمها وتقدرها. سـتقول الكثـير.. ألا يكفي أنهـا قبلت بالزواج من الخادم؟ ألا يشـفع لها أنها هنا معه في هـذا البيت المتواضع تـأكل أكلات لم تعتدها، وتعيش حيـاة مختلفة عن حياتها. سـتقول الكثير. وكلـما همت بأن تواجهه خافت أن يرحـل. لِمَ كل هذا الخوف؟ وما النظرة التي رأتها في عينيه أمس؟ مرعبة، تقتل بلا هوادة.

عندمـا عـاد كان في حال أفضـل، وأتى لهـا بالحلوى الفرنسـية التي تحبها، وعندما جهزت أمه الغداء نظر إلى جليلة وقال: تعالي هنا.

نظـرت إليـه بوجه عابس، فقـام واتجه إليها، وأمسـك بيدها وقـال: تعالي اجلسي بجانبي هنا على الأرض.

قالت في حسم: لم أعتد هذا.

- اليوم فقط. هيا.

أجلسـها بجانبـه، وأعطاهـا طبقًـا وأمـه تنظر إليه بـلا كلمة، ثـم تنظر إلى جليلـة، وتعيد النظر إليه. عيناه اليوم ممتلئتان بالحياة والغواية. فتح لها الحلوى، وعـرض الحلوى على أمـه، ولكنها لا تعرفهـا ولم تعتدها. ثـم وضع بعضها في فمهـا، فضحكت لأول مرة، ونسـيت كل ما رتبته طوال اليـوم من عتاب. قال وهو يأكل: ماذا حدث عندما جلست معي؟ انقلبت الدنيا؟

قالت في تردد وهي تنظر إلى أمه: فقط لم أعتد هذا.

قال وهو يطوق كتفها ويقربها إليه: ستعتادين. لو أتيت إليك بالحلوى التي تحبينها كل يوم هل ستجلسين معي على الأرض؟

ابتسمت. ولم تنطق.

ثـم قالـت بعـد برهة: لكنـي لا أعرف كيـف آكل بيدي. اتركني أسـتعمل الشوكة والسكين.

قال في استسلام: حسنًا. اتفقنا. كان يجب أن أفعل هذا منذ زمن. وأريد أن أشـتري لك فسـتانًا جديدًا. لن يكون غاليًا، ولكني أريد أن أختاره لك بنفسي. وأتيت لك بالكتب اليوم.

نظرت إليه في حماس، فأخرج بعض الكتب الفرنسية، وقد اختارها بعناية، وهو يعرف بالضبط ما تريد، وما قرأت، وما لم تقرأ. ثم أخرج عطرًا اشتراه لها. لم تفكر في شرائه في الأشهر الماضية. ولكنه يعرفه. ماذا يعرف عنها أيضًا؟ قالت في خجل: دفعت الكثير في هذه الأشياء. ونحن لا نملك أي مال.

ازدادت قبضتـه عـلى كتفها ثـم قال: سـتحكين لي كل ما تقرئينـه كما كنت تفعلين من قبل.

- ولكني لم أكن أحكي لك من قبل. كنت أحكي لصديقاتي.

- أعرف. كنت أسمع حكاياتك، وكأنها لي.

التقت أعينهما. فأمسكت بيده، وضغطت عليها.

تنهدت الأم وهي تضع يدها على خدها، وتنظر إليهما وتمتمت: تمكنت منه ابنة البك.

وعندمـا قامـت جليلة، ودخلـت حجرتهما، اقتربـت من ابنهـا وقالت: لا تعجبنـي معاملتـك لزوجتك. لـو دللتها هكذا تحكم سـيطرتها عليك. ثم كيف تلمسك على الملأ هكذا؟ رأيتها بعيني وهي تمسك بيدك. لا تطبخ لك، ولا تجهز لك قهوة ولا شايًا، ولا تهتم بأمرك، وتريد أموالك واهتمامك لا أكثر.

ابتسم قائلا: لا تشغلي بالك بها.

قالـت في غضـب: أنـت ابني كيف لا أشـغل بـالي؟! تتعالى عليـك. أراها تتعالى عليك.

ربت على كتفها وقال: أمي، جليلة صادقة، وطيبة أنت تعرفينها.

- ولديها عناد جعل والدها يدور حول نفسه.

- لا تعاندني.

قالـت في عصبية: تـارة تدخل الحزن قلبك، وتارة تسـيطر عليك. لا أمان لها. لا أثق فيها يا حسن.

فتحـت فمها لتكمـل فقال في رفق: أمي، تذَكَّري مـا مر بها. فقدت الأهل والمال. أشفقي عليها.

قالت على مضض: سأغلق فمي. فلن تسمع. أعرف.

في الليل بينما جليلة تنام بين ذراعيه سـمعت صوته يتأوه في نومه. فقامت، ونظرت إلى عينيه المغمضتين، قطب حاجبيه، وضغط على شـفتيه، وكأنه يشـعر بالهزيمة تخترق شرايينه، يعرفها عن ظهر قلب.

عبـس وجهه، وتمتـم بكلمات عن بحر وغرق ورغبة في الفناء ربما. أرعبتها تأوهاتـه، حاولـت أن توقظه فلم تسـتطع في البداية، ثم هزتـه بقوة، وصاحت باسـمه، فتـح عينيه، ونظر إليهـا نظرة فارغـة، وكأنه لا يراهـا، أحاطت وجهه بيديها وقالت: ما الذي يعذبك؟ بم كنت تحلم؟

سمعته يردد كلمات اخترقت قلبها مباشرة:

«كنت تعرف الطريق

تألفه وتحفظه

كنت ترى نهايته، وتحدد بدايته

لا أرهبك بحر ولا أخافتك صحراء

اعتدتَ السير فيه آمنًا

ونسيت أنه لا أمان على الأرض.

أمنت خوف المجهول وتيه السبل

ولم تتوقع أن يحدد غيرك طريقًا جديدًا

فتتفتح له كل الطرق، وتغرق كل الحواجز، وتذوب الصخور

لم يزل هناك طرق لم تعرفها ...لم تكتشفها، لم تطأها خيولك، ولم تقلع فيها سفنك».

قالت وهي تهزه: حسن تتكلم عن أي سفن؟ وأي طريق؟

فتح عينيه وكأنه لا يراها ثم قال: هل تخافين مما أعرفه أم مما لا أعرفه؟

قالت في عدم ارتياح: لا أفهم كلماتك. وأخاف عليك. اشرح لي.

أغمض عينيه ثم قال: لا أتذكر.

تركها بلا نوم، بقلب مثقل، وروح حائرة، وحنين له، وشفقة على عقله من الإدراك. هذا زمن الحزن على ما يبدو. وربما زمن المعجزات، وكأنها سمعت الكلمات من قبل، كلمات تغم وتفرح معًا، ولا تفهم ما علاقتها بها ولا لِمَ يرددها، وكأنه ليس من دنياها. عندما يسجو الليل تعشى الأبصار، وعندما

تعشى الأبصار، يُرفع الغطاء عن حشايا النفس، وهذا أسلم غطاء، لا بد أن يبقى حتى لا نخاف، ولا نواجه ما لا طاقة لنا به. تتمنى ألا يتفوه بهذه الكلمات حتى لا يرفع الغطاء فلا قبل لها بمواجهة النفس.

* * *

يقظة أمها وشعورها بمن حولها كانت تأتي كالأمواج في فصل الصيف، قليلة وبطيئة، وغير مؤثرة. أحيانًا تلاحظ ابنتها، وكيف تتعامل مع زوجها، وفي بعض الأحيان تنصحها بالطبخ معها، وتذهب إلى المطبخ في حماس، ثم يخمد حماسها قبل أن تنتهي من الطبخ، وتترك المطبخ لتمرهان، وتذهب إلى مخدعها، وتلوذ به من الحزن الكامن في الأعماق. اليوم قالت لابنتها وهي ممددة على سريرها: هي دنيا لا أمان لها. ولكنها عندما ترمي بك إلى الهلاك تفعل هذا برفق. بعد كل ما فقدت، لا يهمني طعام ولا ملابس ولا لون الملاءة على السرير. كل التفاصيل أصبحت بلا معنى.

لم تدر جليلة ماذا تقول. نظرت إليها الأم ثم قالت: مسكينة أنت يا ابنتي، مكتوب عليك أن تعيشي في رداء ليس رداءك، وفي بيت ليس ببيتك، ونفس ليست بنفسك.

قالت في مرارة: كان مكتوبًا عليَّ أن أعيش هكذا، وأنا في بيت أبي أيضًا.

- زوجك عاد إلى حجرتكما. هل تصالحتما؟

قالت في خجل: نعم.

نظرت إليها في جدة ثم قالت: ولكن إياك يا جليلة أن تنسي أصلك. تعاملي مع زوجك كما علمتك كابنة عائلة وبيت أثرياء. لا ترفعي صوتك، ولا تتقبلي الإهانة أيضًا.

- أحاول.

قالت الأم وهي تشير إليها بإصبعها: هناك قواعد لعلاقة الرجل بزوجته، إياك أن يبدو أنك متلهفة إليه، وإلا ظن بك الظنون، وأصبحتِ رخيصة في نظره. اعرفي قيمتك ومن تكونين.

قالت وهي تشعر بشيء من الذنب: أعدك أني سأفعل.

- الفرق بين بنت العائلة وأي بنت أخرى هو كيفيه التحكم في نفسها يا جليلة. لو تصرفت بتلقائية ودون تفكير فلا فرق بينك وبين الجواري في زمن مضى. وكما تعرفين الجواري مصيرهن مجهول، أما بنت العائلة فيحرص عليها الزوج.

* * *

بعد شهر بدأت بشاير الحروب. وبدأت بأختيها وزيارة في وضح النهار، وكان حسن غائبًا عن البيت. بعد التوبيخ والإهانة بدأ النصح والإرشاد، وقالت شريفة: ابن الجارية! تتزوجين ابن الجارية.. أمك لا حول لها ولا قوة بعد موت البنتين والأب، وأنت تستغلين ضعفها، وتعشقين ابن الجارية! خادمك..كنت على علاقة به منذ زمن. غرر بك، وأردت إصلاح ما تحطم. من تخرج للمدارس كاليتيمات والجواري البيض لا بد أن تكون فاجرة.

وقالت عزمية: الحقير يبقى حقيرًا. بعد عام سيتركك، ويبحث عن جارية مثله، تغسل قدميه، وتقبلها كل يوم.

وعادت عفاف تقول: اتركيه قبل أن يقتله شريف، سيفعل اليوم أو غدًا. الدنيء سيكسرك مرة ومرتين، وسترين وستفهمين. سيأتي بجارية سوداء مثله هنا معك في البيت نفسه ليذلك. هذه نفوس مريضة. يتزوج ابنة ولي نعمته؛ ليثبت أنه الأفضل، ثم يذلها، ويكسرها ليرضي غروره.

- ماذا يفعل بك؟ يرغمك على معاشرته؟ رائحته كريهة بالتأكيد. لا يهتم بنظافته. مقزز ككل الخدم. كيف لا تعافه نفسك؟ كيف لا يلفظه جسدك؟ كيف لا تصرخين وهو يغتصبك؟ أي سيدة وأي بنت عائلة لا تعاف الخدم؟

- بعد ساعة أو ساعتين سيأتي الزوجان ولهما كلام معه؛ إما أن يطلقك أو يقتلاه. وسأطمئنك يا جليلة لن يَقبضَ على زوجي شرطيٌّ، فالقتل أصبح مألوفًا، والجريمة تتفشى، ثم إن شريف ليس أي رجل. وقتل الخادم بلا ثمن ولا حتى دية. ابن الجارية يا جليلة؟ أين سيأخذك جنونك..

لم تنطق. بعض الكلمات جرحتها، وخاصة تهديدهما أنه سيذلها ويكسرها. فليته يساعدها على التحمل والمحاربة من أجل زواجهما، ولكنه يعاملها بجفاء أحيانًا وحذر كثيرًا، وكأنها آذته، واقترفت ذنبًا لا يغتفر ولا تعرفه. وفي بعض الأحيان يتدفق الحنان نهارًا وليس ليلًا فقط، مثلما فعل منذ أسبوع، فيدللها، ويهتم بها، وترقص نفسها فرحًا. ودومًا وقت الحب بينهما يترك العنان للشوق واللهفة، ويتلاشى الحذر، ويتبخر الجفاء، وبعد الحب عندما يطوق خصرها أو يحتضنها، أحيانًا يبدو كعاشق عاجز عن العيش بدونها، وأحيانًا يتمالك نفسه، ويبتعد أو يعبس وجهه، وكأنه أدرك وندم على الكرم في العشق والتمني

لحظات الوصول. ليته يطمئنها - ولو بكلمة- تدل على أن حنقه ليس منها؛ فهي لا تعرف ما ذنبها، ولا متى انتهى بها الحال بين ذراعيه.

ولـو قتلـه زوج أختهـا وهو قادر على هـذا؟ ولو اتفق مع عمهـا وقتله ماذا ستفعل؟ لم يظهر عمها بعد..

قالـت عفـاف وكأنها تعـرف ما يجـول بخاطرها: عمك يخطـط لمصيبة لك ولحسن. أنقذي نفسـك، واطلبي الطلاق اليوم. عندما يأتي زوجي أخبريه أنك تريدين الطلاق، وهو سيتصرف في كل شيء.

قالت في تحدٍّ: ولِمَ لم يجرؤ على التصرف مع عمك يا عفاف؟

قالت في ارتباك: عمي أخو أبي يا جليلة، مهما كان الدم لا يصبح ماءً.

ثـم بدأ الصيـاح في وجه الأم واتهامهـا بالخرف والعجز. كانت تسـتمع في صمت، وتمرهان تختفي في الحجرة، تسـترق السـمع عن بعد، وتشـفق على بثينة من هذا المصير.

قالـت عزمية في رفـق: جليلة هذه أقدار. اسـتمعي إليَّ. أتتذكرين جارنا في الإسكندرية الذي كان يود الزواج منك؟ بعد الحرب لم يعرف كيف يصل إلينا، ولكنه اتصل بفؤاد، ولم يزل يريدك زوجة.

فتحت جليلة فمها في ذهول وقالت: أنا متزوجة يا عزمية.

قالـت عزميـة: هذا ليس زواجًا يا أختي. كلنا نعـرف أن لا زواج يقوم بين السيدة وخادمها. يطلقك، وتتزوجين من جارنا. سيتفهم.

وضعـت يدها عـلى قلبها في هلع وكأنهـا طفل اختطفوه، وألقـوا به إلى نار لا خروج من لهيبها. ثم قالت: لا تقولي هذا. لن يحدث.

قالت عفاف في قوة: لا اختيار لك. أنت مجنونة ولا يمكن أن نعطيك أي اختيار. لو انتظرت بعض الوقت كنت ستتزوجين من سيد وليس من عبد. ولكن سننقذك اليوم.

- أنا متزوجة يا عفاف.

- اخرسي لا أريد أن أسمع هذه الكلمة.

بعد ساعتين جاء زوجا الأختين. وقال شريف في حسم لجليلة: عفاف تكلمت معك، واتفقت على الطلاق، أليس كذلك؟

قالت جليلة في حذر: عفاف تكلمت معي.

قال في تحدٍّ: متى يأتي ابن الجارية؟

بدت وكأنها محبوسة بينهما، وكأن الرمال تدفنها في طريق الصحراء ولا نجاة لها لو لم يتساقط المطر. لم تود أن تتحدى زوج أختها الآن، ولا أن يصفعها صفعة تشبه صفعة عمها، ولا أن يتطاول على أمها، أو يجلد تمرهان.

قال في حسم: توافقين على الطلاق؟

قالت في صوت ضعيف: ننتظر حتى يأتي حسن ونتفاهم..

قال في عنف: توافقين أم أقطعه هو وأمه أمام عينيك الآن؟ سنقتله يا جليلة، ثم نجلد أمه، ونجلدك عقابًا على فضيحتك وتجريسك للعائلة. أولًا سيطلقك، ثم يطلب المغفرة.

نظرت حولها، والتقت عيناها بعيني أمها، ثم نظرت إلى غرفة تمرهان وقالت: أتمنى فقط أن نتفاهم.

قام شريف في تأهب، ثم أمر خادمه بأن يأتي له بالسوط من العربة، فجرى الخادم، وأحضر السوط. وضعت يدها على فمها، ولومها لحسن يتزايد. لماذا تأخر؟ متى سيأتي؟

قالت مسرعة: سأفعل ما تطلبه.

جلس مكانه، والسوط في يده في انتظار حسن. وجاء بعد ربع ساعة. ما إن دخل من الباب حتى نظر حوله. كانت تجلس بين أختيها بوجه شاحب، وأمها تستند على ركن في الحجرة، وأمه مختبئة في حجرتها، والرجلان يقفان أمام باب حجرتهما، فؤاد ينظر في تأمل، ولا يبدو عليه أي تأثر ولا أي اهتمام، وشريف يخرج الشر من عينيه، ويمسك بالسوط وخادمه وراءه.

قال حسن في هدوء: لو كنت أعرف بزيارتكم كنت سآتي مبكرًا. أهلًا بالأهل والنسب. أكلتم أم لا؟

قال شريف: الخادم يدعو أسياده إلى الطعام. هذا زمن المعجزات، عرابي يتحدى الخديوي وخليفة المسلمين، ويظن هو وأعوانه أنه قادر على الإنجليز.. زمن الجرأة والفسق.

قال حسن وهو يجلس في برود: لم أكن أعرف أنك تهتم بالسياسة. بدأت هذه الهواية بعد تمكن الإنجليز أم قبلها؟

قال وهو ينظر إلى عينيه في قوة: زوجتك.. أو من تظن أنها زوجتك تريد الطلاق.

نظر إلى جليلة، وقد أدارت وجهها في انكسار.

فقال حسن: لا أفهمك.

- ابنة العائلات تريد الطلاق. ماذا في ذلك لتفهمه؟

- ومـاذا تريد أنت مني؟ وماذا يهمني فيما تريد وما لا تريد ابنة العائلات؟ هي زوجتي، وستبقى زوجتي حتى أقرر أنا غير ذلك.

صاح شريف: العبد يقرر؟ ابن الجارية؟ مجهول النسب..كم رجلًا عاشرته أمك يا ترى؟

شـهقت جليلـة في هلع، وضربت تمرهان خدها. ورفع حسـن يده وصفع شريف صفعة يصل صوتها إلى باب اللوق، ثم شد السوط من يد الخادم، ودفع بشريـف فوقع على الأرض، وضغط بالسـوط على رقبتـه، وهو يقول في صوت ناري: عندما تأتي لزيارة أسيادك تتأدب. ولو لم تتأدب أعلمك أنا الأدب.

صرخت النسـاء..وبقي خادم شريف ساكنًا فرحًا ربما، أوخائفًا، وشريف يشهق محاولًا التنفس، ولا يستطيع.

قالت جليلة، وهي تطرق على كتفه: حسن..حسن..سيموت..

كان الرجل يفتح فمه، ويخرج لسانه لعله يقوى على التنفس.

تركه، ثم قال للخادم: خذ هذا الحقير خارج بيتي، ولا أريد أن أرى وجهه مرة أخرى وإلا قتلته.

حـاول شريـف النطق ولم يسـتطع، ثم قـال بعد برهة في صـوت مبحوح: سأقتلك أنا...سترى..ستدفع ثمن هذا..

ثم هرول خارج البيت، ووراءه زوجته وأختها وزوجها.

أغلـق البـاب، وبقـى في مكانـه لحظة، وعينـاه ممتلئتـان بالرغبـة في القتل. خافت منه حينها، وكأنها لا تعرفه..لاح بخاطرها مشهد منذ زمن عندما تحمل

ضربات من أجلها بلا حراك ولا حتى اعتراض. هو ليس نفس الشخص أو هي لا تعرف من هو حسن الذي تزوجته..ربما كل ما تمر به هو حلم طويل تتشابه الشخوص ثم تختلف، ولا يوجد شخص حقيقي.

جلس مكانه ثم نظر إليها قائلًا: ماذا حدث؟

جلست أمامه تحاول أن تحكي، وتتلعثم بعض الشيء حتى وصلت إلى خوفها من شريف، وكيف أنها لم تقل إنها تريد تركه قط. وإنها كانت تخاف من تهديده.. حكت ما عرضته عليها عزمية في شعور بالذنب من جرأة أختها.

استمع إليها حتى انتهت، وعيناه لا تتركان عينيها.

ثم قال: وهل ندمت لحظتها يا جليلة؟ هل كنت تريدين الزوج الذي اختاره والدك قبل موته، جارك في الإسكندرية؟

قالت بلا تفكير: أقسم لك لم أندم.

لم ينطق، قالت في رفق وهي تضع يدها على ساقه: أتريد أن تشرب شيئًا؟ أو تأكل شيئًا؟

لم يجب، فقالت فجأة في تلقائية: كل شيء محير.. أنت لا تحبني، ولكنك تزوجتني، وأختاي تقولان إنك ستتركني وتريد أن تذلني، وتكسرني، وإنك ستبحث عن أخرى تعاملك..

سكتت وهي لا تدري لماذا تردد هذه الكلمات بالذات، ثم قالت: ولكنهم سيعودون وفي المرة القادمة سيقتلونك. وعندما يقتلونك..

كان ينظر إلى لا شيء، فقالت من جديد: هل تسمعني أصلًا؟ هل تفهم أي شيء أقوله؟ هل تكترث بي؟

قال في جفاء وتهكم: كل العالم يكترث بك يا جليلة، فأنت محور العالم، ولابد أن نفكر فيك، وفيما تريدين دومًا.

قالت: ماذا فعلت لأستحق هذه السخرية؟ وماذا فعلت لأستحق جفاءك؟

قام، وغسل وجهه بماء مثلج، فقالت في رفق: تريد أن تأكل شيئًا؟

قال وهو يتجه إلى باب الشقة: لا.

فقالت مسرعة: أين ستذهب؟ لا تخرج وأنت غاضب هكذا..حسن..

قال وهو يغلق الباب في قوة: لا تتحركي من البيت حتى أعود. ولا تفتحي الباب لأحد مهما كان.

نظرت إلى تمرهان التي تقهقرت إلى طرف الحجرة كما تفعل دومًا وقالت: أخاف أن يقتل شريف. أخاف مما سيحدث.

بدا على الأم القلق ولم تجب.

تركها معلقة بين النهر والبحر، لم يصبها داء الهم والقلق كما أصابها اليوم. هي السبب في كل مصائبه. ترى هل سيعود غاضبًا منها ناقمًا عليها كما يفعل كل يوم؟ أم سيبحث عن بائعة هوى تهدئ من روعه، وتعطيه الحب الذي يحتاجه؟ لِمَ لا يستقيم الكون وهما معًا؟ لِمَ لا يكتفي بوجودها معه؟ حاولت أن تصبح زوجة، ولم يعط لها الفرصة.

ربتت أمها على كتفها ثم قالت: احتوي زوجك ولا تتركيه. الرجال سواء يا ابنتي لا يفرقهم مال ولا عائلة. يحتاجون اليد الحانية.كلهم.

لم تنطق.

قالت أمها في صوت منخفض: تحبينه يا جليلة، أليس كذلك؟

لمعت عيناها بدموع لا تتساقط ثم قالت: كنت تقولين إن الحب شعور زائل يا أمي لا حقيقة له.

قالت الأم في تأمل: عندما تغضبين منه تبالغين في رد فعلك، وكأن كلماته وأفعاله تصيب القلب مباشرة، وعندما ترضين عنه تحبين كل شيء حولك كأن الرضا أيضًا ينفذ إلى قلبك مباشرة، عندما ينفذ رجلٌ إلى قلب امرأة هكذا فهذا أمر خطير لو تعلمين.

رددت في يأس: هو أمر خطير.

فقالت الأم: أخبريه. كل يوم. تظنين أن حياتك صعبة معه بينما هو من يدفع الثمن في كل لحظة. أدركي حجم مجازفته وساعديه. ماذا يفيده في زواجه منك؟ لا مال لك الآن ولا جاه. لا يفيده سوى المشاكل. لا بد أنه تزوجك لسبب قوي. هل فكرت في هذا يا عالمة ببواطن الأمور؟

قالت في تحدٍّ: ربما أراد أن يكسرني.. أراد أن يرى سيدته التي كان يهابها وهي زوجة مطيعة، ربما يصيبه الرضا بترويضي وإذلالي. حتى المدرسة لا يسمح لي بالذهاب إليها، ولن أرجوه. لو ظن أني سأرجوه فهو واهم.

- ما دمت تتذكرين أنه كان خادمك لن تفلح علاقتكما. سيعرف وسيشعر بك. هو ليس بغبي.

قالت في تأكيد: هو ابن الجارية..مهما..

قاطعتها أمها وعيناها تنفذان إلى الروح: هو ابن الجارية، ولم يسيطر على روحك سواه. واجهي نفسك حتى لو تفشى الجهل وقاوم، في المعرفة خلاص حتى لو تبعها ندم على أيام الغفلة.

- هذه الأيام لا أفهمك يا أمي..

- هو العذاب يزيد الحكمة، ويزيح الضلال.

تركتها أمها، ودخلت حجرتها. وبقيت هي مكانها وقتًا طويلًا. امتصت غضبها وكبرياءها وتذكرت خوفها عليه.

استرجعت ما حدث اليوم، ثم أمس، والعام الماضي وكل حياتها. لا لاحظت وجوده ولا قدَّرت عقله. كانت تدافع عن الحرية باسمه وله ولكنها لم تكترث به. ربما عشقها دون أن تدري. ربما تحمَّل منها ولم تعِ. ربما غرقت وهي تبحث عن المألوف بينما الطريق المجهول مستعد لخطواتها وواضح، ولكنها لا أدركت ولا سارت.

حسن..

«ولو خشيت الغرق فأنت غارق لا محالة»..

ربما لم تلاحظ وجوده؛ لأنه داخل الروح كامن بلا منافس ولا حروب؛ لأن وجوده هو وجودها. لا تدري. يصعب الفهم أحيانًا.

كم بكت أمامه، وكم تجلى الضعف والهوان. كم مرة آذته كلماتها أو عدم إدراكها. ولو كان العمر لا يعود فماذا ستفعل؟ سارت في طريق الغرق فما السبيل إلى النجاة؟ العودة مستحيلة. فهل تبحث عن طريق جديد أم تصنعه؟ لا تدري. الانتصار ليس مكتوبًا. والهزيمة ليست أبدية.

«في زمن الحزن لا بد من المعجزات».

كلمات متفرقة تضيء النفس ثم تتلاشى كل حين ولا تعرف مصدرها.

تذكرت يوم كانا في الإسكندرية..لم يمر عام بعد على هذا اليوم، عندما أراد الأجنبي أن يجلس حسن معهما على مقعد وكأنهما متساويان. ثارت بداخلها حينها، وظنت أن الأجنبي يريد أن يتحداها بطلبه. فلو جلس الخادم مع سيده سيجلس الذئب مع الحمل، والقطة مع الفأر، والأسد مع الظبي. سيختل الميزان. هكذا فكرت حينها. بينما كان هو عاشقًا، كانت هي ترسم الحدود والأدوار المألوفة، وتتأكد أن دوره هو دور الفأر لا أكثر، بينما لم تدرك قوته ولا حجم عطائه. غرقت أو كادت.

أدركت يومها والإدراك لا يأتي إلا كالأحجار المتتالية على الرأس الهش، فإما أن يفيق وإما أن يقتل. عاملها طوال الأيام الماضية بجفاء وقلبه معها. أغرقها بالعشق فقط وهي بين ذراعيه، حيث لا يستطيع الكذب ولا المقاومة، ولكنه كان محبطًا، وربما ساوره الخوف أنها تحتاجه ولا تحبه. جفاؤه كان لقوة ولعه، وتجبر رعبه من امتلاكها لكل نفسه. ربما أراد أن يحافظ على ما تبقى من سور يغطي العذاب أعوامًا. لم تفهم. لا تعرف متى نفذ العشق إلى روحها بالضبط، ولا لِمَ هذا الشعور بالارتياح وهي حوله. صنع الحاجز ليأمن عدم هلاكه لو لم تحبه. ولم تفهم.

لو أدركت منذ البداية لأنقذت نفسها من أيام من العذاب المتواصل.

متى أحبته؟ ترى أتعلقت روحها، وأبى العقل المستقر أن يتزحزح عن معتقداته؟ لِمَ توترت في الإسكندرية وهي معه؟ لم التقت أعينهما مرة ومرات؟ ولم غارت عليه دون أن تدري؟ لِمَ بحثت عنه دون كل البشر واستغاثت به حين الخطر، ولم تفكر حتى في الاستغاثة بأم أو أب أو أخت؟ اختارت الأمان بينما روحها تنحدر في طريق الهلاك دون أن تدري.

لابد من أن تسعى للفهم، فلا فهم دون سعي، ولا إدراك دون غوص وغرق.

«السعي دومًا يشي باليقين».

تتناثر الكلمات في انتظار من يلملمها، ويشرح بها الصدور. من أين تأتي وماذا تعني؟

«الغوص في الأعماق نجاة».

كلما غاب في الماضي تاهت روحها حتى يعود. رضيت بأن تراه كل يوم حتى ولو كان وجهه لا ينظر إلا إلى الفرس، ولكن رؤيته تشير إلى المسلك، وتحث على اليقين. كلما غاب فزعت كطفلة فقدت والديها. لا عرفت نفسها، ولا حاولت أن تلمس روحها، وتتعرف عليها.

لم تعترف له بحبها قط، صدقت معه وقت الحب بينهما، وأبدًا لم تنطق بالكلمات. لماذا؟ أكانت تخاف من ترك الطرق المألوفة؟ أخافت من الغرق؟

«لا سبيل إلى النجاة في الطرق التي نألفها».

كيف لم تخبره، وقد تمكن من كل المسالك؟!

بقيت في انتظاره لوقت طويل، والغيرة تنخر قلبها تارة، والقلق يخترقه تارات. تأخر. دخلت أمها وأمه ليخلدا للنوم. وربما تأخر إدراكها، وانكشح الضَّلال بعد فوات الأوان، ربما مل من عدم فهمها وتكبرها.

سمعت صوت المفتاح في الباب. انتفض صدرها. نظر إليها، ثم اتجه إلى حجرته دون كلمة. لم يطلب منها أن تأتي إلى ذراعيه ككل ليلة. فات الوقت إذن، كما وسوست لها نفسها. تهاوت نفسها إلى البئر، وأيقنت حجم تعلقها.

مكثت في الخارج تنتظر أن ينادي عليها، ولم يفعل.

دخلت الحجرة، وكان جالسًا على سريره. جلست بجانبه دون أن تنطق. لم يعترض.

قالت بعد برهة: أين كنت؟ قلقت عليك.

لم يجب: قالت وهي تفرك أصابعها: هل يمكن أن تجيبني؟

قال في تحدٍّ: وما أهمية أن تعرفي أين كنت؟

- هل كنت مع غيري؟ أريد أن أعرف. هل كنت مع امرأة غيري؟ أتمنى أن تصدقني القول.

قال دون تفكير: لا.

تنفست في ارتياح، ثم زحزحت جسدها حتى تستطيع أن تضمه من الوراء وطوقت خصره بذراعيها، وأسندت رأسها على ظهره وهذا الوضع أفضل كثيرًا فهي لا ترى وجهه، ولا يرى وجهها، قالت في أسى: لم تترك لي الاختيار، فليس لي اختيار في من أحب، معك حق. لجأت إليك طوال العمر ليس لأنك الوحيد الذي سينقذني ولكن لأني لا أرى سواك. لن تفهم.

أغمض عينيه وهو يحاول أن يستوعب كلماتها، وأن يغلق قلبه عن فهمها في نفس الوقت.

ابتعدت عنه، ثم أمسكت بيده، شبكت أصابعها في أصابعه، وقالت لأول مرة: حسن.. أنا آسفة.. آسفة على ما فعله زوج أختي وعلى زيارتهم وعلى أن..

نظر إليها فأكملت: وعلى أني ربما لم أعرف ولم أفهم..ربما لم أكن أرى سوى نفسي ومشاكلي، ربما كما قلت ومعك حق فيما قلت، كنت أنانية ..بل كنت قاسية أحيانًا..لا أعرف كيف..

صمتت برهة ثم أكملت: ما أندم عليه كل الندم هو عدم إدراك من تكون. الغرور يعمي ويضل. تعرف ما قلته لي منذ زمن..هل تتذكر؟

نظر إلى الأفق، ولم ينبس بكلمة فأكملت: حكاية الرجل الذي غرق. كنت أنا هذا الرجل. سرت في الطريق المألوف وتعلمت. لا تعرف مدى ذلي وإدراكي. ها أنا أتكلم عن نفسي من جديد. ما أريد أن أقوله هو..

التقت أعينهما فقالت في رقة وهي تضغط على أصابعه: أحبك. وكان لا بد أن أحبك منذ زمن، فأنت أفضل رجل رأته عيني، وأكثر رجل حكمة ومعرفة عرفته طوال حياتي كلها. بل أحببتك العام الماضي والعام قبل الماضي، أحببتك منذ سنوات، لا أدري متى..منذ تاهت نفسي كلما غبت عني، ومنذ فزع قلبي كلما شعرت ببعدك أو حزنك..لم أر ولم أبصر..ولكن روحي كانت تدرك.

لم يجب، ولكنها رأت الغيظ يبتعد والغضب يخمد. تنفست الصعداء، وقربت يده من فمها وقبلتها، وقالت: لا أدري هل سأجد الطريق إليك أم لا. أتمنى أن أعود لأسير في السبيل الصحيح، ساعدني..مستعدة أن أصبر حتى تسامحني.. أريدك معي في محاولتي للوصول، فبدونك لا طريق يستحق، ولا محاولة تشفع. أحتاجك أكثر مما تحتاجني. أكثر بكثير.

تركت يده، وشبكت أصابعها وهي جالسة بجانبه، ونظرت إلى الأرض طويلًا.

نظر إليها، ثم أمسك بيدها في صمت.

همست في صوت مبحوح وهي تحبس دموعها: عم الظلام وتلاشت السبل. ما أصعب الهزيمة! كنت أريد أن أكون أول فتاة تتعلم في مدرسة، وتفتح الباب لغيرها، وها هي السبل كلها أغلقت، كنت أريد أن أحرر بلادي من الفساد والجمود، وها هي حبيسة في سجن مظلم، حتى أمي فشلتُ في مساعدتها. ما السبيل يا حسن؟

فاجأته بالسؤال.

لم ينطق.

اقتربت منه، وأحاطت كتفه وقالت: أخاف عليك. أخاف عليك جدًّا. زوج أختي رجل سكير وعنيف، أنت تعرف عنه كل شيء، ربما يسلط من يقتلك. أنت زوجي، ولا أستطيع العيش بدونك. أنا حمل عليك، لو تزوجت غيري كان سيكون أفضل لك، لدي دين لا قبل لك به وجئت بحزمة من المشاكل التي لم تتسبب أنت فيها. أفهم غضبك مني، ولكن هل تحبني بعض الشيء..حتى..هل ستعطيني فرصة واحدة..

ضمها إلى صدره، وأسند ذقنه على رأسها ثم قال: تسألينني أنا أين السبيل ولا تدركين ما معنى لعنة التيه؟ قلت لكِ من قبل سأجد السبيل إليكِ دومًا، وسأكتب عليه اسمي، حتى لو عم الظلام، وتلاشت كل السبل.

أبعدها عنه، ونظر إلى وجهها ثم قال: هناك مميزات لتعليم البنات أتعرفين؟ ما قلتِه وما عبرت عنه -وكأنك محام في محكمة- كان لا بد أن تحصلي على البكالوريا ثم تدخلي مدرسة الحقوق. في زمن آخر ربما ولو وجد غيرنا

السبيل. لعلك يومًا تدركين ما فعلته بي. يومًا ربما تفهمين عذاب السنوات الماضية. ليتك تيأسين تارة وتشتاقين تارة، وتلعنين الأيام مرات ومرات.

قبلت جرحه القديم الذي تسببت فيه في رقبته وقالت: أقسم لك أن أحاول أن أجد السبيل لإسعادك. وإنني مدينة لك بكل شيء. وهذا دين حقيقي، وليس ظلمًا وافتراء كدين الإنجليز.

قال وهو يقبل شفتيها قبلات متقطعة: كنت تقولين إنك تريدينني أن أحبك بعض الشيء..

همست في مرارة: لا أستحق حبك. هو هدية من الله لا أستحقها، ولكنني أريدها، وسأحتفظ بها، وأرعاها.

اندهش من تلقائيتها اليوم وعطائها المنسكب بلا توقف وهمس وهي تقبله: لا تتصرفين كابنة عائلة اليوم يا جليلة.. والدتك لو عرفت ستغضب منك كثيرًا.. كل هذه القبلات..

قالت: قلتَ إنك لست ابن عائلة وأنت تريدني صادقة، أنا أطيع زوجي دومًا..

ابتسم، وضمها أكثر، وقال وهو يغرق في حبها: لست ابن عائلة.. ولا أحب التصرف مثلهم أبدًا.. خاصة الآن.. أريدك هكذا دومًا..

كانت أول مرة ترى ابتسامته منذ زمن. وتكلم. أفضى كل منهما للآخر. حكت له عن أخواتها، وأمها، وكان يعرف الكثير. حكى لها عن صديقه وأمنيته، وعالمه، وحياته. عرف عنها كل شيء قبل أن تتكلم، ولم تعرف عنه أي شيء. كل تفاصيلها، وكل أيامها، وكل تغير في مشاعرها كان يعرفه طوال الأعوام الماضية.

أحيانًا كانت تحكي في حماس عن مدرسيها وطلابها، وكان ينظر إليها ثم يقبلها فجأة، فتدفع به في دلال ثم تبادله القبلات، ويضحكان ويستمران في حديثهما ثم تتذكر ما ينتظرهما ويعبس وجهها.

قالت بعد برهة: حسن. من تظنه سيحاول قتلك؟ عمي أم شريف؟

قال في حسم: لا تشغلي بالك.

- الغرور يؤدي إلى الكوارث.

- عمك سعيد بالتخلص منكما، وسعيد جدًّا أنك جرست العائلة أيضًا، فأصبح التنصل من نسلكما واجب. وزوج أختك جبان ككل الظالمين.

- كدت تقتله اليوم.

- تمنيتها ربما.

قالت مسرعة: لا تقل هذا. لم أزل أخافهما.

ضمها إلى صدره، وأغمض عينيه ثم قال: الآتي أصعب، سأعطيهما سببًا أقوى لقتلي لا تقلقي. لكل شيء ميعاد محدد لا يأتي قبله ولا بعده. وللطرق مداخل لا تظهر سوى لمن سار، وبحث أعوامًا. اللاهث لا يصل، والطامع يتوه، والعاشق يجد المدخل. ستأتين معي إلى سبيل الغارق. كنت أريد الذهاب منذ زمن، ولكنني انتظرت هذا اليوم حتى تأتي معي. الصبر مهم.

قالت في حيرة: ماذا تقول؟ لا أفهم كلماتك. وكأنها ليست كلماتك. يخيفني هذا الاسم.

قال في صبر: سأحكي لك عن الشاطر حسن.

- أعرف قصته. تزوج من ابنة السلطان.

- سأحكي لك عما حدث بعد أن تزوج ابنة السلطان.

استمعت في توتر. عند انتهاء القصة نظرت إلى مقلتيه، تريد أن تفهم المزيد.

وتذكرت..تذكرت ما رأته من قبل من يأس وفراق، وتذكرت قبضته على قلبها، وكيف هجر حجرتها خمسة أيام، كانت هي تبحث عنه بداخل الروح ولا تعرف مسلكه. انتابها شعورٌ مختلفٌ، وتلاشى الامتنان من صوتها، وغمرتها قوة من هرول ولهث سنوات يبحث عن مسلك وشربة ماء، ووجد النهر خلف سد وجبل، فانطلق بكل قوته يهدم الاثنين بيديه.

قبلت موضع قلبه، وأبقت شفتيها عليه برهة وقالت: هذا القلب لي يا حسن. لا فراق بيننا.

ثم تمتمت، وهي تشعر بارتجافة قلبه لحظتها: أريد أن أمحو الفراق من مقلتيك.

قال وهو يغمض عينيه: لا فراق بيننا أبدًا.

مرت بيدها على صدره وقالت: تعرف..هل تعرف مدى شغفي؟

عبس وجهه، وكأنه يصارع روحه التي تذوب من كلماتها ولمساتها، ولم يتكلم. فهمست وهي تحيط بطنه: كنت تقول إنني لك، تتذكر..وأنا أقول لك الآن إنك لي..كنت لي منذ زمن. ولم أكن لأسمح لغيري أن تأخذك مني، حتى قبل أن أكون زوجتك..ولم أجرؤ على البوح لنفسي.

اقتربت من أذنيه، قبلتهما وهمست: من يملك قلبك يا حسن؟

أحاط خصرها وقال في لوم وعدم صبر: أتسألين؟

دفعت صدره بيدها ثم قالت: من؟

قال: أنت..دومًا أنتِ..

كان إحساسًا جديدًا عليها، أدركت حجم سطوتها على روحه، ولم تتوقع يومًا أنها تملك هذا النوع من الغرور، ولا الامتلاك. ولا أن ارتجافة قلبه سترضي نفسها المتكبرة وأنوثتها التي تكتشفها معه كل يوم.

قال بعد برهة: أغمضي عينيك ونامي بين ذراعي.. أريد أن أعوض عمرًا فات بدونك، كان طويلًا بلا طعم، ولا موعدًا للوصول. لن نتحرك من هذه الحجرة ثلاثة أيام. أريد أن أسمع منك كم تحبينني كل لحظة..لا تتوقفي..

في الحجرة الثانية كانت الأم تنظر إلى القلق في عيني تمرهان، وتعرف خوفها على ابنها. قالت في قوة: ابنك رجل يا تمرهان. في كل المواقف رجل. ربيتِه كرجل.

قالت في تواضع: بل رباه سيدي أحمد ثابت. الله يرحمه.

- كان يحبه. رأيته اليوم كالأسد، ورأيت شريف الذي كان يذل ابنتي يهرب كالفأر.

قالت تمرهان في تردد، والسؤال يلح على نفسها منذ البداية: سيدتي، كيف وافقت على زواجه من جليلة هانم؟

قالت في ضعف: ما الذي يعيب حسن؟ يا تمرهان عندما تفتت القنابل أولادك وزوجك، تدركين حينها أن القلب هو الذي يبقى، فيحمل الروح إلى جنة أو إلى نار، أما العائلة والمال والجاه فأول ما يزول. الحزن أفضل معلم وأقسى مهذب للنفس.

* * *

أوفَى بوعده وفي الصباح قرر أن يبقى معها ثلاثة أيام. خرجت من حجرتهما بحماس لا قبل لأحد به، واتجهت إلى المطبخ، وحاولت أن توقد النار بنفسها، بدأت تعد له القهوة في تركيز، وهي لا تستطيع أن تداري ابتسامتها. وجد العشق موضعًا وسط بركان الهزيمة، وكلما اشتعل البركان ازداد التعلق. لاحظت تمرهان سعادتها، ولاحظت والدتها أيضًا.

قالت تمرهان في صوت غامض: أين حسن؟ ألن يخرج اليوم؟

قالت وهي تصب القهوة في الفنجان في حرص: لن يخرج اليوم.

قالت تمرهان: هل هو بخير؟

- هو بخير. لا تقلقي عليه.

ثم طمأنتها أن زوج أختها لن يفعل شيئًا، وأن حسن سيتصدى له وستكون معه. تكلمت معها، وكأنهما متساويتان. شرحت لها وقالت بعد برهة: هل تريدين أن أجهز لك الشاي أو القهوة؟

دهشت تمرهان. وضعت جليلة يدها على كتف تمرهان قائلة: أعرف أنك قلقة على حسن. أنا أيضًا. سيكون بخير.

ثم حملت إليه القهوة، وجلست معه. اتجهت إليه أمه، وراقبته من خلف الباب المفتوح، ورأت نفس الرضا في عينيه، والنشوة التي لا تعرف مصدرها ولا سببها. وكأنه لم يهدد أحدًا بالقتل أمس، ولم يضرب ويثور. وجليلة تبادله نظرات كلها فهم وتشي بالتحام أرواح صعب شرحه. أدهشتها تلقائية جليلة، لم تر امرأة تعانق زوجها بعينيها هكذا من قبل، قفزت جليلة لتجلس بجانبه، ثم وضعت رأسها على كتفه، وهو يشرب القهوة، ثم مرت بأصابعها على

رقبته.. وهي تتكلم معه دون توقف، وكان يبتسم ويضحك، أحاط كتفها بيده، وأمسك الفنجان بيده الثانية.

همست في أذنه: حسن.. أريدك أن تعرف..كل يوم..وكل لحظة..

قال وهو يلاحظ أمه خلف الباب المفتوح: ماذا تريدينني أن أعرف؟

لم تأبه بوجود أمه قالت، وهي تمر بيدها على خده: أنا لا أحبك لأني أحتاجك، بل أحتاجك لأني أحبك. تفهمني؟

أطرق حينها ثم أمسك بيدها وقبلها قائلًا: أفهمك.

تراجعت الأم، ودخلت المطبخ، وضعت تمرهان يدها على قلبها. ولكن جليلة لا تتقن صنع القهوة. هذا أكيد، فَلِمَ يشربها بكل هذا الحماس؟ ما أصعب فهم الرجال! خاصة ابنها.

وكيف لابنة البك أن تلمس حسن على الملأ، والباب مفتوح بلا استحياء. وكأن والدتها لم تقوَ على تربيتها. قالت بثينة من بعيد: تمرهان..

نظرت إليها فأكملت: يحبان بعضهما. لا أعرف الكثير عن الحب لو تعلمين. أحببت زوجي، ولم يكن لي اختيار، كان زوجي.

دهشة تمرهان لا تنقطع من سعادة وطيبة جليلة اليوم، ثم كلام الأم معها وكأنهما أصدقاء.

قالت في استسلام: لا أفهم هذه الأشياء يا هانم.

- ولا أنا ولكني لم أر ابنتي بهذه السعادة من قبل قط. وأنت؟

قالت في حيرة: حسن..

قالت بثينة: سعيد هو أيضًا. هي أيامهما وعمرهما. لم يتبق لنا سوى القليل، بل أدعو الله كل يوم أن يأتي أجلي وأقابل الأحبة. عشت واكتفيت لو تدرين.

- بعد الشر يا هانم.

- الموت ليس شرًّا. هو وصول وراحة. وللبعض موعد لدفع الثمن. هي إرادة الله أتقبَّلها دومًا. الحب في عيون الصغار يعطي الأمل. أتمنى أن أراه طوال الوقت. جليلة تعرف قيمة زوجها.

لم يترك الخوف قلب تمرهان، ولكن النشوة في عيني ابنها جعلت كره جليلة مستحيلًا. حتى لو كانت الغيرة ممكنة أحيانًا. استسلمت تمرهان لقوة العشق مع أنها لم تعرفها، كانت تأتي كالأمواج العاتية، ولا يمكن التصدي إليها.

* * *

اختلف حال حسن معها بعد هذه المواجهة، وتكاد تقسم أنها رأت الراحة والرضا داخل مقلتيه، وأصبح يجلس معها كثيرًا يتكلم ويضحك، واعتادت أن تجلس معه أحيانًا على الأرض، وأحيانًا تجلس مع أمها على الطاولة، وفي كثير من الوقت تتغدى مع أمها أولًا ثم معه مرة ثانية. عندما كان يبتسم ويتكلم كانت تدرك مدى العشق الذي تكنه له، وحاولت أن تفهم متى أحبته، وكيف ولم تستطع. أسحر لها أم افترش ولعه فراشًا فغطى كل روحها وغمرها إلى الأبد؟ تأقلمت مع حياتها المختلفة ووجوده يجعل للكون لونًا زهريًّا غير كل الألوان. ولكنها خافت من خطوة الانتقام القادمة فسوف تأتي لا محالة. وتبدت لها الحقيقة بكل وضوح، من بين أختيها كانت هي الوحيدة التي تتسم علاقتها بزوجها بالحب، وقررت أن تظهر للعالم أنها لن تفشل. ستحاول أن تتعدى

الحواجـز والممرات الضيقة، وصخور الأنهار، وأعشـاب البحـر، وربما تطير في الهواء لتصل.

ثـم كانـت زيارتها إلى سـبيل الغـارق. طلب منهـا حسـن أن تصطحبه إلى السبيل، وأن تقرأ له الرسائل التي أعطاها له ألفونسو. شرح لها أن هذه الرسائل مـن تاجـر في البندقيـة، كانت لـه تجارة ومعامـلات في مصر في عصر السـلطان الغوري في بداية القرن السادس عشر. لم تفاجأ كما توقع. قالت إنها تشعر به كل ليلة، وتعرف أن هناك ماضيًا يحتاج أن يعرفه، وذاكرة فقد منها النصف أو يزيد.

شهقت لحظة رأت السبيل، وكأن عينيها لا تكفيان لتحتوياه، مرت بأناملها عـلى نوافذه الشـاهقة التي تصـل إلى الأرض لتفتح الطرق وتغلقها، لمسـت كل قطعة خشـب في بـطء، وفي كل قطعة قصة وتاريخ. انتظرت أن يفتح لها حسـن باب السـبيل وترددت في الدخول، وتوقعت أن تقابل الشيخ الزمزمي، ورهبته حتى قبل أن تراه. دفع حسـن الباب في بطء، ثم قال: لا يوجد أحد هنا. الشـيخ الزمزمي في خلوة في الجبل. يحتاج هذا من وقت لآخر.

- وهل يسمح لنا بالدخول؟

- كل الأماكن لله يا جليلة، نحرس بعضها بعض الوقت لا أكثر. هو عرف هذا؛ لذا تفتحت له أبواب كثيرة وكلما ازداد الطمع والتمسك عند البشر شُيدت الحواجز بينهم وبين الحقيقة.

نظرت إلى زوجها، وكأنها لا تعرفه وخفق قلبها، وقالت: أبي كان يأتي هنا؟

ابتسم، وجلس وهو ينظر من النافذة ثم قال: هو من عرفني بهذا المكان.

- أكان يهرب من شيء؟

- ربما كان يبحث عن شيء.

- عَم كان يبحث؟

- كلنا نبحث عن السبيل.

قالت وهي تنظر إليه في قلق: قصة الرجل الذي غرق تخيفني يا حسن.

وضع يده على مربعات الخشب الصغيرة في النافذة وقال: وتخيفني أنا أيضًا.

- من حكاها لك؟

صمت، وعيناه تتبعان الشمس من فتحات النافذة ثم قال: اقرئي لي الرسائل..

- هل سنبقى هنا طوال اليوم؟ أتمنى ألا تقلق أمي وأمك.

- ربما ..

أعطاها الأوراق، وجلس أمام الفتحات في صمت.

لم تزل ترتجف من رهبة موت أو حياة، هزيمة أو انتصار.

قالت: ألم يزل ألفونسو حيًا؟

- مات الآن. بعد أن أعطاني الرسائل.

- هل جاء إلى مصر خصيصًا ليعطيك الرسائل؟ هل هو إنسي مثلنا؟ لِمَ يعرف عنك كل هذا؟ ولِمَ يهتم بك؟ وكيف وجدك من بين كل المصريين؟

صمت برهة ثم قال: قال لي الشيخ الزمزمي يومًا: يبعث الله لنا أناسًا في الطريق ليضيئوا المسلك، ويرشدوا الضال. ابحث عنهم. وتذكر أنهم دومًا من

لا نتوقعهم، ليسوا شيوخًا ولا أولياء، ليسوا سلاطين ولا ملوكًا، بل هم عباد مجهولون..لكل أجل كتاب، ولكل روح هدف ودور، ولكل طريق صبح وليل.

قالت له وهي تنظر إلى الرسائل: مكتوبة باللغة العربية؟ لِمَ كتبها باللغة العربية؟

قال وهو ينظر إلى الأفق: ربما كتبها من أجلي. لأتذكر وأعرف. بل أعرف ثم أتذكر. أتقن لغتنا مثل ألفونسو بالضبط.

التفت إليها، ثم قال في جدة: جليلة، هل تتقبلينني بكل ما أحمل من هزيمة؟ وهل ستتقبلين روحي مهما قرأت في هذه الرسائل؟

قالت في يقين: لا هزيمة حولك يا حسن. روحك بداخلي منذ زمن. وأعرف أنك مختلف.

ثم قرأت..

رسائل فرانشيسكو تليدي من 1506 إلى 1518

الرسالة الأولى من فرانشيسكو تليدي: تاجر البندقية

بسم الرب الخالق القدير

كنت أبحث عن الدليل في مستهل الطريق.

ما سأحكيه في هذه الرسائل هو ما شاهدته وعرفته أنا أحد تجار وسفراء البندقية.

عم الخراب وتوالت أيامنا. مات أبي كمدًا،ولم أكن بقوته ولا قدرته. تركني عاجزًا عن مواجهة أي عبء، عاجزًا أن أنقذ تجارتنا وأسرتنا من قراصنة البرتغال ومقاتليها. لا شأن لي بالكفار، ولا أعرف من مؤمن ومن كافر. كنت أريد العيش في سلام. أخذني أبي معه في رحلتين من قبل إلى مصر، رأيت مصر وأهراماتها وتماثيلها العملاقة.. جلست تحت شجرة مريم العذراء في المطرية وتصورتها أمامي بعظمتها ورونقها. انتهت تجارتنا من أجل طريق جديد، وغنيمة أخذها البرتغاليون من قوت يومي ومال أبي؟

فأنا وأبي كنا نتاجر في التوابل وخاصة الفلفل. يخرج الفلفل من موانئ الهند في رحلة عبر موانئ عدن وجدة حتى يصل إلى موانئ مصر من خلال بحر القلزم، عند قوص وغيرها من الموانئ المصرية، تنتقل التوابل عبر الطريق البري إلى نهر النيل، ومن النهر إلى موانئ دمياط والإسكندرية، في الإسكندرية كانت سفني تنتظر لتنقل التوابل إلى البندقية، ومنها إلى أهل الشمال من ألمان وإنجليز وغيرهم. سيطر مماليك مصر على طريق البحر من الهند إلى الإسكندرية، فكان طريق تجارتي آمنًا، أنتظر وأعرف موعد وصول التوابل وكيفية توزيعها. تغير كل شيء الآن.

اكتشف البرتغاليون طريقًا يلتف حول العالم. قيل إن سفنهم ظنت أنها وصلت لنهاية العالم، ثم رأت رأسًا لجزيرة أو يابس فالتفوا حول الرأس، واكتشفوا أن للطريق جهة أخرى تصل إلى الهند، كانت مفاجأة غيرت حياتي. طريق طويل ولكنه سهل ومضمون، ولا حواجز ولا أرض تعترضه، التفوا حول الأرض وراوغوا وتلوَّوا كالثعابين فلم يعد لتجارتنا سوى البوار. أصبحت توابل الهند تباع في أسواقهم بربع الثمن، بل ما زاد الأمر سوءًا هو رغبتهم في تحطيم طرقنا القديمة، حتى يستأثر طريقهم بتجارة العالم، خرجوا

مـن كل مـكان كسراب النمل، تـارة يهجمون على تجار في بحـار الهند، وتارة في بحـر الحجاز، وتارة في بحر القلزم وحتى بحرنا لم يسـلم. كيف تحارب قراصنة ولصوصًـا؟ مـن يحاربهـم؟ نحـن؟ أهـل البندقية المسيحيون؟ لن يحـدث ولن يسـمح بـه البابا ولا أهل العالم. البابا يكفرنا مـن حين إلى حين، لا بأس.. ولكن لو حاربت البندقية مع المسـلمين ستختفي من على وجه الأرض لا محالة، ولو لم تحارب مع المسـلمين سـتختفي من فوق الأرض لا محالة. طريقنا وتجارتنا وكل مصيرنا بيد مصر. هي مفتاح السبيل.

كنت تاجرًا حزينًا لا يهتم باختلاف البشر، بل بتجارتهم وبضائعهم القيمة، لم تكن زيارتي الأولى لمصر، ولم أعرف هل ستكون الأخيرة.

سأذهب إلى سلطان مصر الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري بثلاثة طلبات في رسالة من الدوج نفسه.

الطلب الأول أهونهم وأسـهلهم، أردت من السلطان أن يخفض الضرائب عن البضاعة المارة من مصر حتى يتسـنى لنا بيعها في أوروبا بأسـعار مقاربة من أسعار البرتغاليين.

البرتغاليـون قراصنـة يسرقـون البضاعة، ويقتلـون التجار في بحـر القلزم، وبحـر العـرب، وبحـر الهنـد، وبحـر الصـين، يظهـرون كالأسـماك المتوحشـة، وهدفهـم أن تتوقـف سـفن مـصر والبندقية عن دخـول تلك البحار والسـيطرة عليهـا. لا بـد لمـصر أن تدافع عن أبحر سـيطرت عليهـا قرونًا مـن الزمن؛ فعين القراصنـة على عدن وجدة، ولو دخل البرتغاليون عدن لخنقوا مصر وأهلكوها. السـلطان يعرف هذا، هذه الموانئ هي منفذ هواء لمصر، بل لو سيطر البرتغاليون على جدة، لسقطت دولة الإسلام وربما دخلوا مكة. هذا أمر جلل، ولا يوجد من يثبت الآن ويقف في وجه الخطر سـوى سلطان مصر. فكرت فيما سأقوله وكيف

سأقنعه. التحرك ضد البرتغاليين لا بد أن يكون عن طريق البحر، وأن يكون في بحـر الهند حيث تحتل سـفنهم الموانـئ، وتعوق طريق التنفس لمـصر والبندقية.. هذا هو الطلب الثاني.

أما الطلب الثالث، وهو أهمها فلم أكن أول من يطلبه من السـلطان؛ طلبه سـفراء من قبلي، وفي كل مرة يؤجل السـلطان الرد، أعتقد أنه لا يريد أن يستفز العثمانيـين، وربـما تعاني مصر بعد كسـاد التجـارة، فلا يقوى عـلى تنفيذه الآن. ولكننـا اقترحنا على الغوري مرتين، وسـتكون هذه هي المرة الثالثة أن يحفر قناة تربـط البحر الأحمـر بنهر النيل. قيل إن فرعونًا مصريًـا حفرها قديمًا، ولم نتأكد. لـو أوصلنـا البحر الأحمـر بنهر النيل سـيصبح طريق السـفن ممهـدًا وموصولًا بـلا توقف ولو حدث هذا، لزالت دولـة البرتغاليين، وتوارى طريقهم الجديد؛ فطريـق مصر أقصر وأسرع بمرات. ولو وافق سـلطان مصر فحينها لا قراصنة سـتقوى عـلى التوغل في مياه مصر والهجوم عليها. هـذا هو الأمل في أعوام من الرخاء، وعندها ستسيطر مصر على البحر من جديد.

جئت إلى سـلطان مصر بثلاثة طلبات وتمنيت أن أصل إليه. وكنت أعرف حساسـية علاقتـه بنـا الآن خاصة بعد طـرد المسـلمين واليهود مـن الأندلس، والحكايـات المرعبـة التـي يسـمعها أهل مصر مـن اليهـود الذين لجئـوا لموانئ الإسـكندرية هاربين من قسوة الإسـبان. أصبح أهل مصر والسلطان لا يثقون فيمن يقطن شمال بحر الروم.

يطلقون عليه المجذوب. أبحث عنه منذ فترة. هو مفتاحي لمقابلة السلطان المـصري. تجمعـه صداقـة بالسـلطان، سـمعت أن سـلاطين المماليـك يقدرون المجانـين، ويهتمون بأمرهـم. لم أر هذا في أي مكان في بلادي. وكأن للمجذوب قـوة خارقة حتـى السـلطان لا يملكها. أتعـرف لماذا؟ لأن المجـذوب لا يخاف

السلطان. فقد غريزة الخوف بينما كلنا نخاف، نخاف الموت، والفقر، والفقد، والحب، والطرقات المظلمة التي لا نعرفها.

أحوال هؤلاء بها العجب. سمعت من البعض أن الغوري بالذات يبجل مجاذيب القاهرة، حتى أنه يسمح لهم بالسير عرايا في الحارات، ولو استوقفه أحدهم، يقف ولو أغلظ عليه يتحمل. بل سمعت أيضًا أن سلطانًا آخر قبل الغوري بصق في وجهه أحد المجاذيب، ولم يقتله، ولا قطع أعضاءه بل تركه وسار في طريقه.

لديهم معتقد هؤلاء السلاطين أن المجذوب متصل بالخالق العظيم؛ لذا لا يخاف ولا يأبه لشيء. مسه الخالق، ففقد عقله من شدة الهول.

هذا المجذوب يسكن سبيلًا في المطرية ولا يبرحه منذ زمن. انطلقت من الإسكندرية إلى القاهرة أبحث عنه. وأدعو الخالق أن أجده.

الرسالة الثانية من فرانشيسكو تليدي

بسم الرب الخالق القدير

كنت أبحث عن الدليل في مستهل الطريق.

اتجهت إلى القاهرة، وجلست تحت شجرة مريم، أستظل بها وأتمنى أن تنصرني مصر كما نصرت مريم وطفلها. بجانب الشجرة السبيل الذي أبغيه. لم أفهم في زيارتي الأولى لمصر لمَ يهتم المصريون بالساقي والسبل، ويبجلون الخلوة والصوفي، يربطون المياه بالخير والجنة، ويكرمون المسكين بها. تعددت السبل في مصر، وكثرت، ولكن هذا السبيل غير كل السبل. نوافذه الخشبية الطويلة

العملاقة تشي بحياة وراءه وأخرى أمامه. كنت أنتظر قدوم المجذوب، وتعلمت منذ الصغر في رحلات تجارتي أن أسمع الحكايات، فعند سماع القصص يتجلى ضعف القوم، وخوفهم، ونقاط قوتهم وسطوتهم. ينكشف البشر في قصص العابرين. أسمعها في صبر، وأكتب بعضها وأحتفظ بذاكرتي بالكثير.

سألت عن قصته، وأصله، ولم يعرف عنه أهل الحي شيئًا. سألت المزملاتي أو الساقي، كيف يقطن المجذوب السبيل، وأين خلوته؟ وماذا يفعل فيها؟ أعطاني بعض الإجابات في اقتضاب وهو لا يثق بي مع أني أتكلم بلغتهم، وارتديت ملابسهم، وجئت تاجرًا، والتجار كل العالم أوطانهم. لم أعرف حكاية المجذوب سوى بعد عدة أعوام وبعد أن نَمت بيننا صداقة قوية تعدت البحور والأماكن. وكان اسمه الحقيقي هو الشاطر حسن وليس المجذوب. فهمت بعد زمن مأساته ولعنته واليمامة التي تطارده في صورة شيخ حكيم.

لجأت إلى المجذوب، ولجأت إلى بابا الأقباط أبغي مقابلة السلطان. وحدث.

امتثلت أمام سلطان مصر وهو يجلس على مقعد هائل مرتفع، قرأت الرسالة وسمعها ثم طلبت منه لو سمح لي أن يصرف الحضور. وفعل.

وبدأت أتكلم بلا توقف وسمعني.

قلت: أهل الشمال يريدون إعلان الحرب على البندقية، والبابا في روما يؤجج النيران.

كنت أردد لنفسي «لو لم ينتصر الغوري على البرتغاليين ستفنى بلادنا وتجارتنا».

كان سلطانًا قويًّا مهابًا، والبؤس لا يتركه، ردَّد وهو لا ينظر إليَّ: البرتغاليون يقتلون الحجاج باسم الدين، يمنون القساوسة بغزو مكة وهدم الكعبة. لو أغلقت كنيسة المهد ماذا سيفعلون؟ يخرجون الضغينة، ويحثون على القتل، ولا هدف لهم سوى جمع المال. ماذا يقولون عنهم في البندقية؟

قلت في بطء: أهل البندقية غير كل الباقين. رأوا وعرفوا، عندما تنهدم الحواجز يا مولاي يعم الضوء ويتوغل. هم تجار والتاجر يرى في البشر منفعة وليس ضررًا.

أطرق الغوري ثم قال: بحر الهند كان طوعًا للمماليك ولمصر طوال الأعوام الماضية.

تنفست الصعداء حينها، وأنا أعرف أني نفذت إليه، وأنه يعرف ما أبغي.

قال بعد حين: طريق البرتغاليين الذين يهجمون منه على سفن المسلمين في البحار مختلف. أحاول الوصول إلى أصله ولا أعرف. جمعت العلماء ولم يصل خيالهم إلى حدوده. أنتم تعرفونه في البندقية؟

قلت: هو طريق حول العالم. لا أعرف مكانه بالضبط يا مولاي. وكأنهم وجدوا رأسًا، يمكن الاستدارة حولها.

- بعض العلماء هنا تقول إنهم وجدوا سد يأجوج ومأجوج، وحطموه واخترقوا حدودًا بناها القدماء خوفًا ولكن طمع البرتغاليين لا حدود له. سيحطمون العالم لو استمروا في ضلالهم. يهجمون على السفن في عدن، وفي جدة. عدن وجدة مفاتيح دخول مصر. كانت دومًا آمنة ولكن البرتغاليين يبغونها غادرة مثل أيامنا.

ثـم أطرق قليـلًا وقال: المماليك لا تحـارب في البحور. قوتهـا على الأرض بالأحصنة والسيوف.

قلـت حينهـا بحماس طفل: من يحارب بالسـيف يحـارب في البحر أو البر. المماليك أشجع المحاربين، تعلمت منهم، وعلمت غيري في البندقية، لو انطلقوا في البحر فسيقضون على خطر البرتغاليين. قضوا على التتار من قبل.

- لا بـد أن تعرف أن الزمـن غير الزمن، والأخطار غـير الأخطار. الخطر مجهول لنا.

قلت في نفس حماسي: مولاي السـلطان لو حفرنا قناة بين بحر القلزم ونهر النيل لأصبح طريق التجارة ممهدًا للسفن حتى البندقية، تخرج التجارة من الهند إلى بحـر القلـزم، ثـم نهر النيـل، ثم بحرنـا، ولا تتوقف، تبحر بـلا حواجز ولا يابس، لو حدث هذا لقضينا على البرتغاليين ومحوناهم.

بقي صامتًا. وبدا لي أنه لن يقبل على هذا الاقتراح ربما لكساد التجارة وقلة المال ثم قال في نفاد صبر:

أتريدني أن أحفر قناة بين بحر القلزم ونهر النيل؟ هل هذا ما تبغي؟ تعرف أني لا أسـتطيع، لا أملـك قـوة قطـز ولا أموال قـلاوون. هو زمن غـير الزمن، وأوقات كلها ابتلاءات.

رأيت الحيرة في عينيه الأبية، عرفت بعدها أكثر وفهمت. مسكين الغوري، هـادن الصفويين فظهر العثمانيـون، هادن العثمانيين فظهـر الفرنجة. ثار التجار فهدأهـم، فثار العلماء فخاطبهـم، فثار المماليك فهددهم، فثـار العامة..أيام بور كحدائق البلسم في المطرية، التي لم تثمر هذا العام، والفيضان الذي لم يأت.

فأخبرته عن طلبي الثالث بخفض الضرائب.

ساد الصمت حتى قلت بعد حين: أهل البندقية مهارتهم لا تضاهى في صنع السفن. نأتي بالأخشاب من البندقية، ونصنع السفن في الإسكندرية، ثم ننقلها إلى بحر القلزم..

- تبغي محاربة البرتغاليين في بحر الهند..

- أبغي ما تبغيه يا مولاي..وما فكرت فيه من قبل..

- محاربة البرتغاليين ضرورة لا مفر منها. وإلا غارت دولتنا، لو فشلنا في تأمين الحجاج، فنهايتنا قادمة لا محالة.

قلت في حماس: لا أعرف أن دولة المماليك فشلت من قبل في أي من حروبها. حتى لو استعصى عليها أمر لبعض الوقت.

قال بعد برهة: المال كالشرف والحياة، والبرتغاليون يسرقون بضائع التجار، فمن يحارب البرتغاليين، وينتصر عليهم؟

لم أفهم قصده في البداية.

- من يحارب هو من يعرف البحور ويعتادها، ومن يدافع عن ماله وعرضه وحياته؟ التجار. من يقود جيوش المماليك لا بد أن يكون محاربًا وتاجرًا يعرف ملوك الهند، ويتعامل معهم. حسين الكردي هو الرجل الذي يصلح. هو تاجر ومملوك.

غمرتني السعادة حينها ثم قلت: والدوج وعد بمساعدة المماليك.

- وهل ستستمرون في مساعدتنا حتى لو ضغط عليكم البابا؟

- مولاي السلطان، لن يعرف البابا. لا نستطيع أن نخرج جيوشًا معك من البندقية، ولكننا نستطيع أن نوفر الخشب، ونصنع السفن، وأنا سأكون معكم ممثلًا للدوج نفسه.

نظر إليَّ برهة ثم قال: نتوكل على الله.

صاحبني المجذوب في كل الحروب. تحول إلى جندي فتي وقوي يحارب بقلبه وسيفه. وبدا إنسيًّا حينها مثلنا، وبعد الحرب عاد إلى صورته القديمة، رجل عجوز تعدى المائة يعرف ما لا نعرف، ويبصر ما لا نرى. عرفت أنه مغرم بابنة السلطان وتدعى بلسم، تحكي الأساطير عن جمالها. ولكن في نهاية المطاف لم يصل إليها.

هاجم المماليك سفن البرتغاليين عام 1508 المتمركزة على ميناء شاول الهندي، وكانوا يبغون القضاء على كل وجود للبرتغاليين في الأبحر التي تمر فيها تجارة مصر والبندقية. كانت معركة عنيفة، ورأيت فيها قتالًا لم أره طوال عمري. حارب مماليك مصر في موانئ هندية وفي بحر يغوي بجماله كل المحاربين، انضم إليهم مالك عياز بجنوده وهو مملوك تحت إمرة سلطان كجارات في الهند، ورأيت بعيني سفينة قائدهم لورينزودي الميدا وهي تغرق عند الميناء وقائدها بداخلها.

غرق أسطول البرتغاليين في مياه بحر الهند.

ولن أخفي عليك أن تجار البندقية لما وصلها الخبر كانت تحتفل في بيوتها، وأن ألكسندرو الجندي الذي حارب سرًّا مع مماليك مصر عاد حينها إلى البندقية محملًا بالسيوف المصرية والبضائع والدروع، واستقبله الدوج وأطلق عليه اسم «المملوك» وطلب منه أن يحكي له، ويعلم الجنود فنون القتال المصرية حتى يتسنى لأهل البندقية الدفاع عنها عند الهجوم المرتقب.

ما رأيته من الجنود في بحر الهند غيرني ربما إلى أبد الآبدين.

أخذوا الأسرى من البرتغاليين، وتعاملوا معهم برفق لم أعهده في المحاربين، وغطسوا في بحر الهند الذي لم أر في نقاء مياهه ولا جمال شواطئه يسبحون ويلهون.

ورأيت عيني المجذوب وكانت كلها أمل قال لي: ربما انتهت اللعنة، وعرفت الطريق. أدركت ربما وتذكرت. بلسم هي الدنيا والغاية وستكون لي.

أما حسين الكردي فكان قائدًا صارمًا لم يتكلم معي كثيرًا،ولا رأيته يخاطب غيري أيضًا. قبل الخروج من مصر انضم إليه محارب عثماني وتاجر اسمه سلمان الريس، أعتقد أنه جاء دون إذن من السلطان العثماني حينها، ولكنه قال لحسين الكردي إن تجارته هو أيضًا قد بارت من غارات البرتغاليين وطريقهم الجديد. كل ما رأيته من سلمان الريس هو حرفيته في الحروب ومعرفته ببحر الهند. سمعت بعض الجنود تقول إنه ليس تاجرًا بل قرصان ، وإنه مغامر منذ صغره، لا يأبه بسلاطين ولا عرف وتقاليد. لاحظت تعلق حسين الكردي به وثقته في آرائه.

عندما عرف الدوم فرانشيسكو دي الميدا أن ابنه لورينزو مات في السفن الغارقة في بحر الهند، أقسم أن يمحو أسطول المماليك المصرية من على وجه الأرض، ويحارب الهند، ويسيطر على عدن حتى يخنق بحر مصر وأهلها. عداؤه لم يكن لكل الأسطول بل لمماليك مصر. لم يتكشّف لي السبب قط. بالطبع موت ابنه كان السبب الأساسي، ولكنه عداء الطامع المتكبر، عرفت هذا النوع من العداء عن قرب بعد تقدمي في السن، الطامع به ضعف كامن في الأعماق؛ لذا فهو يبالغ في القتل، ويسرف في القسوة؛ ليخفي ارتجافة نفسه. جاء إلى ميناء ديو في عام 1509في بحر الهند بسفن لا قبل لنا بها، وكان يعرف البحار، ويتقن

التعامل مع الموانئ. وخطته هي خنق الأسطول المصري في ميناء ديو، والهجوم عليه من كل اتجاه حتى يفقد الحركة ويزول أثره من على وجه الأرض.

رأيت حسن الكردي وهو يحارب حتى آخر جندي..

البرتغاليون جاءوا بمدافع كل البلاد مجتمعة وأسطول لم أر في حجمه، وسفن حديثة لا نعرف رسمها حتى في البندقية، واتبعوا طريقة مبتكرة، أطلقوا كرات المدافع على ارتفاع ضئيل باتجاه مياه البحر وليس باتجاه السفن، فارتدت ووثبت بزاوية على جوانب سفن المماليك، اخترقتها وحرقتها في لحظات. لم تسنح الفرصة لا لضرب البنادق عليهم ولا لصد المدافع ، جاءت على حين غرة من الأطراف إلى القلب مباشرة.

ضرب البرتغاليون الأسطول المملوكي والهندي بالمدافع بعد أن حاصروه في الميناء، وقد وعد فرانشيسكو الميدا حينها، ملكَ البرتغال أنه سيسيطر على كل موانئ المسلمين من الهند إلى مصر. كان يطمح في عدن ومسقط وجدة وحتى بحر القلزم، كان يريد السيطرة عليه تمامًا.

ولكن القائد حسين الكردي كان يقاتل بإتقان، رأيته بعيني، هرب من السفينة إلى سفن الهنود خارج الحصار، ثم هاجم بالمدافع الأسطول البرتغالي من الخلف بجنود الكوجارت.. حتى إن أحد القادة ويدعى بريرا، الرجل الثاني في الأسطول البرتغالي، قُتل في الحال. بعث ملكهم سفن إغاثة، وصلت في اللحظات الحاسمة. اشتدت المعركة، وتناثرت الأطراف، حارب المماليك بضراوة، وكادوا ينتصرون لولا سفن الإغاثة التي سدت البحر، ولم تترك منفذًا للهروب ولولا المدافع التي أطلقها الميدا.

كنا في أكبر سفينة، ورأيت بعيني المجذوب وهو يرفع المدفع ويطلق النار، حارب كالمماليك، ونسيت برهة من يكون. بدا بضعف وأمل البشر، وربما كان منهم، لا رأيت قوى خارقة ولا عتادًا، ولم ألاحظ في عينيه راحة من ترك الدنيا وحروبها. بل شهدت على الأمل في نظرته ثم الهزيمة. نظرت إليه وهو يمتص بعينيه نيران المدفع التي تغرق السفينة تلو الأخرى. وعندما حاولت سفن البرتغاليين الوصول إلى سفينتنا، كان هو من قرر أن يحركها تجاه الشاطئ، ويبقيها بعيدة عن العمق حتى لا يتسنى لسفن البرتغاليين الكبيرة الوصول إليها ولا تدميرها. ولكن الميدا جاء بحقد لا قبل لنا به. وقد أقسم أن يذبح كل مماليك مصر بعد مقتل ابنه. استمر في قذف السفينة الأخيرة بكل قوته، واستمر المجذوب في إطلاق النيران، لا توقَّف، ولا استمع للقائد حين قال: إن علينا أن نترك السفينة وإلا سيحرقنا أو يذبحنا الميدا. بقيت مع المجذوب حتى أيقنت أنها النهاية. لم يكن يود الاستسلام قط. أمسكت به لحظتها، وانطلقت كرة المدفع من فوق رءوسنا حتى عم الظلام، وتهاوت الأخشاب فوق أجسادنا. بدا لي أننا غصنا في مياه البحر، أو ربما لجأت مياه البحر إلينا تستغيث من المدافع، لا أدري، ولكن المياه ملأت أذني وعيني وبحثت عنه فلم أجده. كان ميتًا بالتأكيد. اختلطت النيران بالمياه بصوت المدافع بصرخات الجنود والأخشاب التي تنهار تدريجيًّا فوق رأسي، سبحت إلى الشاطئ، وتشبثت بأمواجه، وأنا أشعر بثقل السفينة وهي تتهاوى إلى القاع. لهثت، وبكيت ربما، وجريت إلى الأرض بأقصى سرعة، بعد برهة وجدته، من نجوا من الحرب كانوا اثنين وعشرين شخصًا فقط. أنا وحسين الكردي، وسليمان الريس، والمجذوب، وثمانية عشر مملوكًا. رأيته ينظر إلى الأفق، وعيناه متحجرتان، لا بكى، ولا نطق بكلمة واحدة حتى عدنا إلى مصر. هربنا على الأحصنة داخل الهند.

عندما بكيت كنت أبكي على الهزيمة، ولكن كنت أبكي أيضًا على سفينتي التي كنت شاهدًا على صنعها، وأتيت بخشبها بنفسي.

قسوة فرانشيسكو اتضحت في معاملته مع الأسرى من المماليك، ذبحهم، وحرقهم، وقطع أطرافهم، الواحد تلو الآخر. ولكنه كان يتفنن في اختيار طرق الذبح، أحيانًا كان يشق البطن، وأحيانًا يقطع الأطراف ويترك الجسد مكتملًا، وأحيانًا يضرب الرأس بالمدافع. تسلم أسراه في أحسن حال، ولم يشفع هذا لجنود المماليك. قال إنه ينتقم لابنه. تفتحت له البحور..وزالت سيطرة المماليك المصرية على بحار الهند.. وتمسك الغوري ببحر القلزم بكل قوته، يحميه، ويحمي موانيه. حصن جدة وما حولها، ولم تتوقف غارات البرتغاليين على بحر القلزم.

حزنت البندقية ولكن هذا الحزن كان حزن من يعرف مصيره. اتحدت البلدان ضدنا بقيادة البابا، وعم القحط والفقر وهوت بلادي..رأيتها تتهاوى أمام عيني وأنا أعرف أن استقلالها وقتي، وأن ضوءها الذي يضيء لبلدان حولها قد انطفأ بسيطرة البرتغاليين وهزيمة المماليك.

هزيمة المماليك هي هزيمتنا ونهايتنا.

فرانشيسكو يا صديقي كان يريد أن يخنق مصر. وفعل.

ما يؤسفني حقًا هو أننا نشترك في نفس الاسم أنا وفرانشيسكو دي الميدا.

أريدك أن تعرف أن المجذوب كان يرافقنا في النصر ثم الهزيمة، عرفته أكثر حينها، ونفذ إلى روحي عذابه الكامن في الأعماق دهرًا أو ما يزيد. قال إن النسيان نعمة، ونقمة، والذاكرة نعمة ونقمة، وتأرجح بين الاثنين طوال عمره.

عنـد الوصـول إلى مصر شـعرت برغبـة في تهدئة المجـذوب، وقد نـما بيننا تواصـل إنسـاني صعـب شرحه. فقـال لي: يومًا خـسرت طريق البحـر، ويومًا خـسرت طريقـي إلى الرضـا، وهجرت من حاربـت من أجلهـا، ويومًا لم أصل إلى اليقين. هكذا هي روحي اعتادت الخسـارة. تملكه اليأس، وتلاشـت صورة الشاب، وسيطر الكهل على قلبه. فبدا لي واهنًا بعظام هشة وشعر أبيض رقيق.

الرسالة الثالثة من فرانشيسكو تليدي

بسم الرب الخالق القدير

كنت أبحث عن الدليل في مستهل الطريق.

هل شـعر الغوري بقرب النهاية؟ هل عـرف تبعات المعركة؟ لا أدري، ولم أجرؤ على مقابلته بعد ذلك. رحلت عائدًا إلى بلادي، وعاصرت الحزن وأتقنته. لم أتقابل مع المجذوب بعدها.

بعـد حين سـمعت أن العثمانيين هزمـوا الغوري في مرج دابـق، وخرج إلى المعركة بنفسـه وهو في السـبعين ومات هناك. دخل العثمانيون الشـام، ومنها إلى مصر، وشنقوا طومان باي سلطان مصر الأخير.

جاءتني أنباء عن حسين الكردي الذي قضى بقية أيامه يحصن جدة، ويتأكد مـن عدم دخول البرتغاليين إلى مكة، قيل إن السـلطان العثماني سـليم الأول قد أمر بقتل حسين الكردي لما دخل مصر، وقد طلب من صديقه سلمان الريس أن يقتله هو. وافق سلمان الريس وقتله. يقال إنه أغرقه في البحر. ولِمَ لم يقتله بسيف أو رمـح أو مدفـع؟ لـو أردت رأيي أقول لأنـه كان صديقه، ويعـرف أن الغرق

أفضل ميتة لقائد البحار. الموت ليس النهاية ولا يعني الهزيمة، ولكن طريقة الموت بالنسبة لهؤلاء أهم.

أغرقه، ولكن المجذوب لم يغرق.

كنت أردد كلمات سمعتها من المجذوب في آخر لقاء لنا..

« وطأة الهزيمة على قدر الكبرياء

ولهيب الذل على قدر الكرامة

وهوان الروح على قدر العشق

ومن اعتاد العزة تأوه عند العوز

هي أيام معدودات».

انتهت جليلة من قراءة الرسائل، نظرت إلى زوجها في عدم فهم أو الكثير من الفهم، لا تعرف. كان يردد الكلمات التي تقرؤها قبل أن تنطقها. تنفست في بطء وهي تحاول الاستيعاب، المجذوب الذي حارب من أجل البحر هو الشاطر حسن، والمجذوب هو أيضًا زوجها. أغلقت العقل، وفتحت أبواب القلب لتعي وتدرك.

نظرت إلى وجه زوجها. هو طريق السيطرة الذي يبغيه الرجال، وهو كبرياء زوجها الذي تحطم من الهزيمة مرة ومرتين.

التف البرتغاليون حول العالم، وحاربوا من أجل طريقهم، ثم جاءت القناة الجديدة لتختصر الطريق، وتقضي على طريق البرتغاليين؛ لذا كان لا بد من أن يدخل الإنجليز. يبغون السيطرة على البحر. لولا الماضي ما كان الحاضر.

قالت : الحمل ثقيل عليك يا حبيبي. تعرف من المجذوب؟

هز رأسه وعيناه تلهثان وراء الشمس في الأفق لعلها تتنفس..

قال حسن وهو يشعر بدوار، ورأسه يرحل إلى مكان بعيد: هي نفس الهزيمة ونفس المدافع.. هو نفس الضباب الأسود ونفس الأخشاب المحترقة، هو نفس الطمع، ونفس التشبث. ولكن السبيل مختلف..كم عمرًا حتى ينتهي مني؟

قالت في قوة: الطريق ليس دومًا طريق سطوة وقوة يا حسن، هناك سبل نختارها في حياتنا من أجل سعادة الدنيا، وهناك سبل تقربنا إلى الله. لا تختصر طريق العمر في طريق البحر والسيطرة عليه. هذه هزيمة نعم ولكن هناك انتصارات أيضًا. في زواجنا انتصار، وفي نجاحك، ووجودك انتصار، وفي تقربك من الله انتصار. وربما يعود إليك الطريق. كان ملكك من قبل، وسوف يعود.

قال : تتكلمين كالشيخ الزمزمي اليوم. الإنجليز لن يرحلوا. لن يرحلوا اليوم، ولا غدًا، ولا بعد عام ولا عشرة ولا خمسين عامًا. الطمع لا شفاء منه، والتمكن من السبل يفتح كل أبواب الكنوز. لا أمل لنا.

– هذه المرة يا حسن الطريق على أرضنا. هو طريق كالذي كان يحلم به تاجر البندقية وأفضل.

نظرت إليه وهو يغطي وجهه بيديه، وخافت أن يكون قد رحل عنها إلى الأبد.

المجذوب، زوجها..يحكي عنه تاجر البندقية. كان يتعذب من ذنب لم يقترفه، من ذل بعد عزة، وضعف بعد بأس. أبصر ما لم نبصر، واسترق السمع فاخترق صفير المدافع أذنيه.

وجودها في هذا المكان سيفقدها عقلها. يقولون إن من يرى الحقيقة لا يقوى على تحملها، فيفقد عقله.

سمعت صوت زوجها وهو يتهاوى إلى الأرض.

قالت في رجاء وهي تهز كتفه فجأة: حسن لا تتركني. وعدتني أنك لن ترحل. نفذ وعدك. حسن..

لم يسمعها. لم يزل يغطي وجهه، ويجلس على الأرض. يعبس وجهه، يتأوه أحيانًا، كان يتذكر المعركة.. كل تفاصيلها الآن، ويرى وجه تاجر البندقية بوضوح، وحسين الكردي، والسلطان وكل من مات وكل من انهزم. سمع صرخات البرتغاليين، واخترقت مدافعهم قلبه.

أمسكت بكفيه، ونزعتهما من على وجهه، ولكن عينيه مغمضتان وكأنه لا يسمعها، وكأنه فقد الوعي تمامًا. أسندت جسده على الحائط، وكل أطرافه مسترخية، نائمة، أمسكت بيده في قوة، ثم بدأت تهز كل جسده في يأس وتقول: لا تذهب.. لا تتركني..

وضعت أذنيها على صدره، وعرفت أنه حي. تخرج أنفاسه منتظمة، وهادئة الآن.

شدت رجليه حتى استلقى على الأرض، ثم أحاطت كتفه بيدها، وأغمضت عينيها وهي تتمتم بكلمات كثيرة وتقبل صدره ورأسه.

مر عليهما ساعة أو أكثر. لم تنم. تركت الأوجاع تنتشر حولها، وهي تدعوها للخروج من القلب والجسد. لِمَ كل هذا العذاب؟ ما أجمل تيه السبل وضلال النفس، يخدر الأطراف إلى حين، ثم عند الإدراك يأتي الندم، ويلتحم بالوجع الذي لا شفاء منه. سبيل الغارق... تتكشف فيه السبل التي لم نعرفها،

ولم نخترها، والسبل التي شيدت فيها الحواجز والسبل التي لم نغرق فيها ولم نسبح.

رددت بعض الآيات عن السبيل والصراط المستقيم. ثم أمسكت بيده وهمست: حسن.. أسمع أنفاسك. أشعر بها داخل روحي. عد إليَّ. سننسى ما رأيناه وما عرفناه حتى يتسنى لنا العيش. حبيبي عد إليَّ.

فتح عينيه في بطء، واعتدل في جلسته، ولكن بدا وكأنه فقد ذاكرته تمامًا أو عادت إليه ربما. نظر إليها وكأنه لا يعرفها.

لم تأبه بهذا. أحاطت وجهه بيديها، وقبلت شفتيه قبلة قوية وهي تقول: وعدتني تتذكر؟ وعدتني أن تبقى معي. لم يحدث هذا لك من قبل.

لم يجب. استمر في النظر إليها دون أن يرمش، ثم قال في صوت بطيء: لِمَ كتب عليَّ أنا كل هذا الألم؟

قالت مسرعة: انس ما رأيت.

- لا أستطيع.

عانقته في قوة وهي تقول: رحلت عني إلى عالم لا أعرفه.

- يحدث هذا أحيانًا.

- ولكنك وعدتني أن تبقى معي، هل تتذكر؟

- رسالة تاجر البندقية توضح كل شيء.

- نعرف الآن.

- نعرف السبيل. ولكن لا نستطيع الوصول.

- في الإدراك نجاة دومًا. المعرفة أولى الخطوات إلى الوصول.

- يقولون لن يصل سوى العاشق. العشق يطهر القلوب. الطمع وصوله قصير حتى لو طال الأمد يزول الطامع ويمحى أثره.. جليلة..

- حبيبي..

- تبدين أكثر رقة وتلقائية في هذا المكان.

- أنت كل ما أريد.

- تكذبين الآن. تريدين الكثير..

- أنت كل ما أريد. وحبي لك لا تعرف مداه.

ابتسم حينها وقال: ما حدث اليوم..

قالت مسرعة: سننساه. كأنه لم يحدث.

- والرسائل..

- نفعل بها ما تريد.

- نحتفظ بها في مكان لا يمكن هدمه، وأيضًا لا يمكن توقعه. نحتفظ بها في مكان تتكشف فيه المعجزات.

عرفت ما يقصد.

قامت معه، وحفروا معًا تحت شجرة مريم، ثم وضعوا الأوراق، وغطوها بالكثير من الرمال.

قالت وهي تنظر إلى الشجرة: ماذا تتذكر أيضًا؟

طـرق ثم قال: بعض الأشـياء لا بد من الاحتفاظ بهـا. حان موعد العودة. بعد أسبوع أزور الإسماعيلية.

- لماذا؟

- هو وعد أريد الوفاء به.

- سآتي معك. لن أتركك. لا تغب هكذا مرة أخرى.

* * *

الباب الثالث

«أريدك أن تعرف أن المجذوب كان يرافقنا في النصر ثم الهزيمة، عرفته أكثر حينها، ونفذ إلى روحي عذابه الكامن في الأعماق دهرًا أو يزيد. قال إن النسيان نعمة ونقمة، والذاكرة نعمة ونقمة، وتأرجح بين الاثنين طوال عمره».

8

بعد عدة أيام طلب منها زوجها طلبًا غريبًا.

لم تفهـم كيف فقـد زوجها عقله وطلب منها أن تذهب معه لزيارة عمها في الفيلا. رفضت في صرامة، وأصر، بل طلب من أمها وأمه أن تصطحباهما، ودعا أختيها وزوجيهما أيضًا.

قالت في قلق: ماذا تنوي؟

- أريد أن يلتقي الأقارب يا جليلة، ماذا في ذلك؟ كان الخلاف منذ شهور وهدأت الأمور الآن.

كانـت تعـرف أنه يكذب، وأحيانًـا تخاف أن يكون قد فقـد عقله. يتصرف بجرأة المجانين.

قالت في قوة: لن أذهب.

أصر أن تذهب، وأخبرها أن أمها ستحتاجها، وعندما احتدم الصراع بينهما قال في صرامة: عندما يطلب منك زوجك شيئًا لا بد أن تنفذيه.

- لن أنفذه دون فهم.

- ثقي بي.

جرها إلى هناك جرًّا، وهي تجتر في عقلها ذكريات تتمنى نسيانها. كانت ساحة الفيلا الكبيرة مكتظة اليوم: الأخوات الثلاث وأزواجهن، العم وأولاده الرجال، وتمرهان وبثينة وحتى نساء بيت العم كن يتلصصن من النوافذ والأبواب.

قال العم في صوته المحشرج: تجرؤ على أن تأتي إلى هنا؟ اليوم نهايتك أنت وهذه الفاجرة.

نظرت إلى زوجها في لوم، فابتسم، ثم قال وهو يفتح باب الفيلا: جئتك طالبًا السلام، وموضحًا بعض الأمور يا عمي.

- لا سلام بيننا يابن الجارية.

قبضت يدها، وهي تتوقع أن يتهجم حسن على عمها فيضربه عمها في التوِّ بعصًا سميكة تودي بحياته. كان لا بد أن توقفه عن المجيء، تمنعه ولو بالقوة.

دخل من الباب الكثير من الرجال، ولم تتعرف جليلة إلا على صادق فقط. دخل ثلاثون أو أكثر.

قال العم في تحدٍّ: جئت تتهجم عليَّ في بيتي.

- قلت لك جئت أطلب السلام ولكنك تتعمد إيذائي. هذا ليس بيتك يا عمي. لم يكن يومًا بيتك.

ثــم أخرج من جلبابه أوراقًا وقال لجليلة: زوجتي، اعذريني لا أقرأ..تعالي هنا، واقرئي عليهم هذه الأوراق بصوت عالٍ.

اتجهت إليه جليلة، وأمســكت بالأوراق وهي تنظر إليه ولا تفهم شــيئًا ثم قرأت لنفسها أولًا. ونظرت إليه وكأنها لا تعرفه. ولم تنطق.

قــال هو: مســكينة زوجتي صدمت كما ســتصدمون كلكم. يــا عمي، أحمد عــلي ثابت، أخوك، لم يكــن يثق بك قط. وكان يعرف أنك لــن تعدل مع أولاده وزوجتــه، ولــن تعطيهم حقهم. بل يبدو لي والله أعلــم أنه لم يثق أيضًا في زوجي ابنتيــه، أرباب العائلات الطيبة، الغريب يــا عمي أنه وثق في ابن الجارية، وكتب كل أملاكه باسمه. هل تصدق هذا؟

صاح العم: كاذب وسارق.

نظر إلى جليلة وقال: أتعرفين خط والدك أم لا؟ هل هذا خط والدك؟

هــزت رأســها بالإيجــاب، فأخذ الأوراق وقــال في هدوء: اجلــس يا عمي لأشرح لك. نحن أهل.

نظر العم إلى حراســه، وقبل أن يضرب أحدهم رأس حســن، أمســك أحد رجــال حســن العصــا. نظر العــم للرجــال الملتفة حول حســن وهاله مــا رأى، معظمهم من رجاله..اشــتراهم ابن الجارية.. أو وعدهم بالمجد. خان ومكر كما يفعل العبيد..هكذا فكر سعيد.

قــال حســن في هدوء: لــديَّ ثلاث نســخ. وأكثر من مائة رجــل. لو قتلتني ستذهب كل الأموال لرجل غيري لن تعرفه. ولكنها أبدًا لن تَؤول إليك. أعرف شيخًا يقول: «الحياة لا تأتي لمن يشتاق إليها. وأنت تشتاق شوق الطامع».

- ما هذا الكذب؟

ثم صاح شريف: لص.

قال حسن في عملية: نتكلم عن التفاصيل..

قاطعه العم وسط ذهول الحضور: أنت كاذب وسارق. لو كان ما تقوله حقيقة فلِمَ لم تقل هذا الكلام من البداية منذ مات أخي؟ لِمَ انتظرت عامًا كاملًا؟

هز حسن رأسه وكأنه كان يتوقع السؤال، ثم قال: الطريق لا يتبدى إلا للصابر السائر بعزم المتيقنين. له مدخل واحد يستعصي على الكثيرين. الصبر..مهم.

- كنت تجمع رجالك أليس كذلك؟ أنا أقول لك يا بن الجارية لِمَ انتظرت؟ كنت تضمن أولًا احتياج ابنة اخي لك فأوهمتها أنها لا تملك شيئًا لتتزوجها، ثم بقيت معي لتعرف رجالي، وتشتريهم، وتأخذ الأوراق المهمة من المحلات قبل أن تضرب ضربتك. لخسة الخادم مذاق مختلف!

ثم نظر إلى جليلة وقال: كنت تتهمينني أنني أُذلك، ومَن أذلك كان زوجك!

قال حسن في براءة: أصبت في بعض الأشياء، وأخفقت في بعضها. أنا لم أوهم جليلة أنها لا تملك شيئًا. هي لا تملك شيئًا. والدها كتب كل شيء لي، وليس لها.

نظرت إليه جليلة وكأنها لا تعرفه ربما. ولا تعرف هل تفرح أم تغضب؟ هل انتصرت أم انهزمت؟ اختلطت عليها الأشياء.

قال العم في قوة: نتفاهم لو أردت.

أشـار إليه حسن بالجلوس، ثم قال: هذا ما كنت أتمناه منذ البداية، ولكنك عصبي دومًا.

قـال العـم: إمـا أن الأوراق مـزورة، وإما أنك اسـتغللت أخـي وهددته، وجعلته يكتب هذا الكلام. أي محكمة ستثبت صحة كلامي. لم نسمع عن تاجر كتب كل أملاكه لخادمه من قبل.

قال حسن في فتور: نذهب إلى المحكمة لو أردت.

قال العم: هذا حق البنات وأزواجهن. شريف ما رأيك؟

قال شريف في قوة: حقنا.

فقـال حسـن موبخًـا: مرة أخـرى يبـدو لي أن الذكاء ليس من سـمات هذه العائلة. يا عمي قلت لك ترك كل شيء باسمي أنا، لا حق لهم عندي.

- تنوي أن تستأثر بتركة والدهم؟ تأخذها لك أنت!

قـال: فلنـترك ما أنوي أن أفعلـه الآن، ونتكلم عنك أنـت. تريد أن تشرب شيئًا؟

ثم نظر إلى زوجته وقال: جليلة..جهزي الشاي لعمك بنفسك.

نظرت إليه وهي لا تفهم ما يقصد.

وابتسمت أختها عفاف في جفاء وقالت: جاء اليوم الذي يطلب فيه الخادم الشاي من سيدته.

تجاهلهـا، ثـم نظر إلى العـم وقال: سـتذهب جليلة إلى مطبـخ فيلا زوجها لتجهز الشاي لعمها.

- حسن، إياك أن تتحداني، أقتلك الآن.

- وأنا أعرف أنك قادر على هذا. وأن البلد بلا قانون ولا حكومة، والدَّين كبير يقسم الظهر، ويفقد الورَع والخير. أفهم يا عمي، ولو قتلتك أنا أيضًا فلا جناح عليَّ. يفعلها صادق الآن وأعطيه ثمن عاهرة بيضاء وسيكون أسعد رجل في مصر. ما رأيك يا صادق؟

قال صادق: كم مرة وعدتني، وأخلفت وعدك.

قال حسن في صرامة: أريدك أن تترك هذا البيت في غضون ربع ساعة لا أكثر، هو وقت كافٍ لتحتشم فيه حريمك، وتلملم ما جاءت به.

قال العم في تحدٍّ: ولو لم أفعل؟ هل ستقتلني؟

قال في حسم: في التوِّ واللحظة، وأقول إنك تهجمت علي في بيتي، وهذا حقيقة.

حملقا في بعضهما البعض برهة، ثم صاح العم يأمر زوجته بتجهيز أشيائها. وقال: لك يوم يا حسن. أعدك أنني سأردها إليك.

قال: ولا أحب التهديد. حتى لا أضطر إلى أن أتأكد أنك لن تقوى على الوصول إلى بيتك في قويسنا.

أخذت جليلة تفرك يدها في عصبية، ونظرت إلى أمها، ورأت ابتسامة رضًا لم ترها منذ زمن.

قالت عفاف لزوجها: لا بد أن نرحل نحن أيضًا. لا مكان لنا هنا.

قال حسن في حسم: بل أنت ابْقَي، أنت وأختك، أما زوجك فلا يدخل بيتي، وزوج أختك يمكنه البقاء لو أراد.

نظرت إلى شريف زوجها، وقد عزم أمره أن يبقى.

دام التوتر نصف ساعة، حتى اتجه العم وأهله إلى الباب، ثم التفت إلى حسن وقال: لن تنعم بها. سأقتلك، وهذا وعد. أعد به أمام زوجة أخي وبناته، وعندما أقتلك سأجلد الفاسقة التي اتخذتها زوجة دون إذن وليها.

قال حسن في ثبات: انتهى وقتك. اترك الفيلا قبل أن أضطر إلى إذلالك أمام الحريم.

بدأت زوجة العم في الصراخ، فأسكتها زوجها وزجرها.

عندما وصل العم ووراءه زوجته إلى باب الفيلا الخارجي كان حسن وراءه، ولم تفهم جليلة لِمَ خرج حسن وراءه حتى رأت رجلًا يعطيه بندقية، فالتقطها منه وصوبها ناحية العم وقال: توقف ..

نظر العم لأبنائه، فأخرج أحدهم سلاحه، وأشهره في وجه حسن، ثم أخرج أحد رجال حسن السلاح، وضغط به على ظهر الابن. قال العم: الغدر من طبع الخدم. تريد قتلي؟

قال حسن في هدوء: كيف أقتل عم زوجتي؟ تذكرت فقط أن بثينة هانم كانت قد أقرضت زوجتك المصون ذهبها، وتريده الآن.

شهقت جليلة، وخرجت من الباب وقالت مسرعة: حسن، أمي لا تريد شيئًا، أرجوك اتركهم يخرجون.

قال في صرامة، وعيناه لا تتركان عين العم: ادخلي البيت، ولا تخرجي، ولا تتكلمي دون إذن.

تقهقرت إلى الداخل دون كلمة.

شعر بأحد رجال العم خلفه يهم بإطلاق النار عليه، فاستدار له وأطلق رصاصة ببندقيته، فأصابت قدمه، صرخ الرجل، وصاح العم، وصوبت الأسلحة بين الفريقين، وسمع الجيران طلقات النار، فخرجوا مذعورين.

قال حسن في صرامة: الذهب الذي اقترضته زوجتك، تضعه الآن أمامي على الأرض، كل قطعة صغيرة كانت أو كبيرة.

قالت عفاف للأم: الخادم الذي زوجته لابنتك سيقتل أخا زوجك، هل يعجبك هذا؟

لم تجب بثينة.

اتجهت عفاف إلى جليلة وقالت: حاولي أن توقفيه، وإلا خرجت أنا له.

قالت جليلة: لا أستطيع.

نظر كل منهما إلى الآخر برهة، ثم قال: تريدها معركة دماء يا حسن؟

قال في حسم: أريدها معركة دماء، قضيت وقتًا الشهور الماضية أتدرب على السلاح، وأتمنى أن أستعمله اليوم.

نظر العم إلى أولاده، ولم يكن أي منهم مجهزًا للحرب الآن، ثم نظر إلى زوجته، فصرخت وقالت: لم آخذ شيئًا وليس معي أي شيء.

قال حسن: نبقى هنا حتى تبحث زوجتك عن الذهب وتعيده.

قال العم في قوة: ليس هنا.

- بل هنا.

- قلت لك ليس هنا.

- بـل معهـا، لا تتركـه. مـن يسرق يخف عـلى غنيمتـه أكثر مـن صاحبها، تعطينـي الذهب أترككم ترحلون عـلى ألا أرى وجهكم مرة أخرى. لا تعطيني الذهـب نحارب هنا في حديقة الفيلا، ومن يكسـب يأخذ الذهب. الأمر لك يا عمي.. لديك خمس دقائق لتقرر لا أكثر.

نظر العم حوله يقيم موقفه في الحرب، رجاله عشرة ربما، ولا يوجد سلاح مـع أغلبهم، ورجال حسـن كلهم مسـلحون وعددهم أكثر مـن رجاله أضعافًا مضاعفـة. بـدا على الخـادم الجنون والقـدرة، وكونه أصاب أحـد الحراس فهذا يعني أنه لا يخاف، وسيصيب ويقتل الكثيرين.

همـس لزوجتـه بـشيء، فصرخـت، فصـاح في وجههـا أن تصمـت، ثـم اسـتدارت، ونظرت للنسـاء حولها، ثم بدأت تدعُو على بثينة بصوت عالٍ وهي تفتـح حقيبـة كبيرة: يارب تفقدين ما تبقى لك من بنات، يارب يبتر نسـلك فلا خير فيه، تستحقين ما حدث لك، ليتك مت أنت يا فأل الشؤم يا لئيمة، ليتك..

سمعت بثينة الكلمات وارتجفت، فاحتضنتها جليلة بلا كلمة.

قال حسن في صرامة: اؤمر زوجتك أن تصمت حتى لا أقطع لسانها.

- لو تعديت على الحريم أذبحك..

أشهر ابن العم سلاحه في وجه حسن، فقال حسن: اؤمر أمك أن تصمت.

نظـر إلى أمه التي لم تزل تسـب وتلعـن، وقال: أمي، لا تتسـببي في مذبحة الآن.

قالـت في تلقائية: هـم أنجاس بلا أصل ولا نسـب..وبثينة هذه سـارقة.. وابنتها..

كتم العم فمها قائلًا: لا تنطقي حتى نخرج من هنا.

نظر حسن إلى الذهب الذي تخرجه من الحقيبة في إمعان، ثم أمر أحد الخدم بـأن يأخذه إلى الداخـل، والتفت إلى العم وقال: هذا ليـس كل الذهب. اطلب منها أن تخرج بقية الذهب.

- وكيف تعرف أنت ذهب الهانم؟ سرقته ربما من قبل؟

تجاهله ثم قال: اطلب منها أن تخرج ما تبقى.

خرجت جليلة من الفيلا، واتجهت إليه، وأمسـكت بيده وقالت في رجاء: حسن، هذا كل الذهب أقسم لك. أرجوك أن تتركهم.

تجاهلها، وعيناه تنظران إلى العم، فقالت في رجاء من جديد: حسن.. أمي أيضًا تريدك أن تتركهم.

قال: هذا ليس كل الذهب.

ضربت بيدها على خدها، وهوت إلى الأرض، وهي ترى القتل في عينيه.

قـال دون أن ينظـر إليهـا: ادخلي البيـت يا جليلـة. وإيـاك أن تخرجي مرة أخرى.

فتحت فمها، فقال في حسم: ادخلي الآن، حتى لا أجرك عنوة أمام الناس.

دخلـت في خطـى متثاقلة، وهي تدعو الله أن يخرج سـالمًا، وألا يقتل عمها أيضًا.

أخرجت الزوجة عدة أساور من الألماظ الصافي من صدرها، ثم ألقت بها على الأرض في ازدراء وقالت: ابن الجارية يريد الذهب لنفسه.

فقال في حسم: خذ زوجتك، واخرج من هنا.

فتح العم الباب، وعند الخروج استوقفهم من جديد وقال لزوجة العم: ابن الجارية يعرف أنك ما زلت تحتفظين ببعض الذهب، وسيتركك تخرجين لأنك امرأة في سن والدته لا أكثر.

رفع العم يده ليصفع حسن، فأمسك بها حسن، ولوى ذراعه وراء ظهره وقال: يضايقك أن ابن الجارية يعرف اللصوص ويفهمهم.. يضايقك ويزعجك أليس كذلك؟

- سأقتلك يا حسن.

دفع به حسن، فارتطم ظهره بباب الفيلا، ورجال حسن تمنع أولاده ورجاله من التدخل، ثم قال: في انتظار محاولتك. ولكن المرة القادمة لن يكفيني إصابة قدم أحد رجالك، سأصيب رأسك.

تركه فخرج وهو يتوعد.

بعد أن رحل العم وأهله، اتجه حسن إلى داخل الفيلا، وترك رجاله بالخارج، وبقي شريف وفؤاد بلا كلمة.

وقف في البهو الكبير، ومعه بندقيته، والعيون تنظر إليه في تأهب ورعب. حتى زوجته نظرت إليه كأنها تراه لأول مرة، ولم تخل نظرتها من الخوف. الوحيدة التي لم تخف هي بثينة، كانت تبتسم في استسلام وفهم. وعيناها تشكرانه آلاف المرات.

التفت إلى جليلة وأختيها وقال: والدكن عندما ترك لي الفيلا والمحلات، كان يثق أنني سأرعاكن، وأكون أمينًا على أمواله. قال إن الأموال نقمة، وليست دومًا نعمة، وأعطاني بعض الوصايا سأنفذها كلها. لكل منكما نصيب يصله كل شهر من ربح المحلات طوال عمري.

حركت عفاف جفنيها في عصبية وأدارت وجهها. ثم قالت: متى فعل أبي هذا؟

قال: قبل موته بأشهر.

شكرته عزمية وقبلت أمها ثم جليلة، وأمسكت بعفاف وضغطت على يدها قائلة: اشكري زوج أختك..على الأقل عرض أن يعطينا بعض المال، وعمك لم يفعل قط تذكرين؟

نظرت إليه عفاف في امتعاض، ولا أدنى رغبة لديها الشكره ولا الاعتراف به.

طوال الوقت وجليلة تنظر إليه بعينين واسعتين، والرعب لا يفارقها.

اتجه إلى أمه وقال: حجرتك يا أمي في الدور العلوي بجانب حجرة بثينة هانم.

ثم أمسك بيد بثينة قائلًا: عاد إليك بيتك. أنت هنا صاحبته، وسيدته كما كنت دومًا.

ربتت على يده، والدموع تتساقط بلا توقف.

ثم أمر الخادم أن يضع الذهب أمامها وقال: هذه المرة احتفظي به في مكان آمن.

قالت بلا تردد: احتفظ به أنت يا بني..

فقال في إصرار: هو ذهبك، وذهب بناتك.

مدت عفاف يدها إلى الذهب قائلة: أنا احتفظ به لك يا أمي.

فقال في حسم: الذهب يبقى مع بثينة هانم فقط.

قالت جليلة في تردد: لم يكن هناك داعٍ لإصابة الحارس يا حسن. أساور أمي لا تستحق أن..

قاطعها وعيناه تنظران إلى شريف: وسأصيب أي رجل يتعدى على حقي أو كرامتي، بل ربما أقتله، ولن يمنعني أحد.

ثم التفت إلى زوجته وقال في حدة وهو يمسك بالأساور: لا تعرفين قيمتها لأنك لم تشقي لتشتريها. هي أمانة ورد الأمانة واجب. والدك استأمنني عليها.

فتحت فمها فقاطعها: انتهى الكلام في هذا الموضوع. وإياك أن تقاطعيني، أو تتدخلي عندما أتكلم مع أهلك بعد اليوم.

سيطرت الدهشة على أعين الأخوات الثلاث. ولم تجب جليلة.

فقالت عفاف في قوة: أمي سترحل معنا، وجليلة إذا كان لديها أي ولاء لعائلتها لن تبقى هنا. هذا عصر الغلبة والقوة، أنت تغتصب حق غيرك، ثم تنعم عليه بالبقاء. هيا يا أمي.

قال في هدوء: الغداء سيكون جاهزًا بعد قليل..فلتبقوا لنأكل معًا.

قال شريف: وهل ستجلس معنا على الطاولة أم على الأرض؟

قال في نفس برودة: أجلس على الأرض أو على مقعد هو بيتي، ولي الحق أن أجلس كما أشاء. ولي الحق بالطبع في طردك الآن..

قالت عفاف لجليلة: أفهم الآن لماذا تزوجتِه، لو ظننت أنك تنقذين أموال والدنا بزواجك فأنت موهومة، ليس لمثله عهد، لا تضحي بنفسك من أجل المال، الأصل لا يباع ولا يشترى.

التقت أعينهما، جليلة وزوجها..وكلمات عفاف تقف بينهما كالمياه المندفعة، توقعت أن يتكلم حسن، ولم يتكلم.

فأكملت عفاف وهي تنظر إليه: الأصل لا يباع ولا يشترى، لا حاجة لأمك بتضحيتك يا جليلة..هيا.. تصرفي ولو مرة كابنة عائلة، أثبتي له أنك لا تحتاجين أمواله المسروقة من أبي. هيا تعالي معنا الآن.

نظرت إلى أختيها وزوجيهما. وأدركت حينها أن عليها أن ترسم حدودًا لدور حسن. ولن يقدر على هذا سواها. فما دامت أختها مقتنعة أنها ربما تتركه ستستمر في معاملته كالخادم. ولكن ألم يرسم هو الحدود الآن؟ ألم يحلق فوقهم جميعًا؟ نظرة عين أمها كادت تشق قلب جليلة، وكأنها عرفت للتوِّ بموت الأحبة وكأنها أيضًا تقابلت معهم بعد فقد، ولو حتى مقابلة قصيرة. مرت الراحة على مقلتيها حتى ولو لم تدم، ودخل الرضا قلبها حتى ولو تهاوى إلى الأعماق.

تعرف كيف يعيد حسن رسم الحدود وكيف يسيطر بجناحيه على من حوله، تفهم كيف يبني ببطء سلمًا عاليًا ليتسلق كل الحواجز بينهما. تعرفه الآن. وتفهم ما يبغي.

اتجهت جليلة إلى حسن، وأمسكت بيده برهة، وهو ينظر إليها ولا يفهم ما تنوي، ثم انحنت، وقبلت يده في بطء قائلة: أشكرك على ما فعلته مع أمي. حسن..زوجي ليس لي أن أتركه ....كلنا مدينون له بالكثير..

أكملت وهي تضع جبهتها على يده: هو صاحب هذا البيت، وكرمه يخجلنا كلنا.

أذهله تصرفها كما أذهل كل الحضور. شدها وقال في صرامة: لا دين بين الرجل وزوجته.

قالت عفاف وهي تدفع بعزمية إلى الباب: تقبلين يد الخادم يا ذليلة..من أي عرق أنت؟

كاد يغشى على تمرهان، وهي ترى ما ترى في زمن العجائب هذا.

فقالت جليلة وعيناها لا تتركان عينيه: قلت يا أختي إن الأصل لا يباع ولا يشترى، وزوجي أصيل، تزوجته من أجل كرمه وأصله برغبتي واختياري، وأتمنى أن يتحملني، وأنا لا أملك شيئًا الآن..

عبس وجهه ورأى ارتجافة يدها فأمسك بيدها في قوة.

قالت عفاف في فزع: أكنت تعشقين الخادم يا جليلة؟

قالت بلا تفكير: كنت أتمناه زوجًا.

فتحت فمها، فقال حسن في حسم: أتحملك من أجل والدك لا أكثر، لا تضطريني أن أتعامل معك بطريقة لا تليق بأصلك..

شهقت عفاف، ولم تجرؤ على النطق.

خرجوا في تذمر، وتركوها تقف أمامه، عيناها لا تتركان عينيه. لم يفهم نظرتها ولا تصرفها. بدأ يعطي الأوامر للخدم بتنظيف كل شيء، وتغيير نظام الغرف.. ثم قال لجليلة: لم يكن هناك داع لهذا يا جليلة.

قالت في إصرار: بل كان يجب توضيح الأمور.

قال بعد حين: ستحملقين في طوال اليوم؟

قالت في ارتباك: حدث الكثير، وأحاول الاستيعاب. اعذرني ولا أطمئن لعمي، ولا لزوج أختي.

قال في تحد: استيعاب ماذا؟ كان لا بد أن أخفي عليك كل شيء لحين أستطيع مواجهة عمك. تفهمين هذا أليس كذلك؟ ولا تقلقي منهم ليس بيدهم شيء.

- لو تركتهم يرحلون دون أن تصر على أخذ ذهب أمي لكان أفضل. لن نأمن شرهم.

فقال في صرامة: قلت لك هو حق وأمانة لا بد من استعادتها.

- ومن يعيد الحقوق إلى أصحابها في هذا الزمن يا حسن؟ رجوتك أن تتركهم يرحلون؟ الآن لا ندري ماذا سيفعلون.

نظر إليها ثم قال: تخافين عليَّ أم تخافين مني؟

بلعت ريقها ثم قالت: تغيرت يا حسن.

- ربما لم تعرفيني من قبل. ألم أقل لك؟ لا خوف في قلبي يا جليلة.

- ليتني أستطيع أن أقول نفس الشيء، ولكن الخوف لا يترك قلبي.

ثم خرج، وتركها تحاول استيعاب ما كان وما حدث لها. لو أخبرها حسن بالحقيقة هل كانت ستتزوجه؟ أم ستنتظر حتى يستطيع أن يتمكن من أملاك والدها؟ حسن.. الذي لم يكن يجيب لو سألته، بل يطأطئ رأسه في استسلام، خطط ودبر كل هذا منذ البداية. دبر زواجهما ثم دبر التخلص من عمها.. جمع رجال عمها حوله باللين تارة، وبالتهديد تارة، وجمع عمال محلات والدها وكانوا رجالًا لا تعرفهم، جمع الكثير من الرجال، كان يتجسس على عمها، يفهم نقاط الضعف والقوة في رجال عمها وعمها نفسه وفيهم جميعًا. كيف جمع الأوراق من المحلات وهو أمي؟ ماذا يعرف؟ ولو لم يخطط لزواجهما؟ ولو لم يهددها بالرحيل أكانت ستتزوجه؟ ما يؤلمها هو حبها له، لا تعرف إلى أي مدى سيعمي بصيرتها. هو أقوى مما ظن الجميع. أقوى مما تصورت هي وتصورت عائلتها. ترى أعرف والدها أنه سيحمي أمواله؟ أتكلم معه ورتبا لهذا اليوم. كانت تعرف حسن المسكين الذي يقاسي معهم بلا محاولة للمقاومة مثله مثلهم، ولم تعرف ولا تستوعب حسن القوي صاحب السلطة والجبروت. ترى أهو الشخص نفسه؟ أتغير أم تجلت حقيقته؟

وهل سيترك أهل الحي ابن الجارية يقطن حولهم كسيد القصر، ويتساوى بهم، ويختار وينهى ويأمر؟ وهل سيتعامل معه التجار كصاحب أملاك أم كعامل أم كخادم؟

يقول: أن لا خوف يدخل قلبه، وقد صدق، ولكن كما قالت انتقل كل الخوف إلى قلبها هي، منذ القصف والرعب لا يتركها، تخاف من موت الأحبة، وتخاف من بطش الإنجليز، وتخاف من طمع الأهل، وتخاف من سيطرته الكاملة على حشايا الروح.

وضعت يدها على جبهتها وهي تتذكر ما حدث وما كان، كيف تجاهلها اليوم وكيف استمر في تحدي العم والرجال حتى وهي ترجوه. كيف سيطر بحضوره على كل النساء والرجال، وامتدت يداه العملاقة فغطت البيت ومن فيه. حسن..الخادم الذي كان يقول لها إن أمرها مطاع دومًا، أكان يكذب أم تغير؟ هل أخرجت الأيام حقيقته أم صنعتها؟ تعرف أنه غير كل البشر. ولكن أعماق روحه تستعصي على الفهم.

عندما عاد ليلًا بدا واجمًا، وطفا حنوها، وقد بدأت تتلهف عليه وتقلق عليه وهو معها، وهو في عمله، وهو حتى يحادث أمه أو أصدقاءه.

قالت وهو يجلس على السرير: ما فعلته اليوم يا حسن..يقلقني..لو حاول عمي قتلك مثلًا ماذا ستفعل؟

نظر إليها ثم قال: لِمَ قبلت يدي أمامهم هكذا اليوم؟

قالت في هدوء: لأنك زوجي، وأردت أن أوضح لهم ماذا تعني بالنسبة لي. وأردت أن أوضح لهم كم هم مدينون لك.. ولأنك كنت تريد أن تعرف كم أقدرك فأردت أن أثبت لك.

- تظنين أني أردت إذلالك من البداية أليس كذلك؟ أردت أن أقص ريشك، وأضع القواعد قبل أن أخبرك بالحقيقة، أليس كذلك؟

- كنت تريد أن تلقنني درسًا. هذا أكيد. ولكني ممتنة لك.

نفذت عيناه إلى مقلتيها وقال: ممتنة لي لماذا؟

- ساعدتني على الوصول إلى مسالك الروح، كنت سأهلك دون وصول.

قال بلا مقدمات: أنت لست سعيدة.

- أحمل هم الأيام المقبلة، والدَّين للإنجليز و..

قال: الدين للإنجليز لو بعنا كل ما نملك لن يكفي. نحن شركاء فيه أنا وأنت. ولا تحملي هم الأيام. ما دمنا نحن معًا.

ثم أمسك بيدها وقال: جليلة..لم أوافق على خروجك للمدرسة من قبل؛ لأني كنت أخاف عليك، وأنتظر أن نستقر هنا. أما الآن فيمكنك الذهاب.. سأوصلك كل يوم صباحًا.

أمسكت بقلبها وعانقته في قوة. فابتسم وقال: وكأن الذهاب إلى المدرسة أهم عندك من تركة أبيك مجتمعة. لم تطلبي مني الذهاب إلى المدرسة طوال الأيام الماضية مع أنك كنت تستطيعين وتعرفين سطوتك على روحي. لماذا؟

قالت في حزم: هناك أشياء لا يمكن طلبها.

- ليس لأنك تخجلين من طلبها يا جليلة، ولا لأنك تظنين أن القرار لي.. أعرفك.. تذكري، أكثر من نفسي، بل هي كبرياؤك تجعلك تترفعين عن الطلب..لم تعتادي التوسل والإلحاح.

قالت وعيناها لا تفارقان عينيه:كنت تريدني أن أتوسل؟

قال في حزم: ما زلت لا تثقين بي. لا أريد كسرك يا جليلة. فلو كسرت روحك فقدت أنا المسلك.

قالت في خجل من نفسها: اعذرني، رأيت الكثير من النساء المحطمة، انظر إلى أختيَّ مثلًا، وربما أحيانًا أمي.

قال في صرامة: لم أعد الخادم، ولا أنت السيدة، ولكني لا أريد أن أكون سيدك، بل رفيق روحك، لا التحام بين روحين لو كانت إحداهما تحلق فوق

الأخرى وتخنقها. تفهمين؟ لتلتحم روحانِ لا بد أن يحلقا معًا في السماء متساويتين، بنفس السرعة وبنفس التلقائية، بلا حواجز في سمائهما ولا ضغينة في قلوبهما.

قالت وهي ترتجف من وقع كلماته: أخاف يا حسن.. أخاف أن أحبك أكثر من هذا فأتفتت كالجثث من قنابل الإنجليز. وأخاف عليك..

قال وهو يمر بيده على شعرها: تخافين عليَّ أم تخافين مني؟ تزوجت حسن الغلبان، واليوم تزوجت التاجر الغني..ماذا قالوا لك؟ إن من شعر بالشبع بعد جوع يظلم ويسرق. سيتركك ويبحث عن أخرى، سيشعر أن العالم بين يديه وأن البشر مخلوقون ليستمتع هو بهم..قالوا كل هذا..وصدقتهم أليس كذلك؟

قالت مسرعة: لم أصدقهم. هي فقط الحيرة تتغلب علي.. أعني..

- كيف لأمي مثلي أن يخطط كل هذا؟ كيف له أن يعرف؟ وكأن السكك مُهدت فقط لأناس بعينهم، وشيدت الحواجز لكل البشر الباقين.

- حسن.. هي المفاجأة وحبي لك..

- جليلة أتعرفين قسوتك في الماضي؟

بدا عليها الارتباك وقالت: كنت أحاول دومًا أن أكون عادلة.

- قسوتك يا جليلة لم تكن في معاملتك لي بل في رأيك في، في تجاهلك لوجودي. في اعتبارك أني لا أفقه، ولا أفهم، وأن من واجب العالمين أن يتكلموا بلساني، أن يحرروا البلد من أجلي وأن يكتبوا الدستور من أجلي، أن يتكلموا بلساني؛ لأن مثلي يولد بلا لسان. أول ما تعلمته هو الصمت. الصمت يا زوجتي لا يعني أني لم أعرف ولم أفهم.

بـدا عليهـا الخزي ربـما لأول مرة. ثم قالـت في صوت واهـن: تعرف أكثر منا جميعًا.

قال في قوة : يا جليلة لن يتغير قلبي، أتعرفين لماذا؟

قالت في فضول وهي تسند رأسها على كتفه: لماذا؟

- لأنني حاولت مرارًا..ولم أسـتطع. لا تعرفين مدى محاولاتي، ولا يأسي، ولن تعرفي.

همست في ألم لا تدري لماذا: ولكنني جئت إليك. تذكر هذا. عندما هددتني بالرحيل، جئت لك بإرادتي، ولم تكن صاحب أملاك حينها.

اعتدل في جلسـته فجأة، وقال في جدية: أعدك أنك من اليوم سـتحيين كما كنت وأفضل وأن كرامتك لن يمسسها لا عم ولا زوجة عم. أنت هانم يا جليلة كما كنت دومًا، ولك الحرية في الذهاب إلى المدرسة أو أي مكان.

عبس وجهها بعض الشيء، ثم أمسـكت بيده، وقبلتها مرة أخرى وقالت: قلت لك لا أريد أن أحبك أكثر، تتذكر؟

قـال مداعبًـا: لا أتذكـر.. أريـدك أن تحبيني أكثـر وأكثر حتـى لا يبقى بين روحينا أي خوف من مستقبل أو من ماض.

بعد حين وهي نائمة بين ذراعيه قالت: أريد أن أسـألك من جديد لو لم آتي هل كنت سترحل؟

قال: كنت أعرف أنك ستأتين.

- ولكن..لا بد أنك فكرت في احتمال عدم..

قاطعها: لم أفكر. لا فكرت في تركك، ولا فكرت في احتمال عدم مجيئك. عند المجازفة التردد يؤدي إلى الهزيمة، والتفكير في العواقب دومًا يغير المسار.

- وهل الوصول إليَّ يحتاج إلى كل هذا الجهد؟

- لا تعرفين مدى صعوبته يا جليلة.

قالت مداعبة وهي تمر بيدها على وجهه: كيف لرجل بوجه بهذا الشموخ والجمال أن يفكر هكذا؟! ما أجمل وجهك..لم أر رجلًا بهذا الجمال من قبل.

ابتسم، ولم يتكلم. في لحظات كهذه كان يمتص الذكريات، ويحتفظ بها داخل الروح التي لا تهدأ.

جاءه الحلم أو الكابوس اليوم أيضًا، تأوه في نومه، فاحتضنته وحاولت إيقاظه. فتح عينيه، ونظر إليها فهمست في أذنه: لا خوف في قلبك يا حسن.. لم أر في شجاعتك طوال عمري. عندما تقدم على شيء لا تخف تبعاته. تحديت كل الرجال.. كيف لمثلك أن ينهزم؟ ربما لم تفهم كلام الشيخ. من قال إن الانتصار أبدي؟ ومن كتب عليك الهزيمة؟ وماذا عرفت عن ابنة السلطان؟ سبيل الغارق لا يترك روحي. أتسمعني؟

قال وهو يضمها: أسمعك.

- تتذكر أحيانًا، أعرف. شجاعتك تخجلني، وتذكرني بقدرتي الضئيلة. النفس لا تتبع قواعد، فلو طلبت منك أن تهدئها لن يجدي. هل تتذكر؟

أغمض عينيه، وقال: أحيانًا.

***

أحمد بك ثابت تيسر سبيله إلى اتخاذ هذا القرار الغريب منذ زمن ليس بعيد. بعد أن قرر أن يشترك في ثورة عرابي وينحاز إلى صف الجيش. قست عليه الحياة في شبابه، وصعقته بخيانة الأخ قبل الغريب، وكان دومًا يخشى الآتي ولا يثق في الكثيرين. عندما طرده أخوه في الماضي، حرمه من الأخ والبيت، وأهم من كل شيء حرمه من الرضا والراحة بقية عمره، فبحث عنهما في جمع المال تارة، والزواج من الجميلات تارة، واللجوء للخلوة والتصوف كثيرًا، ولكنه كان بطبعه قلقًا مشغوفًا بشيء غير ملموس. لم تفهمه بثينة، ولم تعرف قط ما بداخله. كانت تؤثر السلام طوال عمرها، وتفضل ألا تفكر كثيرًا في أشياء ربما تزعجها وتشعرها بالعجز.

لم يمر يوم في حياة أحمد ثابت دون أن يتذكر سعيد أخاه، يفتقده ويزعجه التعلق المنفرد به، في شبابهما لعبا، وتشاجرا، وامتزجت المنافسة بالاستكشاف والمغامرة بالحماس، كل ليلة يتصور نفسه ذاهبًا إلى أخيه يزوره، ويتخيل أخاه وهو يستقبله في ترحاب، ويجهز له الولائم، ويسير معه وسط الحقول كما كانا يفعلان في الماضي، يبحثان معًا عن ذئب شارد أو جن لا يظهر إلا ليلًا، يتبعون ضوء النار حتى الفجر. ترى متى يعسعس ليل الغيرة والحقد على قلوب الأطفال؟ لم يقتل قابيل أخاه وهو طفل بل ربما صاحبه إلى حين، وأعطاه الأمان حتى تكون طعنته أقوى وأشد، لا بد أن قابيل كان يومًا يغدق على أخيه الاهتمام والحب حتى قرر الأخ ألا يمد يده ليقتله. أي مرض يغير النفوس هكذا؟ ويفتح الأبواب على سبل مظلمة كلها نار وشياطين. لا حاول أحمد ثابت أن يزور أخاه ولا حاول الأخ ذلك، ارتفعت الحواجز، وازداد الجفاء، واشتد الحقد، وافترش بقية العمر. بلا أخ، عاش أحمد ثابت يتيمًا .

وبناتـه كـن منه، ومـن الصعب عـلى النفس أن تـرى عيوبهـا أو تهدئ من روعهـا بنفسـها. كان يحتـاج إلى شـخص يلوذ إليه وبـه، ويلقي عـلى عاتقه كل همومه، لا يكون صديقًا ولا منافسًا ولا يكون قريبًا.

منذ كان حسن في السادسة عشرة من عمره، وهو يقوم بالكثير من الأدوار في كنف أحمد بك. كان راعي ابنته، خادمها وحارسها وكان المسئول عن إسطبل الخيول، وأهم من كل هذا كان سر أحمد بك، ويراجع حساباته حتى وهو أمي، ويتـأكد من عدم سرقة العمال لأي شيء ويسـتمع له أيضًا. يسـتمع لإحباطاته، وتوقعاته، وشـكواه. لا يتكلم ولا يعلق، كان مستمعًا جيدًا منذ صغره، وتعلم أن رأيـه لا يجوز مع من يأويه، ويأوي أمـه. فهو دائمًا على صواب. والاعتراض يـؤدي إلى الهـلاك لأمثاله. هـذا لا يعني أنه لم يكن يفكر كثـيرًا، ويعرف أكثر مما ينكشف لهم.

أخبر أحمد بك حسـن بقلقه الشـديد عـلى بناته، وبدعمه المـادي والمعنوي للجيش، وقال له إنـه تاجر، والتاجر يجيـد المجازفة، ويعـرف عواقبها، ولكنه لا يسـتطيع إلا دعـم عـرابي. مـا يقلقه حقًّا هو لـو قدر الله له المـوت. يقلق على مصير بناته وبثينة. ويخاف من بطش أخيه، وحقد دفين بينهما. فكر مليًّا في كتابة أملاكه بيع وشراء لبناته الخمس، ولكن شريف وفؤاد لا يعتمد عليهما؛ أحدهما سـكير منحرف، والثاني توغل الحشـيش إلى رأسـه حتى إنه لا يفرق بين خادمه وزوجتـه. بدا أن أحمد بك يعـرف الكثير عن بناته. قال حينها في ألم: أخاف على جليلة. فنفسـها أبية وروحها حرة. أخاف أن تذل من بعدي. وأخاف على بنتيَّ الصغيرتـين مـن أيام متقلبـة لا أمان لها. وبثينـة لم تترك بيتهـا، ولا تعرف الدنيا وشرورها.

وحتـى لو كتب مـا يملك لبثينة وجليلة مثلًا، فالعم جبار شـقي سـيسرق بلا هوادة.

استمع إليه حسن كالعادة دون أن ينطق بكلمة.

وعندمـا عـاد أحمـد بك إلى بيتـه كان مهمومًـا. دخل غرفتـه، وشرب الماء، واسـتلقى على سريره، وأغمض عينيه ولم ينـم. أو هو ليس متأكدًا لو كان نام أم لا، ولكنه رأى أمامه الشيخ الزمزمي يزوره في بيته، ويطمئن عليه، وكان يعرف كل ما يجول بخاطره، من خوفه على البنات والزوجة.

جلس الشـيخ دون أن يـأذن له، ثم قال: قال أبو حامـد الغزالي: «أيها الولد عـش ما شـئت فإنك ميت، وأحبب من شـئت فإنك مفارقه، واعمل ما شـئت فإنك مجزيٌّ به.».. فماذا عملت في حياتك يا أحمد؟

- أخاف انكسارهن من بعدي.

- اتركهـن في رعايـة الحافـظ، لا في رعايـة البشر، فلا أمـان للبشر، ولكن الأمان للخالق. جعل الخضر يصاحب موسى، ويبني الجدار في قرية لم تساعده، ولم تطعمه؛ لأن بها غلامين يتيمين. أعطِ مالك لمن لا يطلبه.

- كل عباد الله تطلب المال وتسعى إليه.

- فلتعطه لمن لا يتوقعه.

- كلنا نتوقع المال ونريده يا شيخ.

- أعطه لمن حرم منه إذن.

- من لا يطلبه ولا يتوقعه ومن حرم منه..الكثيرون يا شيخي.

- إذن استفتِ قلبك، وأعطه لمن يحفظ العهد، ويرد الدين.

- ومن يحفظ العهد في هذا الزمن؟ وأي دين يُرَد؟

- يبعث الله لنا أناسًا في الطريق ليضيئوا المسلك ويرشدوا الضال. ابحث عنهم. وتذكر أنهم دومًا من لا نتوقعهم، ليسوا شيوخًا ولا أولياء، ليسوا سلاطين ولا ملوكًا، بل هم عباد مجهولون.. لكل أجل كتاب، ولكل روح هدف ودور ولكل طريق صبح وليل.

فتح عينيه حينها، وانتفض ونظرت إليه زوجته في روع حتى ظنت أنه مات ثم بُعث، وقالت: ماذا بك اليوم؟

تمتم حينها: حسن.

عندما أخبر حسن بما ينوي، استمع إليه في صمت، ولم ينطق.

قال أحمد: لا تظن أني أختصك بما هو نعمة، بل هو ابتلاء يا بني لو تعرف، فرَّقَت الأموال بيني وبين أخي، ولم يعوضني مالٌ عن قطيعة الرحم. أعطيك مالًا لتشقى وليس لتنعم به. هذا حمل أشفق على الكثيرين منه، حروبك لن تتوقف، وجهادك مع النفس قبل الغير سيكون عنيفًا. رد الأمانة أمر من الله، ولكن في حالتك أنت هو ابتلاء. تذكر هذا.

شرح له أحمد ما يريد، ولِمَ اختاره هو، وقال له إن هذا السر سيبقى بينهما حتى موته. وكتب كل أملاكه باسم حسن في حياته، وأخفى حسن الأوراق كما وعد أحمد بك، وأبقى السر حتى حان الأجل.

* * *

وزع حسن الرجال حول الفيلا وحوله وحول زوجته وهو يتوقع الغدر. تدرب على استعمال السلاح شهورًا واشترى منه ما يكفي.

جاءته الشرطة؛ لأن الجيران شهدوا أنه أطلق النيران على أحد الحراس وأصابه، وأن هذا ليس بيته بل هو بيت سيده. ذهب إلى الشرطة بأوراق البيت وقال إن الرجل تهجم عليه في بيته، صادق رجال الشرطة، وأغدق عليهم بالهدايا، فخرج في نفس اليوم وسط تأفف الجيران وقلق زوجته وأمه. ثم قرر أن الوقت قد حان ليستمع إلى حافظ الشيشاوي في الإسماعيلية. واصطحب زوجته.

***

9

عند الوصول إلى الإسماعيلية التهمت عينا جليلة جمال القصور والحدائق.

قصر الخديوي إسماعيل يشبه قصور ملوك أوروبا، ويتفوق عليها ضوءًا ونقوشًا وفخامة. بنى إسماعيل قصورًا كثيرة ثم رحل بلا رجعة. لا أحد يعرف كيف يعيش الآن في إسطنبول. هل يسأل عليه أولاده؟ يزورونه؟ هل ندم توفيق؟ افتقد والده؟ أم تنفس في حرية بدونه. في زيارة حسن للإسماعيلية كان يبغي الكلام مع حافظ الشيشاوي، والغوص في أعماق القناة. جاء من أجل هدفين لا يدري العلاقة بينهما، ولكنه جاء مندفعًا برغبة من الأعماق، وما تبغيه الروح هو ما يجب أن نبحث عنه.

انتابه شعور بالإحباط وعدم الاستقرار، ثم شعور بأن روحه ستزهق في التوِّ واللحظة، ثم شعور بالرغبة في القتال والقتل. ارتجف ربما، وتمتم بالآيات يحاول أن يعيد عقله لمكانه المعتاد.

عرفت وقالت وهي تهدئ من قلقه: حسن..تعال نجلس معًا بعض الوقت. تعجبني الإسماعيلية بشوارعها الواسعة والأشجار التي تطوق القصور والفيلات كأنها جنة بحواجز عالية لا يدخلها سوى القادرين.

لم يكن يستطيع الصبر، يريد مقابلة حافظ والغوص ليلًا.

أطالت نظرها إليه، ثم قالت: هل تنوي الغرق؟

- كيف أتركك يا جليلة؟

قام متجهًا إلى الباب وقال: سأعود ليلًا، لا تقلقي.

قالت في حسم: بدونك لا رغبة لي في النجاة. أنت جدار النفس، وصلب الروح.

قبل كفها ثم رحل.

ولكنها قلقت، وكادت تنهار من خوفها. فلا تعرف حجم معرفته، ولا إلى أي مدى زحزحت ذاكرته حاضره.

جلس حافظ على شاطئ القناة ينظر إلى مركب شراعي يمشي في بطء، قال بعد حين: جئتني من طرف ألفونسو كما تقول.

- يعرفك ويقدرك.

- رجل لا يبقى في مكانه، يتحرك وكأنه ممسوس من جن أو مضطرب من ماضٍ لا يستطيع تغييره.

ثم نظر إلى حسن وقال: مثلك بالضبط.

قال وهو يداري وجعًا قديمًا: ألفونسو قال إن أول سفينة دخلت القناة لم تكن فرنسية.

قال حافظ وهو يشير بيديه في يأس: فلنردم تلك القناة..بؤرة نار تخرج علينا..هي لهم وليست لنا؛ لذا كان يجب تحطيمها.

قال حسن في هدوء: أو ربما نأخذها لنا. فهي على أرضنا ومكاننا.

خرجت ضحكة عالية من حافظ وقال: للشباب جنونه الخاص، وبراءته المثيرة للرثاء. كيف تأخذ مني ما اشتريته منك بإرادتك؟ هي لهم مائة عام أو يزيد.

ردد حسن: هي أرضي أنا.

- أنت من؟

- كل المصريين.

- لا تجعل غفلتك تؤدي إلى هلاكك. سمعت الجملة التي أدت إلى ما نحن فيه الآن..مصر للمصريين..أتدري ما ثمن البراءة؟ الموت. مصر للسلطان العثماني والخديوي والإنجليز والفرنسيين، ولو تبقى شيء منها تعال تكلم معي مرة أخرى، أو أطلق عليَّ بندقيتك. هي بؤرة نار هذه القناة حتى قبل نشأتها..

قال حسن في حزم: بل هذه القناة هي سبيل للوصول إلى كل البحور.

- سأحكي لك..لكل حارة في مصر شيخ حارة، وبريطانيا هي شيخ الحارة على كل بحور العالم. البحر لها ولا يشاركها أحد فيه. عندما شرع الفرنسيون في حفر القناة صارعتهم على طول الخط. قالت لن تفلح هذه القناة، ثم قالت إن الفرنسيين يستعملون العمال بالسخرة، ويستعبدونهم مع أنها هي أيضًا استعبدت

العمال وسخرتهم في مصر قبل سنوات لبناء خط السكك الحديدية. وعندما تجاهلها الفرنسيون واستمروا في حفر القناة، أتعرف ماذا فعلت؟ بعثت لهم بدوًا مسلحين يعملون مستترين في القناة كي يحثوا العمال على الثورة، وتحدث معركة دموية. وحدث بالفعل. ولكن هذا أيضًا لم يفلح. عندما اكتملت القناة كان لا بد من خطة جديدة. فالطريق الأقصر يهزم طريق رأس الرجاء الصالح تمامًا. ويشي بنهايته.

في يوم الاحتفال كنت أنا هنا، أنا هنا طوال الليل والنهار. إسماعيل طموحه أكبر من قدراته، نسي من يكون، فهوى إلى البئر، مثله مثل جده، ومثل من سيأتي بعده، لكل منا مكانه يستقر فيه ولا يتزحزح، وإلا دفعوا به إلى البئر. في يوم افتتاح القناة كانت سفينة إمبراطورة فرنسا أوجوني تقف في أول الصف لتفتتح القناة كما أراد الفرنسيون وكما أراد الخديوي. هكذا أعلنوا للعالم، هل تقرأ؟

- لا أقرأ.

- لو كنت تقرأ كنت تعرف أن هذا ما يعرفه العالم. إن أول سفينة مرت بالقناة هي سفينة إمبراطورة فرنسا، فمن صمم القناة هو مهندس فرنسي، ثم تليها سفينة بريطانية اسمها دلتا. هذا لم يحدث. كنت هناك ليلًا.

- ماذا حدث؟

- في منتصف الليل قبل الاحتفال تسللت سفينة البحار جورج ناريس البريطاني إلى أول الصف. كانت سفينة اسمها إتش إم أس نيوبورت. نيوبورت يا حسن تعني الميناء الجديد. هو ميناء لهم وليس لنا. تسلل القائد بسفينته الحربية ليلًا، ووجد طريقه داخل القناة، أبحر بلا مرشد، وبلا إذن لا من مصر ولا من فرنسا ولا من بريطانيا، عند الافتتاح كانت سفينته في الصف الأول، تفتتح

القناة وسفينة إمبراطورة فرنسا هي ثاني سفينة. ماذا فعل الأميرال البريطاني في القائد الذي تصرف دون إذن من قائده؟ وأحرج العالم بتصرفه الجريء؟ وبخه الأميرال البريطاني على الملأ، ثم شكره وأعطاه نياشين عندما اختلى به؛ لأنه فضل مصلحة بلاده على كل شيء. يقدرون الجرأة في بلادهم. ثم تفاجأ بمصريين متفاجئين بدخول بريطانيا ودكِّ الإسكندرية؟ يبقى البشر غافلين دومًا.

سادالصمت، وانتقلت مرارة حافظ كلها إلى حسن حينها، ثم قال في إصرار: هي أرضك أنت.

- لا تقل هذا. لم يتبق في عمري الكثير..هي أيام نقضيها كلها هزيمة، لا راحة ولا رضا. كتبت علينا يا بني..كل يوم يخرجون التماثيل الشاهقة ويقولون هؤلاء أجدادكم، لم تمر عليهم هزيمة واحدة، وأضحك إلى حد البكاء. لا بد أنهم يبكون كمدًا هؤلاء الأجداد. هو زمن العتمة، والتيه هو ما نعيشه. أيام تمر، كل العمر يمر..

التفت إلى حسن وقال: أتمنى لك أن تعاصر انتصارًا واحدًا حتى لا تموت كمدًا مثلي. يقولون لي ما الذي يهمك أنت في الحاكم؟ وما شأنك بأمور السياسة؟ أنت تأكل، وتشرب، وتعيش، يعاملوننا كالبهائم. حتى البهائم لها بيت تعرفه وتسكنه وحدها لا تشاركها بهائم حظيرة الجيران.

- لو كان بداخلك كل هذا الغضب فلابد أن العتمة لن تستمر.

- الغضب بداخلك أنت أيضًا. ولكن العتمة ستستمر. ماذا تبغي؟

قام حسن في بطء، وغاص كما تمنى في بحر أسود ليلًا. ضرب حافظ كفًّا على كف وقال: والله العظيم مجنون.

انتظره حافظ أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات. خرج من المياه، وهو يلهث وجلس على الشاطئ.

قال حافظ بعد برهة: لِمَ بعث بك ألفونسو؟ لا تعجبني أسئلتك. الأسئلة تخرج الحزن من الأعماق. أخرجت كل همي، لا أسامحك يا حسن. وربما أدعو عليك أن تبقى باحثًا لاهثًا بقية عمرك بلا وصول.

- أنا كذلك يا صديقي. أنا كذلك.

- مرحبًا بك على شاطئ القناة.

* * *

عندما عاد إلى زوجته كان مبتلًّا، وكانت عيناه غير مستقرتين. جففته بمنشفة بيضاء وجلست بجانبه تنظر إليه ولا تسأل. بعد برهة قالت وهي تشبك أصابعها في أصابعه: في المدرسة تعلمت الكثير، ولكن أهم ما تعلمته يا حسن هو كيف يمر العقل بمراحل كثيرة بعد الإدراك. العلم يحتاج الصبر، واجتياز الإحباط، والشعور بالعجز، وهكذا هو الانتصار. ربما لم يدرك عرابي كل شيء وحاول مع ذلك، ثم سيحاول الكثيرون من بعده، وكل محاولة بها بعض الإدراك، وفي هذا انتصار حتى لو صاحبه عجز. تفهمني.

نظر إلى عينيها ثم قال: ألفونسو.. طلب مني أن تقرئي أنت الرسائل. وانتظرت وصبرت حتى حان الوقت.

- أعرف. وأفهم لِمَ انتظرت.

نظـر إليهـا في يقين، فقالــت وهي تزيـد قبضتها على أصابعه: لأن العاشــق يصدق دومًا. كنت تريد التأكد من صدقي وعشقي.

ثم قالت: ماذا تتذكر؟

- إن الهزيمـة مكتوبة عليَّ، وإن الانتصار كان رفيقي أعوامًا ولكنه تركني، لا أدري هـل خاننـي الزمن أم أشـفق عـليَّ. أتذكر بعض الانتصـارات القديمة ولا أتذكرها كلها. وأتذكر الشـاطر حسن، ومن بعده المجذوب. الهزيمة لا مفر منها.

قالت في يقين: بل ستنتصر. جازفت وفزت بما تريد، لم تختر الطرق المألوفة. صبرت، وصنعت الطريق. هل تسمعني؟

- أسمعك.

- ربما لم يفهم المجذوب الرسالة، ولم يفهمها الشاطر حسن. ألم يترك الشاطر حســن ابنة السـلطان دون أن يفهم منها، وكان معها السر؟ ربما الهوس بالهزيمة والانتصار هو مشكلتنا كلنا. لديك بصيرة أكثر منهم وإدراك يفوق إدراكهم. في كل إدراك عجز وانتصار، وفي كل جهاد في البحث عن السبل نصرة ووصول.

- تتحمسين إليَّ دون أي أسئلة ولا معرفة.

- كنت معك..منذ البداية..كنت في روحي قبل الغرق وبعده.

* * *

10

سارت إلى مكتب مديرة المدرسة بخطى مترددة، فربما لا يتقبلونها ولا يحتاجونها، لم تتوقع أن يدفعوا لها أجرًا، فلم يدفعوا من قبل سوى القليل. بحثت عن وجوه تعرفها، وبحثت بالذات عن ديزي مدرستها البريطانية. أرادت لقاءها وخافت منه. لم تزل تدين لها بالكثير، لم تزل تتذكر ولاءها للطالبات وإخلاصها وتفانيها، ولكنها بريطانية وعلاقتهما الآن مختلفة. أقنعت نفسها مرارًا أن المدرس لا بد أن يتجرد من كل التحامل والتعصب. وديزي كانت مختلفة من البداية، لا وطن لها سوى مصر. اختارتها، وعشقتها، فمن هي لتحكم عليها من أجل طمع الساسة والحكام؟! استمرت في البحث حتى وجدتها تتكلم مع طالبة يتيمة تعنفها على التأخر والخروج دون إذن، ما إن رأتها ديزي حتى ابتسمت ابتسامة متحفظة وقالت: عدت يا جليلة، مرحبًا بك.

جلست جليلة أمامها وقالت: كان عامًا صعبًا على مصر.

قالت في مرارة، ووجهها اليوم متعب وصغير: كان صعبًا عليَّ أيضًا. صعبًا بصعوبة علاقتنا وتفكيرك وترددك قبل مقابلتي.

نظرت إليها جليلة في دهشة فقالت ديزي: أعرف كل شيء عنك. لا أحد يعرف الطالب مثل الأستاذ.

قالت جليلة: الإنجليز قتلوا أختيَّ الاثنتين وأبي وخالي. جاءوا طامعين ودخلوا بلا حق.

قالت بعد برهة: يقولون إن هناك دَينًا، لا بد لمصر أن تدفعه.

لم تفهم هل تتفق ديزي معهم أم تختلف. قالت جليلة: ولماذا أدفع أنا دين تخريب الإسكندرية، وأنا لم أفعل شيئًا؟ مَن قصف الإسكندرية؟

التقت أعينهما فقالت ديزي: تعرفين ما أبشع شيء في الحروب والطمع؟

- ما أبشع شيء؟

- إنها تولد الكره والمرارة. محو الحطام ممكن وتنظيف الشوارع بعد القصف محتمل، ولكن تطهير النفوس بعد الظلم مستحيل. الظلم لا يمحى. أشعر بالحزن الآن. أشعر بالحزن يا ابنتي من أجل طمع الساسة ومن أجل إهمال تعليم البنات. تعرفين يا جليلة، جئت مصر أبغي دورًا غير دوري، وهوية مختلفة عن هويتي. كنت يتيمة قبيحة بالنسبة للكثيرين، وهنا وجدت لعيشي هدفًا. زيارتك وتذكرك لي هما كل ما تمنيت. السعادة ليست دومًا في زوج وأولاد، السعادة يا صديقتي في أن تفيدي البشر، أن تشهدي على نتاجك وإنجازك، وإنجاز المعلم هو طالب تعلم أن يحسن الاختيار والتصرف. أنا فخورة بك يا جليلة. سمعت أنك تزوجت. هل أنت سعيدة مع زوجك؟

قالت دون تفكير: سعيدة معه جدًّا.

- هو رجل غير عادي لو سمح لك بالعودة إلى المدرسة والتدريس فيها. هذا ما لم أسمع عنه يومًا من رجل مصري. كل المدرسات ما عَداكِ غير مصريات وغير متزوجات. كيف أقنعته؟

فكرت برهة ثم قالت: لا أدري لو كنت أقنعته. أعتقد أنه يعرفني أكثر من نفسي، ويعرف أن هذا سيسعدني.

ربتت على كتفها وقالت: أريدك أن تدرسي معنا مرة أخرى. ولكن لو حملتِ فلن يسمحوا لك بالتدريس، تعرفين هذا أليس كذلك؟

- أعرف.

- وأريد أن ننسى حماقات الحكام، ونتعلم، ونفهم فقط.

- لا تزر وازرة وزر أخرى، هكذا نقول.

- آه، قبل أن نغلق الكلام في السياسة أريد أن أعطيك رأيي المتواضع فيما حدث.

فتحت جليلة عينيها تنتظر فقالت ديزي: هل أخطأ عرابي أم لم يخطئ؟ هل خان الخديوي أم لم يخن؟ هذه أسئلة ليست في محلها.

- وما السؤال إذن؟

- هل كانت إنجلترا ستدخل أم لا؟ والإجابة أنها كانت ستدخل مصر في كل الأحوال. تعرفين لماذا؟ لو قرأت التاريخ تفهمين. وعند الإدراك لا تتفوهي حتى لا يظن البعض أنك مجنونة، فلم يحن وقت الفهم بعد. مرحبًا بك في مدرستك.

***

جليلة مدرسة حازمة، ولا تتسم بالكثير من المرونة، ولكنها مستمعة جيدة. عندما جاءت إليها إحدى الطالبات يومًا تشتكي حالها وضغط القواد عليها لتعود إلى عملها، استمعت إليها، وتعاطفت، وطلبت منها أن تثبت وتحاول. لم تبق هذه الفتاة في المدرسة كثيرًا مع كل محاولات جليلة البريئة، ولا تدري جليلة هل خافت من القواد أم وعدها بأكثر مما تستطيع المدرسة منحه لها، أم افتقدت أيام الحرية حيث لا يوجد نظام صارم للأكل والشرب والدروس والنوم والخروج وحتى الكلمات. كانت في الخامسة عشرة، وحزنت عليها جليلة حتى أنها فكرت في البحث عنها وأثنتها ديزي عن ذلك. الطالبات اليتيمات والجواري البيض كُنَّ يلتهمن العلم التهامًا ويردن فهم كل شيء. واستمتعت بالشرح وبالأسئلة وبالكلام مع البنات وكلما ألقت عليهن معلومة جديدة توقظهن أو تثير دهشتهن وفضولهن، تزداد سعادتها، وتذهب إلى البيت وبداخلها شعور قوي بالفخر والرضا. أحيانًا تلجأ للقراءة قبل الشرح، وتقرأ كثيرًا عن التاريخ والجغرافيا بالذات، وتفكر فيما ستقول، وكيف ستتطرق إلى الموضوعات المختلفة. وعندما تنصب نظرات الطالبات إليها وكأنها العالم بكل الأمور تصاب برضًا لا تعرف مداه.

بعد شهر من عودتها إلى المدرسة عرفت جليلة أنها حامل، وأصابها الرعب. أخذت تتصور طفلها، وهو يولد في السجن وربما يموت قبل أن يولد في الظلام. هي الآن ليست مسئولة فقط عن نفسها بل عن نفس أخرى أهم بالنسبة إليها. طوال هذا الشهر، وحسن يوصلها للمدرسة ثم يعيدها إلى الفيلا. قال مازحًا إن سائقًا آخر ربما يقع في حبها، ولابد أن يضمن أن يستمر هو فقط في إرشادها إلى الطريق. أحبته كل يوم أكثر، وكلما أثبت مدى ذكائه وتقديره لها أدخل التواضع إلى نفسها التي اغترت يومًا، ولم تر، ولم تعرف. كانت تنظر إليه وهو يتعامل مع الخدم وهو يتعامل مع العمال. كان يتعامل

في صـرامـة وهـدوء، لا يسب، ولا يلعن، ولا يهدد ولكنه لا يقبل الخطأ. كثيرًا ما تفحصت وجهه مع الخادمات، وهي تلوم نفسها على الشك والهوس، ولكنه كان جـادًّا وحازمًا وكأنه لا يراهن. لامت النفس على ضعفها، ولامت الكبرياء عـلى هفوتهـا في الحكم على حسـن. تمنت طفلًا منه، ولكنه سـيأتي مثقلًا بدين لا يتناقص بل يزداد يومًا بعد آخر.

عنـد عودته كانت دومًا تشرف على تجهيز الغذاء بنفسـها، وتجلس معه على الأرض، وبعـد حـين قـررا أن يتغديا نصف الأسـبوع على الطاولـة، والنصف الآخـر عـلى الأرض حتى لا تترك أمهـا وحيدة وقت الطعام. بعـد الغداء اليوم قررت أن تخبره. ابتسم حين عرف، فقالت في أسى: سأتوقف عن التدريس. لن يسمحوا لي أن أدرس وأنا حامل، وماذا عن الدَّين يا حسن؟

قال وهـو يطمئنها: تكلمت مع المحامي الجديد. لا تقلقي. أنا معك. قلت لك اسمي مع اسمك.

قالـت: أخـاف عـلى الطفل. أخـاف أن يجروني إلى السـجن بطفـلي أو قبل ولادته.

قال في حزم: هذا لن يحدث طالما حييت. هل وعدتك بشيء ولم أفِ به؟

قالت : لا.

* * *

بحث حسـن عن محامٍ يدرك معنى الدَّين للإنجليـز، وواجب المقاومة تجاه سـيطرتهم أيضًا، سمع عن محامٍ شاب كان يناصر عرابي، وقام بعمليات انتقامية بعد هزيمته، فقضى في السـجن بضعة أشـهر، ثم عاد لممارسـة المهنـة، ذهب إليه

مع جليلة، وحكى له، وكان يدعى سعد زغلول، تولى القضية إلى حين، ولكنه اضطر إلى أن يتركها بعد أعوام.

في أول جلسة للقضية في محاكم القاهرة أثبت المحامي أن جليلة لا يمكن أن تكون مسئولة عن حريق الإسكندرية. قال إن عرابي نفسه والجيش لم يثبت عليهما أي تهم بتخريب الإسكندرية، وإن القصف هو الذي هدم الإسكندرية، وهناك صور موثقة لآثار القصف على الإسكندرية. فحتى لو افترضنا أن جليلة كانت تساعد عرابي، وعرابي بريء من تخريب الإسكندرية، فلابد أن تكون هي أيضًا بريئة. استمع القاضي إليه، ثم أجل القضية. واستمع قاضٍ آخر، ثم أجل القضية. كان القضاة يؤجلون القضية، وقال المحامي سعد إن في التأجيل أفضل مخرج، فكلما ابتعد التاريخ تغيرت الأحوال، ومن يدري ربما خرج الإنجليز من مصر كلها بعد ذلك. قال حسن في قوة: تعتقد أن الإنجليز سيتركون مصر قريبًا؟

- في القريب أو البعيد..سنصبر.
- هو حمل علينا..ودين لم نتسبب فيه.
- نصبر لا اختيار لنا.

***

بدأت الحرب على حسن كما توقع منذ اليوم الأول.

قاطعه التجار، واتفقوا عليه، وبارت بضاعته، ولم تجد من يشتريها. قالوا ابن الجارية اغتصب حق بنات أحمد بك وأخيه. قالوا تزوج من ابنته عنوة ليضفي الشرعية على جرأته وسرقته لأموال البك. قالوا إنها تعيسة وتتعذب مع

خادمها، يذلها ويضربها كل يوم. ويسلط أمه عليها فتذيقها أنواعًا من العذاب. التعاون معه حرام وخطيئة.

حاول الكلام مع التجار في القاهرة وخارجها، ولكنه أصبح وصمة عار، اسمه يدعو للتحامل والهجوم المباشر. العبد الذي يريد التعامل مع التجار.. العبد الذي يحيا في فيلا في باب اللوق.

لم يصبه اليأس هكذا منذ أن كان يحب جليلة حبًّا مستحيلًا. ورأى نهايته. سيضطر إلى أن يبيع الفيلا. وربما سيبيع المحلات. لن ينفذ وصية أحمد بك، فأحمد بك لم يدرك على ما يبدو حجم المجازفة. وربما أدرك، ألم يخبره أن في الأمانة ابتلاء، وأن رد الأمانات يحتاج إلى جهاد؟

اتفق التجار أن في هزيمته انتصارهم، وأن في إذلاله إنصافًا للنظام الموروث والحق والعدل.

ولكن المصائب لم تتوقف.

كان حمل جليلة صعبًا، وقبل الولادة بيومين همست له أمه أن الداية تقول إن الطفل مات في الرحم منذ أيام. لم يصدق، سمعت جليلة الكلمات، واحتدت على الداية، وعلى كل الحضور، وصرخت وهي تتهمهم بالكذب والكره لها هي بالذات. بقي بجانبها حتى وضعت طفلها بعد ثلاثة أيام من المعاناة، وكان الطفل ميتًا. صممت أن تراه، أصيبت بالذهول، ثم بحسرة لا قبل لبشر بتحملها، سقطت نقاط اللبن من صدرها، وصرخت وبكت كما لم تبك من قبل، هرول إليها يطمئنها أن القادم أفضل، ولكنها لم تستمع إليه، ولم تكن تراه حينها. طلبت من كل من حولها أن يتركوها وحدها، واختلت في حجرتها أيامًا،

وكلما دخل عليها تطلب منه الخروج. رفض وصمم أن يبقى معها، فتجاهلت وجوده، واستمرت تنظر إلى لا شيء، ولا تأكل، ولا تتكلم.

طفا عجزه مرة أخرى. وأصبح قرب روحه منها مستحيلًا..واستمراره حولها بالجسد لا بالروح. نام بجانبها كل يوم، ولم تشعر بوجوده، ولا رأته. أخذها بين ذراعيه، وهدأها، ولم تسمع ولم تعِ. بعد شهر دخل عليها وجلس بجانبها، وتكلم معها عما يحدث في تجارته، وكيف سيعلن إفلاسه قبل نهاية العام. وإنهم ربما يضطرون إلى بيع الفيلا. قال إنه حاول، ولكن يبدو أنه مثل المجذوب والشاطر حسن، كتبت عليه الهزيمة على كل المستويات. استمعت وعيناها لا تنظران إليه. هزها وقال في يأس: لِمَ تريدين تركي؟

أمسك بمعصمها، ورأى موتها يقترب، ازدادت نحافتها، وتلاشت عيناها وسط حزن لا قبل لها به. حملها ووضع رأسها على رجليه، وبدأ يمر بيده على شعرها وقال: لم أستطع أن أحميك هذه المرة يا جليلة. سامحيني. كنت قد أقسمت أن أحميك بقية عمري هل تتذكرين؟

ضغطت على ساقيه بأصابعها، وبكت بلا توقف لساعتين أو أكثر. قال بعد برهة: تسمحين لي أن أبقى معك؟

قالت من بين دموعها: لم تسأل من قبل.

استمر في المرور على شعرها بكفه وقال: لا تتركيني..تريدين الرحيل وفي رحيلك خيانة لي.

- لا جدوى من وجودي..ولا يوجد حولي سوى الموت.

قبل معصمها، وقال: بل حولك كل الحياة ولكن لا تصبرين حتى تتضح الرؤيا، وتنكشف لك الحياة..

شهقت وقالت: كنت أشعر به بداخلي.. ماذا حدث؟ كنت أنتظره ليعوضني عمَّن فقد، ومن مات..لِمَ يحدث كل هذا لي أنا بالذات؟ هذا الوجع فوق احتمالي.

قال وكأنه لم يسمعها، وهو يزيح خصلة من شعرها من على جبهتها: كنت أمني نفسي يومًا بأن أمر بيدي على شعرك هكذا.. ووعدت نفسي أن أفعل هذا كل يوم..ساعة أو ساعتين..

قالت وهي تدفن رأسها في رجليه: ابحث عن غيري..لا أمل لك فيَّ.. سأجلب لك الخراب والموت.

- لا سبيل إلى العيش إلا معك. تعالي نخرج معًا.. افعلي هذا من أجلي.. لم أطلب منك شيئًا من قبل قط. قلت إنك تحبينني؟ هل تتذكرين؟

لم تجب. ساد الصمت بينهما، وهو لم يزل يداعب شعرها حتى راحت في نوم عميق.

في الصباح كانت بين ذراعيه..قال في صوت رقيق: وعدتني أن تخرجي معي..

وافقت وكانت ترتجف من صقيع داخل النفس لا يعرف كيف يمحوه. ولكنها فتحت روحها في بطء فتسلل إلى داخلها يومًا وراء يوم.

رأت الانكسار في عينيه، ووصل إلى روحها كما كان يحدث في الماضي. قالت في صوت مبحوح: لا أريد المال. ولا الفيلا ولا المحلات. قم ببيع كل شيء. كنت أريد طفلًا لا أكثر ليكون رمزًا للحياة التي لا أرى منها سوى الموت.

قال في قوة: لن أنهزم يا جليلة.

- لا انتصار في جمع الأموال يا حسن.

- الانتصار ليس في الأموال يا جليلة، ولكن في الصمود أمام الحقد الذي يحاصرني. في وجودي انتصار، ولو تقهقرت وتركتهم فلن أسامح نفسي.

لم تجب.

في الأيام الماضية كان يقضي معها وقتًا طويلًا، يأتي لها بكل ما تريد دون أن تطلب، يحكي لها قصصًا سمعها منها، ويتناقش معها في نقاشات سمعها منها، يثير فضولها وثورتها فتتكلم دون توقف. يطلب منها أن تقرأ له، أن تشرح له، ويستمع في صبر. حتى بدأت تهتم بتفاصيل الحياة اليومية، عاد اللون إلى عينيها فتفرغ للقطن الذي سيبور في مخازنه، ويتعفن عما قريب.

***

جاءه صديقه في يأس يخبره بما سمع وما يحدث. قال صادق بعد برهة: قبل نهاية العام لن نجد مالًا لندفع للعمال، وسينقلبون ضدنا وسينتصر «سعيد» هذا أكيد. ماذا نفعل؟

قال حسن: نصبر.. أو نصدر القطن، ولا نبيعه في مصر.

قال صادق في دهشة: أعرف أن لديك أحلامًا وطموحًا ولكن الجنون له حد. حسن..ليس مسموحًا للمصري بتصدير القطن. هل ستدَّعي أنك أوروبي أم إنجليزي؟ وأي قنصل سيحميك؟ أم ستنضم لأصدقاء الإنجليز؟ لو انفض العمال من حولك «فسعيد» عائد لا محالة. وسيذلك كما أذللته، تذكر هذا.

قال وكأنه لا يسمعه: غير مسموح للمصريين بتصدير القطن. التجار المصريون في عصر المماليك كانوا يسيطرون على البحر. تفتح الأبواب للعالم. انهزموا. وفُتح بابٌ جديدٌ لهزائم متتابعة. ولكني لا أنهزم.

- كنت أشك أن عليك جنًّا من فترة، ولكنه جن سفلي! ستقتل نفسك.

بعد عدة أيام جاءه صادق يزف عرضًا من سعيد. قال إنه مستعد أن يشتري المحلات والفيلا من حسن بنصف ثمنها الأصلي. وهذا لأنه كريم، ويفكر في ابنة أخيه التي تمكث رهينة عند حسن وهدد أيضًا، قال إنه لن يترك حسن يربح ولا يعمل، وكلما فتح بابًا سيغلقه، وكلما حاول سيحاربه بكل نفوذه ورجاله. وقال إن بقاء حسن في المحلات هو خراب له ولغيره.

نظر إلى صادق وقال: وما رأيك؟

قال صادق بعد برهة: أخاف من تمرد العمال. اشترينا رجال سعيد بالأموال من قبل، ولكن عندما تنفد أموالنا ماذا سنفعل؟

قال في حسم: لو حرقت المحلات بيدي وهدمت الفيلا لن أعطيها له.

- العند يا حسن لن يجدي. أنت صديقي، وأريد أن أكون صادقًا معك. حلمنا معًا، وغامرنا، وانتهى اللعب. نعود إلى مكاننا. حان الوقت لمعرفة موقعنا ومكانتنا، فلو امتلكنا أموال العالم سأبقى أنا اليتيم الذي يعمل عند البك، وأنت..

قال في معرفة: ابن الجارية. أعرف، ولو مزقوني قطعًا صغيرة فلن يأخذوا شيئًا. غريب أن وجود ابن الجارية يزعجهم كل هذا الإزعاج، وانتشار الجنود الإنجليز حولهم لا يزعجهم أبدًا.

تركه صادق، وهو يضرب كفًّا بكف.

ليلًا أغمض عينيه، وجاءه الحلم قبل أن ينام. كان حلمًا ممتلئًا بالألوان المزعجة، أصفر ممتزجًا بأزرق فاقع يخرج من أعماقه أنياب سوداء وبيضاء، أحمر دمويًّا ينسكب ويفيض من روح بائسة. سمع أصواتًا تعطيه الأوامر، وأصواتًا تهدده وصوتًا مختلفًا يضحك على عجزه، ويسخر من ضآلته. لا نجاة لك يا حسن. كتبت عليك الهزيمة. الهزيمة تأتي كالأمواج، الواحدة تلو الأخرى، ولا تتوقف عبر الزمان. غرقت سفنك تتذكر؟ ضاقت عليك الأرض بما رحبت، فطمست كل السبل، وخرج كل طامع من جب الأرض. عندما أسر البرتغاليون المماليك ذبحوهم، وقطعوا أطرافهم، ولكن أسرك أعنف وأكثر مراسًا. فلا موت يريح روحك، بل العذاب مستمر. سيعود سعيد إلى الفيلا ومعه شريف، وسينتزعون زوجتك من بين ذراعيك، وستبقى دومًا عبدًا يتيمًا. هو قدرك ومصيرك.

فتح كفه ثم قبضها، يبحث عنها ربما، فتحت عينيها، ونظرت إليه في ذعر، كانت أول مرة منذ زارا معًا سبيل الغارق يعود إليه الحلم بهذه الضراوة ويتملكه بلا رحمة. أحاطت كفه بيدها، ونادته ولم يجب. استلقت على ظهرها تنظر إلى لا شيء، وهي تشعر بنفس البؤس.

بعد برهة قالت: حسن..

لم يفتح عينيه، قال: لو لم أدرك كان أفضل..ولو استسلمت أقي نفسي من خطيئة الأمل وضلال المحاولة.

شبكت يدها في يده ولم تجب. بقي كل منهما ينظر إلى السقف بلا كلمة، وأمواج الهزيمة تطفو على السطح ولا تغرقهما.

* * *

زيارة أختها عزمية اليوم لتعزيها وتعيد العلاقات جاءت بعد ثلاثة أشهر، وأعادت جليلة إلى حالتها قبل شهرين. ربتت أختها على كتفها، وقالت إن زوجها سيشهر إفلاسه عما قريب. وبما أن جليلة فشلت في أن تنجب له الولد أو حتى البنت، فسيبحث عن غيرها؛ لأنه بطبعه بلا أصل ولا مبدأ.

ثم قالت في حسم: وعندما يشهر إفلاسه سيرغمك عمك على الطلاق، وسيزوجك ممن يستحقك. لا عزوة لزوجك ولا عائلة، وقريبًا لن يملك أي مال. والرجل بلا عزوة ولا مال لا بد له من الخضوع، وأن يطيع كل الأوامر. هكذا هي الحياة.

ثم ربتت على كتف جليلة وقالت: من الأفضل ألا تنجبي من ابن الجارية لو أردت رأيي. لا يرضى لك القدر هذا المصير، أن تنجبي ولدًا يحمل لونه وأصله، سيكون هذا الولد مصيبة عليك.

تجمد جسد جليلة، وقامت، وتركت الحجرة، وأغلقت أرفف قلبها عن كل البشر بعد ذلك. عند عودة زوجها رأى وفهم، وعرف من أمه أن عزمية زارتها. جلست على مخدعها بعينين زائغتين والحزن عاد بعد غيبة، وبشوق إلى لقاء اليوم.

عندما دخل عليها، لم يبد عليه أي صبر، قال في حسم: ما قالته أختك لن يحدث. أنت لي يا جليلة منذ يوم ولادتك.. ستنجبين، وسنحيا معًا حياة طويلة. لا تيأسي ولا تصدقي كلام الحاقدين.

قالت في حزن: من تحارب يا حسن؟ أنا لا أعرف لِمَ تحارب ولا من تحارب؟

نظر إليها في غضب ثم قال: هل تفضلين تركي؟

قالت بلا تردد: أنا معك حتى الموت. لا حياة لي بدونك تعرف هذا. ولكن لا أهتم بالأموال. لا يعنيني شيء الآن. أريدهم أن يتركوني في حالي فقط.

لا أريد أن أحارب. انهزمت مرة ومرات. الهزيمة تلاحق الرجال ولكنها تختص النساء بعذاب لا ينتهي، وظلم لا يفنى.

رفع ذقنها ونظر إلى قرة عينيها وقال: وأنا لا أستسلم أبدًا.

- يا حسن..وعندما تنهزم مرة واثنتين سيصبح الاستسلام أكثر إيلامًا، وأكثر أذى للكرامة. قلت لك من قبل لن يتركوا لنا سبيلًا واحدًا.

- مَن الذي لن يترك لنا سبيلًا؟ الإنجليز أم عمك، وأختاك وكل جيرانك؟ أم تجار القطن من المصريين والأجانب؟ من تقصدين؟

قالت وهي تشير بيديها في يأس: كل الناس يا حسن.

- أنت من تقولين هذا يا جليلة؟ أنت؟ ألم تتحدي الجميع يومًا وراء يوم؟ هل نسيت؟

وضعت يدها على بطنها كأنها تملأ فراغًا لا يملؤه سوى قطعة منها وقالت: هذا كان ماضيًا وانتهى. نسيت أو أحاول النسيان.

- خُلق الإنسان جزوعًا.. اصبري بعض الشيء. ولكن إياك، أتسمعين؟ إياك أن تطلبي مني الاستسلام.

حسن يعرف أن التاجر المصري غير التاجر الأجنبي، وأن الضرائب والقيود لن تسمح له بتصدير بضاعته، التجار المصريون لا يستوردون ولا يصدرون، فلا قنصل لهم ولا سند. ويعرف أيضًا أن مع قدوم شهر مايو ستفرغ خزانته.

بدأ يجمع معلومات عن التجار اليونانيين والإيطاليين المسيطرين على تجارة الأقطان وتصديرها لأوروبا وذهب إليهم الواحد تلو الآخر يتعرف عليهم، ويتكلم معهم، ويصادقهم. كانوا يتعاملون معه بحذر وعدم ثقة.

ولم يبال. حاول كل يوم.

وجد تاجرًا يونانيًّا معروفًا، كان رجلًا في السبعين اسمه باسيلي متخصصًا في تصدير القطن إلى أوروبا. رتب الكلمات، وذهب بالأرقام والعرض. طلب من التاجر أن يسمح له بتصدير قطنه على أن يتقاسما الربح بالنصف، وقال إن كل ما يحتاجه هو اسم التاجر لا أكثر. سيصدر القطن باسم التاجر اليوناني. سيستعمل اسمه كجواز مرور لموانئ أوروبا. وسيشرف على كل شيء. لن يبذل التاجر اليوناني أي مجهود، سيأتيه الربح وهو في مكانه. فكر التاجر قليلًا ثم رفض، وقال إن هذه مجازفة لا قبل له بها، ولا يحتاج هذا النوع من الربح. أطرق حسن ثم عرض عليه ثلاثة أرباع الربح، وقال إنه مستعد أن يدعي أنه يساعده، وأنه سيقوم بكل الإجراءات والعمل الشاق ولا يحتاج التاجر سوى التوقيع باسمه. رفض باسيلي.

ولم يستسلم حسن.

عاد إليه يومًا وراء يوم، بحث عن تاريخ الرجل، ما يحبه، ما يكرهه، عرف أنه مولعٌ بالأقلام الحبر، حاول أن يصادقه وأتى له بالهدايا، سحره بكلام جميل، وحكايات من عالم فات، وأقلام يشتريها له من مزادات معينة ويستمع إليه ساعات وهو يشرح أنواع الأقلام وماركاتها. بدأ باسيلي يفتح قلبه، وحكى له عن نفسه، وكيف كون ثروته، وما أنجز وما حصد، وحسن يستمع في حماس المقاتل، بعد برهة وافق على أن يبقى هذا الاتفاق سرًّا بينه وبين حسن، وإلا تم حبسه، وتجريسه أمام التجار الأجانب.

لم يكن اتفاقًا منصفًا بالنسبة لحسن، وكان مكسبه ضئيلًا، وما سيقوم به في المقابل صعب، يحتاج كل طاقته ولكنه سيكسب ما يكفي لدفع رواتب العمال على الأقل لا أكثر. وإنقاذ القطن في مخازنه.

لم يخبر أيًا من عماله، ولا حتى صادق بالاتفاق، وقال إنه وجد تاجرًا في الإسكندرية يريد أن يشتري القطن ولم يذكر اسمه. حمل بضائعه وسافر إلى الإسكندرية. تهامز التجار، واحتاروا في التاجر الذي اشترى بضاعة حسن دون إذن منهم. بعثوا وراءه الجواسيس، ولكنه كان حريصًا، يعمل وحده ولا يثق في أحد. تعامل مع القطن، وكأنه أفيون وهربه إلى ميناء البصل في الإسكندرية في سرية، وعلى يد رجال مجهولين. نجحت أول عملية تصدير، وعاد بالأموال التي تكفي عماله.

عاد إلى التاجر اليوناني بعرض جديد، هذه المرة الوقت في صالحه والقطن لم يدخل المخازن بعد. لو وافق التاجر اليوناني على تقسيم الربح بالنصف ستزدهر تجارتهما. تكلم معه بعذوبة، واستمع من جديد لحكاياته عن طفولته في أثينا، وهجرته إلى الإسكندرية، كان يحكي الحكاية ثلاث مرات في كل مرة وبنفس الحماس، نمت صداقة حذرة بين باسيلي وحسن. وافق التاجر وهو مندهش من مجازفة حسن، وقال قبل أن يخرج حسن من محله: لو انكشف أمرنا ستعامل وكأنك تتاجر في الأفيون. تعرف هذا؟

قال في يقين: أعرف.

- ستقضي بقية عمرك في السجن. ولو حدث، من سيأتي لي بالأقلام الحبر الفاخرة؟

***

بعد عدة أشـهر حملت جليلة، وتوقفت عن الخروج وعن كل شيء، ودخل الخـوف قلبهـا مرة أخرى، ودعت واسـتغفرت. وقبل مرور ثلاثة أشـهر نزفت وضـاع جنينهـا. هـذه المرة كانـت كسرتها في أعـماق الـروح. وإحباطهـا بعمق المحيطـات. قـال لها في قـوة: ولو لم ننجب لا يهمني. أريـدك معي فقط. إياك أن تغيبي كالمرة السابقة.

بعـد كسرتها الأخيرة، كانت تعامله بحذر وخوف من أن تفقده، ووضعت حاجزًا بينهما، أحبطه وأربكه.

استمر في عملـه مع باسـيلي. وبدا عليه الاكتفـاء. وعند الاكتفـاء وإظهار الاسـتقلال، بـدأ التجار المصريـون في فك الحصـار والتعامل معه، فقـد بدا أنه لا يحتـاج إليهـم، وأن قوتـه ربما تضرهـم، وعندما تجلت قوة حسـن، اعترف به التجار، وتقبلوه على مضض، حتى وهم يعرفون أنه ابن الجارية.

ولكنه وجد في تصدير القطن مكسبًا أكبر وتحديًا لسيطرة الإنجليز، فاستمر فيه ولم يبال. توسع في تجارته وقسمها إلى تجارة مع المصريين، وأخرى مع أوروبا.

بدأت الأموال تتدفق، والضيق ينفرج، ولكن روحها لم تلتئم، وعندما كان يحبهـا ليـلًا، كان يعرف أن الحاجز يزداد ارتفاعًا. حـاول أن يطمئنها، أن يعطيها عشقه بغزارة الأنهار، ولم يجْدِ معها شيء. اتجه إلى سبيل الغارق من جديد.. بقي في خلوته أيامًا وهو يعرف أن السـبيل إليها يزداد عتمة، وأن المسـلك إلى روحها ضاع من بين يديه.

صنـع الطريـق في المـرة الأولى وهي محصنـة في حصن زجاجي لا يسـتطيع الوصول إليه، ولم يعرف كيف يصنعه اليوم وهي زوجته وطوع إرادته.

عاد إلى بيته وإليها والحزن لا يتركه، قال لها في رجاء: هل تسافرين معي؟

رفضت، ثم قالت في استسلام: لو سئمت العيش معي يا حسن أفهم... ابحث عن غيري فلن ألومك.

صاح حينها وصبره نفد: توقفي عن هذا الكلام. تعرفين أني لا أستطيع.. ستسافرين معي وهذا أمر.

نظرت إليه في تذمر ثم قالت في تحدٍّ: لن أفعل. هل ستجرني إلى هناك؟

جلس أمامها، وعيناه تنفذان إلى عينيها، وقال في حدة: أقسم لك أني سأفعل. وأنك ستنفذين كل أوامري من اليوم.

قامت، واتجهت إلى الباب ثم قالت: ولو لم أنفذها فهل ستبحث عن أخرى؟ فلتفعل من الآن لأني لن أنفذها.

قال بلا تفكير: بل ستنفذينها، وانتهى الأمر.

أغلقت الباب بقوة، والغضب يشي بحياة ظنت أنها فقدتها.

وفي الصباح أمر الخدم بتجهيز الحقائب، ثم قال لها في لهجة آمرة: جهزي نفسك سنرحل بعد نصف ساعة.

فتحت فمها، فقال: لا نقاش يا جليلة.

- ستأخذني رغمًا عني؟

- سأفعل.

قالت: لن أذهب.

قام، وأحاط خصرها في قوة، وحملها على كتفه فشـهقت قائلة: ماذا تفعل؟ ستفضحني أمام أمك وأمي وكل الخدم؟

قال وهو لم يزل يحملها: قلت لك سـتأتين معي، ولكنك تريدين الفضائح على ما يبدو.

دفعـت به بلا جدوى، وهم بأن ينزل بها درجات السـلم فقالت بعد برهة: حسنًا.

قـال قبـل أن يتركها: لو تركتـك وجريت أو احتميت بحجرتك، سـأكسر الباب، وسأنادي على أمك وعلى كل الخدم ثم أحملك رغمًا عنك.

- ستدفع ثمن هذا يا حسن.

تركها في بطء ثم قال: أضيفي الثمن إلى الدين الذي في رقبتي لوالدك.

لم تتكلم معه طوال الطريق. بعد بعض الوقت قالت: أين نحن ذاهبون؟

- الإسماعيلية.

نظـرت إليه في دهشـة ثـم قالت: وماذا سـنفعل هنـاك؟ ظننتـك تعمل في الإسكندرية.

لم يجب. عند الوصول ذهبا إلى الفندق، فقالت وهي عابسة: تعاملني كأنني بضاعة أو فرس في الإسـطبل؟ تـأتي بي إلى هنا عنوة، وتتجاهل كل رغباتي. ماذا تتوقع؟

قال في حدة: سأخرج وآتي بعد ساعتين. لا تتحركي من هنا حتى أعود.

- لن تخرج قبل أن تتكلم معي.

خرج، وأغلق الباب خلفه. تركها وسط غيظ يساعد القلب على الاختلاج، ويقظة تمنع موت الروح. دارت حول أثاث الحجرة وهي تنفخ.

ذهب إلى حافظ الشيشاوي، وجلس معه بعض الوقت، ثم عاد إلى زوجته، وطلب منها أن تمشي معه على شاطئ القناة. سارت معه بلا كلمة، فأمسك بيدها في قوة وقال: هذا الطريق..انظري إليه..

نظرت إليه، فقرب يدها لفمه وقبلها وقال: أحبك. منذ رأيت الدنيا وأنا أحبك. لا تتركيني بروحك، وتبقي معي بجسدك.

حركتها كلماته. لم تتوقعها. تلاشى الغضب في لحظات، وخرج حنو تألفه، ولكنها كادت تنساه، أغمضت عينيها ثم قالت: ربما لا أستحق حبك.

- وبدون حبك ما كنت شرعت في السير لو تدركين.

- ربما أحببت روحًا سليمة، ولكنك لا تعرف هذه الروح.

- أحببت روحك أنت..عندما كانت قوية وهي ضعيفة، عندما تحديت، وعندما انهزمت. ليس لي خيار يا جليلة.

- بل لك كل الخيارات. أما أنا فكسري مضاعف. كسرني الزمن من أجل حرب لا قبل لي بها، ثم كسرني لأني امرأة.

- وعندما تتحطم روحك فلا نجاة لي. ساعديني.

- لا أستطيع أن أساعد نفسي.

- نبدأ من جديد، ولو لم ننجب لا يهمني. ابقي معي.

- وما الذي يهمك في روحي..لِمَ لا تبحث عمن تستحقك؟

- عشقتك وانتهى الأمر.

ساد الصمت، وسارا معًا بلا كلمة. عندما عادا إلى الفندق. أغلق الباب وقبلها قبلة من يتأهب للحرب، ويريد الانتصار. كانت تشتاق إليه وتعرف أن حبه لا يتزحزح، حتى وسط الحطام. عانقته بلا كلمة لفترة طويلة، همس: نبدأ من جديد.. اليوم.. بلا حواجز ولا خوف. أحبيني كما كنت تفعلين من قبل بروحك وليس بجسدك.

قالت في أسى: أحاول يا حسن، ولكن ليس بيدي. الحزن لا يتبع قواعد، وليس للنفس أن تتحكم فيه.

فقال في تأكيد: بل لا بد للنفس من مصارعته، افعلي هذا من أجلي. لم أطلب منك طلبًا من قبل قط، لا تتركي الحزن يهزمني قبل أن يهزمك.

هزت رأسها بالإيجاب.

فقال في صرامة: ولو لم ننجب لن تبتعدي مرة أخرى. ولو انقلب العالم لا تبتعدي مرة أخرى.

أراحت رأسها على كتفه، وضغطت بيديها على ظهره، وهي تمنع دموعًا من أن تتساقط.

ولكن الدموع تساقطت، فقال وهو يقبلها: ابكي كما تشائين، ولكن لا تشيدي الحواجز.

دست رأسها في زاوية كتفه وقالت: هذا الألم لا قبل لي به.

- نجتازه معًا.

في منتصف الليل أسند رأسه إلى رأسها وقال: تعرفين يا جليلة.. أنا وأنت ليس لنا مكان في هذا العالم. ربما تلاقت أرواحنا لأننا مضطهدان، منبوذان منذ الأزل. رشقك الأطفال بالحجارة؛ لأنك تدرسين وتتعلمين، وقاطع التجار تجارتي؛ لأني ابن جارية. تلاقت روحانا وسط هجوم الآخرين، وعندما تتلاقى الأرواح وسط الدمار والاضطهاد ترتبط برباط من حديد لا يستطيع إنسي أن يحطمه. اليوم عدت إليَّ مرة أخرى. لن أسمح لك بتركي من جديد.

- دومًا أحتاجك يا حسن.

- ربما أحتاجك أكثر ولا تدركين.

- تجازف يا حسن. أخاف من مجازفتك. لو قبض عليك الإنجليز..

- لا بد من المجازفة.

***

في الإسماعيلية كان حسن يحلم حلمًا جديدًا، ويريد تنفيذ فكرة خطرت على باله وهو يتاجر مع باسيلي. كان يعرف أن القطن المصري الخام يصدر من مصر إلى إنجلترا عن طريق الإسكندرية، ثم تصنع منه بريطانيا نسيجًا وأقمشة وتبعث به مرة أخرى إلى مصر لتبيعه، والأهم لتصدره إلى الهند. بدا له أن في هذا الطريق الملتوي الكثير من الأموال والفرص والظلم. وأن طريقًا أقصر ممكن. اتفق مع باسيلي على فتح مصنع سري في الإسماعيلية لتصنيع النسيج، ثم تهريبه عن طريق قناة السويس في السفن البريطانية إلى الهند. باسيلي كان مخضرمًا ولم يكن يخشى شيئًا، بل كان يستمتع بالمجازفة والمكسب الكبير. قال بعد برهة: لا بد من أن يتعاون معنا بحارة إنجليز وإلا فلن نستطيع تهريب بضاعتنا.

قال حسن: لن يتعاونوا معي، ولكنهم سيتعاونون معك. عندما أصنع النسيج في مصر لن يتكلف ربع الثمن، وسيربح البحار الإنجليزي المتعاون معنا كما ستربح أنت وأنا.

قال باسيلي: وسيربح كل من يعمل عندك في مصنعك. ولو تكلم أحد عمالك.. ماذا نفعل؟

- يا صديقي كيف لعامل أن يفتن على نفسه، ويفقد عمله، ومورد رزقه؟ لا يمكن لأحد أن يضحي برزقه. سنبدأ بالقليل، ونتوسع يومًا بعد يوم.

نظر إليه باسيلي في دهشة ثم قال: لماذا يا حسن؟

- لماذا ماذا؟

- لا تحتاج أن تفعل هذا. أهو كره للإنجليز؟ أم طمع في المكسب؟

قال في يقين: هو قطني، وهذا طريقي وبحري. آخذ حقي لا أكثر ولا أقل.

- كلامك غريب. هذه القناة ليست ملكك.

ابتسم حسن قائلًا: الطريق دومًا لي وتحت سيطرتي. كان كذلك في الماضي، وسيصبح في المستقبل يا صديقي. نتفق على التفاصيل.

أصبح حسن يقضي أسبوعًا في الإسماعيلية، وأسبوعًا في القاهرة. فتح محلًّا صغيرًا في الإسماعيلية حتى لا يثير الشبهات، وفي قبو تحت الأرض فتح مصنعه. واشترى شقة فوق المصنع له ولزوجته، وعين حافظ الشيشاوي مديرًا لمصنعه.

حملت جليلة مرة أخرى، وأصابها الرعب هذه المرة، وقال زوجها في صرامة: سنتقبل إرادة الله مهما كانت وإياك أن تتركيني كما فعلت من قبل.

وافقت ولكن الرعب لم يتركها. وهذه المرة أنجبت ولدًا، وزال عن الروح بعض الغبار.

أخفت ابنها عن كل الأعين، وتفرغت له عامًا كاملًا.

انتشر الحسد، وازدادت أقاويل التجار عن حسن. مكسبه لا يمكن أن يكون من تجارة القطن. قالوا إن حسن يتاجر في الأفيون، وإن حسن على علاقة بكل من يعمل في موانئ الإسكندرية والسويس والإسماعيلية. قالوا إن حسن ابن جارية أتت من الجنوب، وأهل الجنوب معروف عنهم السحر، سحر للتجار حتى كسدت تجارتهم، وفاز هو. قالوا إن أمواله طائلة، وإنه في غضون عامين كسب ما لم يكسبه أحمد بك في عشر سنوات. نفروا من وجوده بينهم، وخافوا إغضابه أيضًا. امتزج الكره بالإعجاب، وامتزج الحسد بالتمني. كيف السبيل لأموال حسن؟ عرض تاجر على حسن أن يتزوج من ابنته، الرجل لا يعيبه أن يتزوج من واحدة واثنتين وثلاث إذا كان قادرًا. رفض وشكره. عرض عليه بعض التجار الانضمام إليهم ليلًا في سهرات الحشيش والاستماع لأفضل الأصوات ورؤية أجمل النساء. همس أحدهم في أذنه أن النساء في سهراته غير كل النساء، يشبهن حريم الخديوي إسماعيل في حسنهن، هؤلاء هن من تبقين من الزمن الجميل، وعده أن يحصل على أي واحدة منهن ورفض. بحثوا عن نقاط ضعف ومدخل إلى روحه واحتاروا. لا بد لأي إنسان من نقطة ضعف. نساء، قناطير مقنطرة، مزاج في الطعام أو الشراب، دخان وأفيون.. أي شيء.

كان لدى حسن نقطة ضعف، لم يدركها غيره هو وزوجته، الهوس بالفوز.

***

11

جاءه صادق وقال في قلق: أخاف عليك يا حسن.

نظر إليه حسن في دهشة، فنظر صادق حوله وقال: سعيد يرى تجارتك تزدهر. في البداية تركوك لأنهم توقعوا أن تنهار، ثم يأخذون منك المحلات والآن اختلف الأمر. أريد أن أحذرك.

قال حسن: تظنهم سيحاولون قتلي؟

قال صادق في تأكيد: بالطبع. أخاف عليك يا صديقي.

ربت حسن على كتفه وقال: هي أقدار يا صادق. ألا تنوي الزواج بعد؟

قال مسرعًا: أبدًا. أريد الاستمتاع بعمري أولًا.

صدق صادق في توقعاته. يريدون قتل حسن، وكان هو أول من خان.

صادق استطاع أخيرًا أن يصل إلى بائعة الهوى البيضاء، وجاء إلى حسن يصف له محاسنها وجمالها، فقال حسن: والآن انتهيت من هذا الموضوع وتبدأ حياتك.

ولكنه لم يكتف. قال إنه الآن فقط عرف طعم الحياة، ولن يسلو هذا المنبع الجديد، فأصبح يدفع كل أمواله على الغانيات، يجرب واحدة تلو الأخرى، وأصيب بهوس ببيوت الدعارة حتى إنه نسي في غمرة هوسه أن يعيش.

كانت خطة قتل حسن محكمة في زمن الغلبة للأقوى والأكثر جرأة. سيدس له صادق السم في الطعام، ولن يهتم أحد، ولو فشل في ذلك سيضربه بعصى على رأسه عندما يختلي به، ثم يلقي به خارج المحل ليلًا. ولكن السم أضمن وأفضل. وليس هناك أعذب من جلسات الأصدقاء وهم أصدقاء مازالوا. قرر العم بمشاركة شريف أن قتل حسن سيفتح السكك، ثم سيستولي العم على المحلات والفيلا من جديد، وحتى لو كان حسن قد أوصى لغيره بها، فلن يجرؤ غيره على تحدي العم أو شريف. وابنه مازال رضيعًا لا حول له ولا قوة. وعد العم شريف بنصف التركة لو أفلحت الخطة، ووعد صادق بأنه سيصبح المسئول الفعلي عن المحلات، وسيكتب له أرضًا أيضًا، وسيكون لديه كل المال ليعيش مع غانية فتستمر نشوته إلى أبد الدهر، وليس لساعات قليلة. كان صادق مستعدًّا، ولكنه لم يكن يريد المال، ولا الغانية، طلب طلبًا واحدًا من العم، عند موت حسن يريد من العم أن يزوجه من جليلة! هو ليس أقل من حسن، لو كان حسن خادمًا مثله واستطاع الزواج منها فلا يوجد ما يمنع من أن يتزوجها هو أيضًا، بل هو أفضل من حسن؛ فأمه ليست جارية، وهو ليس ابن سفاح. قبل أن ينطق العم قال صادق في حماس وهو يرتجف من نشوى قادمة: ترغمها إذا لزم الأمر.

وافق العم.

تراكمت الأحقاد منذ بداية العام. حسن يتزوج ابنة البك؟ وحسن يستولي على كل شيء؟ فكرة زواج حسن كانت ما أصاب صادق في مقتل. وكان قد رأى وجه جليلة من بعيد، وحلم بها ولم يخبر حسن قط بأحلامه ليلًا. فجليلة مثل النباتات النادرة، تنظر إليها فقط من بعيد، ولا تلمسها ولا تقترب منها، ولكن حسن اقترب فلا بد من نحره.

بعد أن حذر صادق حسن، تركه حسن، وقد عزم أمره أن صادق قد خان.

أحزنه خيانة أعز الأصدقاء، ولكنه توقعها اليوم أو أمس. تحذير صادق له يدل على أنه ينوي الغدر، ويبعد الشبهة عن نفسه لا أكثر.

ثقة حسن فيمن حوله ما عدا زوجته وأمه كانت معدومة تمامًا. رأى وعرف أقبح ما في البشر. وهو خادم لم يكن يكترث الكثيرون لوجوده، ولكنهم سكبوا كل قبحهم أمام عينيه وهم يظنون أن الخادم لا يرى، ولو رأى لا يفهم، ولو فهم لن يبوح. فعَين حسن البصاصين داخل محله، وداخل بيته، وحول كل الأماكن، وتوقع ضربة غادرة من الكثيرين. ربما تأتي من العم الطامع أو من شريف المتعالي، أو ربما تأتي من أحد التجار أو البكاوات الذين يقطنون حيه، ولا يعترفون به جارًا، ولا صاحب أملاك. خصص لنفسه ميزانية للتجسس، وساعة يومية ليستمع ويعرف. ثم عين للجواسيس جواسيس. ومع أنه يثق في زوجته، فهو يعرف أنها من عالم آخر، وأن الدنيا التي تعرفها مختلفة عن التي يعرفها، وحتى مشاكلها في المدرسة لا تقاس بما يعرفه هو عن البشر. وجاءه الخبر اليقين عن أولى الخيانات، وكانت من أقرب صديق. صادق.

عندما وصله الخبر أن صادق مكلف بقتله من العم، لم يصدق في البداية، ومع كل توقعاته عن النفس الخبيثة للإنسان حزن على خيانة الصديق. وراقبه عن قرب وهو يسأل نفسه لِمَ يفعل صادق هذا؟ من أجل المال؟ وعده العم بأن يصل إلى سلطة أكبر ربما؟ أو ربما من أجل حقد دفين، فقد كانا متساويين في يوم من الأيام، واليوم أحدهم يعمل عند الآخر. عرف طاقة الغيرة وقدرتها على التدمير، ولكنه الطمع الذي يطمس كل الطرق. حزن على الصداقة وعلى ما سيفعله بالصديق. رافقه صديقه وأخلص له. ما الذي تغير؟ ألم يغدق عليه بالأموال؟ ألم يهتم بأمره؟ لِمَ الخيانة الآن لو كان قد أخلص طوال الأعوام الماضية؟

أمر حسن رجاله بحبس صادق في مخزن مظلم، ثم جلده خمسين جلدة ليلتين متتاليتين، وعندما يعترف سيتفاهم معه. ثم بدأ علاقات وثيقة بعمدة كفر العم في المنوفية، وعندما وطد العلاقة بالهدايا والأقطان خرج قطاع الطرق على العم ليلًا، طرحوه أرضًا وأوسعوه ضربًا أمام أبنائه حتى كاد يموت، وسرقوا كل ما كان معه. وعندما عاد ذليلًا خائفًا وجد أن نفس قطاع الطرق أحرقوا محصول ابنه لهذا العام، وتركوا رسالة شفهية مع الغفير أن هذه هي البداية فقط، وأن من يهدد بقتل حسن يستحق ما هو أكثر. والأسوأ قادم لا محالة حتى لو مات حسن.

لجأ العم وابنه للعمدة وللشرطة وقال العمدة في يأس: لا شيء يستوي في هذا البلد بعد دخول الإنجليز. أنت تعرف كم عمليات القتل والسرقة.. لم نقبض على واحد حتى الآن. وكأنهم فتحوا علينا نار جهنم. ولا ندري متى تنطفئ.

أما شريف فقد اكتشف أحد أزواج عشيقاته علاقته بزوجته، وجاء ليلًا وطعنه في يده وقدمه، ولم يقتله، ولكنه فضحه في كل البلد، وقيل إنه لا يستطيع استعمال يده بعد هذه الحادثة.

بعد الانتهاء من كل الترتيبات، كانت مواجهة حسن مع صادق، ودخل عليه المخزن، وقال صادق في رجاء: كانت بيننا عشرة عمر.

- ورغم ذلك حاولت قتلي.

- كنت تغفر..لحظة شيطان، وكانت فكرة لم أقدم عليها.

قال حسن في برود: ولو قتلتك الآن ودفنتك هنا تكون فكرة وأقدمت عليها.

- أنت يا حسن؟ أنت تجلدني كما يفعلون بنا! ما الفرق بينك وبين البكوات إذن؟

- الفرق أني لم أجلدك حتى الموت. جلدتك حتى تدرك أن قتلي مستحيل. وعندما أتركك الآن، لا أريد أن أرى وجهك بقية عمري ولو رأيته..لو لمحته سأقطع جسدك قطعًا أمام عيني، وأنت تعرف أني قادر على هذا.

لم يكن صادق يقوى حينها على القيام، ولا الكلام وكان جسده العاري مغطى بالدماء.

قال صادق وهو يحاول القيام ولا يستطيع: لن تراني مدى الحياة، فقط اتركني أخرج.

- تخرج من القاهرة كلها.

- سأفعل.

ألقى نظـرة أخيرة على صديقه الوحيد، فقال صــادق في صوت منخفض: كذبـت علي..لســت أفضـل مني يا حســن. أنــت طمعـت وأنــا طمعت..أنت اقتنصت ما ليس لك، وأنا حاولت ولم أنجح.

قال حسن مدافعًا عن نفسه لا يعرف لماذا: لم أكذب طوال عمري.

قـال صــادق وهو ينظر إلى دمه على الجدار: بل كذبت، قلت إن الهانم لا بد ألا تدنسها عينٌ، وأخذتها أنت لنفسك. لست أفضل مني، ربما أنت أذكى فقط. وإياك أن تتكلم معي عن العشــق، فمثلنا لا يعشــق ولا يســتطيع، العشق هو ما يمارســه الأغنياء لتقضية أوقات الفراغ، وتجربة الحزن والنشــوى، أما مثلنا فربما يشــتهي امـرأة لا أكثر. لا عشــق للخدم يا حســن. العشــق يحتــاج إلى الرفاهية. كذبت..

اقــترب منه حســن فوضع يده على وجهــه خوفًا، نزع يده مــن على وجهه، ونظـر إليه مليًّا ثــم قال، والقتل في مقلتيــه واضح: زوجتي..لــو رأيت طيفًا لها في أحلامك، ســأطفئ عقلك فلا يحلم. لا تجـرؤ حتى في خيالك على تصورها، وإلا لن يكفيني قتلك. أعرفك يا صادق وأفهم ما يجول بخاطرك العفن، ولأني أعرفك أفكر جديًّا في تقطيعك الآن.

قــال في رجــاء وهــو يغطــي وجهه: لن يحــدث. لن أفكــر فيهــا. أعدك أني سأرحل.

أخــرج ســكينًا من جيبه، ووضعه على بطن صادق وقــال: أن تفكر في قتلي خطيئة، أن تنطق اسمها موت لا مفر منه.

قــال وهــو لا يســتطيع التنفس مــن الرعــب: لا تقتلني، اتركني..أتوســل إليك..

- لو لمحت خيالك في بلد أنا بها لن أقتلك، سأقطعك أولًا أمام عيني.

تركه ثم خرج.

كلف جواسيسه بتتبع صادق حتى غادر القاهرة.

كل ما حدث لم تعلم عنه جليلة، ولا أمها ولا أمه أي شيء. أحيانًا كان يأتي إلى جليلة، ويبدو مهمومًا قليل الصبر والكلام، ولو سألته لا يخبرها بالسبب. شعرت بغضبه وإحباطه، ولم تحاول أن تضغط عليه وفهمت مع الوقت أنه يبقي الكثير بداخله. ولكن عندما زارتها عفاف على حين غرة بدا الأمر غريبًا.

بعد أن اطمأنت عفاف على الأم طلبت الكلام مع جليلة وحدهما، وبدت حزينة بعينين منكسرتين. قالت: تعرفين ما حدث أم لم يخبرك ابن الجارية؟

- لا أعرف عن ماذا تتكلمين؟

- يا جليلة زوجي لا يستطيع أن يحرك يده بعد طعنة من لص استأجره زوجك. بل زوجك استأجر لصًّا لضرب عمك، وسرقته وحرق محصول ابن عمك..تريدين المزيد؟ تعرفين الرجل الذي كان يعمل عندنا منذ زمن؟ صادق الذي كان يخدم أبي في المحل، وينظف روث الخيول مع زوجك؟ هل تعرفين ما فعله به حسن؟ جلده خمسين جلدة.

نظرت عفاف إلى طفل جليلة الذي تحمله وقالت: هذا الطفل الذي تحملينه أسود كزوجك أسود القلب واللون.

لم تجب جليلة. ولكنها أخفت وجه طفلها، وهي تردد الآيات خوفًا عليه، وندمًا أنها خرجت به أمام عفاف. أكملت عفاف: جئت أخبرك فقط لأنك أختي.

قامت عفاف ثم قالت: لا تخبريه أنك عرفت مني. وإلا سيتوقف عن بعث الأموال لي مع أنها حقي في مال أبي ولكنه بلا أصل يا جليلة. هل يضربك يا أختي؟

قالت في دهشة من السؤال: لا.

- سيضربك، وسيفعل ما هو أكثر وتذكريني عندما يحدث هذا.

قالت في حسم: لا أعرف لماذا تقومين بزيارتي لو كان كل ما يشغلك هو سب زوجي ومهاجمته. لو كنت أختكما كنتما ستقدران زوجي وما يفعله من أجلكما. يعطيكما المال في السراء والضراء، ولم يخذلكما قط.

- تذليني يا جليلة؟ هو حق.

قالت في صرامة: هو حق يا أختي ولكن قلَّ من يتذكر الحقوق هذه الأيام. لا تغضبي.

فكرت طوال اليوم لو كان لا بد أن تخبره وتسأله أم لا. فهي تثق فيه، وتعرف أنه لا يمكن أن يفعل هذا. ربما لو تجاهلت الزيارة يكون أفضل. ولكن كانت تفضل طريق الصدق. عندما جاء فاتحته في الموضوع، وحكت عن زيارة أختها، وما قالته بالتفصيل ثم قالت في قوة: لا أصدق أنك فعلت هذا. أخبرك فقط لأني أخاف أن يدبروا لك شيئًا، وأريد أن أحذرك.

هز رأسه ثم قال: أشكرك على تحذيري.

فقالت وهي تنظر إليه: حسن..هل تخفي عني شيئًا. هل يحاولون قتلك؟

قال وهو يدخل حجرتهما: ولو كنت فعلت كل ما قالته أختك فماذا ستفعلين؟

نظرت إليه في إمعان، ثم جلست أمامه على السرير وقالت: أتختبرني؟

قال في تأكيد: بل أقول الحقيقة.

شبكت أصابع كفيها، وحملقت فيهما بلا كلمة. فقال من جديد: لم تجيبي يا جليلة..

- أفكر..

بقي ساكنًا، ينتظر ما ستقول. بعد برهة قالت: حاولوا قتلك أليس كذلك؟

ابتسم قائلًا: ألم أقل لك تعليم البنات يسهل العيش على الزوج.

أمسكت بقلبها في خوف ثم قالت: والشرطة ؟ هل أبلغت الشرطة؟

نظر إليها ففهمت ما يقصد. طغى الخوف عليه على كل المشاعر الأخرى، ومع أنها لم تتقبل ما فعله ولم تستطع. ولكن الخوف يخرج القسوة على ما يبدو. فلم تعترض. قالت: الحمد لله أنك بخير.

ثم أكملت في بطء: كنت أتمنى أن تشاركني هذه الأشياء وألا أعرف عنك أي شيء من أختي.

قال: سأحاول.

- أنت لا تحاول يا حسن. لم تحاول من قبل ولن تحاول في المستقبل.

ثم وضعت يدها على قلبه وقالت: هناك جزء في قلبك لا أعرفه ولم أفهمه قط.

أمسك بيدها قائلًا: قلبي معك تعرفين هذا. ولكنها الوحدة.. أحيانًا تشيد الغرف المظلمة بداخلنا، ولا نستطيع الخروج منها. حتى أنا لا أعرفه يا جليلة.

- تتكلم كالشاعر الآن..

- وكأنني لست بأمي..

- كأنك لست بشرًا مثلنا.

ثم قالت في قوة: لا تظلم يا حسن. إياك أن تظلم. تعرف الظلم وما يفعله بالبشر. لا أريد منك أن تصارحني بما لا تريد أن تصارحني به، وأثق بك، أنت تعرف، ولكني أتمنى أن تتوخى الحذر، فلا تظلم أحدًا حتى وأنت قادر.

قال وهو يضغط على يدها: أعدك أني لن أفعل.

استمرت جليلة في القراءة، وفي ملاحظة زوجها وتتبع خطواته. يئست من الوصول إلى المكان المعتم بداخله، وأحيانًا تملكها اليقين أنه هو نفسه لا يستطيع الوصول إليه. ولكن نزوع نفسه إليها، وتعلقه بها، وإغداقه عليها بحنان لا قبل لها به لم يتغير مع مرور الوقت. ولم يزل يعطيها هي وأختيها وأمها نصيبهن من تجارة والدها بانتظام كل شهر، لم يتخلف يومًا، بل عندما ازدهرت تجارته ضاعف العطاء. قالت له يومًا: إنها لا تحتاج هذا المال، فهما زوجان ولديها الكثير من ماله هو، وكان يصر في صرامة قائلًا إن الحق لا فصال فيه ولا كلام. توقعت أن بمرور السنين سينسى حسن منْ كان ويغوص في حياة الرفاهية والبكاوات، ولكنه لم ينس قط. كان يذكر نفسه طوال الوقت وكأنه يخاف النسيان. حتى إنه كان يحكي لأولاده مازحًا كل تفاصيل حياته وهو خادم ولا يبالي في أن يفاجئ التجار الذين لا يعرفون أصله ويحكي لهم كيف أصبح صاحب المحلات، لا حاول إخفاء ماضيه ولا نسيانه. أعجبها شجاعته في المواجهة، وأخذ حبها له منحدرًا مختلفًا فلم يعد فقط شوقًا وولعًا مع أن شوقها له لم يخمد، ولكنها أعجبت بثباته وذاكرته حتى ظنت أنه أفضل رجل في مصر كلها. وانبهرت بمقاومته للإنجليز بتجارته ومصنعه، كانت تعرف أنه يتسلل إلى الطريق في

بـطء وثبات. لم تزل تأتي معه إلى الإسـماعيلية حتى بعـد أن أنجبت أربعة أولاد. عرف ما يدور في خلدها. بعد عشر سنوات من زواجها قال مازحًا وهو يرتدي ملابسه: تنظرين إليَّ هذه الأيام وكأنك اكتشفت أني ابن الخديوي نفسه.

فقالـت في قوة: بل اكتشـفت أنـك أفضل من كل السـلاطين بكثير، وأنني محظوظة بك.

قال : تعرفين يا جليلة ما الذي يعجبك؟

- ما الذي يعجبني؟

- أننـي لم أفقـد ذاكرتي. أحاول جاهـدًا الإبقاء عليها. فقـدان الذاكرة هو بداية الهلاك، وتشويه التاريخ يؤدي إلى الهزيمة.

- تتكلم أحيانًا بهذه الكلمات التي..

ابتسم قائلًا: التي لا تخرج من أمي..

- بل التي لا أفهمها. لِمَ لم يصبك الغرور؟

ابتسم قائلًا: لأنني أفهم الدنيا.

* * *

اضطـرت أختـا جليلة إلى زيـارة أمهما في الفيـلا على مضـض، ودومًا عند اختفـاء حسـن من البيـت، وعنـد حضورهمـا تختفي تمرهـان تمامًـا. بعد عشرة أعـوام ماتت الأم بثينة، واسـتمرت علاقة الأخوات الثـلاث مفعمة بالإحباط والحـذر. أما الأختان عزميـة وعفاف فقد كانا يتقابلان معًا كل أسـبوع وجليلة هي موضوع الحديث وشـغلهما الشـاغل. أشـفقتا عليها من العيش مع الخادم،

وقالتـا إنهـا اضطـرت أن تتزوجه هربًـا من زوجة عمهـا، وإنها بريئـة من تهمة عشـق خادمهـا، جليلة مثلهـا مجبورة ومسـيرة، جليلة مثل كل النسـاء لا إرادة لهـا ولا قـرار في يدها. كم مصمصت عفاف شـفتيها وقالـت: الواطي واطي.. كيـف لابنـة البك أن تتعامل مع حسـن؟..يلفها على إصبعـه. هؤلاء الخدم كل مـا في قلبهـم حقد، يطمعـون في كل ما لديـك، وربما يحصلـون عليه كما حصل حسـن. بـل أحيانًا كانتا تؤلفان القصص عن مأسـاة جليلـة، وعدم قدرتها على الشـكوى خوفًا من بطشـه؛ فهو يسـيطر على البيت والمال. ربـما ضحت جليلة حتـى يتسـنى لأختيهـا أن تحصلا على مالهـما وحقهما في مـيراث الأب. لا بد أن حسـن أسوأ من شريف وفؤاد مجتمعين. تمسـكن حتى يتمكن. وجليلة ساذجة طيبـة تسـير وراءه كالغنم المعد للذبح. وانتظرت عفاف يومًا يتزوج حسـن من عبـدة مثلـه أو خادمة. فحتى لو تذوق الشركسـية بالدجاج سـوف يحن للفول الـذي اعتـاده. هكذا قالـت عزمية وهكذا قالـت لجليلة مـرارًا. في كل مرة وفي كل زيارة كانت تنصحها أن تفتح عينيها، وأن تعرف أن رجلًا مثله لا خير فيه؛ فهـو نبـات متوحش بلا أصل ثابت ولا أفرع خضراء. لم تؤثر كلماتهما في جليلة، ولكنها أيقنت منذ البداية أنها لو تكبرت يومًا أو أشعرته بأنها الأفضل ستخسره ربما. ولا يمكن أن تغامر بحبه. توخت الحذر حتى في أوقات المشاجرات بينهما كان عليهـا أن تكتـم أي كلمات ربـما تجرحه. وعرف وفهم ما يجـول بخاطرها. بعد زيارات أختيها كانت تدللـه أكثر من قبل، وتغدق عليه بمشـاعرها فيبتسم قائلًا: لا أعرف هل أكره زياراتهما لأنهما بالطبع تسبان فيَّ طوال الوقت أم أتمناها لأنك تعطينني كل هذا الاهتمام.

تقـول في ارتبـاك إنها سـتهتم به دومًـا. أصبحت تراقبه مـن بعيد، وتحاول فهمــه، معاملتـه مـع التجـار أوضحـت لها أنـه ليس بالرجـل السـهل، يراوغ، ويجـادل، ويسـحر، ويجذب إليـه الجميع، يقول مازحًـا إنـه كان خادمًا فيعرف

كيف يتأكد من جودة القطن بنفسه، وإنه لم يولد غنيًّا فيقدر قيمة المال والوقت، وإنه أفضل من يتعامل معهم في التجارة فلا هو صاحب كيف ولا شيء أهم عنده من تجارته.

بدأ يكتسب ثقتهم بعد حين، وأصعب ما قابله في عمره هو اكتساب ثقة من حوله حتى زوجته. يشعر بلحظات خوفها من تقلبات الزمان ولا يلومها. لم يقو على لومها قط. فقد فاز بها بعد عجزٍ أعوامًا وفرحة الفوز لا تترك قلبه.

عندما يتشاجران ولو صاح في وجهها، كانت تنظر إليه في لوم في بعض الأحيان، أو تصيح هي أيضًا وتبادله الشجار في ثبات ثم يتناوبان التضحية، مرة كانت تصمت وتهادنه ومرة كان يصمت ويهادنها. قلت مشاجراتهما بعد عدة أعوام، وأحيانًا لو رأته مهمومًا تغدق عليه بحنانها، تعلمت منه الكثير، وأكثر ما تعلمته هو الكرم في العطاء، لو أحبها يحبها بتدفق بحار العالم، ولو غضب لا يفرط في غضبه منها. تعلمت كيف يعطي الرجل للمرأة، أيقنت جهلها وغفلتها من قبل. ويومًا وهي تضغط على كتفيه وظهره وهو نائم على بطنه من شدة الإرهاق قالت: حسن.. ماذا كنت تظن بي في الماضي؟ أعني كيف رأيتني؟ هل ظننت كالآخرين أني جريئة وربما مجنونة بذهابي إلى المدرسة؟

طرق برهة ثم قال: كنت جريئة.

- وهل كرهت جرأتي؟ عندما طلبت منك أن تخفي على أبي ما حدث مع هاني ناصف. أخفيت عليه من أجلي وليس من أجل أبي. فعلت الكثير من أجلي.

- تريدين أن تعرفي رأيي فيك حينها؟

قالت في حماس: أتمنى هذا.

- وماذا ستعطينني في المقابل؟

- كل ما تطلبه.

- يا زوجتي..كنت أراك جريئة وشجاعة وعاجزة، كنت أعرف وحدتك وحزنـك، شـعرت بهـما داخـل وجـداني في كل لحظـة، وفي كل موقـف. كل خلجاتك كانت متكشفة لي. كنت بداخلي يا جليلة..كنت صادقة دومًا في عصر كلـه ضـلال، أنا لا أقـرأ، ولكنني قرأتك أنـت، أحيانًا أتعجب من سـذاجتك، وكثيرًا ما أغضب من غفلتك..كنت أرى ما لا ترين، وأعرف ما لا تعرفين.

- ربما مازلت ترى ما لا أرى..

- لأنك عشـت بين جدران عالية حمتك من القبح، بينما أنا، فقد اغتسـلت بالقبح كثيرًا، وحاولت أن أنزعه عن جلدي مرارًا. لا بد للخادم أن يتحمل، في التحمـل قدرة على الصمود وتهذيب للنفس. رأيتـك يا جليلة وعرفتك..كنت معك بقلبي حتى عندما انتفض العالم من حولك. وعندما كنت أستمع للشتائم والاستهزاء من كل من حولي كنت أعرف أن الجهل ليس شيمتي بل شيمتهم.

- أنت لسـت بشرًا. أنـت غريب. أحيانًا تتكلم كأنك عشـت ألف عام أو يزيد.

- ربما أكثر بعض الشيء.

***

كلما أنجبت جليلة ولدًا أشـفقت عليه من دين سـيرثه منها. وكلما أنجبت ولدًا تمنت أن تنجب بعده بنتًا، تعلمها وتذهب بها إلى المدرسة ولكنها لم تنجب بنـات. أنجبـت أربعـة أولاد؛ الواحد تلو الآخـر. واختلفت عـن أختيها وعن أمهـا فلم تعـفَّ أن ترضع أطفالهـا، ولم تتركهم للمربيات. كانـت تتكلم معهم وتوجههـم، حكت عما كان، وما حدث قبل أن يسـمعوا غـير الحقيقة. اهتمت

بهـم، وصبت كل حنانها فيهـم، ولكنها كانت أكثر صرامـة من الأب وأحرص علـى الأنظمة، ولم تشـعر بالسـكينة قط والدين فوق رأسـها ثقيـل وكبير، وكل أحلامهـا مسـتحيلة فلا يسـمح لهـا بالتدريـس ولا مـدارس تهتـم الآن بتعليم البنات. حتى مدرسـتها التي لم تدخلها مصريات بعدهـا أصبحت تابعة لنظارة الأوقـاف، أصبحت كـدار للأيتام خيرية، وليسـت للتعليم الجـاد، تغير مكانها واسـمها وأصبحت الآن مدرسـة السنية تعطي الشـهادة الابتدائية بالمبتديان. لم تحـاول أن تعـود إلى المدرسـة، ولا أن تبحث عن مـكان بين مدرسـيها. ولكنها كانـت تمر عليها كل حين، في حنـين لأبواب تم فتحها ثم أغلقت غلقًا تامًّا. ربما تغـير الحال، مر عشر سـنوات على القصف وعـلى زواجها، لا بد أن الحال تغير، وأيقـن البعـض أن الصبـح لا بد أن نترك لـه الفرصة لأن يتنفس وإلا عسـعس الليل وطاف حول نفسـه دهرًا لاهثًا وراء الطريق، سيعسعس الظلام ويسيطر، متلصصًـا لا مواجهًـا، خائفًا لا مجازفًـا. لا لم تجرؤ على دخول مدرسـتها اليوم. ماتت ديزي بعد عدة أعوام، ولم تعد تعرف أيًّا من المدرسين.

لم تـزل تمرهـان تعيش معهما، ولكنهـا لا تقوى على الحركـة، ولا تخرج من حجرتها كثيرًا. تأتي لها جليلة بالطعام كل يوم، ويجلس أحفادها معها ساعات.

أخـذ الأربعـة أولاد لون والدهـم وملامحهما معًا. وكـم راقبت حسـن وهو يتعامـل مـع أولاده، تتعلـم منه أو تحاول الفهـم. كان أبًا مختلفًـا، لا حواجز بينه وبين أبنائه ولا خوف، يغمرهـم بحب لم يعرفه من أب، وكثيرًا ما سـأله أحدهم لِمَ يصر على ارتداء الجلباب بينما كل أصدقائه يرتدون البدل الأوروبية فيقول إن هذا هو زيه، وما يفضله، اعتاده منذ الصغر. لا يريد أن يكون مثل أحد، ولا أن يفعل ما لا يقتنع به ليرضي الغير. جلس يومًا مع الأربعة أولاد وشرح لهم الدين

وما يعنيه. فهم بعضهم ولم يفهم البعض. كانوا يتساءلون لِمَ لا يقرأ والدهم ولِمَ لا بد أن يتعلموا هم القراءة. ذهب أكبرهم أحمد إلى أمه قائلًا: ولِمَ لم يتعلم أبي؟

قالت في صراحة: حاول ولم يستطع.

- كيف لم يستطع؟

- والدك غير كل الرجال. لديه قدرات أقوى من قدرات البشر، بينما لا يستطيع القراءة، استطاع أن يفعل المستحيل. انظر إليه وتعلم من حكمته ونجاحه.

أصرت على دخول الأربعة أولاد المدرسة، وتمنت أن يتخرجوا في مدرسة الحقوق، ويعرفوا ويدركوا.

استمرت في كتابتها كل يوم. تكتب مقالًا وتضعه في الرفِّ في مكتبتها. ليلًا تقرؤه لزوجها فيستمع في اهتمام. لم يزل يغمرها بحب لا تعرف لماذا تستحقه ولا ماذا فعلت لتفوز به. يفهمها ويعرفها ولكن نفسها لا ترضى ولا تهدأ. يأكل الدين قلبها، لا يمر يوم إلا وهي تتذكره. ترى متى يأتون للقبض عليها؟ ولو أخذوا كل المال هل يكفي؟ تتراكم الفوائد ولا تقل. وفي أعماق النفس كان هناك شعور خفي بعدم الاكتمال. حلمت يومًا وأخفقت. حلمت أن تكون.. وتلاشت. فلا درست ولا نشرت وكتبت، ولا قرأ أحد اسمها في جريدة أو مجلة. كانت مستعدة أن تستمر في الكتابة باسم مستعار لو أتيحت لها الفرصة، ولكنها لم تحاول بعد اعتداء هاني عليها. تركت الصحافة، ولم تترك الكتابة. قالت يومًا لزوجها في يأس: زوجتك لا تجيد الطبخ، ولا تجيد الغزل والتطريز.

قال: هذا أعرفه قبل زواجنا.

- يؤلمني عدم الوصول إلى شيء. أحبك أكثر مما تتصور، ولكن شعور العجز يكسر الروح. كانت لدي أحلام لم تتحقق.

- اصبري. سيتغير الزمن.

- سامحني لأني لا أستطيع أن أكون مثل بقية الزوجات. لا أجهز أفضل الطعام ولا أقيم الولائم.

- أنت أفضل زوجة بالنسبة لي.

لم تهدئها كلماته. وعندما تقرأ له مقالاتها، كانت ترضى عن نفسها إلى حين. ثم تبدأ هواجس العجز تنخر قلبها... ماذا لو كانت تعمل في التدريس ولم تتزوج حسن؟ أليس حسن أهم من كل شيء بالنسبة إليها؟ كان كذلك. وكانت تتبعه بعينيها طوال الوقت، وتشتاق إلى لقائه كل يوم، ولكن العجز الذي واجهت به نفسها هو ما لا يمكن تجاهله.

عندما بحثت عنها هند نوفل الصحفية بعد عشر سنوات من الاحتلال، ومن زواجها، أيقنت جليلة أنها لم تجتهد كما يجب. تواصلت معها هند بخطاب أولًا ثم بزيارة في بيتها. هند نوفل كانت أشجع من جليلة بحثت عنها ولم تفتش جليلة عن هند.

كانت شامية تقطن في الإسكندرية وجاءت بفكرة تملكت كل نفسها، تريد أن تنشئ مجلة لنساء مصر وبناتها. مجلة للنساء وبالنساء، تتكلم عن مشاكلهن بجرأة وصراحة. قالت هند إن المرأة لا بد أن تدعم المرأة في هذا المجتمع، وأنه لو اجتمع النساء كلهن على هدف واحد سيتحقق. قالت إنها مؤمنة أن مصر لن تنهض بحكومات الإنجليز ولا احتلالهم، بل بجهود مصريين بسطاء لديهم

حلم بمدرسة، وربما لديهم جامعة في المستقبل ومخرج لكتابات النساء. تكلمت مع جليلة ساعتين بحماس، وجليلة تسمعها وتحسدها بعض الشيء، كانت هند تصغرها بعشرة أعوام ومع ذلك شجاعتها لا تقارن بشجاعة جليلة، أو هكذا قالت جليلة لنفسها، وربما نسيت ما كانت عليه منذ عشر سنوات. قالت هند: أريدك أن تكتبي في المجلة، مجلة الفتاة..مجلة علمية فكاهية وأدبية وأريدك أن توقعي باسمك وليس باسم مستعار. أريد لنا مخرجًا إلى النور.

كاد قلب جليلة أن يتوقف حينها من الفرح. وافقت على الفور. وأعطتها مقالين من المقالات التي تكومها على الأرفف. ثم تذكرت أنها لم تسأل حسن، وأن كتابة اسمها على المقالات ربما يسيء إليه. بعد رحيل هند انتظرته وحكت له كل ما حدث. استمع إليها وعيناه تتبع لمعة عينيها، وعندما سألته عن رأيه قال: ماذا قلت لها؟ وافقت وأعطيتها مقالاتك أليس كذلك؟

- كيف عرفت؟

- كنت أدور حولك سنوات.

- هل أغضبك هذا؟

- الدوران حولك أم موافقتك؟

- الاثنان.

- لا لم يغضبني هذا ولا ذاك.

عانقته بقوة يومها، وبدأ الرضا يجد طريقه إلى روحها في بطء وسلاسة.

كانت تقرأ له في حماس، ويخبرها برأيه بصدق كل مرة.

عندما سـألها يومًا أحمد ابنها الكبير لـو كان صحيحًا أن والدهم كان يعمل خادمًـا هنا، وأمه جدتهـم، كانت جارية قالت: والدك أفضـل رجل رأته عيني، وثـق أبي فيـه أكثر مما وثق في بناته. يعطي كل ذي حق حقه حتى يومنا هذا يبعث أربـاح المحلات لأختـي ويعطيها لي. أتعرف يا أحمد، والدك تسـلم المحلات في حال غير حالها الآن، توسع هو في التجارة، وضاعف الأرباح ومع أنه فعل هذا بمجهوده وبأمواله فهو يعطي الأرباح لي ولإخوتي مضاعفة وكأن كل توسـعاته من أموالنا. وعندما ألومه يقول إن المحلات كانت لأبي وحتى لو وسع التجارة فالفضـل لأبي. أي رجـل يفعـل هذا؟ كونـه كان خادمًا فهذا يشرفـه ولا يعيبه. اجتهد وفاز.

كان عامًـا مبشرًا مـر عليها سريعًا حتى إن القضيـة تأجلت مرة أخرى لمدة عامـين، فـكان لديهـا فرصة لتتنفـس في حرية، ومـن يدري ماذا سـيحدث بعد عامـين. بدا المصريون في الأعـوام الماضية، وكأنهم استسـلموا لمصير لا قبل لهم بمقاومته. ونـسي البعض كلمات أصبحت محظورة «مصر للمصريين»؟ من قال هـذا؟ لا أحـد يتذكر ولا أحد يريد أن يتذكر. طريـق النجاة يمر بمضيق مظلم، هكـذا قالـت لزوجهـا. كان زوجها يوفر المـال منذ عشر سـنوات، ويريد شراء أسـهم في قناة السـويس له ولها ولأولادهم الأربعة. لم تعرف لو كان هذا ممكنًا، وما فائدة هذا لو كانت كل الأسهم الآن في يد بريطانيا وفرنسا؟ وما فائدة شراء سـهم أو اثنين أو ثلاثة؟ حسـن أيضًا لم يشعر بالسـكينة قط. كان يعشقها وقلبه عاجز والانتصار الكامل بعيد وربما لا يشهد عليه ولا يراه. كان يريد أن يتمكن من المسـالك ويتشـبث بها. يعـرف الآن. ولا يقـوى على الوصـول الكامل ولا التمكن الآمن. لو حتى لملم بعض زبد الموج بين يديه حتى يتذكر سيرتاح قليلًا.

بدأ محاولاته شراء الأسهم وبعد الوساطة والمحاولات اشترى أربعة أسهم. وعاد إلى بيته وجمع أولاده وزوجته، وجلس وطلب من جليلة أن تقرأ ما هو مكتوب على السهم.. قرأت في إمعان وهي تنظر إليه من حين إلى حين حتى قال: من يملك هذه الأسهم؟

نظرت إلى المالك في العقد وقرأت اسمه ثم قالت: رعية عثمانية.

أجاب حينها في إصرار: بل مصري.

نظر إليه أولاده في عدم فهم فقال لهم: هذه الوثيقة تقول إنكم رعية عثمانية ولكنكم مصريون. لا تصدقوا ما يقال، ولا تستسلموا لهزيمة أبدية، لهذا المكان حدود وتاريخ. أمكم ستحكي لكم عنه. يومًا غيِّروا ما هو مكتوب في الوثيقة، وتذكروا حينها.

قالوا كلهم: ماذا نتذكر؟

- تذكروا أن الطريق ليس مألوفًا، وأن من يسير في الطريق المألوف يغرق.

لم يفهموا ما يقوله والدهم، ولكنها هي فهمت.

في نفس العام الذي بدأت جليلة فيه الكتابة، واشترى حسن أسهم قناة السويس، وتأجلت القضية حدثت حادثة غريبة لم تزل جليلة تسترجعها كل يوم وتحاول فهمها وكل يوم تفهمها بطريقة مختلفة. كانت أمًّا لأربعة أولاد حينها والعام عام ألف وثمانمائة واثنين وتسعين، أكبر أولادها في الثامنة وأصغرهم في الثالثة، بعد موت والدتها، وانتقال تمرهان إلى حجرة في الدور السفلي لصعوبة حركتها، كانت تمرهان قلما تخرج من البيت وفرحتها الوحيدة في رؤية ابنها والحديث معه ساعات وتعلقت بأول أحفادها أحمد، وأصبحت تنتظر قدومه كل يوم ولم تعد تقوى حتى على الخروج للغداء معهم بل يذهبون

إلى حجرتهـا كلهم ليتغدوا معها. كانت تتوه أحيانًا وتسـترجع الذاكرة في بعض الوقـت، وعندمـا تتوه تسـأل عن أنـاس بعينهم منهـم بثينة هانم وشـادي بك. أدركـت جليلة أن شـادي هو الرجـل الذي امتلكها وهو والـد زوجها. ولكنها أدركت أيضًا منذ زمن أن زوجها لا يبحث عنه، ولا يريد أن يعرف أي شيء عن والده، وأن زوجها لا يتكلم سـوى عن أحمد بك ثابت الذي رباه وأعطاه كل ما يملك، والذي يدين له بكل شيء. فلم تسأله قط ولم تفاتحه في الموضوع. ولكنها سـألت تمرهان يومًا من هو عبد الموجود الذي سـمي حسن على اسمه. فقالت: هو اسـم اختاره له أحمد بك. قال إن كل شيء زائل، ويبقى وجه الله، ثم قال إننا كلنا عباد الموجود دومًا وهو الله؛ لذا فأبو حسن هو عبد الموجود.

الحادثة الغريبة التي حدثت هذا العام هو قيام شخص بطرق الباب وطلب مقابلـة تمرهـان. فتح له أحـد الخدم وأجلسـه في حجرة الضيوف ثـم نادى على جليلـة. بعد اندهاشـها مـن الطلب ذهبـت للقاء الرجـل، وبدى لهـا أنه تعدى السـبعين ربـما، خلع طربوشـه وأمسـك به، سـيطر الأبيـض على شـعره الرفيع وشـاربه الكبير ووضع طربوشـه بين يديـه، وعيناه ممتلئتـان بعجرفة لم تكسرها السـنون. ولكن الشـبه بينه وبين حسن كان واضحًا لجليلة مع اختلاف ألوانهما. فهمـت جليلة أن الرجل ربما يريد أن يعبر لتمرهان عن ندمه أو يشرح لها، وربما يريـد أن يقابـل ابنـه أو يتكلم معه. رجحت جليلة أن الرجل على وشـك الموت وحسـن الآن تاجر كبير وليس خادمًا، وأن أي أب سيفتخر بإنجاز ابنه، ولكنها لم تكـن متأكـدة من رد فعل حسـن وخافت أن يقسـو، وكان قـادرًا على هذا كما تعـرف. بدأت تكتب الحكاية في عقلها، سـتطلب من تمرهان أن تتدخل وتهدئ مـن روع الابن، وسـتطلب من حسـن أن يصافح والده، ويحـاول التعرف عليه حتى في أيامه الأخيرة.

قالت للرجل في رفق: تمرهان مريضة ولا تخرج من حجرتها كثيرًا. تريد أن تتكلم معها في أي موضوع؟

قال وهو ينظر حوله إلى الفيلا: أخبريها أن شادي بك يريدها.

لم تلمه على عدم البوح بما يريد أن يقول. ذهبت إلى تمرهان، وكانت تربط رأسها بخرقة بيضاء كما تفعل دومًا، وكأنها تبحث عن بيت يحتويها، ولم تجده سوى في عناق الخرقة المحكم لرأسها. جلست القرفصاء وهي تدندن بأغان بلغة لا تفهمها جليلة. اقتربت منها جليلة ثم قالت: هناك رجلٌ يريد أن يقابلك.

نظرت إليها تمرهان في ذهول فهمست جليلة: اسمه شادي بك. يقول إنه يعرفك. هل تريدينني أن أسندك للقيام والذهاب إليه؟

بقيت صامتة، وكأنها تحاول تذكر من يكون، ولم تفهم جليلة نظرة عينيها ثم قالت: أسنديني يا ابنتي.

أمسكت جليلة بذراعها، وأسندتها حتى خرجت إليه، ازداد انحناء ظهرها وتقلص الجسد أكثر من قبل، وشعرت بارتجافة طفيفة في يدها التي تمسك بيد جليلة، ولم تعرف هل سبب الارتجاف ضعفها أم عمر من الآلام لا تعرف عنه جليلة إلا القليل.

أمرت جليلة حينها أحد الخدم بإخبار حسن، وتمنت أن يأتي، وأن تتضح كل الحقائق.

ذهب الخادم ليخبر حسن. جلست تمرهان أمام شادي بك وعيناه مثبتتان على الأرض. قال في صوت قوي: هل تتذكرينني يا تمرهان؟

همست في صوت مبحوح: أتذكرك.

- تتذكرينني جيدًا؟ وتتذكرين فيلتي وكيف اشتريتك ثم أعتقتك؟

قالت وهي تبلع ريقها: أتذكر يا بك.

قال في قوة فجأة: لا أسـمع أي امتنان في صوتك. ولا أعرف كيف نسـيت مكانـك وثمنـك. اشـتريتك من سـوق النخاسـة، وكان صـدرك عاريًـا تمامًا، وغطيت جسدك حينها بردائي. تتذكرين هذا؟

أسندت تمرهان يدها على المقعد، ثم قامت، وأمسكت بيد شادي، وجلست على الأرض فجأة، وقبلت يده بلا كلمة.

فتحـت جليلة فمها في ذهول، ولم تفهم هل فقدت تمرهان عقلها أم أصابها الذعـر، ولكـن هذه القصـة غير القصـة التي تصورتهـا جليلة تمامًـا، ولو دخل حسن، ووجد أمه تقبل يد شادي بك، وتجلس على الأرض ستكون مصيبة هذا أكيد.

أمسـكت بها جليلة، وشـدتها لتقوم قائلة: تعالي اجلسي على المقعد..حسن سيغضب..لا تغضبيه.

قال شـادي: من حسن؟ أتريدين الجلوس على الكرسي يا تمرهان؟ أهذا ما يحدث هذه الأيام؟ يجلسون الجواري على المقاعد؟

فقالت تمرهان في يأس: لو أمرتني يا بك.

- من حسن؟

قالت وهي ترتجف: ابني.

- انظري إليَّ..

ترددت قليلًا ثم رفعت رأسها لتنظر إليه، وهي لم تزل تجلس على الأرض أمام مقعده. فقال: من حسن يا تمرهان؟

طأطأت رأسها ولم تجب. فقال: أنت تعرفين. هو ابن الجارية أليس كذلك؟ ولم يكن للجارية سوى سيد واحد.

رددت وهي ترتجف: هو ابن الجارية.

سمعت جليلة صوت باب الفيلا، وعرفت أن حسن جاء. شدت تمرهان في قوة وقالت: قومي أتوسل إليك.

قامت تمرهان في بطء، وجلست على المقعد وهي تبدو مشوشة. ثم نظرت إلى شادي قائلة في امتنان: دينك في رقبتي يا بك.

ابتسم ثم التقت عيناه بعين حسن. وخفق قلب جليلة بشدة. بقي كل منهما ينظر إلى الآخر، وكأنه يبحث عن أوجه التشابه والاختلاف في ملامح الوجه. مر الوقت، وأمسكت جليلة بذراع تمرهان لتثبتها مكانها حتى لا تفكر في الركوع مرة أخرى أمام شادي وربما لتثبت هي.

قال حسن بعد برهة: لا أعتقد أننا تقابلنا من قبل. أهلًا بك شادي بك.

قال شادي: بل ربما تقابلنا..كنت طفلًا حينها، أتذكر ذلك اليوم منذ أعوام.. جئت لأحمد بك في المحل وكنت هناك..

نظـرت جليلـة لعيني زوجها، وهي تحاول أن تستشـف مـا يخفي. وكادت تقسم أن زوجها يتذكر.

بقي حسن صامتًا ينتظر المزيد.

فقال شادي: أمك تمرهان..كانت جاريتي ثم أعتقتها.

هز حسن رأسه، ينتظر المزيد. أمسك شادي بطربوشه، وتفحصه وكأنه يراه لأول مرة، ثم وضعه على رأسه ثم خلعه وأمسك به. فعل ذلك ثلاث مرات.

ســاد الصمت المتوتر ثم قال شــادي: أنت ورثت الفيـلا والمحلات. كيف أقنعت أحمد بك بأن يكتب لك كل شيء بيعًا وشراءً؟

قال حســن وهو يجلس: هل شربت شــيئًا يا شادي بك؟ جليلة مُري الخدم بإحضار العصائر والشاي.

ثم التفت لشادي قائلًا: ما سبب تشريفك اليوم يا بك؟

صمت لحظات ثم قال: عندما كانت تمرهان عندنا..عندما كانت جاريتي..

رأت الغيظ في تحرك فك حسن ولكنه كتمه ولم ينطق.

قـال شـادي: محـلاتي تتعامل مع محلاتكم يا حسـن. اسـمك حسـن أليس كذلك؟

- تعرف اسمي منذ زمن يا بك.

- ربما أعرفه، ولكنني لم أتذكره سوى منذ أيام.

- وما سبب هذا الشرف؟

- خاتم ضاع من زوجتي. كانت نادرًا ما ترتديه، وتحتفظ به في خزانتها منذ أعوام.. أكثر من أربعين عامًا وهي تحتفظ به. اختفى.

- يؤسفني سماع هذا.

- لم ترتديه طوال الأعوام الماضية.. تركته ولم تنسه.

ردد حسن وهو ينظر إلى عينيه: تركته ولم تنسه.

أمسك شادي بطرف طربوشه وبدأ يحركه كالدائرة. ثم قال: لا بد أن تمرهان تعرف مكانه.

قالت تمرهان مسرعة: أقسم لك يا بك أني لا أعرف مكانه.

قال حسن وهو يتجاهل كلماتها: وهل تحتاج زوجتك إلى خاتم تركته أربعين عامًا؟

- لا تحتاجه. ولكنها تريد أن تعرف أين هو، فهو خاتمها.

- ولو عرفت، ما الذي يفيدها؟

- كان مختلفًا هذا الخاتم، ربما لم تستعمله زوجتي كثيرًا قلت لك، تركته ولم تنسه، ولكن بريقه يعمي الأبصار.

لم يجب حسن، ساد الصمت برهة، ثم قال شادي في جدية: الجواري لا أمان لهن. هل سرقت الخاتم يا تمرهان؟

- أقسم لك لم أفعل.

ثم نظرت إلى حسن، وهمت بالقيام، وتقبيل يد شادي، ولكنها خافت لحظتها من ابنها.

قال شـادي وهو يضع رجلًا فوق رجل ويحتسي العصير: لو أقسـمت فأنا أصدقك.

ثم نظر إلى حسن وقال: لدي ولدان.. تعرف...

صمت لحظتها، والتقت أعينهما من جديد فأكمل: سـيتعرفان عليك؛ لأني قـررت ترك العمل لهما. سـيتعاملان معـك وأتمنى أن تتذكر طريقـة تعامل أحمد بك وتكون مثله. أنت لسـت من صلبه ولكنه رباك. لأصدقك القول أنا لا أثق بك يا حسـن. ولا أثق في الخدم كلهم، ولكن هو زمن يختل فيه الميزان. أريد أن أوصيك أن تتعامل معهما بصدق، وليس بعجرفة من شبع بعد جوع.

وضعت جليلة يدها على فمها في فزع وخافت من رد فعل حسن. لكنه بدا هادئًا، وقال وهو يبتسم: أعدك أني سأتعامل معهما أفضل معاملة.

نظـر كل منهما إلى الآخر، ضرب شـادي الأرض بعصاه ثـلاث مرات، ثم ازدادت قبضته على العصا، وهو يهم بالقيام.

وقـال: كيـف توسـعت في تجارتـك هكـذا؟ تضاعفت أرباحـك، وأصبح التجار يتكلمون عنك بحسد وإعجاب. ولداي لم يفعلا هذا.

لم يجب حسـن. فقال شادي والكلمات تخرج بصعوبة: ما السبب يا حسن؟ أهي موهبة وذكاء أم انحراف وطمع؟

نظر حسن إليه ثم قال: ما رأيك أنت يا بك؟

بـدت عليـه الحـيرة، ولم تفهم تمرهان مـا يحدث، ولكن جليلـة فهمت ما لم يتفـوه بـه كلاهما. قال شـادي وهـو يبحث عن الكلـمات بعد برهـة، وقد عاود الإمساك بأطراف طربوشه بعصبية: أنت ذكي..هذا أكيد.

قال حسن في بطء: ورثت الذكاء عن أمي..

ثم أكمل، وعيناه لا تتركان عيني شادي بك: وأبي، هذا أكيد.

كاد شادي أن ينتفض من مكانه، ظهرت في عينيه حيرة وحزن وكبرياء، ثم قال: ورثت الذكاء عن أبيك..ورثت الذكاء عن أبيك. هذا أكيد.

قام، واتجه إلى الباب قائلًا: هذا زمن يختل فيه الميزان. فيلا يقطنها العبيد... فيلا يقطنها العبيد...

قال حسن وهو يبتسم له: شرفتنا يا شادي بك. نريد أن نراك كثيرًا وبخير دومًا.

توقف أمام الباب، ونظر إلى حسن ثم قال: عندما يختل الميزان في هذه السن تصبح وطأته أصعب.

قال حسن وهو يمسك بذراعه: تريدني أن أسير معك إلى العربة؟

فقال بلا تردد: نعم.

أمسك بذراعه ليسنده، وسار معه في بطء إلى العربة، وعند الوصول إليها، أمسك شادي بيده في قبضة قوية برهة، أربكت حسن، وربما أثرت فيه أكثر مما أراد، ثم قال شادي وكأنه لاحظ يده التي تمسك بيد حسن: هل يمكن أن تساعدني على الصعود.

فعل حسن. فترك شادي يده.

ثم قال حسن: أراك على خير يا بك.

بـدت الحيرة على شـادي هـو أيضًا، نظـر إلى ذراعه ويـده ثم قـال: الذكاء مـوروث هذا أكيد. ولداي لا يسـاعدانني على تسـلق العربة..دللتهما أمهما أكثر من اللازم. ولكنهما أولاد البك.

ثم التفت إلى السائق وقال: سر بنا إلى البيت، أشعر بالتعب.

قال حسـن: أتمنـى أن يحفظ الله لك أولادك. وأتمنـى أن تخبرني لو احتجت إلى أي شيء.

لم يجـب، كان غارقًـا في أفـكاره وهو يحـاول أن يمنـع الإدراك من اختراق القلـب، ويحاول أن يسـيطر على لوم النفس في هذه السـن وبعـد أن تولى العمر. أمسك بذراعه في الموضع الذي أمسكه حسن والألم يخترق القلب بلا توقف.

انتظر حسن حتى تحركت العربة ثم دخل إلى الفيلا.

بـدأت تمرهان في الارتجـاف المتواصل، اتجـه إليها ابنها، وربـت على كتفها قائلًا: لقد رحل.

جلس مع أمه سـاعة ربما وتركتهما جليلة وهي لا تدري هل تفضي إليه أمه بأن شـادي والده؟ هل تحكي له عن عذابهـا؟ أم أنه يهدئها فقط؟ لم تكن بطبعها تتجسـس، ولكنهـا اليـوم حاولت أن تسـمع حديثهما، وتنظر مـن ثقب الباب. واندهشت أنه لم يتكلم عن شادي بك قط، بل سأل أمه عن حالها، وقبل رأسها، وربت على كتفها ثم بدأ يتكلم معها عن الكثير من الأشياء. حديثه مع أمه تركها أكثر حيرة. وبعد أن فكرت في الأمر وجدت أنه ربما لم يرد أن يواجه أمه العجوز بـما يزعجها، ويخـرج عذابًا قديمًا تحـاول هي التغلب عليه، بل حـاول أن يمحو

الزيارة ويوضح لها أنها لا تعني شيئًا على الإطلاق. ويبدو أن أمه لم تتكلم معه قط عن والده؛ فلم يشأ أن يضغط على جروح لن تلتئم.

فهمت جليلة هذا، ولكنها لم تفهم سبب زيارة شادي بك. طرقت الباب فسمح لها حسن بالدخول.

بعد أن هدأت أمه، احتضنها، وقبل رأسها، فقالت وهي تربت على كتفه: أنا لم أتركك يا حسن. لا تصدق أني تركتك. كانت نصف ساعة، وانشطر قلبي، فعدت إليك، كنتَ نائمًا وعدت إليك. لا تغضب مني.

لم يفهم كلماتها. ولم تفهمها جليلة. ولكنه قال: لِمَ أغضب منك؟ لا أغضب منك أبدًا. نامي بعض الوقت. كان يومًا طويلًا.

قالت تمرهان في حيرة وهي تنظر حولها: هل رحل البك؟

قال في تأكيد: رحل منذ زمن.

قالت في استجداء: هو لا يريد استعادتي، أليس كذلك؟ لن أعود إلى بيته، أليس كذلك؟

قال حسن: أنت هنا سيدة هذا البيت، تذكري. أنت لست أقل من زوجته، بل أغنى وأفضل.

قالت وهي لا تفهم ما يقول: لو أرادني أن أعود لا بد أن أعود.

قال وهو يشد على يدها: أمي، رحل. ولا يقوى أحد على إخراجك من بيتك.

اتجهت جليلة إلى المطبخ، ثم أحضرت لها الشاي، وأعطته لها وقالت في رفق: اشربي الشاي وكلي شيئًا ثم نامي بعض الوقت.

نظرت إلى جليلة وكأنها لا تعرفها برهة، ثم أخذت منها الشاي، وشربته في بطء، وهي تنظر حولها لعلها تفهم ما يحدث.

بعد أن نامت خرج حسن من الحجرة.

كلما مر بجليلة العمر أدركت صعوبة فهم السبب الذي جاء من أجله شادي بك، بدا واهنًا، ولكنه جاء، ربما حركه فضوله ليرى ابنه أو صاحب الأملاك الآن. ربما أراد أن يعرف ما الذي حل بجاريته. لم تفهم جليلة. وكونها لم تفهم أسباب شادي بك فهذا جائز، أما أنها لا تفهم رد فعل زوجها فهذا هو الغريب. انتظرت حتى خرج من حجرة والدته، ثم أحضرت له الغداء، وجلست أمامه تنتظر أن يخبرها بما يجول في خاطره ولكنه لم يفعل. بدأ يأكل في صمت.

قالت هي: من هو شادي بك؟

قال بلا تأثر: أحد التجار عندنا. يتاجر في القطن.

- وما رأيك فيه؟

نظر إليها برهة ثم ابتسم قائلًا: أين الأولاد اليوم؟

- ما رأيك فيه يا حسن؟

- لا أعرفه. فلنكف عن الحديث عنه، ولنتكلم عما هو مفيد. اليوم أريد أن أخرج معك لنتجول في شوارع القاهرة، فقد أضاءت المصابيح الكهربائية شوارعها، ضوء الكهرباء مختلف يا جليلة، سيبهرك بقوته وطغيانه.

قالت وهي تسير بجانبه ليلًا وتمسك بذراعه: لا ضوء يضاهي ضوء الشمس يا حسن.

- وَلكن الكهرباء ستغير كل شيء، سأتفق مع شركة ديبو، وأدخلها في بيتنا، وسيصبح الليل نهارًا، انظري لانعكاس الضوء على مياه النيل.

قالت في تأكيد: أفضل ضوء الصبح دومًا.

بعد عدة أيام مات شادي بك في بيته. سمعت أن ولديه لم يكونا على وفاق معه، وأنه كان محبطًا معظم الوقت ولكنه لم يعترف بهذا لأحد، مع أن كل الخدم في بيته سمعوا ابنه يصيح في وجهه، وابنه الآخر يعايره بمرضه. بعد عدة سنوات أعادت جليلة الزيارة كلها في ذاكرتها واندهشت من رد فعلها. هذه المرة أشفقت على شادي بك وليس على تمرهان. بدا عقله مشوشًا وربما أراد أن يعرف أكثر عن ابنه، ومنعه اعتقاد قديم وراسخ أن ابن الجارية يمكن الاستغناء عنه. ربما أيقن عند قرب النهاية أنه يريد أن يراه. من يدري؟ ربما دفعته رغبته في ملء ثقب في قلبه، صنعه هو منذ زمنٍ اعتقادًا أن هذا هو الأصح، وأن الأعراف لا بد أن تتبع. ولكن القلب استمر في تسريب الدماء فلا اعتدل الكون، ولا صح القلب وشفي.

ما يبوح به البشر قليل، وما يدركون عن أنفسهم أقل. كلما لاحت بذاكرتها يده وهي تضرب بالعصا مرة واثنتين وثلاثًا بدا أكثر عجزًا وحيرة مما يريد أن يظهر. خرجت كلماته جارحة، وهكذا هي كلمات العاجزين دومًا.

****

12

اعتــادت جليلــة غياب زوجها أحيانًا أســبوعًا أو أكثر، وهــي تعرف أنه في خلوة في ســبيل الغــارق. يحتاجها بين الحين والآخر. عرفــت أنه غير كل البشر. تســاعده الخلوة على التغلب عــلى الكوابيس ليلًا. وكثيرًا مــا تعانقه في قوة حتى يستيقظ، وأبدًا لا يحكي لها ما رآه. سر هويته وروحه لا يعرفه سواها. والرسائل في مكانها تحت الشجرة.

عند ســبيل الغارق جاء حســن مهرولًا إلى الشــيخ الزمزمي وهو يعرف أن الشيخ يحتضر. ولكنه لم يخف على مصير الشيخ بعد الموت. قال حسن للشيخ في حماس: جئت لأخبرك يا شــيخ أني أعــرف ما جعل المجذوب يفزع، فيضطرب، ويفقد سيطرته على عقله.

- لا تقــل لي إن الهزيمــة كتبــت عليــه وعاصرها بعد النــصر، وقرأ الماضي، وعاش الحاضر فأغشي عليه.

- بل هو الطريق..

قال الشيخ : يصل إليه الطامع قبل العاشق.

- أحيانًا، ولكن الطامع عمره قصير، والعشـق ليس داءً واحدًا بل أمراضًا متفرقة، لكل منها دواء. هكذا علمتني.

- وهل تعلمت؟

- حاولت. هي دنيا لا راحة فيها ولا طمأنينة.

قال الشيخ في بطء: كان آدم يعيش في أمان، واختار المجازفة والخطر.

- ثم بحث عن الأمان بقية عمره..

تنهد الشيخ وطرق برهة ثم قال: ماذا ترى في أحلامك يا حسن؟

- الطريق لا ينكشف إليَّ يا شيخ..في البحث عنه جهاد. والفوز في البحث عن الطريق، وليس في الوصول إليه.

- تتكلم عن طريق البحر أم طريق الدنيا أم طريق الرضا؟

قال حسن وهو ينظر إلى الأفق: بحثت عن الثلاثة معًا. أعرف أن سيطرتي عـلى البحار لم تكتمل، ولكن هناك انتصـارات صغيرة تثلج صدري. أما طريق الدنيـا فقـد فـزت به إلى حين، ودخـل الرضا قلبـي، ولكنه لم يسـكنه إلى الأبد. فالرضا يأتي كالنجم الثاقب، ثم يتلاشى من الأفق فأنتظره في لهفة.

- طريق الرضا الكامل ليس على الأرض يا حسـن. ولكن هل أنار العشق بصرك وبصيرتك؟

صمت حسن برهة ثم قال: انغمست في صراعات تافهة لدنيا فانية، ولكن روحي لم تتهاو ونفسي لم تستسلم. أريدك أن تعرف. هي من أزاحت الغم عن صدري لأفهم أن النصر ليس فقط في الوصول بل في السعي والمحاولة.

- لو امتلكت الحبيبة تشقى..

قال حسن: لا يوجد من لم تمتلكه الدنيا ولو إلى حين..ومن تعشقه الدنيا يغوص فيها ويغرق.

قال الشيخ: جئت لتخبرني بما عرف المجذوب، ولِمَ فقد عقله.

- المجذوب عرف أن اليقين الحقيقي يأتي بزوال البدن، والهزيمة ليست أبدية، والسعي يؤدي إلى النجاة.

- ولِمَ فقد عقله إذن يا حسن؟

- لأنه عشق عشقًا بلا أمل يا شيخ..وسعي سعيه بلا يقين، وعندما انهزم ترك الهزيمة تنتشر في الروح والنفس. ألم تعلمني ما قاله الغزالي:

«اجعل الهمة في الروح، والعزيمة في النفس، والموت في البدن».

- وأنت يا حسن؟

- أنا أتذكر يا شيخ، وأفهم أن في زمن الحزن لا بد أن ننتظر المعجزات، ونسعى بيقين، ونعرف أن الدائرة لم تكتمل.. جازف آدم وخرج من الجنة، ثم سعى لأمانها نادمًا وهكذا هم كل البشر. أسعى يا شيخ وأعرف.. أعرف أكثر من الشاطر حسن وأكثر من المجذوب. أعشق وكلي أمل، وأسعى بيقين، ولا أترك الهزيمة تتملكني حتى لو غرقت كل سفني.

- وماذا تعرف أيضًا؟

- ما قلته لأحمد بك في الحلم..ما رآه في منامه.

فتح الشيخ الزمزمي عينيه وقال: أبصرت ما لم نبصر..لماذا؟ كيف عرفت ما حدث لأحمد بك؟

- تأتي البصيرة مرافقة للعذاب، ويأتي الإدراك مرافقًا للهزيمة، وتأتي الحكمة مرافقة للحروب.. هي أيام معدودات، أريد أن أرافقك بعض الوقت.. حتى لا أنسى من كنت وماذا أصبحت. عند انكساري جاءت المعجزة، أيقنت مجيئها وانتظرته، أما المجذوب فلم يدخل اليقين قلبه.

نظر إلى الشيخ وقال: جئت أرافقك يا شيخ؛ لأن في فراقك حزنًا لي، وفرحة لك.

ابتسم الشيخ الزمزمي ثم قال: بل جئت ترافقني حتى تتذكر. جئت تهذب النفس وتروضها.

* * *

13

فرحـة جليلة بالكتابـة دامت عامين فقـط، عامان وجليلـة تكتب مقالاتها في جريـدة الفتـاة، وتكتـب اسـمها ويتواصل معها البعض، تسـألها النسـاء عن رأيهـا أحيانًـا، وتبعـث لهـا بعضهـن بإعجابهـن في أحيـان أخـرى. ذاع صيـت المجلـة وكاتباتهـا وتمكنت جليلـة حينها أو كادت. ولكن هنـد نوفل قررت بعد عامـين الـزواج، وأصبحـت متابعـة الجريـدة صعبًا عليهـا فأغلقتهـا. اعتذرت لجليلـة وقالـت إن الضوء حتى ولو كان قصيرًا فهو أفضل من الظلام المسـتمر. تفهمت جليلة حينها. وبدأت تكتب لنفسـها من جديد، وتقرأ لزوجها فقط ثم تضـع مقالاتهـا على أرفـف المكتبة. وبدأ العجـز يطفو على السـطح مرة أخرى، وهـو عجز لم يتسـبب فيه زوجها ولا عائلتها. فلا حيلـة لها ولا قدرة على تحقيق أحلامها. قررت أن تنشـئ مدرسـة صغيرة بداخل بيتها لكل من يريد أن يتعلم وأخرجـت كتبهـا القديمـة تراجعها، وجهـزت فصلين؛ فصـلًا للبنات وفصلًا للبنـين، وفي البدء جاءتها الأمهات من الحي متحمسـات، ثم بدأن التشـكك في نوايا جليلة، تناثرت كلمات عن أصل زوجها وعن غرابتها، وتناثرت شـائعات

أن جليلة تعلم البنات أشياء خطيرة، وربما تطلب منهن الثورة على العائلات والزواج من الخدم، فانتفضت الجموع من حولها، ولم تيئس، طلبت من أولاد الخدم الانضمام إلى المدرسة، ومن كل الأيتام والفقراء، ولكن بعد حين شعر أهل هؤلاء أن المدرسة مضيعة لأوقات أولادهم، فلو خرج البعض للعمل والبعض للتسول وتزوجت البنات لكان الأفضل والأسهل لهم ولأصبحت الطرق مستقيمة وقصيرة.

انفض الجميع من حول مدرسة جليلة ولم يتبق سوى أبنائها. خصصت لهم ساعتين في اليوم تدرس هي لهم ما تعلمت، فربما يختلف عما تعلموا هم في المدرسة، وركزت دروسها على تاريخ مصر، حكت لهم عما عرفت، وما أيقنت وطلبت منهم زيارة الأهرامات والقلاع وتأمل المساجد والخانقات والأسبلة. فر أولادها بعد حين إلى حياتهم. وعادت لها وحدتها، ولم يستمع إليها سوى زوجها. كان يعرف حزنها الدفين، وطاقتها التي أغلقت عليها بابًا يكاد ينفجر. كل يوم يستمع إليها وأحيانًا تشفق عليه، فتقول في يأس: تجدني مملة وغريبة أليس كذلك؟

فيضمها إليه ويقول: أنتظر هذا الوقت كل يوم، وكأنه جائزتي على يوم عمل شاق. أنا أعرفك يا جليلة.. أنا فقط.. كنت شاهدًا عليك أعوامًا.. أراك من بعيد ونفسي بداخلك. لن تفهمي.

أحيانًا لم تكن تفهم، ولكنها دومًا كانت تحبه، وتوقن عشقه لها. قالت يومًا وهي تنام على صدره: لو كنت في زمن غير الزمن ولي زوج مثلك كنت سأحلق في الهواء حول العالم. تحتاج المرأة إلى رجل مثلك يقف حولها وبجانبها كالحائط القوي والأرض الصلبة لتتكئ عليه، وقت قسوة الآخرين. تعرف، لتصل المرأة إلى حقوقها تحتاج رجلًا مثلك. يرفع لها المظلة فيحميها، كنت معي دومًا، ومن حماقتي لم أكتشف مبكرًا أنك كل شيء.

قال مازحًا: تحتاج إلى خادم؟

- تحتاج إلى رجل يا حسن. وأنت رجل.

- هذا الإطراء لأن أختيكِ زارتاك كالعادة؟

- بل هي لحظات أرى فيها دنيانا، وأعرف من تكون فيها.

أسند ذقنه على رأسها، وهو يستمتع بوجودها معه. لم تزل لحظات احتضانها هكذا فوزًا بالنسبة إليه، ووصولًا إلى المستحيل، واختراقًا لطريق كان مسدودًا وعاليًا.

* * *

بعد موت باسيلي في سن الثمانين أوصى ابنه الكبير بالاستمرار في التعاون مع حسن. كان ابنه أكثر طمعًا وحذرًا، ولكن حسن كان وقتها مخضرمًا، وعرف كيف يسيطر على مسالكه ويضغط على الأبواب المواربة. اليوم اصطحب أحمد ابنه الكبير معه إلى الإسماعيلية وأخبره بالحقيقة وهو في الخامسة عشرة. وأصبح يرافقه في رحلات الإسماعيلية، بقية عمره. تكلم معه عن الدِّين، وعن الكبرياء، وعن قصف الإسكندرية الذي ترك أمه بجزع لا شفاء منه. استمع الابن، وفهم ولكنه لم يقتنع بأساليب والده في الوصول، ولا باستعمال القوة والتحايل للنصر. عندما بلغ الواحدة والعشرين جلس مع والديه وزف لهما خبر رحيل كرومر عن مصر بعد حادثة دنشواي.

قالت أمه: ولكن الإنجليز لم يرحلوا.

فقال أحمد في تأكيد: يا أبي مصر للمصريين.

نظرت جليلة إلى حسن وهي تبتسم ابتسامة ممتزجة بالحزن والحذر، والكثير من الرعب.

ثم قالت لأحمد ابنها: من يقول هذه الجملة الآن؟ آخر مرة سمعتها كان منذ ثلاثة وعشرين عامًا وانتهت بدمار واحتلال.

قال أحمد في حماس: كل مصر تقولها.

- كل مصر؟

كان أحمد دائمًا يخاف من رد فعل أمه أكثر من أبيه، ومن عصبية أمه وصراماتها، فاتجه برأسه إلى أبيه وقال وهو يستجمع شجاعته: الإنجليز في مصر منذ ثلاثة وعشرين عامًا؟ وماذا فعل المصريون؟ انتظروا في خضوع أن يرحموهم وأن يرحلوا، أو أن يعلموهم الحضارة ثم يرحلوا؟ هل يعقل أن نتعلم نحن الحضارة وكأننا لا نتذكر من نكون؟!

قال الأب وهو يداري ابتسامته: ومن نكون يا أحمد؟ لا تختبئ بمجد الأجداد وسيرتهم؟ من تكون أنت؟

قال أحمد في حماس: أنا أعرف من أكون، ولكنهم هم لا يعرفون. ولن يعرفوا إلا عندما أبني بلادي وحدي دون عون ولا يد تساعدني. في عصرك يا أبي، سامحني لو كنت سأقول رأيي بصراحة، لديك سعة صدر دومًا، كانت الغلبة للأقوى، لتحصل على حقك جمعت الرجال وتدربت على السلاح، ولكن غيرك ربما لا يستطيع، ربما لا يملك قوتك ولا تصميمك، ولو استمرت الغلبة للأقوى فلا مكان للمصريين يا أبي، فلا سلاح في يدهم ولا عائلات تحميهم. نحتاج أحزابًا ودستورًا يحمي الضعيف والقوي. نحتاج وعيًا وهوية.

ردد الأب وهو ينظر إلى زوجته: وعي وهوية.

قالت الأم في استياء: لا تعجبك طريقة والدك في استرداد الحقوق؟

قال أحمد مسرعًا: لم أقل هذا، ولا أجرؤ على قول هذا. ولكننا لسنا بقوة أبي، ولا نستطيع المجازفة مثله. لو كان هناك قانون يحميه، لما لجأ لجمع الرجال، وزرع الرعب في قلوب الطامعين. أحلم بمصر كل سبلها عدل وارتواء.

- كنت أحلم مثلك..

- هذا عصر غير العصر يا أمي. الإنجليز في مصر، ولن يرحلوا، ولن يساعدوا المصريين على النهوض.

- عصر غير العصر، هكذا تقول.

- يؤلمني عجزي يا أمي.

- آلمني من قبل.

- ولكن الاستسلام للألم لا يجدي. نحاول كل يوم. نبني دولة على العدل، والعدل يزيح الإنجليز وكل طامع.

نظر الزوج لزوجته ثم ابتسم الأب وقال: وكأنني أسمع أمك تتكلم.

ثبتت نظرها على الأرض، وهي تحاول النسيان، وتخشى المواجهة. قال أحمد وكأنه يعرف ما يدور بخلدها: قاومتِ الإنجليز يا أمي، وتعاونت مع الجيش..

قالت في أسى: وفقدت أبي وأختيَّ وخالي، وبقي الدَّين يحاصرني كالذنب، ليذكرني بالعجز والذل وقدرة الطامع وجبروته.

قال الابن في تأكيد: ولكنك حلمت.

رددت: حلمت..

فنظر لوالده وقال: أليس الحلم مجازفة؟ أليس في الحلم بعض الرضا؟

قالت في حسم: لو كان لا يتبعه ذل.

قال حسن: أحمد، الغلبة ستبقى للأقوى، فلا بد لصاحب الحق أن يسعى للقوة أولًا ثم يقيم العدل. فلا عدل يقام بلا قوة.

ساد الصمت، ثم قام أحمد وقال: أشكرك على سعة صدرك.

- لم تقتنع بكلامي أليس كذلك؟

ابتسم، ثم قال وهو ينظر إلى أمه: وهل لي أن أجرؤ على مخالفة أمي؟

- ولكن تجرؤ على مخالفة أبيك..

قالها حسن مازحًا، فضحكا معًا وتصافحت قلوبهما، ووجد في والده عصا سحرية يتكئ عليها لو انكسر، ويلهو بها لو حالفه الحظ، ولكنه يعتمد عليها لا محالة.

عندما خرج من الحجرة قالت جليلة في استياء: يتناقش معنا كثيرًا ويخالفنا الرأي.. ألا تعتقد أنك دللته؟ بل دللت الأربعة أولاد حتى أصبحت قراراتهم كلها مندفعة، لم أتصور يومًا أن أجرؤ على الكلام مع أبي هكذا.

تمتم مبتسمًا: مسكين والدك.

قالت في غضب: ماذا قلت؟

- قلت إنك كنت مطيعة يا جليلة، ولا تحبين التحدي أبدًا.

- هذا ليس وقت السخرية قلت لك. هناك قوانين وأصول لا بد أن تتبع.

لاح بخاطرهـا الديـن من جديد، وقضيـة الدين كانت كل الهـوان لجليلة، وأصبحـت موجـودة في حياتهم وحولهـم مثل جـدار البيت. كل بضعـة أعوام يسـألون عـن الدين وكل بضعة أعـوام يوكلون محاميًا جديـدًا وتنظر القضية في محكمـة مختلفة. أصبحت القضية كالسلسـلة الحديدية الثقيلـة، تكبل جليلة من روحها حتى أسفل قلبها.

ولكنهـا كانـت تلجأ إلى زوجها كلما ازداد الإحبـاط، كما فعلت منذ عقود. كانت تستغيث به ودومًا يعرف كيف يهدئها ويشعرها بالأمان.

* * *

بعض الحقائق لا تتكشف أبدًا وبعدها يتضح بعض منها أو القليل، وجليلة تبحـث وتفكـر والفهم عـذاب لأمثالها. كانت تسـتطيع. وعرفت أنها تسـتطيع وتحلـم. عندما بدأت تـدرس حلمت أيضًا بأن تقف أمام الحضـور يومًا وتلقي محـاضرة ليـس فقط للنسـاء بل للرجـال. وأدركت أيضًا أنها لن تشـهد على يوم تقف المدرِّسـة لتدرس لرجل وامرأة وتشرح فيه المرأة للرجل، وتفتح عينيه على ما لا يعرف وما لم ير. في كثير من الأحيان لامت نفسـها أنها استسـلمت، ولكن مواجهـة الإنجليـز والحكومة والمجتمع كانـت أكثر مما تسـتطيع، وبعد إنجاب أربعة أطفال أصبحت المجازفات محسـوبة. أكثرت من القراءة والحكي لزوجها عما تقرأ وما تكتب وما تكتشـف عن مصر وتاريخها وعن العالم والطرق.

حسـن كان يعـرف، يرى الهزيمـة في عينيهـا ولا يدري كيـف يمحيها. فما تتمناه جليلة فوق إرادته وقوته.

قالت يومًا وهي تجلس معه على الأرض، وتمسك بيده وتضغط عليها: تعرف ما يحيرني طوال السنوات الماضية؟

- ما الذي يحيرك؟

- في الماضي كنت تتحمل في صمت. تحملت الكثير من السخافات ممن حولك ولم أر أي شيء يظهر على وجهك لا غضب ولا استياء حتى ظننت أنك لا تبالي، وبعد زواجنا كنت تغضب..تغضب كثيرًا وكأنك اختزنت كل الغضب لبعد الزواج، ولا تتحمل أي إهانة من أحد. من تكون؟ كيف تغيرت هكذا؟

- تسألينني بعد أكثر من عشرين عامًا من الزواج؟

- ربما كان السؤال بداخلي، ولم أعرف كيف أصوغه.

فكر قليلًا ثم قال: وربما لن أعرف كيف أشرح لك. هناك قواعد يتدرب عليها الخادم يا جليلة ليؤدي واجبه، بإتقان. لا يشعر ولا يحب ولا يكره. يتجرد من كل الأهواء وكل الأطماع.

- ولو أحب؟

نظر إليها، وقال ووجهه عابس بعض الشيء: يغوص بروحه إلى الأعماق فلا يراها أحد، ولا يدري بها سواه.

- ولو غضب؟

- يسحب غضبه إلى أسفل البحر حتى لا يراه من يسبح على الشاطئ.

- وهل يمحي غضبه أم ينساه؟

ابتسم وهو يفتح كفها، ويمر بأصابعه على حدوده: الغضب لا يمحى يا زوجتي. وما يمكث في الأعماق يخرج من القاع أكثر صلابة وأكثر عنفًا. أحيانًا أغار من تفكيرك الطويل في الكتابة والتدريس، أحيانًا، بل كثيرًا أغار أني لا أستطيع أن أغنيك عن كل العالم.

قالت مسرعة: تعرف كم أحبك.

- أدرك إحباطك، وأعرفه ولا ألومك عليه. بل ألوم نفسي؛ لأني لا أستطيع أن أغير العالم، وأجعلك تصلين إلى ما تبغين، وأحرر مصر، وأفتح الطريق..عجزك هو عجزي..

قالت من جديد: ولكنني أحبك تعرف هذا أليس كذلك؟

قبَّل كفها قائلًا: أعرف. ولكنك تحتاجين إليَّ أكثر من الحب يا جليلة. لا تكتفي بالحب؛ لأنك في أعماقك تدركين أن دورك كان أكبر، ولم تستطيعي القيام به. أفهمك ولا ألومك.

قالت بعد حين: أخاف من الدين يا حسن. يرثه أبناؤنا فيعيشون في شقاء، وأنا السبب. براءتي تجعلني أعتقد أني سأغير الكون، ولم أستطع. لن تؤجل القضية إلى الأبد. يومًا سيأخذون كل ما نملك، ثم يزجون بنا إلى السجن. العمر قصير، ولو تركنا لأولادنا دينًا سيعتبون علينا.

هدأها كما كان يفعل في الماضي، ووضع رأسها على رجليه ومر بيده على شعرها، وكأنها لم تزل طفلة يحميها وقال: سيغير الله الأمر بين ليلة وضحاها.

قالت: كل هذا العمر ولا أشعر بالأمان إلا وأنا معك. عندما ألقي بجسدي ونفسي على رجليك، وأترك لك العبء كله..

أمسك بيدها وقال: قلت لك من قبل إني معك دومًا.

قالت وهي تحيط يده وتضعها تحت خدها: لا تتوقف.

- لن أتوقف.

أغمضت عينيها، واستمر هو يمر بيده على شعرها. ثم قالت وهي على وشك النوم: في زمن الحزن لا بد من المعجزات، كنت أنت المعجزة، انتشلتني، وأنقذتني من فناء لا قبل لي به. كنت تحميني دومًا من كل سوء. بدونك كنت سأضل الطريق..وأغرق أو أكاد..حسن..

قال في رقة وهو يمر بأصابعه على شعرها ورقبتها: نعم..

- أحيانًا أتمنى أن أموت قبلك؛ لأني أعرف أني لن أستطيع العيش بعدك.

قال في حسم: إياك أن تقولي هذا. وإلا توقفت.

قالت في بطء وهي تروح في نوم عميق: لا تتوقف.

همس في حسم وهو يمسك بخصلة غطت وجهها: حبك لي يا جليلة هو أكبر معجزة حدثت لي. لم أتوقعها ولم أحلم بها.

***

الباب الرابع

«وطأة الهزيمة على قدر الكبرياء

ولهيب الذل على قدر الكرامة

وهوان الروح على قدر العشق

هي أيام معدودات».

14

الغـرق إبداع وسـبل متفرقة، بعضهـا حتمي وبعضها نهـرول إليه في غفلة وحماس. وكلاهما مؤلم ومذل. في نفس العام الذي نطق فيه أحمد بكلمات لا تترك القلـب مع أنها تزعج الذاكرة وتحرك العقل المسـتقر، في نفس هذا العام، غرقت سـفينة بريطانية بعد يوم من خروجها من القناة، كانت السـفينة البريطانية ممتلئة ببضاعـة حسـن المهربـة، وواجهته أكبر أزمة منـذ عشرين عامًا أو يزيـد، منذ قرر تصدير القطن، فتح البريطانيون تحقيقًا وأرادوا معرفة السـبب، وفي هذه الأثناء كان حسـن ينتظـر في ترقب نتيجـة التحقيقـات، ذهب إلى ابن باسـيلي، وطلب منـه أن يتصل بالبحار البريطاني، ويتأكد من أنـه لن يتكلم، لا حاجة للاعتراف بوجود بضاعة فلم يكن لها علاقة بغرق السـفينة. وافق ابن باسيلي والبحار على أن يحصـلا على حقهما كاملًا حتى بعد غرق البضاعة. خسر بضاعته والكثير من أموالـه في يـوم واحد. فهو لم يحصـل على ثمن البضاعة الغارقـة، ولكنه دفع من

رأس ماله لهما. جلس أمام القناة ليلًا يفكر فيما تبقى وما تلاشى، نظر أحمد إلى والده ولأول مرة يرى وجه والده، وقد ظهرت عليه علامات العمر، أحاطت الهالات السوداء بعينيه، ودارت الخطوط حول ذقنه ورقبته. لم يره بهذا الحزن قط. كانت قوة والده وتلقائيته تعطيه ثقة لا قبل لأحد بها، ولم ير ضعفه سوى الآن.

قال أحمد: أبي..لو تركنا المجازفة لن نخسر المرة القادمة. لِمَ نعرض أنفسنا للخطر؟

قال في جدية: ماذا تقصد؟

- نتاجر في القطن فقط، دون أن نصنِّع ولا نصدِّر، لو تم القبض عليك نضيع كلنا.

قال وهو ينظر إلى القناة: هذا الطريق ..من يملكه؟

- قلت لي من قبل يا أبي إنه طريق مصري حتى لو امتلكه الآن الإنجليز والفرنسيون؟

- ومن يسيطر على التجارة يا أحمد؟ ولِمَ يمنع الإنجليز المصريين من الصناعة والتجارة؟

بدا على الشاب الحيرة فقال الأب: الإنجليز يسمحون لكل الجنسيات بالتجارة مع أوروبا والتصدير إليها فيما عدا المصريين. أتعرف لماذا؟ لأن في عصر غير العصر وزمن غير الزمن كانت مصر مفتاحًا لتجارة العالم. تسيطر عليها وعلى كل البحار. نسينا ولكنهم يتذكرون، ويخافون. يخافون لأنهم يعرفون.

- وكيف عرفت؟

- كنت هناك.

ظن أحمد أن الحزن أصاب عقل أبيه لحظة فقال: كنت هناك أين؟

- عندما امتلكنا البحور، وعندما خسرناها كنت موجودًا. في هذا المصنع، وفي تجارتنا انتصار حتى لو كان غير مكتمل. لا بد أن تعرف وتقدر.

- والآن خسرنا نصف أموالنا على الأقل، وربما حان الوقت أن نتوقف.

قال في حسم والقوة تسيطر على عينيه من جديد: أحمد، استمع إليَّ..ما يساعدني على تحمل هذا العمر هو هذا الانتصار الصغير، تجارتنا هي تصدير النسيج وليس فقط بيع القطن الخام لسمسار أو تاجر أجنبي. وليس للإنجليزي أن يسمح أو يمنع في بيت غير بيته وبحر غير بحره.

يعرف عناد أبيه، ويشفق عليه الآن. ويخاف بعض الشيء.

نظر إليه الأب، ثم قال في حدة: لو مت اليوم أو غدًا، سترثني أنت وإخوتك، ولي وصية واحدة ولا بد أن تنفذها لو كنت تريدني أن أموت راضيًا عنك، تستمر في الصناعة والتصدير وتحدي الإنجليز، حتى يُفتح الباب للمصريين، فيسيروا في طريق البحر.

- ولو دخلت السجن؟

- لو خفت لن تجازف، ولو لم تجازف تغرق. احفظ جملتي ولا تنساها. تعدني الآن.

وعده الابن في قلق. وفي طريقهم إلى القاهرة قال أحمد: هل سنخبر أمي؟

- لا

- ستعرف لو رأت الغم على وجهك، ثم إن الحال تغير، ولن نستطيع أن ننفق بنفس الطريقة بعد هذه الخسارة. ستعرف ولو عرفت أننا أخفينا عنها.. أنت تعرفها يا أبي.. ستغضب أيامًا، وتلومنا جميعًا.

قال وهو ينظر إلى الأفق: لا بد ألا تعرف، لا تقلقها، تفزع سريعًا، وتخاف أيامًا، لن يتغير شيء في حياتها، سنتأكد من هذا معًا.

وعند الوصول، عرفت من عينيه المنكسرتين ولم تواجهه، اختلت بابنها، وضغطت عليه، وأخبرها. ليلًا نامت بين ذراعيه، لم تتكلم عن السفينة، ترى أمنعه كبرياؤه من الاعتراف بهذه الهزيمة؟ لم يكن بيده غرق السفينة؟ أيخاف عليها كل هذا الخوف؟ ولِمَ يتحمل وحده؟ في الماضي أيضًا كان يتحمل وحده، عندما خطط للانتصار على عمها، واستعادة حقه لم يشاركها. وعندما حاولوا قتله لم يصارحها، واليوم عندما فقد أكثر من نصف ثروته لم يخبرها. اعتاد أن يتحمل وحده، وربما أشفق عليها من جزعٍ التصق بالقلب منذ قصف الإسكندرية. لم يكن نائمًا كانت تعرف، حتى لو أغمض عينيه.

ابتسمت وهي تنظر إليه، وتدفق حنانها حوله. وقررت أن تقلل من الإنفاق دون أن تواجهه.

مر شهر وهي ترى القلق يحاصره، وتتظاهر بالجهل. على مدى شهر وهو يخرج من البيت صباحًا ويعود في منتصف الليل، لا سألته عما حدث و لا تدخلت. كانت تسأل ابنها من حين إلى حين.

ولكن الغرق يأتي بأمواج الطوفان، لا شفاء منه ولا نجاة.

وجاء الفيضان هذا العام كريمًا حد القسوة وبجود المحيطات، فأغرق محاصيل القطن، ولم يروها قط. تدفقت المياه لتقتل لا لتحيي. هذا عام غير كل الأعوام. خسر كل التجار، ولكن خسارته هو لم تكن ككل التجار، فقد خسر نصف ما يملك منذ شهر أو يزيد.

عندما عاد ليلًا، ونظرت إلى وجهه، لم تر حسن الذي عشقته شابًّا، ثم رجلًا، ثم زوجًا، بل كهلًا منحني الظهر يفوق عمره المائة. أغمضت عينيها، ثم فتحتهما من جديد لعل صورته الأصلية تعود إلى الذاكرة، لا يمكن أن يتحول إلى المجذوب اليوم. لن تسمح له.

جلس على مخدعهما، وأزاح ملابسه، وعيناه تنظران إلى لا شيء. فتحت فمها لتتكلم فقال في حسم: لا تسأليني اليوم.

قالت بلا إرادة: أنت زوجي. لست المجذوب، لا هزيمة حولك يا حسن.

قال في صوت ثابت: هي ليست حولي، هي نفذت إلى الأعماق.

راقبته في قلق وخوف بعمق المحيطات. تعرف كبرياءه، وتخترق هزيمته روحها. جلست وراءه، وطوقت ظهره بذراعيها وقالت: تعرف كم أحبك؟

لم يجب. فقالت مسرعة: لا هزيمة حولك يا حسن. حتى لو فقدنا الفيلا، لقد عشنا بها أكثر من عشرين عامًا. لم نعد نحتاجها.

أمسك بيديها التي تطوق بطنه ثم قال: لم أستطع أن أحافظ على الأمانة يا جليلة.

- بل لم يحافظ عليها سواك. هي أمانات بيد الله نتمتع بها إلى حين. ونحن معًا، ألا يكفي أننا معًا؟ نشتري غيرها وأفضل منها. لم تتسبب لا في غرق السفينة ولا في الفيضان.

- كنت قد نسيت أن الهزيمة مكتوبة لا محالة.

- لا تقل هذا، كل أيامنا معًا نصر وسعي.

نظرت إلى وجهه وقالت في رعب: وكأني أراك قد تعديت المائة عام. أخاف عليك، وأعرف أن لا حياة لي بدونك. لو تركتني من سيحميني ويحرسني.

استدار إليها ثم قال وهو يغمض عينيه: أريد أن أضمك إليَّ اليوم، لا نتكلم عن شيء. لم يزل هناك وقت للعيش في تبعات الغرق، الكثير من الوقت.

طوقت كتفه والدموع تتساقط من عينيها ثم قالت: أجمل أيام حياتي كانت في بيتنا في المطرية، بجوار السبيل، هل تتذكر؟ نعود إليه..

- لا مفر من العودة إليه، لو كان لم يزل موجودًا، في غمرة النصر نسيت الفقر على ما يبدو.

قالت في حسم: طالما أنا معك لا أحتاج شيئًا آخر.

ثم نظرت إلى وجهه، ورأت زوجها، وليس المجذوب، فهدأت النفس بعض الشيء.

في الصباح جمع أبناءه وزوجته، وأخبرهم أن عليه أن يبيع الفيلا حتى يستمر في التجارة، بل يبيع كل ما يملك حتى يبقي على مصنعه السري في الإسماعيلية، وأن المحنة كانت أكبر من أن يتخطاها هذه المرة دون أن يغير حياتهم. وأخبرهم أنه لم يستطع دفع مستحقات التجار والعمال بعد غرق محصول القطن. استمعوا

في صمت ووجوم. ثم قال أحمد في رفق: لو أبقينا على المحل الرئيسي يا أبي، وتركنا مصنع الإسماعيلية وتصدير..

قاطعه في حسم: هذا لن يحدث، لا الآن ولا بعد موتي. قلت لك من قبل.

***

في شقة المطرية، تكلمت بلا توقف وهي تجهز له الغداء، وتراه يغطي وجهه بيديه، ثم أمسكت بيديه وقالت: ليست أول عقبة في طريقنا.

قال وهو يبتسم ويقبل يدها: ليست أول عقبة.

- ستكون في حال أفضل، عدني أن تكون في حال أفضل حتى أستطيع الاستمرار في ثقة.

قال في يقين: سأكون في حال أفضل، سنحاول من جديد.

قالت وهي تجلس على الأرض: وسآكل معك على الأرض اليوم.

أحاط كتفها، ثم قبل وجنتها وقال: ماذا بك يا جليلة؟

قالت في عدم فهم: أنا بخير؟

عبس وجهه، وهو ينظر إلى وجهها، بدا شاحبًا، وارتفعت حرارتها، فقال وهو يشدها لتقوم: ادخلي الحجرة ونامي، سآتي بالطبيب.

- حسن، ستأتي بالطبيب لأن حرارتي مرتفعة؟ اجلس لتأكل.

أمسكت ببطنها ولم تسيطر على تأوهاتها، فتقيأت في إعياء، فجزع كما لم يجزع من قبل. هرول خارج البيت يبحث عن طبيب، جاء الطبيب وطمأنه أنها

ربما أكلت طعامًا فاسدًا، ولكنها ستكون في حال أفضل غدًا. تحتاج الراحة وبعض الأدوية.

تنفس في ارتياح، وهم بالخروج إلى عمله، ثم عاد، وقرر البقاء معها. طلب من أحمد أن يباشر كل شيء اليوم.

كل ساعة أو أقل كان يقيس حرارتها، ولكنها لم تنخفض. طلب الطبيب من جديد، جاء بطبيب آخر وقال إنها ستكون بخير.

عاد أحمد من مصنع الإسماعيلية، واقترب من والده وقال في عبوس: حدثت حادثة غريبة من أحد العمال، هو عامل جديد كان يصنع الطعام داخل المصنع مع أنك منعت هذا، نشب حريق صغير، وسيطر عليه الباقون. أردت أن أخبرك..

لم يبد أن الأب سمعه، أعاد أحمد القصة عليه، ولكن تركيزه كان على وجه زوجته وعينيها المتعبتين.

مر يومان، وجاءت أختاها لتزوراها، تكلمت معهما، ولم يتركها الإعياء، إما أن تتقيأ أو تنام. لم تشعر بهذا الوهن من قبل، حتى وهي في رشيد. أحبطها، وأزعجها، فأصبحت قليلة الصبر. وتشبثت بزوجها ولم تكن تريده أن يفارقها، فبقي بجانبها... تارة يقنع نفسه أن ما بها هو تسمم ربما أو هو ميكروب عادي لا ضرر منه، وأحيانًا يجزع وييأس ويصيبه رعب لا قبل له به.

أتى بطبيب آخر، وهذه المرة قال الطبيب في وجوم: هذا النوع من البكتيريا ربما يكون معديًا، ابتعدوا عنها.

ولكن حسن أكد له في يأس وعصبية أنها مصابة فقط بنزلة برد أو ما شابه ذلك. قال الطبيب في تأكيد، من أعرفهم ممن عانوا من هذه الأعراض لم تكتب لهم النجاة.

سقطت الروح إلى البئر، واختلطت الأزمنة. طلب من الطبيب الشرح، ثم طرده في فزع، وأتى بآخر، وثالث ورابع، وخامس..

عندما مصمصت الأختان الشفاه، وتساقطت دموعهما، طلب منهما الرحيل قائلًا إنها تحتاج إلى الراحة. وعندما رحلتا أمسك بوجهها، ونظر إلى عينيها، ثم قال: جليلة تسمعينني؟

قالت وهي تنظر إليه: أسمعك.

- أنت بخير. قولي إنك بخير.. تحتاجين أن تأكلي فقط. سآتي إليك بالحلوى الفرنسية الآن. هل أثر فيك ترك الفيلا؟ تريدين العودة إلى الفيلا؟ سأعيد شراءها غدًا. أعدك غدًا سنعود إليها..هو خطئي، كان لا بد أن أبيع مصنع الإسماعيلية، ولا أعرضك للفقر، جليلة..غدًا..

قاطعته في صوت ضعيف: أنا بخير. لا تقلق عليَّ. لا أريد العودة.. أريد البقاء معك..

قال في حسم: سنبقى معًا. سأتركك فقط ساعة لأحاول استعادة الفيلا، ساعة فقط..

قالت في جزع: لا تفعل. ابقَ معي..

ثم قالت في تذمر: إياك أن تتحرك من جانبي.

قال في حسم وهو يضمها: لن يحدث.

رآها تضمر بين ذراعيه، ولا قوة له ولا قدرة، عجز، عجز البشر ولكن انكساره كان انكسار العاشقين. يحاول أن يطعمها فتأبى، يضغط عليها ويطعمها بالقوة، فتلفظ كل الطعام، يغسل جسدها في ماء بارد، فتعود الحمى في حماس الغزاة. توبخه أحيانًا، وترتجف بين ذراعيه أحيانًا أخرى، تلومه أنه يضغط عليها، وتشرح له آلامها. يقول كل يوم: أعطني ساعة وسنعود إلى الفيلا. بل سنعود إليها الآن..سأحملك إلى هناك..

فتقول في لوم: لم أكن أسمعك. ماذا قلت يومها؟

- أي يوم يا جليلة؟

- في الإسكندرية، كنت تتكلم، وأنت تغطي جسدي وتحميه من القنابل.. ولكن صوت القصف صم أذني، أفزعني يا حسن..ماذا كنت تقول؟

قال: كنت أقول إني أحبك..

- في يوم..تتذكر..كنت تضرب الدلو بحائط الإسطبل. لِمَ غضبت مني يا حسن..شعرت بالنار التي تحرقك في روحي..

أغرق وجهها بالقبلات وقال: كنت أحترق شوقًا إليك، أريدك بين ذراعي، أريد أن أعاقبك على عدم الإدراك والمعرفة..

ابتسمت، وطوقت عنقه، وراحت في نوم عميق.

تسلل من جانبها..متجهًا إلى سبيل الغارق.

كان الشيخ الزمزمي قد مات. ذهب حسن ليحتمي بشجرة مريم، ولا يعرف كم من الوقت قد مر عليه. عند ظهور الليل عاد إلى جدار سبيل الغارق،

وأسند رأسه عليه وبكى. أرعبه فراقها ولم يقو عليه وهو شاب، فكيف يقوى عليه اليوم؟ عندما كان يأتي إلى هنا في الماضي كان يتمنى أن تصبح له، ويدعو بضلال الجاهل أن تصبح له للأبد. ولم يدرك أنه لا يوجد «للأبد». كانت رفيقته وسنده إلى حين. يومًا أراد أن يقبل شفتيها مرة واحدة حتى يبقى على رائحتها وطعمها داخل روحه إلى الأبد، وسهل الله له السبيل لأن يقبلها أعوامًا، ويملكها لبعض الوقت. ظن أن السنين كفيلة أن تهدئ شوقه ولهفة نفسه، ولكن اللهفة لم تهدأ، والروح لم تفقد ولعها، بل أصبح وجودها مألوفًا كالبصر والأنفاس. وعندما يمر الوقت سيشتد العذاب، وعندما يفتقدها يومًا ثم شهرًا ثم عامًا، سيستقر الحزن، ويجد مكانًا لا يبرحه قط. كان يعرف، يعرف كيف للبعد أن يبتر، ويعرف أن الغياب يترك النفس فارغة بلا هدف ولا سبيل للنجاة. نزل السلم إلى البئر المظلمة داخل السبيل.

خوفه اليوم كان من تسرب العجز إلى نفسه. وجودها كان يشعره بأمان لا عيش بدونه. روحها الحرة وعيناها الممتلئتان بالحياة دفعت به إلى الأمل في الفوز. ربما النصر ليس له، ربما كل ما يستطيعه هو أن يشير بأصبعه إلى طريق المجازفة للقادم. من يدري؟

ولكن الدائرة لا تكتمل، تدور بين الفناء والخلود بلا توقف ولا راحة. هو الغرق ما يخيفه دومًا. لا يتذكر أنه فرح بما آتاه حتى يهلك، ولا أنه نسي من يكون حتى يحبسه الذل في البئر المظلمة. جفت مياه السبيل منذ زمن، وابتعد النهر، وأصبحت البئر ممتلئة بالطمي المتحجر العفن والرائحة التي تنتقي الأموات كمدًا، ولا تنصف من فاز. لِمَ نزل السلم إلى البئر؟ كان يتحاشى الهاوية قدر الإمكان. اليوم يريد أن يمكث في البئر.

ماذا كتب تاجر البندقية في رسـالته؟ كلمات سـمعها من المجذوب في آخر لقاء لهما

«وطأة الهزيمة على قدر الكبرياء

ولهيب الذل على قدر الكرامة

وهوان الروح على قدر العشق

ومن اعتاد العزة تأوه عند العوز

هي أيام معدودات»

وهوان الروح على قدر العشق..

لو استلقى على الطمي العفن بقية عمره يتحاشى لحظة الفراق. ولو روض الموت وحاربه؟ ألم تنجح كل خططه في الماضي، كانت له وهي في بطن الحوت، ثم له وهي في قارورة في أعماق البحر، ثم له وهي في حنايا الروح، «ست الحسن والجمال». ولِمَ لا يتغلب على المـوت؟ ولِمَ تتحكم فيه اليمامة الحقـودة. هي من عمل الشـيطان هذه اليمامة، فلا كائن يمكن أن يحمل كل هذا الغل حتى البشر، مع أن الغل في قلوبهم ممتد كالخلود. انتفض من مكانه، وهرول إلى بيته.

كانت نصف جالسـة على مخدعها، ونصف حية ونصف واعية. حملها على ذراعيـه وهو يتكلم بلا توقف، وغسـل جسـدها في الميـاه المتجمدة، تذمرت في ضعف وقالت: دائمًا تفعل ما تريد.. لو تركتني أنام..

قـال في حسـم وخفقـات قلبه تـدوي في أذنيـه: لا نوم الآن. كيـف تنامين الآن؟ أي ظلم أن تنامي وأنا معك؟ ألم أقل لك من قبل إني أريدك معي..

وضعت يدها على بطنها، وتقيأت في ضعف ثم همست: أتألم يا حسن..

مسح فمها، وقبل وجنتها، وقال في حدة: أنت لا تتألمين نصف ألمي ولا ربعه. إياك.. إياك أن تتركيني.

ارتجفت وقالت في ترجٍّ: خذني بين ذراعيك..

قال وهو يلمس ذراعيها ليتأكد من أن الحمى زالت: ستنامين بين ذراعي عمرًا.

قالت في تذمر: الآن.. أشعر بالصقيع..نفس الصقيع.. في.. الإسكندرية.. غطني كما فعلت من قبل..

قال في حسم: تأكلين أولًا.

ضغطت على جفنيها ولم تنطق. بدا أنها فقدت الوعي. هزها في قوة، لم تتحرك، ثم حملها إلى المخدع وهو يستمع إلى أنفاسها. لم تزل حية. زالت الحمى، أو قلت. جلس على المقعد أمام مخدعها طوال الليل، والأمل يغمره تارة، ثم يتذكر اللعنة فيتمنى أن يصبح نسيًا منسيًّا، يتمنى أن يُمحى اسمه من على وجه الأرض والفضاء، وتدفن ذاكرته مع رسائل تاجر البندقية. ليت الدائرة تكتمل، ولكنها أبدًا لا تفعل.

دخل عليه أولاده الحجرة في الصباح، وأطال أحمد نظره إليه، وأرعبه خطوط العمر حول عيني والده وهي تتكاثر وتزداد يومًا بعد يوم مع أنه لم يتعد الخمسين. تكاد عيناه الكبيرتان أن تتلاشيا وسط الهم وغلائل النفس البائسة. قال في رفق: أبي..

فقال حسن وعيناه لا تترك مخدعها: هي في حال أفضل.

جلس الأبناء أمام مخدعها في حماس ثم قال أحمد: هل أخبر الطبيب؟

قال حسن في حسم: أي طبيب؟ من أضلنا أم من خاف من الكلام؟

قال أحمد في ارتباك: أبي..

- تأتي بطبيب جديد.

- جئنا بعشرة حتى الآن.

قال في عدم صبر: لا تتناقش معي. تفعل ما أقوله الآن.

اتجهت عيناه إلى أمه التي فتحت عينيها في بطء وتأوهت وهي تحاول الجلوس، أسندها حسن بذراعه، وأمسك بيدها.

قال أحمد في حماس ممتزج بيأس: أمي أريد أن أخبرك بشيء مهم. هناك خبر في الجريدة اليوم سيشفيك بالتأكيد.

آلام رأسها كانت فوق احتمالها. ولكنها كانت تحاول أن تستمع إلى صوت حسن وصوت أبنائها، تحاول أن تبقي على صورتهم معها، فربما ترحل وخوفها الآن هو أن تنساهم حين تنشغل بالأهم. نطقت اسمه هو أولًا فقال وهو يقبل جبهتها في قوة: أنا معك. دائمًا. ستكونين بخير.

بدأ أحمد في قراءة الخبر والدموع تنهمر من عينيه، ولم يبد أنها سمعته، فاقترب منها حسن، وقال في أذنيها: أول سيدة تحصل على البكالوريا من نفس مدرستك اليوم. ومن يدري ربما قريبًا ينتهون من الجامعة المصرية، وتدخلها المرأة كما حلمتِ.. كنت تنتظرين هذا اليوم. تتذكرين؟ كنت تريدين أن تعيشي لتقابلي أول من تحصل على البكالوريا. حدث. كل ما تحلمين به سيتحقق.

قالت في صوت ضعيف: والدِّين؟

فقال حسن في تأكيد: سيتلاشى مع تجلي الطريق..

رددت آيات قرآنية. اقترب منها أولادها يسترقون السمع، ولم يسمعوا، ولكن حسن سمعها: «والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس..والصبح إذا تنفس».

جلس ابنها الأصغر وبدأ يقرأ آيات من القرآن بصوت مسموع.

وذهب الابن الأوسط ليأتي بطبيب آخر. جلس حسن على المخدع في حذر من الاقتراب أو لمس جبهتها بيده، لم يدرك حجم جبنه سوى الآن. لو عادت إليها الحمى لن يتحمل. جزع، ويأس، وغضب، وحنق، وتوغلت المرارة واستقرت.

قال لابنه الثالث: هل عادت الحمى؟

تحاشى النظر إلى وجهها. لمس الابن جبهتها، وهي مغمضة العينين ثم قال: نقيسها أفضل يا أبي.

قال في عدم صبر: عادت أم لا؟

تمتمت: حسن..

- أنا معك.

قالت في رجاء: الصقيع يمتد إلى الروح..لِمَ لا تضمني إليك؟..قلت لك..

- أخاف أن تزيد الحمى..ننتظر..

قاطعته في صوت ضعيف: لا تفعل ما أريد أبدًا، دائمًا تخطط وحدك، وتقرر وحدك..و..

انتفض من مكانه وضمها في قوة فجأة، وكادت حرارتها تذيب ما تبقى من ثباته. قال في صوت لاهث: إياك أن تفعلي هذا بي! قلت لي إن الانتصار ممكن، وإن اللعنة لن تتغلب عليَّ، تتذكرين؟

قالت وكأنها لا تسمعه وهي تحكم التصاقها بصدره: نعم هذا أفضل كثيرًا.

دخل الطبيب في وجوم، وهمس في أذن أحمد ثم خرج معه من الحجرة، وتبعه بقية الأبناء.

نادى ابنه وقال: ماذا قال لك؟ كذب؟

صمت الابن فصاح الأب في قوة: اخرج من الحجرة، وأغلق الباب.

قال أحمد في صوت خفيض، أبي، أريد الكلام معك عن مصنع الإسماعيلية، تتذكر العامل الذي حكيت لك عنه؟ يبدو أنه خائن، وأن الحريق كان عن عمد ليلفت الأنظار إلى المصنع.. لا بد أن تسمعني..

ردد حسن: اخرج وأغلق الباب.

فقال أحمد في يأس: الشرطة ستقبض عليك في أي لحظة الآن، هجموا على المصنع أمس، حاولت أن أشرح لك.. هذا أيضًا يهمك، هو حلمك أعرف، لا مفر من الهرب.

لم يجب الأب ولم يسمع. خرج أحمد في حيرة من مستقبل لا يدري كيف سيواجهه.

انتفضت وتأوهت والإسكندرية تسيطر على الذاكرة. كان حائطًا صلبًا ذلك الذي أسندت رأسها عليه، لولاه لما استمرت في السير، ثم ظهرت ذراع الأب المحترقة، هل ظهرت قبل أم بعد القصف؟ تبدو الآن ذراع في الفضاء

بين النجوم، وحيدة، تائهة، يلمع الخاتم وكأن النار لم تمسسه. قالت في رجاء: حسن..هل رأيت ذراع أبي؟

قال في حسم: لن نتذكر الأموات الآن.

- هو مات؟ قلت لي إننا لا نعرف.

ثم قالت في لوم: وعدتني تتذكر؟ وعدتني أن تبقى معي..؟

يتذكر، في سبيل الغارق دوت الكلمات في أذنيه، ورجت روحه.

انتفضت من جديد، فازدادت قبضته عليها، ومسح على شعرها، همست: أين السبيل يا حسن؟

- كنت تعرفينه دومًا.

راحت في نوم عميق. فوضع يده على رأسها يقربها من قلبه أكثر وأكثر، ومر بيده على شعرها كما فعل منذ سنوات في رحلة في قطار من الإسكندرية إلى القاهرة. هدأت واستقرت

همس بعد حين : جليلة..أتتذكرين عندما استقللنا القطار معًا من الإسكندرية إلى القاهرة؟

فتحت عينيها في بطء، ونظرت إليه وقالت: أتذكر.

قال وهو لم يزل يمسح على رأسها: عانقتك يومها، أخذتك بين ذراعي لوقت طويل، وقبلت وجنتك..كنت تهذين حينها.

ضغطت على عينيها وقالت: ربما..ولكنني أعرف..

- ماذا تعرفين؟

- أعرف أنك عانقتني، قبلتني.. أتذكر.

فتح عينيه في ذهول، ولم يتأكد هل تفهم ما يقول، أم تهذي من جديد. أحاط رأسها، وقبلها قبلة طويلة. أراد التكلم معها كثيرًا، وسماع صوتها حوله، قال: عندما رحلت بعيدًا شهرين..تتذكرين..تكلمي معي..لم أقو على البعد عنك. عدت خادمًا لأكون بجانبك، وعندما عرفت أنهم سيزوجونك..تمنيت المعجزة حتى ولو بموتي. ربما لم أخبرك..تعرفين..هل تعرفين؟ كانت أكبر أمنياتي أن أرافقك كل صباح فقط لا أكثر، كان حلمي ألا يمر اليوم دون أن أراك..تسمعينني؟

لمعت عيناها بسحابة بيضاء، وكأنها لا تراه، ثم همست وهي تغوص بوجهها داخل كتفه: كنت أريد أن أراك كل صباح لا أكثر، أرافقك..كل يوم..

قال في حيرة: أتكلم عن نفسي يا جليلة، كنت أريد..

قاطعته وهي تتنفس داخل قلبه: بل تتكلم عني.

راحت في نوم عميق، قال في عدم صبر، وهو يدرك عجزه وجهله لأول مرة: جليلة..

لم تجب.

تذكر كلمات سمعها منذ أكثر من عشرين عامًا عن جليلة، عندما ذهب إلى سبيل الغارق غاضبًا يائسًا ظنًّا منه أنها لا تعرف مدى تعلقه، ولم تشاركه يومًا ولعه ولهفته. قال له الشيخ الزمزمي لحظتها: لو كنت لا تعرف أزقة نفسك فكيف تعرف كل حنايا وعطوف نفسها؟ ألم أقل لك إنَّ الطريق إلى النفس هو أشد الطرق خطورة. حتى هي ربما لا تدرك.

هل يمكن أن تكون جليلة قد مرت بنفس ما مر به، من عشق بلا أمل، وشوق بلا نجاة أعوامًا؟ هل يمكن أن يكون قد عجز عن الغوص في هذا النهر داخل روحها؟ كيف لم يعرف؟ أيقن حبها، ولم يعرف متى بدأ. ربما لم تدرك هي أيضًا، عند قرب الوصول إلى سبل اليقين، يتنفس الصبح دومًا، ويرافقه الإدراك. روحه صاحبت روحها، في وقت اليأس ووقت اللهفة ولم يدركا.

تنفس في عمق، ثم أحاط وجهها وهي نائمة، وقربه من وجهه، فامتزجت الأنفاس كما أراد، وكما اعتاد، كان لأنفاسها دومًا رائحة حياته.

مكث بين ذراعيها اليوم، واليوم غير كل يوم، أدرك أهمية نبض جسدها داخله، وتشبثت روحها بروحه. عند الفجر توقفت الأنفاس.

التف الأبناء حول مخدعها، وجاءت أختاها تبكيان

أبقاها على صدره، ساعتين أو أكثر حتى قال الابن في رفق: أبي..

صوتها لم يزل طازجًا في أذنيه، منذ أعوام في سبيل الغارق..قالت: وعدتني تتذكر؟ وعدتني أن تبقى معي..

وهمس لنفسه وليس لابنه وهو لم يزل يضمها: «عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه..».

وأقسم أحمد يومها أنه رأى خطوط العمر التي تتكاثر حول عيني والده قد بلغت الألف خط أو يزيد، وكأن الأب بعث من زمن غير الزمن أو مكث في الكهف آلاف السنين.

* * *

تألقت الهزيمة، وغمر ضوؤها كل القصور والأنهار. أغلقت الحكومة مصنعه، ولم تثبت عليه تهمة التهريب ولا الخداع ولكن شيدت الحواجز، وابتعد طريق البحر عن مرمى بصره.

«ولكن الهزيمة مكتوبة عليك»..يصادف الكلمات في كل ركن ودرب، في كل طائف ومسعى.

حارب، وقاوم، ثم تعذب وأعيته الدنيا.

يلاحظه أبناؤه...

يختفي والدهم كثيرًا. يذهب إلى خلوة في الصحراء ربما. لا أحد يعرف. منذ موت والدتهم من أعوام وهو يختفي، وعندما يأتي يكون هائمًا في عالم آخر. ترك أمور التجارة لأحمد بينما عمل الثلاثة الآخرون بالمحاماة كما أرادت والدتهم. بعد موت جليلة بعدة أيام جاء الخبر اليقين، وأغلقت قضية الدَّين لصالح جليلة. لم يتسن له أن يخبرها سوى وهو يحدثها ليلًا كما يفعل كل يوم في أحلامه. أو عندما يذهب إلى سبيل الغارق ويختلي هناك، ويحدثها عن شجرة مريم، وعن المعجزة التي أنقذت مريم يومًا، وعن كلمات الله لمريم بألا تحزن.

قال له ابنه في رفق: أبي لم تعد معنا. مرت الأعوام..

نظر إلى ابنه وقال: أعطيتك المسئولية، وأعرف أنك أهلٌ لها.

- ولِمَ تترك الدنيا لو لم تزل تتنفس وتستطيع أن ترتوي؟!

- من قال إني تركتها؟ أريد أن أدرك ما هو أهم، ألهتني الدنيا، وسيطرت على تلابيب القلب، وعندما تسيطر المرارة على النفس يا أحمد لا بد أن تطهر روحك حتى لا تفنى.

- أو ربما تحاول النسيان يا أبي.

- النسيان نقمة، وليس نعمة، صدقني أنا أعرفه، أسعى للقضاء على غضب نفسي ولومها للقدر، ولم أفلح بعد..

- من أي قدر تغضب؟ من الموت أم الخسارة؟

- تقبلت الخسارة ولم أتقبل الفقد. ويظن الإنسان أن مصيره بيده، وأنه لو امتلك الزِّمام سيسير بفرسه إلى نصر فقط، ولن يغوص في هزائم. أحاول أن أتأقلم مع الموت، وأقتنع بحقيقته.

- وما هي حقيقته؟

- الموت ليس غدرًا ولا مفاجأة، ربما نحن من نسير فيها وكأننا مخلدون، هو النسيان الذي يفاجئنا وليس الموت، الضلال يتبع البشر دومًا، أما الموت فملتزم بموعده، لا يفاجئنا، نحن من لا نستعد لاستقباله.

- وكيف تحارب الغضب يا أبي؟ لو كنت تركت الدنيا فلا بد أن الغضب تمكن منك.

- بل تركت الدنيا حتى لا تتمكن هي مني، أذكر نفسي بأني لا أستحق شيئًا، وأن النعم بيده يداولها بين البشر إلى حين. وأن اليقين لا يأتي سوى بالمجاهدة والعذاب.

ساد الصمت برهة ثم قال أحمد: لا أفهم كلماتك يا أبي..ولكني أعرف أن مصنع الإسماعيلية كان الفوز بالنسبة لك. هو طريق وبحر لا أكثر، فلا تحزن كل هذا الحزن.

- بل هو طريقي وبحري، تذكر هذا دومًا، الدنيا طريق وبحر، والنفس طريق وبحر، والفوز طريق وبحر. اتركني أجاهد كبريائي لعلي أفوز، فطريق الوصول لا يمكن شرحه يا بني، قالها الغزالي في رحلته إلى اليقين، حار واحتار مثلي ربما، ولكنه قال إن ما تمر به لا يمكن شرحه. ضل وأنقذه جهاد النفس، والعلم الذي يتبعه رضا. لم أصل بعد.. أحاول...

- تغضب لفراقها؟

- يسأل الإنسان عن السبب والغاية، أليس من اليقين أن تسلم بالموت بلا سؤال، فهو اليقين نفسه؟

- وهل سلمت للموت بلا سؤال؟

- أسعى..

* * *

عند سبيل الغارق جلس حسن ليلًا يتابع القمر، وينتظر قدوم الشيخ الذي هو في الأصل اليمامة، كما يفعل كل يوم منذ زمن.

غاص داخل سبل النفس، ولم تعد الذاكرة تتبع السنين وتعددها، بل تدور حول الروح فتضيء الأركان، وترشد التائه إلى اليقين. رحلت، ولكن الذاكرة استقرت وسكنت، فلم يزل يختلج قلبه بأنفاسها وطعم قبلاتها وحزنها ويأسها، ومرور البرق السريع عبر عينيها لحظات الرضا، لم يزل يتذكر عندما اشتعل الشوق بينهما وعانقته بقوة الغارق في أول مرة تصبح له، ارتجافة جسدها لم تزل تسكن الأعماق، وصوتها يملأ الحواس. جليلة، الدنيا التي لا بد أن تنساب كالمياه من بين أصابعنا. ولكن لمذاق الانتصار بعض الرضا. كانت له هو فقط،

لو غاص في الماضي يرضى ويستقر، ولو تذكر الحاضر بدونها ربما ييأس ويهلع. رضا الدنيا قصير لمن لا ينظر للعمر كدائرة مستديرة، من يتبع الأعوام ويعددها يشقى، ومن يمزج الحزن بلحظات الوصول يفز. كان راضيًا..كان راضيًا؛ لأنه لا يريد أن ينتهي كالمجذوب ولا كالشاطر حسن. كان راضيًا لأن الإنسي لا يستطيع أن يحكم سيطرته على الطريق طوال الوقت، لو ضاع طريق البحر منه فقد تسلل إليه ببضاعته وصناعته، حتى ولو وجد مدخله إليه كاللصوص، حتى ولو تحايل وكذب، فقد عبره وهذا يريح كبرياءه. والدنيا كانت بين يديه، حتى لو هربت من بين كفيه بعد حين، فلم يزل يتذكر عندما استسلمت إليه، وامتلكها بلا منازع عامًا بعد عام. أعطته الدنيا، وأغدقت في عطائها إلى حين، ولكنه يحاول أن يطوع الذاكرة، لتخرج كرم الدنيا ولا تخرج غدرها، ماتت بين ليلة وضحاها، بلا وقت للتدبر ولا الشرح للروح. الغدر يأتي من هول المفاجأة دومًا، والمفاجأة تتحايل على الساعات، وتسطو عليها فيتغير العمر في غمرة يوم أو بعض يوم، ويستقر الفقد مع سرعة التنفس. ولكن حسن لن يسمح للغدر بالسيطرة على الذاكرة، كانت الدنيا بين ذراعيه ولم تبرحه سوى باليقين الذي لا يقين يضاهيه، الموت، ولا قدرة لإنسي على السيطرة على اليقين. عرف طريق الرضا حتى ولو شَيَّد الحزن بعض السدود، وحاول الوصول في سبل النجاة الأبدية على قدر استطاعته. كل يوم يقضي ساعات يعبر فيها سبل النجاة، ويتمنى ألا يغرق مثلهم. كل يوم يجاهد شيطان نفسه الذي يخرج مرارة العجز وعدم اكتمال الفوز، كل يوم ينتظر قدوم اليمامة، ولا يدري كيف سيواجهها.

مر بعد أعوام شيخ يبغي الطريق، يسير في بطء ويتكئ على عصا بيضاء مرصعة بنبات البلسم، جلس يستريح تحت شجرة مريم، قال بصوت ضعيف: يا بني..الطريق شديد الجفاف، والصحراء لا تنتهي، النهر هنا أم هناك يا ترى؟

هل تتذكر؟ أتعبني السير، وجف حلقي، وتمنيت النهاية. أنت مثلي وحيدٌ، في رحلتك.

قال حسن وقد عرفه ووجد فيه غايته، عادت اليمامة إذن: لا تسأل إنسيًّا عن الطريق. فلا حيلة له في الوصول، ولا بصيرة للبشر للمعرفة. هي محاولات متواضعة للفهم لا أكثر. كلنا نجتاز الطريق وسط وحدتنا حتى لو التف حولنا كل البشر.

قال الشيخ في صوت متقطع: لو وصلت لنهاية الطريق لانتصرت. ربما لو ساعدتني.. تنتصر أنت أيضًا. تبدو مهزومًا.

قال حسن : كتبت عليَّ الهزيمة أعرف. ولكني أتذكر. عند فراقها عادت كل الذاكرة واستقرت.

- فزت بها.

قال حسن: فزت بها إلى حين، وتمنيت أن نبقى دهرًا معًا.

- هي دنيا ليست أبدية، ومع ذلك كل من يولد ينسى ويظن أنه مخلد أو يسعى إلى الخلود. أنت انتصرت يا بني.. انتصارات صغيرة ولكنها متتالية. ولكنك ولدت في زمن الهزيمة.

- ربما تكذب عليَّ.

- ربما..

ساد الصمت وخفضت الأنفاس، ثم قال الشيخ الذي هو في الأصل اليمامة: جمعت المال وخسرته، فزت بها، ولفظت أنفاسها بين يديك وأنت لا

حيلة لك ولا قدرة، خسرتها يا حسن، أما طريق البحر، فأصبح لغيرك اليوم، كما انتزعه غيرك من بين أضلعك منذ أربعمائة عام. عدت يا حسن كما بدأت بلا حيلة ولا قوة.

قال في ثبات: جمعت المال وكان متاع الدنيا إلى حين، وفزت بها طوال العمر الفاني، وعندما توقفت أنفاسها أيها الشيخ الحكيم كان نبض روحها بحبي لا يتوقف، وطريق البحر مررت فيه سنين حتى ولو كنت متخفيًا، اخترقته فلم يعد حكرًا على الغائر والطامع وسيعود يومًا لي حتى لو قضيت عمري بين أركان السجون، فقد خدعتهم سنين طوالًا، فمن عاش ملكًا لا يرضى بالهوان، ومن وصل لا يمكن أن يعود إلى التيه، حتى لو ضللته الأيام بعض الوقت. اليقين يدخل النفوس الثابتة بعد السعي.

قال الشيخ في دهشة: تبدو أكثر ثباتًا مع كل هزائمك، وكأن عمرك لا يستوي سوى بالانكسار.

- يا شيخًا، قسوتك لا تضاهيها قسوة ولكني لا أثق في حكمي عليك.. ففي الانكسار الكثير من الحكمة وفي العذاب الكثير من المعرفة. ترى أكنت تريد أن تكشف عني ما حجبه البصر أم أن تطمس بصيرتي؟

ابتسم الشيخ الحكيم ابتسامة مختلفة.

قال حسن بعد برهة: أنت عدو أم صديق؟ تريد معاقبتي أم إيقاظي من غفلة؟ ولو كنت تريد إيقاظي فلِمَ تمحو ذاكرتي؟

- هي دنيا يا بني خلقت فيها لتبتلى، وحين الابتلاء لا بد أن تحاول وحدك، أن تجتاز الجسر إلى سبيل النجاة.

قال حسن في يقين: ولكن يبعث الله لنا أناسًا في الطريق ليضيئوا المسلك، ويرشدوا الضال. وجدتهم وأعرف أنهم دومًا من لا نتوقعهم، ليسوا شيوخًا ولا أولياء، ولا ملوكًا، ولا سلاطين، بل هم عباد مجهولون..لكل أجل كتاب، ولكل روح هدف ودور، ولكل طريق صبح وليل. قابلت منهم الكثير في السبيل ولم أغرق. لم أختر الطريق القصير، بل صنعت طريقًا غير مألوف، وفزت بها، كانت الدنيا وما فيها. رحلت نعم، ولكنها باقية معي. تذكرني بفوزي. لا هزيمة أبدية. أقنعتني أنت أنها أبدية، وهي ليست كذلك.

- انتصارك غير مكتمل.

- وهل هناك انتصار مكتملٌ في دنيا غير مكتملة؟ هي انتصارات قصيرة في عمر ينتهي دائمًا على حين غفلة.

- ستموت، وتحيا، وتحاول عمرًا وعمرين..

- لا تفقدني الذاكرة من جديد..

- لو تذكرت تصبح الهزيمة أقوى وأعنف. ولكني لا أفقدك الذاكرة يا حسن، أنت من أردت في الماضي النسيان وليس أنا. الإبقاء على الذاكرة يحتاج السعي. والإنسان يكره السعي، ويخشى الذاكرة. يريد الطرق الآمنة والمألوفة دومًا؛ فالمجهول يزعجه، ويخرج هلعه، والذاكرة كلها مفاجآت .

- في التاريخ بصيرة..أعرف هذا وأدرك.

- تريد أن تعرف.. أين الطريق؟

- أريد أن أعرف هل أنت صديق أم عدو؟

- هل سعيت سعيك بيقين يا حسن؟

- لم يدخل اليأس قلبي حتى لو سيطر الحزن واستقر.

- وغضبك؟ وكبرياؤك؟ انتصرت عليهما يا شاطر حسن؟

- أسعى..

ابتسم الشيخ، وأكمل حديثه وهو يتلاشى في الأفق، ويلتحم بالقمر المنكسر اليوم

«في زمن الحزن لا بد من المعجزات

وعند نهاية الطريق لا بد من المجازفة

ولو طفت الهزيمة على سطح الماء

فالغوص في الأعماق نجاة

النصر ليس مكتوبًا

والخيبة ليست أبدية

والسعي دومًا يشي باليقين».

* * *

من ذاكرة التاريخ

ماتـت جليلـة أحمد بك ثابت وهـي لم تتعد الخامسـة والأربعين من عمرها بمـرض التيفـود، وفي نفـس العـام 1906 حصلـت نبويـة موسـى عـلى شـهادة البكالوريـا بعد أن حصلت قبلها على شـهادة المبتديـان/ الابتدائية، وأصبحت أول مصرية تحصل عليها، وافتُتحت الجامعة المصرية بجهود مصرية عام 1908. تخرجت نبوية موسـى في مدرسـة السـنية، السيوفية سـابقًا، وهي نفس المدرسة التي تعلمت ثم درست فيها جليلة أحمد علي ثابت قبلها بسنوات كثيرة.

مـع بدايـة القرن العشريـن انتشر تعليم البنـات، وازداد الوعي والتسـاؤل حـول الهوية المصرية وعلاقتهـا بالتاريخ المصري وخاصـة الفرعوني. حتى عام 1914 كان يطلـق على المصريين «رعية عثمانية» وبعد الحرب العالمية الأولى أصبح للمصري جنسية منفصلة.

تاجر البندقية فرانشيسكو تيلدي جاء برسالة إلى السلطان الغوري في أوائل القـرن السـادس عشر لينقذ تجارة مـصر والبندقية من البرتغاليين؛ فقد كسـدت

التجارة في البندقية بعد الطريق الجديد الذي اكتشفه البرتغاليون وبعد هجوم قراصنة البرتغاليين على البحر الأحمر (بحر القلزم) والبحر المتوسط. تعددت رسائل سفراء البندقية إلى السلطان الغوري تطالب بحفر قناة تربط بين البحر الأحمر ونهر النيل، وتختصر الطريق على السفن، وتقضي على طريق البرتغاليين الجديد. رسائل تاجر البندقية وما تركه التجار والسفراء الإيطاليون من كتابات عن مصر في العصر المملوكي لم تزل مصدر دراسات وأبحاث.

لويليام شكسبير مسرحية شهيرة في أواخر القرن السادس عشر باسم «تاجر البندقية» وتحكي عن تاجر حزين كسدت تجارته. لم يتأكد أحد بعد هل سافر شكسبير إلى إيطاليا واستمع إلى حكايات التجار أم لا، ولم يوضح شكسبير مع من كان يتاجر التاجر الحزين، ولِمَ كسدت تجارته؟ ولكن من يقرأ عن الفترة يجد الإجابة واضحة.

مكانة البندقية في أوروبا تقلصت واضمحلت بعد سقوط دولة المماليك المصرية وبعد سنين فقدت البندقية استقلالها.

معركة ديو البحرية عام 1509 تعتبر من أهم المعارك البحرية على الإطلاق، لتأثيرها على تغيير مجرى التاريخ في العالم. ودارت بين المماليك المصرية بالتحالف مع جمهورية البندقية حينها وملوك الهند وبعض الجنود العثمانية وقادها الأمير المملوكي حسين الكردي. كانت المعركة آخر محاولة من المماليك للدفاع عن سيطرتهم وسيطرة مصر على الطريق من آسيا إلى أوروبا التي دامت على مدى قرنين ونصف أو يزيد، وسيطرتهم على كل الموانئ العربية وباب المندب خصيصًا. وبانهزام المماليك بدأت السيطرة الغربية على البحر والطريق، وبعد

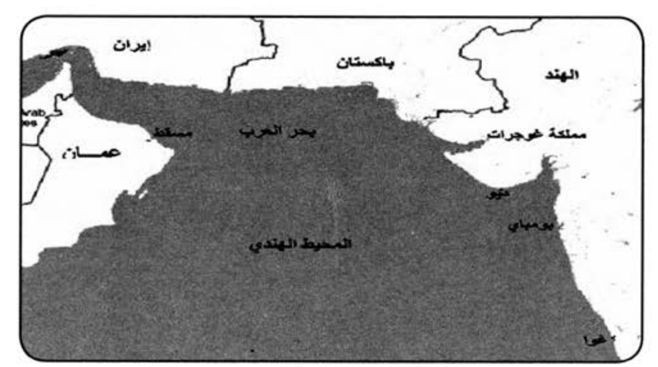
خسـوف قمر البرتغاليين ظهر الهولنديون ثم سـيطرت بريطانيا على طريق رأس الرجاء الصالح أعوامًا حتى افتتاح قناة السويس عام 1869.

اختصرت قناة السـويس الطريق البحري بين آسيا وأوروبا آلاف الأميال، وغيرت قناة السويس مسار العالم مرة أخرى.

بينما تلاشى سبيل الغارق، وتوارت قصته عن الأذهان، لم تزل شجرة مريم موجودة بالمطرية. كانت يومًا جهة حجاج مسـيحيي أوروبا، وأصبحت تذكرنا بعجز الأم الهاربة بابنها الصغير وانتصارها المنتظر..وبعد هزيمة يوليو 67 ظهرت السـيدة مريم العذراء، عدة مرات عند كنيسـة الزيتون، وتقـول المؤرخة عفاف لطفي السيد مارسو، إن ظهور مريم كان معجزة، ظهرت لتطمئن المصريين بعد الهزيمـة، وكثـيرًا ما بكوا حينها، واشـتكوا لها همًّا ثقيلًا. ظهرت مريم في شـارع طومان باي، ولم يعرف من رأوها الكثير عن طومان باي، لم يتذكروا.

لم يـزل الصراع على البحر مسـتمرًّا.. أما الصراع عـلى الطريق..فيبدأ دومًا بمسالك النفس الوعرة وينتهي دومًا بسبيل الغرق أو سبيل النجاة..

تمت بحمد الله



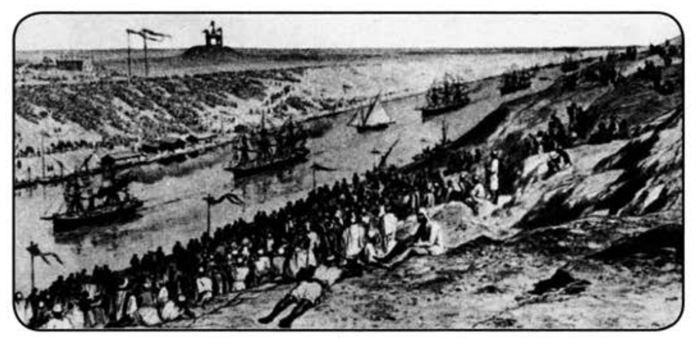
خريطة معركة «ديو» البحرية 1509



سفراء البندقية في زيارة لمصر للقاء المماليك

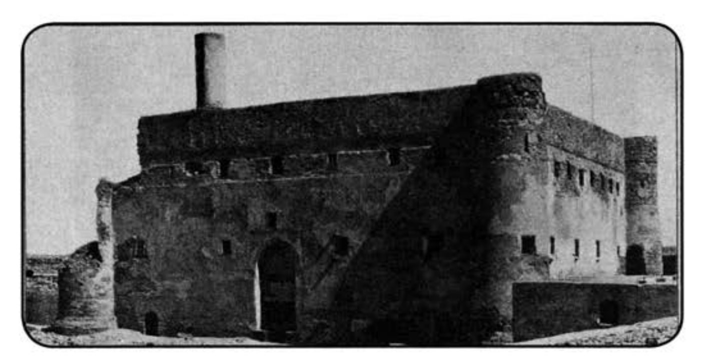


حفر قناة السويس

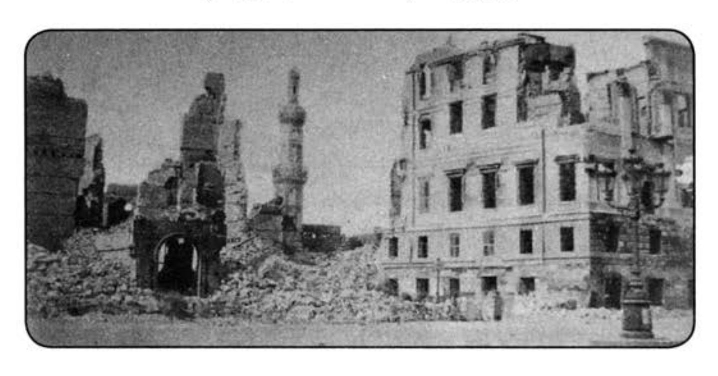


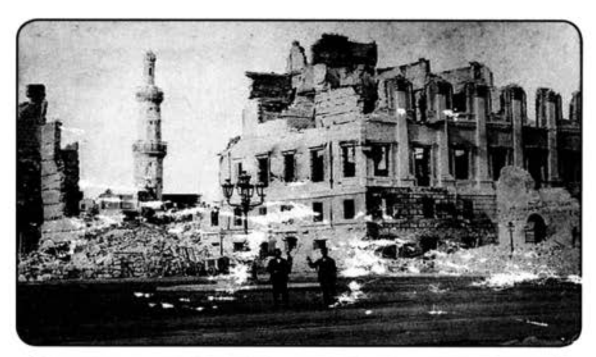
حفر قناة السويس

صور الإسكندرية بعد تدميرها على يد الإنجليز 1882

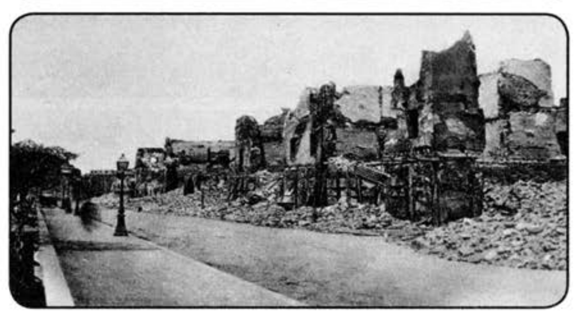


قلعة قايتباي وقد تعرضت لقصف الإنجليز عام 1882









للتواصل مع المؤلفة :

البريد الإلكترونى : reembassiouney@hotmail.com

الصفحة الرسمية : https://www.facebook.com/reem.bassiouney

- اليوم انتهى عالمُك القديمُ... وكل السبل طُمِست... وكل المسالك مُحيت... زالت كل أيامك... ولم يتبقَ لك سوى الغرق...

- لِمَ ضربت مدافع بريطانيا قلعة السلطان المملوكي قايتباي في الإسكندرية؟
- لأنهم يتذكرون وأنت تنْسَى. ما أحزنكَ! تقابلنا من قبل يا حسن. ولكن مُحيت ذاكرتك... ستعود... وعندما تعود سيمتد وجعُك إلى ما بعد كل البحور. أنت حسن والمجذوب. أتعرف هذا؟ هما الشخص نفسه. ولكن حقيقتك لم تظهر لك. وهذا أفضل. عرفتُك من خطابات تاجر البندقية التي أحملها.

- أطال حسن نظره إلى القلعة، ثم قال: من بَنَى هذه القلعة؟

- بناها رجل كان يملك حينها كل الطرق حتى اكتشف غيرُه طريقًا جديدًا فأصبح طريقه بائسًا. كيف لا تتذكر؟ التف البرتغاليون حول إفريقيا ليتجنبوا طريق مصر... ثم جاء رجل فرنسي يفكر في طريق جديد أقصر وأسرع، يجعل كل الطرق دونه بلا قيمة... أتعرف أين وجد هذا الطريق؟ في مصر... اعترض الإنجليز على الطريق وقالوا إنه لن يُفلح... ولكنه أفلح... واختصر الطريق إلى الهند آلاف الأميال... ماذا يفعل الإنجليز؟ طريق البحر سريع، ولكنه على أرض غير أرضهم، بناه غيرُهم. الطريق هو الغاية... دومًا.
- ردَّد: الطريق هو الغاية، ليس الديون ولا الحماية... ولا... .




المؤلفة في سطور:

- أستاذة لغويات في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، لها كتب علمية عديدة صدرت عن أشهر دور النشر الأوروبية والأمريكية.
- صدر لها روايات: «بائع الفستق»، «دكتورة هناء»، «الحب على الطريقة العربية»، «أشياء رائعة»، «مرشد سياحي» و«أولاد الناس ثلاثية اللمماليك».
- حصلت على:

جائزة أفضل عمل مترجم في أمريكا عام 2009 عن رواية «بائع الفستق».

جائزة ساويرس للأدب عام 2010 عن رواية «دكتورة هناء».

جائزة نجيب محفوظ لافضل رواية في 2020 عن رواية «أولاد الناس ثلاثية المماليك»

- ترجمت أعمالها إلى الإنجليزية والإسبانية والإيطالية واليونانية.

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف



نهضة مصر للنشر


ISBN-13: 978-977-14-5888-3
9 789771 458883